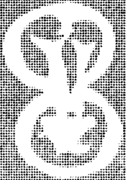
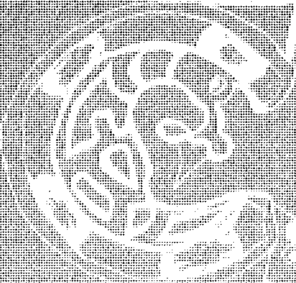
نورمان ف. كانتور

التاريخ الوسيط

قصة حضارة البداية والنهاية

الجزء الاول

ترجمة وتعليق د.قاسم عبده قاسم


نورمان ف. كانتور

التاريخ الوسيط

قصة حضارة: البداية والنهاية

القسم الأول

ترجمة وتعليق

دكتور قاسم عبده قاسم

أستاذ تاريخ العصور الوسطى

كلية الآداب - جامعة الزقازيق

الطبعة الخامسة

١٩٩٧



عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية

EIN FOR HUMAN AND SOCIAL STUDIES

هذه ترجمة كاملة لكتاب

Norman F. Cantor

Medieval History

The Life And Death Of A Civilization

Mcmillan, N. Y. 1972

المستشارون

د . أحمد إبراهيم الهوارى

د . شوقى عبد القوى حبيب

د . على السيد على

د . قاسم عبده قاسم

مدير النشر: محمد عبد الرحمن عفيفى

تصميم الغلاف منى العيسوى

الناشر : عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية

٦ شارع يوسف فهمى - اسباتس - الهرم - ج.م.ع - تليفون ٣٨٥١٢٧٦٠

Publisher:EIN FOR HUMAN AND SOCIAL STUDIES

محتويات الكتاب

فهرس الخرائط

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة المترجم

تاريخ العصور الوسطى وحضارتها مجال رحب للبحث والدراسة . ومنذ بدأ إدوارد جيبون التعرض لدراسة العصور الوسطى ، ظهرت دراسات عديدة ، ولمعت أسماء كثيرة لعلماء وباحثين تخصصوا فى دراسة تاريخ هذة الفترة ، كما صدرت كتب ومؤلفات عديدة وبلغات شتى ، تدور موضوعاتها حول الفترة التاريخية التى اصطلح على تسميتها بالعصور الوسطى. ومن خلال هذا النشاط المتزايد فى مجال دراسة هذه العصور تشكلت الملامح التى تميز المدارس العلمية المختلفة . وتمثلت نتيجة ذلك كله فى هذا التراث الهائل والذى يعجز المرء ، أو يكاد ، عن متابعته فى ميدان كتابة ودراسة تاريخ العصور الوسطى. وعلى الرغم من ذلك تبقى حقيقة هامة مؤداها أن الكتب التى قامت بدراسة شاملة لكافة جوانب حضارة العصور الوسطى لاتزال قليلة ؛ ومن ثم فإن أية دراسة شاملة من هذا النمط لابد وأن تلقى ترحيبا من المهتمين بهذه الدراسات .

والكتاب الذى نقدمه اليوم للقراء العرب ، نقلا عن اللغة الانجليزية ، واحد من هذه الدراسات الشاملة ، ومؤلفه هو الأستاذ الأمريكى المعاصر نورمان ف. كانتور Norman F. Cantor وقد اختار لكتابه عنوانا معبرا هو "Medieval History The Life and death of a Civilization" وترجمته "التاريخ الوسيط قصة حضارة : البداية والنهاية" والواقع أن هذه الكتاب يمثل ذخيرة هامة لاغنى عنها لمن يرغبون فى اتخاذ فترة العصور الوسطى ميدانا لدراستهم فضلا عن أنه يفتح أمام القارىء صفحة هامة من صفحات رحلة الانسان ، التى لم تتم بعد ، فى رحاب الزمان . وإذا كان الكتاب يركز على دراسة التاريخ الأوروبى ، فهو طبيعى ، لأن التقسيم الثلاثى للفترات التاريخية (عصور قديمة ، ووسطى ، وحديثة) تقسيم أوروبى النشأة ، يتخذ من الحضارة الأوربية حضارة مرجعية ، ويجعل من هذه الحضارة الحديثة النشأة مركزاً لحضارات العالم وهو أمر نراه طبيعيا بالنظر الى تفوق الحضارة الأوربية الملموس

حاليا ، بيد أن هذا لايعنى أننا نوافق على تقسيم الفترات التاريخية لتاريخنا العربى الإسلامى (بما فى ذلك تاريخ الحضارات القديمة ، قبل الإسلام فى المنطقة العربية الإسلامية) على أساس هذا التقسيم التعسفى ، على الرغم من أن هذا التقسيم سائد فعلا فى جامعاتنا العربية ، وثمة بدائل لتقسيم الفترات التاريخية يمكن أن تكون أكثر فعالية وجدوى [١] ، ولكن المجال لايتسع لمناقشتها .

وقد قسم المؤلف كتابه إلى تسعة أجزاء عالج فيها جوانب الحضارة الغربية فى العصور الوسطى ، رجوعا إلى عصر الامبراطورية الرومانية الأخير فى القرنين الثانى والثالث كمدخل طبيعى لدراسة هذه الفترة التاريخية .

ولست أظننا بحاجة إلى تكرار العرض الذى قدمه المؤلف لموضوعات الكتاب ، ومن ثم فإننا نكتفى بالإشارة إلى أن الترجمة قد قسمت الكتاب ، لضخامته ، إلى قسمين ، نقدم القسم الأول منهما فى هذا الكتاب الذى يقف بالقارىء عند نهاية الجزء الرابع من الأجزاء التسعة التى وضعها المؤلف ، أى بنهاية فترة العصور الوسطى الباكرة Early Middle Ages سنة ١٠٥٠ ، وفقا لتقسيم المؤلف . وسوف يضم القسم الثانى ، إن شاء الله ، بقية الأجزاء الخمسة التى يضمها النص الأصلى . وقد اخترت عنوانا هذا الجزء العصور الوسطى الباكرة ".

وإذا كانت هناك بعض الصعوبات التى اعترضت الترجمة ، فلست أرى داعيا إلى أن أثقل بها على القارىء ، ويكفينى أن أشير إلى أن إخراج هذا الجزء على هذه الصورة ، قد استغرق جهدا يزيد على السنوات الثلاث .

وهنا ينبغى أن أشير إلى أن جزءا من هذه الترجمة قد صدر قبل ذلك بمراجعة المرحوم الأستاذ الدكتور على الغمراوى أستاذ التاريخ الوسيط بجامعة عين شمس ، الذى بذل جهدا فائقا فى المراجعة ، بيد أنى رأيت أن الفصول التى حواها ذلك الجزء لم تكن كافية ، فأضفت أربعة فصول جديدة فى هذا القسم بحيث يقف الكتاب عند نهاية العصور الوسطى الباكرة ، لتكون الصورة كاملة عن إحدى فترات العصور الوسطى ، كما أن ثمة إضافات وتنقيحات رأيت إضافتها للجزء الذى سبق صدوره من هذه الترجمة .

---

(١) انظر للمترجم "مفهوم الزمن عند المؤرخين المسلمين : دراسة تطبيقية على "المقريزى" الموسم الثقافى ١٩٧٨/١٩٧٩ للجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، حيث يعرض وجهة نظره فى هذا الموضوع كاملة .

وقد حرصت على الأسلوب العربى الخاص قدر طاقتى ، كما حرصت فى الوقت نفسه على حرفية النص الانجليزى ، بيد أننى أسقطت عبارات لاتزيد عن عدد أصابع اليد الواحدة ، رأيتها لاتخدم السياق فى النص العربى .

وفى هذه الطبعة التى تقدمها دار عين ، سأحاول إصلاح بعض عيوب وأخطاء ظهرت فى الطبعات السابقة ، وان كنت أعترف بأن ظهورها كان نتيجة تقصيرى الشخصى الذى أرجو القارىء أن يغفره لى . والله الموفق والمستعان .

دكتور قاسم عبده قاسم

قصة حضارة : البداية والنهاية

حتى المدينة السماوية ، وهى فى حال حجها تفيد من السلام الأرضى .. وتجعل هذا السلام الأرضى اتجاها صوب سلام السماء .

- القديس أوغسطين مدينة الله

فاتحة الكتاب

جدوى التاريخ

عند البدء فى دراسة موضوع ما يحق لنا أن نسأل : ماهى فوائده ولم يجب علينا أن ننفق الوقت والجهد فى هذا الموضوع ، وما جدوى هذه الدراسة فى حياتنا ؟ وفيما يتعلق بدراسة التاريخ يبدو مثل هذا التساؤل النفعى أمراً مستهجناً فى بعض الأحيان ويقال إن علينا أن نشتغل بالدراسة التاريخية لنفس السبب الذى يدفعنا إلى تسلق جبل ما "لأن مانريده هناك" وثمة زعم بأن كل مافعله الإنسان فى الماضى يحمل أهمية مباشرة بالنسبة للإنسان ، وأن هذا الاهتمام الطبيعى يجعل التاريخ كله جديراً بالدراسة كما أن أى شخص لديه هذا الاهتمام الطبيعى يكمن فى داخله مؤرخ محترف ، ومع أن هذا المدخل المبالغ فيه لايصمد للنقد بطبيعة الحال ، فإن أى مدرس تاريخ يعلم أن الاهتمام الطبيعى بالتاريخ لايبدو أكثر انتشاراً من الإهتمام الطبيعى بالكيمياء أو الرياضيات ، فضلاً عن أن هناك عالماً من الاختلافات بين حب الاستطلاع العشوائى بقصد قضاء وقت الفراغ ، والذى يقود المرء إلى قراءة ممتعة حول بعض الشخصيات أو الحوادث التاريخية - مثل الملكة مارى ملكة اسكتلندا أو معركة جتسبرج Gettysburg وهما موضوعان شعبيان محببان - والتحقيق المنهجى الشاق ، والتأمل الذى تنطوى عليه الدراسات التاريخية الحقة .

ومن ثم يحق لنا أن نسأل ماهى فوائد التاريخ ؟ بادىء ذى بدء فإننا ندرس التاريخ لنفس السبب الذى يدفعنا إلى دراسة أى موضوع إنسانى آخر ؛ ألا وهو تحقيق المعرفة بالذات الإنسانية ، وتحقق دراسة التاريخ الحكمة التى جعلها الإغريق أسمى غايات الحياة الانسانية : إعرف نفسك ، ويخبرنا سقراط أن "الحياة التى لاتخضع للفحص غير جديرة بأن نحياها" ويزعم أننا لاندخل منطقة الوعى بوجودنا الانسانى ، وننطلق على طريق الحكمة إلا حين نفتش ونستفسر عن طبيعتنا البشرية ، ولكن هل تقتصر دراسة الطبيعة البشرية على دراسة الكائن البشرى المفرد ؟ لقد التزم الاغريق فى الجانب الاكبر من بحثهم عن الانسانية بهذه الرؤية الضيقة وركزوا على النموذج التجريدى ، مع قدر ضئيل من الاهتمام بالناس فى علاقتهم التاريخية - الاجتماعية الحقيقية . وبعد تطور بطىء ومعقد للغاية للأفكار التى لم تصل إلى مرحلتها النهائية سوى فى القرن التاسع عشر ، اتضح أن هذا المدخل غير كاف لدراسة الطبيعة

البشرية ، والواقع أن الحضارة الغربية التى تميزت عن مختلف المدنيات الشرقية هى التى أبدت وعياً واضحاً بالإنسانية فى تركيبها التاريخى المتغير دائما وأبدا (١).

---

(١) الحقيقة أن هذا القول يجافى الواقع إلى حد كبير فإن الحضارة العربية الاسلامية والتى استندت إلى تعاليم الاسلام وتراث الشعوب الاسلامية من غير العرب ، أبدت تفهماً واضحاً للطبيعة الانسانية المتغيرة ، إذ جاء فى قوله تعالى (سورة العنكبوت : اية ٢٠) ، قل سيروا فى الأرض ، فانظروا كيف بدأ الخلق ، ثم الله ينشىء النشأة الآخرة ، إن الله على كل شىء قدير" وعلى الصعيد الواقعى سار المسلمون فى الأرض ، واكشفوا أن الإنسان فى تطور مستمر، فهاهو ابن خلدون يقول فى مقدمته (ص ٣٠ طبعة دار الشعب) .. ومن الغلط الخلفى فى التاريخ الذهول عن تبدل الأحوال فى الأمم والأجيال ، بتبدل الأعصار ومرور الأيام.. وذلك أن أحوال العالم وعوائدهم ونحلهم لاتدوم على وتيرة واحدة ومنهاج مستقر ، إنما هو اختلاف على الأيام والأزمنة ، وانتقال من حال إلى حال ." كما يقول (ص٣٥ : الطبعة نفسها) "... إعلم أنه لما كانت حقيقة التاريخ أنه خبر عن الاجتماع الانسانى الذى هو عمران العالم ، ومايعرض لطبيعة ذلك العمران من الأحوال .. وما ينشأ عن ذلك من الملل والدول ومراتبها ، ومايتحله البشر بأعمالهم ومساعيهم من الكسب والمعاش والعلوم والصنائع" كما ان كثيرين من المؤرخين والعلماء المسلمين قد أدركوا بوضوح الحقيقة القائلة بأن البشرية فى حال من التغير والتبدل الدائم . نذكر منهم على سبيل المثال ، المسعودى ، والطبرى ، والمقريزى ، والقلقشندى ، وابن أياس .. ويجدر بنا أن نشير فى هذا المقام إلى أن كتابات المؤرخ تقى الدين المقريزى بالذات تكشف عن وعى تاريخى عميق ، وهو الوعى المزدوج بالزمن والحقيقة ؛ بالزمن فى صيرورته وماينتج عن ذلك من التبدل والتغير والحقيقة التى يبحث عنها فى أسباب الظاهرة التاريخية التى يعالجها ، وهو مايتجلى أوضح مايكون فى كتابه الرائع " المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار " وكتابه الصغير المدهش " إغاثة الأمة بكشف الغمة. (لمزيد من المعلومات عن المقريزى انظر : دراسات عن المقريزى لمجموعة من الأساتذة طبعة الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر سنة ١٩٧١) ومن ناحية أخرى ينبغى أن نشير إلى ماتدين به الحضارة الغربية للحضارة الاسلامية فى شتى المجالات ونحيل القارىء إلى كتابين شاملين فى هذا الموضوع هما :

١- شمس الله على الغرب " تأليف الدكتورة : سنجريد هونكة وترجمة الدكتور فؤاد حسنين على (النهضة العربية ١٩٦٤).

٢- أثر العرب والاسلام فى النهضة الأوربية "لمجموعة من الأساتذة - بإشراف مركز تبادل القيم الثقافية بالتعاون مع اليونسكو (الهيئة المصرية للتأليف والنشر ١٩٧٠م).

ويمكن إدراك وفهم فائدة التاريخ باعتباره معرفة الإنسانية بذاتها - وهو مافطن إليه مفكرو القرن التاسع عشر والقرن العشرين تماماً - إذا ما بدأنا بالسؤال عن نوع الشخص الذى سيكونه أى إنسان إذا فقد الذاكرة ، ونسى كل ماتعلمه فجأة إنه ، طبعا ، لن يكون شيئا على الإطلاق ، وسيكون حيواناً لاغير ، بمعنى أن الطفل المولود حديثاً إن هو إلا حيوان ذو قدرات كامنة ، ولكن هل يمكننا أن نقيد الذاكرة فى إطار الانسان الفرد ونتجاهل الذاكرة الجماعية للجنس البشرى ؟ الواقع أننا لانستطيع ذلك إذا ماكان الهدف هو تحقيق المعرفة الكاملة بالذات "إننى جزء من كل ماقابلت " هذه الفترة المقتبسة من أوليسيس Ulyssess لتنيسون تمدنا بالمفتاح الذى يقودنا إلى أهم فوائد التاريخ فالحقيقة أننى جزء من كل ماقابلت لابصفتى الشخصية فحسب ، بل أيضاً بصفتى عضواً فى جماعة متمايزة من البشر ، مجتمعاً كانت أم حضارة . ذلك أننا فى تطور شخصياتنا المتمايزة لانكون محكومين بعلاقاتنا الشخصية أو الأسرية فحسب ، بل أيضاً بالتغيرات المتعددة فى الحياة الاجتماعية والتى وقع الكثير منها منذ قرون مضت ، وهو مانسميه التاريخ .

وسواء كنا واعين لهذه الحقيقة أم لا ، فاننا لانملك ذاكرة فردية فحسب ، بل إننا نشارك أيضاً فى الذاكرة الجماعية لكل مامر به النوع الانسانى من متغيرات فى الماضى . ومن ثم فإن كل فرد كائن تاريخى سواء كان يعلم بهذه الحقيقة البالغة الأهمية أم كان غافلاً عنها تماماً . إذ أن حياة كل منا محكومة بما وقع من أحداث فى بلاد بعيدة عنا منذ مئات السنين ، ونحن نتصرف فى حياتنا اليومية وفقاً لهذه الحوادث مهما كان هذا الفهم محدوداً . بيد أننا بالنظر إلى هذه الذاكرة الاجتماعية ، وذاكرتنا الفردية أيضاً ، قد نقول بحق مع سقراط " إن الحياة التى لم تخضع للفحص غير جديرة بأن نحياها " ذلك أن ذاكرة الماضى التى لم تفحص مجرد أسطورة وتحيز . وأيا كان تأثير الأسطورة والحكم المسبق على الفعل الاجتماعى فهى خطأ ، وليست حقيقة . أما التاريخ ، كعلم ونشاط عقلى ، فيخضع ذاكرة الماضى الجامعة للتدقيق الصارم . ومن خلال تطبيق المناهج العلمية التى ابتدعها علماء القرن الماضى ، يحاول التاريخ كشف النقاب عما حدث فى الماضى "كما حدث بالضبط" [٢] لاعلى أساس بعض الأساطير أو الأحكام المسبقة التى نمت وترعرعت لنملق بعض المجموعات أو الأمم .

---

(٢) صاحب هذه العبارة هو الألمانى " ليوبولدفون رانكه Leopold Von Ranke (١٧٩٥-١٨٨٦) ، الذى يعتبر كتابه الأول المسمى "تواريخ الشعوب اللاتينية والجرمانية ، طرازاً جديدة من الكتابة التاريخية =

وبطبيعة الحال ، فإن فهم الماضى كما حدث بالضبط ، توصية تبغى الوصول إلى الكمال ، وفى الكتابة التاريخية - كما هو الحال فى مجالات أخرى فى الحياة - غالباً مالا يتحقق الكمال . إذ أنه حتى مع توفر أحسن إدارة فى العالم مع أعظم قدر من الحرص ، وأكبر قدر من النضج لمحاولة التحرر من الذاتية ، يظل المؤرخ نفسه متأثراً بالأسطورة والهوى الكامنين فى أغوار خلفيته الثقافية . وقد أفضت هذه الحقيقة ببعض المؤرخين إلى اليأس والسقوط فى هوة نوع من النسبية المركزة على الذات Egocentric Relativism وإلى الزعم بأن كل رجل مؤرخ نفسه ، وأن ليس ثمة حقيقة مطلقة فى التاريخ . ويقال إن أى تفسير للحوادث التاريخية يمكن أن يكون مساوياً فى جودته لأى تفسير آخر ، وأن كل التفسيرات التاريخية ، سواء قدمها الرجل العادى أو قدمها الباحث المتعلم ، ترتكز على أرضية من الأهداف الاجتماعية المرغوبة . بيد أن هذا اليأس كثيراً مايتجاوز الحد المعقول ، على الرغم من أنه يفسد على الأساتذة غطرستهم - وهو عمل طيب دائماً . فمع التسليم بأن المؤرخين الذين يبحثون عصراً بذاته من عصور الماضى قد يختلفون فى تفسيراتهم اختلافاً جسيماً ، وقد تختلف رؤية كل منهم عن الآخر للأسباب والنتائج فيما يبحثونه من أحداث ، فإنهم مع ذلك يظلون متفقين فى عدة أمور. وحين تطور التاريخ ليصير علماً فى القرن الماضى ، توصل المؤرخون إلى عدة استنتاجات عامة فيما يتعلق بتفسير الماضى ، على حين أنهم مايزالون مختلفين حول أمور غيرها . هناك إذن بالفعل وحدة فى المناقشة بين المؤرخين ، وأساس صلب من الحقائق المتفق عليها بشأن الماضى ، كما أن هناك جدلاً مستمراً حول جوانب أخرى من الماضى ، وربما يتم الاتفاق حولها فى نهاية المطاف .

إن الدارس المبتدىء فى ميدان التاريخ سرعان ماسيدرك أن هناك مناقشة جدلية بين المؤرخين ،وإذا كان يتمتع بقدر الذكاء فانه سوف يكتشف أن هذا الخلاف فى طريقه إلى الزوال

= فى عصره ، إذ اعتمد فيه على المصادر الأصلية إنطلاقاً من رأيه فى أن التاريخ ، هو تصوير ماحدث فى الماضى بالضبط ، الأمر الذى دفعه إلى الإهتمام بالوثائق والمخلفات الاثرية اهتماماً بالغاً لأنه رأى فى الوثائق الرسمية ، ومكاتبات الدول والأفراد ، وسجلات الحكومة والكنائس ، والمذكرات الشخصية ، أصدق مصادر الكتابة التاريخية ، وتعود بداية ظهور علم الوثائق كعلم منهجى إلى تلك الفترة التى أخذ فيها تلاميذ "رانكه" يجوبون أنحاء أوربا سعيا وراء الوثائق و"رانكه" هو صاحب الفضل فى إنشاء اللجنة التاريخية فى اكاديمية بافاريا للعلوم ، التى قامت بنشر جديد العديد من الوثائق والحوليات ، كما أنشأ "المجلة التاريخية السياسية ، التى تعد من طلائع الدوريات التاريخية . (المترجم) .

ولكن ليس لأحد أن يتعامى عن حقيقة أنه بعد قرون من العمل الشاق الذى قام به آلاف العلماء أصبحنا نعرف فعلاً أشياء كثيرة عن الماضى بنفس درجة التأكد واليقين التى يعرف بها عالم الطبيعة أو الكيميائى أو البيولوجى الحقائق الأكيدة عن عالم الطبيعة . ولاينبغى للدارس المبتدىء أن يضل طريقه بسبب ماينشب أحياناً من منازعات مريرة بين المؤرخين ، مما يدفعه إلى الظن بأن التاريخ هو مجرد الغضب المحموم والأصوات العالية ، فعلى العكس من ذلك تستحق دراسة التاريخ أن يتناولها المرء فى زهو بمغزاها ، من حيث أنها تؤدى إلى معرفة الانسانية بذاتها ، ومن خلال معرفة الذات تقود الانسانية الى التحرر من الاسطورة ، والتحيز والأحلام التى مازالت تحكم تصرفات الشعوب غير الغربية التى لم تبدأ الدراسة العلمية للتاريخ إلا فى أضيق الحدود (٣).

وان تجعلنا المعرفة الصحيحة بالتاريخ "تتنبأ بالمستقبل" على نحو ساذج سخيف ، ولكنها سوف تساعدنا على أن نتصرف فى المستقبل بحكمة أكثر ، ذلك أن الانسان الذى يتمتع بالمعرفة الدقيقة بما حدث فى الماضى يكون أكثر اقتراباً من الفهم الكامل للطبيعة البشرية ، ومن ثم فهو قادر على أن يتصرف بالحكمة والثقة النابعتين من معرفة الحقيقة .

والتاريخ الوسيط عبارة عن لحظة طويلة ومعقدة فى تجربة الرجل الغربى ، إذ تشمل الفترة مابين عام ٣٠٠ وعام ١٥٠٠ بعد الميلاد تقريباً . وميرات تجربة العصور الوسطى فى الحضارة الغربية شاسع وشامل ، فما أن أهل عام ١٥٠٠ حتى بات واضحاً أن العصور الوسطى قد انتهت ولكنها كانت قد خلفت للعالم الحديث التراث الغنى بالكثير من مؤسساته ونظمه السائدة كالكنيسة المسيحية ، والحكومة النموذجية ، والنظام الرأسمالى ، والجامعة ، وبعض أفكاره الأكثر حركة وحيوية ، بما فى ذلك الفكر الرومانسى ، والفكر العقلانى ، والوطنية ، والمنهج العلمى ، فضلاً عن الطبيعة المركبة المتناقضة للإنسان نفسه . وإذا كانت فائدة التاريخ هى معرفة الانسانية بذاتها ، فإنها لاتستطيع الاستغناء عن الحياد والتفهم الكامل لخطوط التطور الرئيسية فى العصور الوسطى . فالكثير جداً من جوانب حضارة القرن العشرين ، ليست سوى نتائج تجربة العصور الوسطى . وإذا كان "الطفل هو أبو الانسان فى الواقع" على نحو مايخبرنا الشعراء وعلماء النفس ، فإن التجربة الوسيطة ماتزال تتحكم فى أقدارنا بما هو طيب ، وبما هو سيء حتى الآن وهدف هذا الكتاب أن يوضح الجوانب الأساسية فى هذه التجربة- أن يبين انجازاتها وأخفاقاتها ، وأمجادها ونكساتها ، رفعتها وسلبيتها .

---

(٣) هذا هو رأى كانتور المطلق فى الشعوب غير الغربية ، وهو رأى لاينطبق على الواقع تماماً .

وأخيراً ، ينبغى التأكيد على أن فهم تجربة العصور الوسطى فهما شاملاً لن يتأتى سوى من خلال فهم وإدراك درجة وعى الناس فى العصور الوسطى بالحوادث العظام التى حسمت مصيرهم ، إذ يجب أن نرى - بل يجب فى الواقع أن نحس - لا بالطبيعة الخارجية للحوادث فحسب بل بمكنونها وطبيعتها الداخلية أيضاً ، وهو مايعنى تأثيرها على فكرة من عاصروها ، إذ لايكفى أن نحدد مراحل الغزوات الجرمانية وأحداث عصر شارلمان ، أو أعمال الصليبيين، وإنما يجب أن نفهم كيف أثرت هذه الأحداث فى وجدان الناس الذين عاشوا أثناءها، كما يجب أن نحاول فهم الكيفية التى صارت بها تلك الحوادث جزءاً مندمجاً ومكملاً لتجربة أهل العصور الوسطى . ويجدر بنا ، من ناحية أخرى ، أن نتجنب القيام بمجرد حصر " الأفكار العظيمة" دون بحث العلاقة بين هذه الأفكار وبين سياق الموقف الاجتماعى الذى حدد كيفية ظهور هذه الأفكار ، فإن تحديد فكر توماس الاكوينى Thomas Aquinas الدينى ، دون بحث علاقته بالمجتمع والحضارة التى أفرزته ، يعد عملاً محدوداً ضيق الأفق ، تماماً مثل محاولة حصر حوادث عصر شارلمان دون محاولة الفهم الشامل لما قدمته الامبراطورية الكارولنجية من الآمال والتطلعات ، ومدى ما أصاب المعاصرين من خيبة الآمال . وسيحاول هذا الكتاب أن يتجنب الوقوع فى فخاخ كل من الايجابية البلهاء والحذلقة الكاذبة (وتمثل الأولى إخفاقاً قديماً للغاية فى الكتابة عن الحضارة ، بينما تمثل الأخرى اخفاقاً جديداً إلى حد ما ، لاسيما فى أولئك الباحثين الذين يأخذون عبارات القانون الكنسى الوسيط باعتبارها حقائق الحياة الكنسية) . والحقيقة أن هدف المؤرخ هو أن يصف "الطريقة التى حدث بها الأمر" وهو نموذج سوف يبدو بسيطاً للشخص الساذج ، بيد أنه صعب التحقيق للغاية . هذا ماسوف نحاوله عن طريق تصوير المجريات الرئيسية لتطور حضارة العصور الوسطى ، وماذا كانت هذه المجريات الرئيسية تعنى حقاً فى حياة وفكر الناس فى العصور الوسطى ، ولن يكون عملنا مرضياً تماماً ، ولكننا بالكتابة بتعاطف مع مشاكل أهل العصور الوسطى ، وبالتصميم على توضيح إخفاقاتهم وانتصاراتهم ، نأمل أن نقترب بقدر أكبر نحو صورة حقيقية للمجتمع الوسيط .

تقديم
مجال التاريخ الوسيط

١- موجز تاريخي

من الممكن أن نحدد بالضبط اليوم الذى بدأت فيه بالفعل دراسة العصور الوسطى كفرع من فروع الأدب التاريخى ، ففى خريف سنة ١٧٦٤ قام رجل إنجليزى دعى ادوارد جيبون Edward Gibbon كان صاحب ضيعة متوسط الشراء من أبناء الريف ومن خريجى أوكسفورد[1] ، برحلة إلى إيطاليا بقصد السياحة ومشاهد آثار العالم الكلاسيكى . وفى ترجمتة الذاتية يخبرنا جيبون كيف جذبته التغيرات الواضحة التى طرأت على روما منذ أيام الأباطرة العظام لأن يقوم بكتابة تاريخ عن الطريقة التى حدث بها هذا التطور التاريخى العظيم :"كان ذلك فى روما ، فى الخامس عشر من أكتوبر سنة ١٧٦٤ بينما كنت جالساً أتسلى بين أطلال الكابيتول والرهبان الحفاة يرتلون صلوات المساء فى معبد جوبيتر ، حين خطرت ببالى للمرة الأولى فكرة الكتابة عن اضمحلال وسقوط المدينة ".

يجب أن تبدأ جميع الكتابات والبحوث التاريخية بإحساس بالدهشة أولاً ، ثم بسؤال واضح الصياغة . إذ أن المؤرخ بتمايزه عن مجرد هاوى الآثار القديمة يبدأ ، لا من حب الاستطلاع العشوائى ، وإنما من سؤال أصيل حول التغيرات التى طرأت على الحضارة والدول ، والشخصية الفردية . ومن هنا كان جيبون مؤرخا أصيلاً ، ذلك أنه جابه مشكلة حقيقية ؛ إذ أراد أن يعرف مجرى وأسباب التغيرات العظمى التى أدت إلى بناء الأديرة الكاثوليكية على أطلال المعابد الرومانية الوثنية . ولكن ثمة عيوب كثيرة تشوب جيبون كمؤرخ . فقد كان منهجه فى تحليل المصادر أدنى فى مستواه كثيرا من منهج العلماء المتخصصين اليوم. وبسبب تردده العقيدى بين الكنيسة الإنجيلية والكنيسة الكاثوليكية والشك الذى كان ينتابه، وبسبب الموقف المعادى الذى اتخذته حركة التنوير فى القرن الثامن عشر حيال الديانات السماوية بشكل عام ، لم يحمل أى تعاطف تجاه المعتقدات الدينية التى تتسم بالعمق . كما كان يكن كراهية مرضية للنساء . ولاحظ أحد النقاد أن جيبون كان على الدوام ، متسامحاً ، وشفوقاً

---

(١) الحقيقة أن ادوارد جيبون التحق بكلية مجدالن Magdalen بجامعة أوكسفورد ، وبقى بها أربعة عشر شهراً فقط رحل بعدها إلى سويسرا وفرنسا ، وفى ابريل عام ١٧٦٤ سافر إلى إيطاليا . (المترجم)

إلا فيما يتعلق بالمواقف التى يستشهد فيها المسيحيون أو تغتصب فيها العذارى . ولكن على الرغم من أن "اضمحلال وسقوط الامبراطورية الرومانية" يعتبر من عدة نواح كتاباً مُضللاً مليئاً بالأخطاء فإن هذا الكتاب هو أول عمل عظيم فى مجال كتابة تاريخ العصور الوسطى .

اعتمد جيبون فى بحثة كثيراً على الكتابات القديمة التى دونها بعض علماء الرهبان الفرنسيين والبلجيك فى أواخر القرن السابع عشر وأوائل القرن الثامن عشر . وباستخدام المناهج النقدية التى تطورت فى بحث الدراسات الكلاسيكية فى النصف الأول من القرن السابع عشر ، توصل أولئك الديريون إلى طريقة لاختبار أصالة وثائق العصور الوسطى كما نجحوا فى وضع الأسس لتحقيق ونشر المؤلفات الوسيطة . وعلى أية حال ، لم يكن إهتمامهم موجها للتاريخ ، بل انصب على سير القديسين وأعمالهم hagiography إذ كان أولئك الديريون يحاولون نشر صورة دقيقة تمثل حياة القديسين ، وقد أرسى منهجهم الحذق فى الدراسة أسس البحث العلمى فى التاريخ الوسيط ، ولكن عملهم لم يكن فى ذاته مستلهماً من النماذج التاريخية الأصيلة .

كانت رؤية جيبون للعصور الوسطى باعتبارها فترة اضمحلال مطرد لعظمة الامبراطورية الرومانية منذ القرن الثانى للميلاد - وهى الفترة التى أسماها "انتصار البربرية والدين" - مستوحاة من موقف الانسانيين الايطاليين فى أواخر القرن الخامس عشر ، إذ كان لهؤلاء الانسانيين رد فعل تجاه حضارة أوربا الغربية فى الفترة السابقة على عصرهم مباشرة ، يماثل رد فعل كثير من مثقفى أوربا الحديثة وأمريكا تجاه حضارة وأحداث القرن التاسع عشر ، وكما نستخدم لفظ فيكتورى Victorian فى بعض الأحيان كمصطلح يدل على أمر مشين ، اخترع أيديولوجيو عصر النهضة اصطلاح العصر الوسيط medium aevum ليدل على العداء والاحتقار لثقافة أوربا الغربية منذ عصر الامبراطورية الرومانية حتى عصرهم . ولما تبنى كتاب القرن السابع عشر والقرن الثامن عشر مصطلح" العصر الوسيط " بمفاهيم مماثلة أصبح هذا المصطلح مصطلحاً تاريخياً يقصد به الاساءة إلى الكنيسة ، والفلسفة المدرسية ، والأدب ، والفن على مدى فترة تزيد على ألف سنة من عمر الحضارة الغربية .

بيد أننا يجب أن نلاحظ أنه إذاكان اصطلاح العصر الوسيط قد استخدم فى بداية الأمر ، وعلى نطاق واسع فى المجادلات الموجهة ضد الكنيسة ، فإن فكرة وجود عصر تاريخى وسيط كانت فى حد ذاتها مفهوماً صاغه فى البداية مفكرو الكنيسة أنفسهم فى العصور الوسطى ، فقد اعتقدوا فى تصوراتهم الأخروية بوجود عصر وسيط بين الخلق ويوم الحساب . أما إطلاق

اصطلاح العصر الوسيط على فترة تاريخية معينة ، فقد جاء نتيجة لإضفاء معنى زمنى على هذا المفهوم بفضل الإنسانيين فى عصر النهضة والعقلانيين فى القرن الثامن عشر .

فقط بمجىء الحركة الرومانسية ، فى أواخر القرن الثامن عشر ، صار اصطلاح" وسيط" واصطلاح "قوطى" الفنى المواكب له ، يعنيان أى شىء عدا البربرية والتدهور. ومن سوء الحظ أن النظرة التى نظر بها الشعراء وكتاب المسرح الرومانسيون إلى العصور الوسطى ، ربما كانت خيالية كنظرة الانسانيين فى عصر النهضة وخلفائهم العقلانيين ؛ فأوربا لم تعد مأهولة بالبرابرة المتوحشين والرهبان المتعصبين ، وإنما أصبح يسكنها فرسان من أهل الشهامة ، ونساء ذوات عفة وعاطفة خيالية . وتعتبر قصيدة كيتس Keats الشهيرة "ليلة الاحتفال بعيد القديسة أجنيس" The eve of St. Agnes مثالاً رائعاً للحماسة التى أولتها الحركة الرومانسية للعصور الوسطى .

كما أن النزعة القومية التى تميز بها القرن التاسع عشر ساهمت مساهمة فعالة فى تطور تدوين التاريخ الوسيط . ومن حسن الحظ أن مساهمة أصحاب النزعة القومية ساعدت على قيام الدراسة العلمية لأوربا الغربية فى الفترة من عام ٣٠٠ حتى عام ١٥٠٠ . ووفقاً لماهو معلوم ، فإن الهزيمة التى لحقت بالألمان على يد نابليون والجيوش الفرنسية أيقظت الشعور القومى فى ألمانيا فى العقود الأولى من القرن التاسع عشر ، ولأن القوميين الألمانيين افتقدوا الوحدة والمجد فى بلدهم منذ العصور الوسطى ، فانهم ولوا وجوههم بإعجاب ووجدان متوهج شطر الأيام المجيدة للأمبراطورية الألمانية الوسيطة ، ومن أجل دراسة الكتب التى تناولت ألمانيا فى العصور الوسطى ونشرها أقامت الحكومة البروسية معهداً للبحث فى التاريخ الألمانى الوسيط. وكان من الممكن ألا يكون هذا المعهد شيئا سوى بوق للدعاية القومية النزقة ، ولكن من حسن الطالع أن تولى العمل فيه فى منتصف القرن التاسع عشر نخبة من الباحثين الممتازين المتمرسين بمناهج الدراسة فى العلوم الكلاسيكية ، ومن حسن الحظ أيضاً أن دراسة الامبراطورية الألمانية فى العصور الوسطى استلزمت دراسة البابوية وإيطاليا أيضاً فى تلك العصور . وهكذا كرس المعهد الألمانى للتاريخ الوسيط نفسه لدراسة قطاع كبير للغاية فى مجال الحضارة الوسيطة . وبالرغم من كل التغيرات التى مرت بها ألمانيا خلال السنوات المائة الأخيرة ، لايزال المعهد الألمانى العظيم لتاريخ العصور الوسطى - والذى نقل منذ الحرب العالمية الثانية إلى مدينة ميونيخ - يواصله عمله من أجل نشر "مجموعة ألمانيا التاريخية Monumenta Germaniae Historica " ، وبنهاية القرن التاسع عشر كانت الدراسة العلمية

للحضارة الوسيطة - متحررة من الأحكام المسبقة وتعصب الانسانيين فى عصر النهضة ، والشعراء والرومانسيين ، وحتى من الدعاية القومية - تسير على قدم وساق فى ألمانيا .

وخلال الشطر الأخير من القرن التاسع عشر شهدت فرنسا أيضاً قيام مدرسة لمؤرخى العصور الوسطى الذين قاموا أيضاً بأبحاثهم فى معهد تموله الحكومة . وبالرغم من أن حجم مساهمة الفرنسيين فى التاريخ الوسيط كان أقل بكثير من حجم مساهمة الألمان إلا أن علماء العصور الوسطى الفرنسيين قدموا لنا أروع الآراء فى مجال دراسة التاريخ الوسيط ، وهناك العديد من أهم تفسيرات التاريخ الوسيط مما أنتجته قرائح الباحثين الفرنسيين والبلجيك الذين يكتبون باللغة الفرنسية .

ومع بداية القرن العشرين دخلت بلاد أوربية أخرى حلبة الاهتمام بتراث العصور الوسطى ، وقد أولى الانجليز اهتماماً خاصاً لدراسة مؤسساتهم السياسية ونظمهم القانونية المميزة متتبعين أصولها فى العصور الوسطى .

أما أول أستاذ أمريكى فى التاريخ الوسيط فهو هنرى آدامز Henry Adams الذى تولى منصب الأستاذ فى هارفارد فى السبعينيات من القرن التاسع عشر . لم يكن آدامز ، شأنه فى ذلك شأن جيبون ، معداً لهذه المهمة سواء من حيث الدراسة أو استعداده الشخصى وسرعان ما انصرف عنها إلى مجالات أخرى ، ولكنه ، مثل جيبون ، كانت عبقريته التاريخية عظيمة لدرجة جعلته قادراً على التغلب على عيوبه كباحث . ولاتزال لدراسته عن الأدب والفن الفرنسى فى القرن الثانى عشر بعض القيمة حتى اليوم ، وما أن أذنت شمس القرن التاسع عشر بالمغيب حتى بدأ الباحثون الأمريكيون يدرسون فى أوربا . وهناك اثنان من بين هؤلاء الرجال جلبا إلى هارفارد المنهج العلمى للعلماء الأوربيين المتخصصين فى العصور الوسطى هما : تشارلز جروس Charles Gross وتشارلز هاسكينز Charles Haskins ويعتبر هاسكينز بالذات صاحب الفضل فى إنشاء مدرسة أمريكية للعصور الوسطى فى الولايات المتحدة . فلم يقدم هاسكينز إسهامات هامة عديدة فى التاريخ الوسيط فحسب وإنما قام أيضاً بتدريب جيل كامل من الباحثين فى هارفارد بين سنة ١٩١٠ وعام ١٩٣٠ على المنهج الأوربى الدقيق الصارم فى البحث التاريخى . وفى الثلاثينات من هذا القرن انضم إلى مدرسة هاسكينز بعض الألمان المتخصصين فى العصور الوسطى ممن يمتازون بالقدرة والكفاية ، والذين اضطروا إلى ترك وطنهم بسبب الاضطهاد النازى ، وقد يبدو من العجيب أن الولايات المتحدة تستطيع فى الوقت الحاضر أن تفتخر بمجموعة من مؤرخى العصور الوسطى لاتبزُّها مجموعة أخرى فى

العالم ، حتى فى فرنسا أو ألمانيا . وسيكون من المثير أن نعلم ماذا كان يمكن أن يقوله جيبون فى هذا التحول .

وليس من السهولة بمكان أن نقسم المؤرخين إلى فئات ، بل ولايجب أن يحدث هذا ، لأن كل مؤرخ يستحق منا أن نقيمه على انفراد ، شأن أى عمل فنى . ودائما مايختلف باحث عن آخر ولو قليلاً فى موقفه ، ومنهجه وطريقة تعبيره . فتدوين التاريخ - كأى شكل من أشكال النقد الأدبى أو أية معالجة فى تاريخ الفكر - دراسة لايمكن أن تكون دقيقة تماماً ، وبالرغم من هذا ، فإننا نستطيع مع مراعاة هذه المحاذير ، أن نقسم المؤرخين إلى مجموعات حسب فروضهم ومناهجهم . إن أى فرع من فروع المعرفة النظرية بتحسن بالوعى الذاتى عند من يمارسونه ، وذلك عن طريق تقييم المعايير التى تستخدم للوصول إلى استنتاجات تفسيرية ، وهذا يصدق أيضاً على الاعتبارات المتعلقة بمواقف المؤرخين ومناهجهم ، وهو مانسميه بتدوين التاريخ أو التأريخ Hisoriography وفى وسعنا أن نقوم بعرض المداخل المستخدمة لفهم الحضارة الوسيطة فى أبحاث السنوات الأربعين الماضية ، وأن نتحقق من خمسة مداخل عامة للتغير التاريخى فى العصور الوسطى .

وأول هذه المداخل ، وهو المدخل الذى يعتبر إلى حد كبير علامة على أبحاث المدرسة الألمانية ، والذى يتمثل على خير وجه فى مؤلفات "بيرسى أ.شرام Percy E. Schramm وجرد تلنباخ G.Tellenbach وكارل اردمان Karl Erdmann فينسحب على وجهة النظر الألمانية النموذجية فى التاريخ الروحى Geistesgeschichte ويمكن أن نحدده باصطلاح المدخل الجدلى الروحى dialectical - spiritual approach . وقد دفع البؤس الذى حاق بألمانيا سياسياً واقتصادياً منذ الحرب العالمية الأولى بالمؤرخين الألمان إلى الإقتصار على نطاق الأفكار الذى كانت تبدو فيه الحقائق التعسة فى تاريخ بلادهم منذ القرن الثالث عشر أقل إيلاماً ، والذى يمكن فيه اكتشاف الحقيقة والجمال . هذا الموقف حكم كتابة التاريخ الوسيط فى ألمانيا بصورة أوقع . قَربُ تفكير فى معالجة التغير التاريخى الوسيط بالمناقشات الطنانة حول طبيعة مجتمع مسيحى - بكل المعانى التى تتضمنها مثله الامبراطورية والصليبية وتفسيراته المتضاربة لمعنى الحرية - أفضل بكثير من الخوض فى عيوب النظم الملكية ومثالب الملوك والنبلاء الألمان فى العصور الوسطى. ولاشك فى أن تأثير الفكر الهيجلى ، تدعمه جهود فيلهلم دلتى Wilhelm Dilthey يكمن أيضاً خلف هذا الاتجاه نحو الاهتمام المطلق بالتاريخ الروحى بين صفوة العلماء الذين تخصصوا فى دراسة العصور الوسطى فيما بين

الحربين العالميتين ، كما أن المدرسة الألمانية ظلت تتميز بمدخل جدلى مغرق فى الجدل : إذ أنها ساقت مقارنات صريحة بين مختلف الحركات الفكرية فى أوربا فى العصور الوسطى ، وحاولت بكل تأكيد أن تبين الأثر العميق على التطور اللاحق لبعض العصور الحرجة حين جابهت هذه الأفكار المتعارضة جدلياً كل منها الأخرى . واستطاعت المدرسة الجدلية - الروحية - أن تنجز دراستها عن أفكار العصور الوسطى بالتحكم البالغ فى أدوات البحث التى طورها المتخصصون فى الدراسات الكلاسيكية . كما كانت الجهود التى بذلتها أقسام تاريخ العصور الوسطى فى الجامعات الألمانية فى دراسة النصوص وتفسيرها تفسيراً علمياً وافياً نموذجاً للتحليل الدقيق لوثائق تاريخ الفكر الوسيط . وكانت مثل هذه الجهود سبباً من أسباب رواج التاريخ الروحى لدى العلماء الألمان المتخصصين فى دراسات العصور الوسطى ، كما كانت سبباً فى استمراره ؛ ولكن حماسة أتباعه فترت قليلاً بعد الحرب العالمية الثانية وحتى الآن .

ويعتبر أرنست كانتوروفيتز Ernest Kantorowicz واحداً من أشهر أعلام المدرسة الألمانية فى التاريخ الوسيط ، وقد أمضى الشطر الأعظم من حياته الأكاديمية فى الولايات المتحدة بعد أن طرده النازيون . فقد كانت دراسات كانتوروفيتز عن الفكر السياسى الوسيط تكشف دائماً عن الطريقة التى نظر بها الناس فى العصور الوسطى إلى الدولة والكنيسة ، كما تعكس أعماله أوجه القصور التى تشوب المدرسة الألمانية . فقد قيل إن الألمان يصفون التاريخ الذى لم يحدث ، وهذا أمر صحيح إلى حد ما ؛ إذ أن ناقدى المدرسة الجدلية الروحية الألمانية يشيرون إلى أن هذه المدرسة تعطى للأفكار أهمية كبيرة فى دراستها ، وأنها كثيرا ما توضح الفروق بين هذه الأفكار بينما كان هذا الوضوح الجدلى غائباً عن أذهان المعاصرين ، ويمكن الرد على ذلك بالقول بأن فهم التغيير التاريخى يشمل ماهو أهم من مجرد ترديد التناقضات العميقة التى تطرأ على سلوك الشخصيات المعاصرة ، إذ يجد المؤرخ أن من الأسلم والضرورى أن يوضح الفروق وأن يبرزها ، حتى لو لم يكن المعاصرون يرون النموذج الجدلى بهذا القدر من الوضوح .

وقد ظل التاريخ الثقافى يحظى بالاهتمام المنقطع النظير من قبل العلماء الألمان المتخصصين فى دراسات العصور الوسطى منذ سنة ١٩٤٥ ، غير أن كليفيتز H.K. Klevitz وهو بلانزاع وريث شرام المتحدث باسم المدرسة الجدلية الروحية ، قتل فى الحرب ، وهانحن نرى علماء الجيل الحالى البارزين من مؤرخى العصور الوسطى الألمان أمثال هربرت جروندمان Grundmann وتيودور شيفر Theodor Schieffer أكثر اعتدالاً فى رأيهم ، وأقل جدلية فى لهجتهم مما كان عليه أسلافهم العظام ، بل وأكثر اهتماماً بالشخصيات التاريخية والتغير الاجتماعى .

ومن هذه الناحية فإنهم يقتربون من موقف أبرز مؤرخى العصور الوسطى الانجليز فى العقدين الماضيين والذين يمكن أن نلقبهم بأصحاب المدرسة الدينية الشخصية - Devotional Personal School . وقد تزعم هذه المدرسة نولز M.D. Knowlsc فى كمبردج ، وسوثرن R.W. Southern فى أوكسفورد وأحدثا مايشبه الثورة فى الدراسات الوسيطة بانجلترا ؛ ذلك أنه للمرة الأولى منذ تسعين عاماً نرى ألمع متخصصى العصور الوسطى الانجليز يهتمون بالتاريخ الدينى والثقافى أكثر من اهتمامهم بالتاريخ السياسى والقانونى .

فعلى مدى سبعين سنة ظل التاريخ الوسيط فى إنجلترا مرادفاً لتاريخ النظم السياسية . وكان السؤال الكبير الذى تعين على المجتمع المثقف أن يطرحه على مؤرخى إنجلترا فى أواخر القرن التاسع عشر هو : كيف تأتى لنظامنا الوطنى المستنير فى الحكم والقضاء أن يبرز إلى الوجود ؟ واهتم عدد من أقدر المؤرخين أمثال وليم ستبس W. Stubbs وميتلاند W. Meit-land وتوت T.F. Tout بالبحث عن أصول النظم السياسية الانجليزية فى العصور الوسطى ، غير أن اتجاها جديداً فى تدوين التاريخ الانجليزى الوسيط بدأ يظهر فى أواخر الثلاثينيات من هذا القرن فى دراسات بوويك F.M. Powicke فقد ترك اهتمام هذا الباحث بمظاهر التقوى فى العصور الوسطى أثراً لايستهان به على السيرة المسهبة التى كتبها عن الملك الانجليزى هنرى الثالث Henry III الذى عاش فى القرن الثالث عشر . ونشرت هذه السيرة فى سنة ١٩٤٧ . وهى تعتبر تحولا جذريا عن تاريخ النظم السياسية . إذ يحاول هذا الكتاب تقييم هنرى الثالث ومعاصريه باعتبارهم بشراً حقيقيين لامجرد ملك ، وموظفين وبارونات ، ويصور زعماء المجتمع الوسيط على أنهم قادة تجمعهم مثل عليا مسيحية واحدة . وعلى أية حال ، فإن المدرسة الدينية الشخصية تمثلت على أفضل وجه فى التاريخ الذى كتبه نولز عن الجماعات الدينية الانجليزية فى أربعة مجلدات والذى نشر منه المجلد الأول سنة ١٩٤٠ ، ويعد هذا الكتاب واحداً من أعظم الأعمال التاريخية التى انتجتها القرائح الانجليزية منذ ماكولى Ma-caulay [٢] ، إلا أن أهميته لاتكمن فى غرضه المعلن ، وهو إيراد تفاصيل تاريخ الديرية، بقدر ماتكمن فى قدرة الكاتب الفائقة على تحديد مواقف وأخلاقيات الزعماء الدينيين فى

---

(٢) هو "توماس بابنجتون ماكولى Thomas Babington Macaulay" (١٨٠٠-١٨٥٩) كان من رأيه أن الحقائق ليست سوى نفاية التاريخ ، ولذا فإن أهم مايوجه إليه من نقد أنه لايلتزم بالحقيقة فى معالجة الماضى ، ومع ذلك حقق كتابه "تاريخ انجلترا History of England" الذى أصدره فى أربعة مجلدات (ولم يكمل الخامس بسبب وفاته) نجاحا لايبارى .

العصور الوسطى ، إذ استطاع نولز أن يحقق المقياس النقدى الذى وضعه كولينجوود Col-lingwood (٣) فيلسوف ومؤرخ أوكسفورد الذى كان لكتابه "فكرة التاريخ Idea of his-tory" تأثير قليل نسبيا فى انجلترا - فقد كان من رأى كولينجوود أن التاريخ يجب النظر إليه من داخله ، كما يجب على المؤرخ أن يكون قادراً على استرجاع المثل العليا والمواقف التى ارتبطت بشخصيات العصور الماضية .

أما النموذج الآخر للمدرسة الدينية الشخصية الانجليزية فهو سوثرن الذى خلف أستاذه بوويك كرائد لمؤرخى العصور الوسطى فى أوكسفورد .

ويقدم لنا كتاب سوثرن المسمى "تكوين العصور الوسطى The making of the Middle Ages " أهم مناحى التغير الثقافى والدينى فى القرنين الحادى عشر والثانى عشر على نحو لم يفعله أى كتاب آخر بأية لغة ، إذ أن الكاتب أضفى على تجربة أهل العصور الوسطى صفة ذاتية حتى أننا نراه يتحدث باقتدار عن رجال الكنيسة فى القرن الثانى عشر كما لو كانوا معاصرين له وأصدقاء ، وفى كتاب سوثرن أمست تيارات التقوى العاطفية العميقة التى نقلت إلينا قيم العصور الوسطى حقيقة ملموسة ومقبولة لدى القارىء العصرى للمرة الأولى .

وبالنظر إلى جهود بوويك ، ونولز ، وسوثرن بصفة عامة يمكن أن نقول إن هؤلاء الباحثين لايوضحون الفروق الجدلية بقدر مايرسمون صورة لحضارة تتجمع فيها الظلال المختلفة للافكار والمشاعر لتكون سوياً ملامح التدين الشامل للأمم المسيحية ، ويتمثل هذا الشمول فى تقوى زعماء العصور الوسطى ومثلهم العليا ، وتتبدى النتيجة بين يدى مؤرخ قدير مثل سوثرن ، فى الصورة البالغة الجاذبية لحضارة تؤكدها الوحدة الدينية . ويتمثل النقد الواضح لأعمال هذه المدرسة فى أن نتاجها يقلل من أهمية الوزن المادى لحياة العصور الوسطى ، كما أنها تضفى على عالم الفكر الوسيط وداعة متفائلة مفرطة بحيث تغفل المنازعات العنيفة التى شهدها العصر ، والتى كانت فى الحقيقة من طبيعة المجتمع المسيحى .

---

(٣) "روبين جورج كولينجوود Robin George Collingwood" الذى اهتم بالتقريب بين الفلسفة والتاريخ ، وله كتابان فى هذا الموضوع أولهما : فكرة التاريخ The idea of history (١٩٤٤) ، وهو مترجم إلى العربية فى أسلوب رصين ممتع ، وهو من ترجمة الأستاذ محمد بكير خليل (لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٦٨)، والثانى هو فلسفة التاريخ Philosophy of history الذى يعتبر عادة أقل من الأول فى مستواه. (المترجم)

ولم تبدأ الدراسة الأكاديمية لتاريخ العصور فى الولايات المتحدة إلا قبل الحرب العالمية الأولى بفترة وجيزة ، وكان من الضرورى أن تتأثر هذه الدراسة تأثراً عميقاً بالاتجاهات الشايعة للمدرسة الانجليزية التى كانت سائدة آنذاك فى أوساط المثقفين وصفوة المجتمع . فقد بدأت المدرسة الأمريكية فى تدوين التاريخ الوسيط كامتداد للمدرسة الانجليزية بدراسة النظم، وذلك بالأعمال التى كتبها تشارلز جروس ، وهاسكينز ، وماكلوين GH. Ilwoin وإلى حد مايمكن القول بأن المدرسة الأمريكية فى تدوين التاريخ الوسيط لم تستطع أن تخلص نفسها أبداً من هذا المنطق ، أما التاريخ الثقافى وتاريخ العصور الوسطى الباكرة فيتولى الأساتذة الألمان الذين هاجروا إلى الولايات المتحدة تدريسهما على نطاق واسع فى الجامعات الأمريكية، وكان أول ماجذب إهتمام العلماء الأمريكيين دراسة النظم السياسية والقانونية فى أوربا فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر .

وتقف مساهمة المدرسة الأمريكية المهتمة بالنظم فى معلوماتنا عن التغيرات التاريخية فى العصور الوسطى على قدم المساواة ، من حيث قيمتها ، مع مساهمة أية مجموعة أخرى من الباحثين المتخصصين فى العصور الوسطى ، إذ أن هؤلاء العلماء لم يتناولوا التاريخ الوسيط بأية اتجاهات مسبقة ، بل بقصد الكشف عن الكيفية التى ساهم بها التغير التاريخى فى العصور الوسطى فى خلق بدايات الدولة الحديثة ، بيد أن البحث فى أصول الدولة الحديثة يظل مشوباً بالعديد من أوجه القصور إذا مااعتمدنا فيه على مقياس نسبى نقيم به التغيرات التاريخية التى شهدتها العصور الوسطى ، وتتميز أعمال هاسكينز وتلاميذه بمزيج غريب ومحير من الذكاء المتوقد ، والاطلاع الواسع ، والنقص الخطير فى معالجة الكثير من القضايا التى شغلت رجال العصور الوسطى أنفسهم الى حد كبير ، وقد شاب أعمال هذه المدرسة الأمريكية نوع من اللامبالاة المستترة تجاه الصراعات المضنية فى المجتمع الوسيط .

وتمثل الحتمية الاقتصادية والتكنولوجية المدخل الرابع لمشكلة التغير التاريخى فى العصور الوسطى فى الأعمال التاريخية التى صدرت فى السنوات الأربعين الماضية ، إذ أن التغيرات الاقتصادية والتصنيع المطرد للدول النامية جعل كثيراً من مؤرخى العصور الوسطى - ومن أبرزهم هنرى بيرين Henri Pirenne روبير لوبيز Robert S. Lopez وميخائيل بوستان Michael Postan ولين هوايت Lynn White - يدركون التغيرات الجذرية المتشابهة على الصعيد المادى فى أوربا العصور الوسطى . وكما أصبح الحال بشكل عام فى مجال تدوين التاريخ الأوربى والأمريكى فى العقود الأخيرة ، ساهم مؤرخو اقتصاديات العصور الوسطى

مساهمة أكبر من مساهمة أى كتاب آخرين فى نواحى الحضارة الوسيطة ، إذ أن نمط التغير فى دوائر العمل ، وطرق التجارة ، وحياة المدن ، فضلاً عن ديموجرافية وتكنولوجيا العصر الوسيط، تجرى دراستها الآن على نطاق واسع ، بيد أن السؤال مازال مطروحاً ؛ فما أهمية التطور الاقتصادى فى حضارة لم يكن فيها ملاك الأراضى وعلماء الاكليروس على وعى تام بهذه التغيرات ؟ وكيف يكون التغير الاقتصادى هاماً فى مجتمع لايتمتع بعقلية اقتصادية ؟ إن العلاقة بين التغير الاقتصادى وسائر وجوه الحضارة لاتزال فى حاجة إلى البحث والنظر . فالتغير الاقتصادى ، على الأقل فيما يتعلق بالحضارة الوسيطة ، يجب أن يبقى فى الخلفية ، لأنه قدم إطاراً محدداً استطاع رجال العصور الوسطى من خلاله أن يحسموا إختيارهم فى مجالات الدين ، والحكم ، والفن ، والأدب ... وما إلى ذلك ، بيد أن التطور الاقتصادى فى حد ذاته لم يحسم شيئاً فى هذا الخصوص .

ويعد مارك بلوك Marc Bloch أهم باحث بين العديد من العلماء البارزين الذين بحثوا فى التطور الاقتصادى فى العصور الوسطى ، لابسبب مساهماته فى التاريخ الزراعى فحسب ، وإنما بسبب المناهج والمفاهيم التاريخية التى أرسى دعائمها ، وبسبب تأثيره على جيل جديد متمكن من مؤرخى العصور الوسطى الفرنسيين . كان مارك بلوك أستاذاً فى جامعة باريس وقتله النازيون فى سنة ١٩٤٤ بينما كان يقاتل فى صفوف المقاومة الفرنسية ، وتتميز أعماله بالإيمان بأن النظم لاتكتسب أهميتها التاريخية سوى عند دراستها فى ضوء وظائفها الاجتماعية ، وهى رؤية داخلية طبقها بالفعل منذ أواخر القرن التاسع عشر الباحث الانجليزى ميتلاند فى تحليله للقانون الانجليزى فى العصور الوسطى .

وعلى الرغم من أن بلوك كان يجنح أحياناً نحو الحتمية الاقتصادية ؛ إلا أنه كان يتمتع برؤية متكاملة شاملة للتاريخ الذى يفرض استخدام كل أنماط البحث التاريخى مجتمعة من أجل فهم نموذج مجتمع بأسره . وفى محاولته إيجاد رؤية شاملة "لمجتمع إقطاعى" وربطه بدراسة مقارنة فى النظم والمؤسسات ، وفى اقتناعه بأن المجتمع شىء أكثر من مجرد تجميع شذرات هنا وهناك ، كان بلوك يتبع التقاليد التى أرساها اميل دروكهايم Emil Durkheim وعلماء الاجتماع الفرنسيون ، ويمكن بشىء من التساهل أن نشير إلى بلوك وتلاميذه على أنهم يمثلون مدرسة اجتماعية فى التاريخ الوسيط ، وثمة اقتراحات كثيرة فى كتابات بلوك تحمل قيمة كبيرة فى معالجة وبحث التغير التاريخى فى العصور الوسطى ، منها أن الدليل الوثائقى لايوضح لنا سوى خط سير المجتمع الوسيط ، وأن على المؤرخين أن يستخدموا التخيل العقلى لاسترجاع الحضارة التى مازال خط سيرها باقيا ، وان تفانى المؤرخ الذى يهتم

بالنظم فى سبيل البحث عن الأصول يعتبر مهمة خطيرة وغير مجدية لأنها تخضع العقل لفكرة واحدة فحسب ، وأن أفضل وحدة زمنية فى تقسيم التاريخ هى تلك التى تجمع رجالاً يميزهم طابع عام ؛ أى ينتمون إلى جيل واحد .

ومنذ سنة ١٩٤٥ كانت أكثر مدارس التاريخ خصوبة هى تلك التى تكونت من زملاء بلوك وتلاميذه الفرنسيين روبير برتريش Robert Boutruche وروبير لاتوش Robert Latouche وجورج دوبى George Duby وفيليب ولف Philippe Wolff الذين كرسوا أنفسهم للدراسات الاقليمية المتعمقة ، بالاضافة إلى بعض الدراسات المقارنة الشاملة مقتفين بذلك أثر بلوك . ولم يحن الوقت بعد لتقييم التأثير الطويل المدى لهذه المدرسة على فهمنا للتغير التاريخى فى العصور الوسطى ، بيد أن هناك بعض التعليقات العامة التى يمكن الخروج بها من النظر إلى كتب أصحاب هذه المدرسة ؛ ففى المحل الأول يبدو تلاميذ بلوك وأتباعه أكثر اهتماماً بالتاريخ الاجتماعى منهم بتاريخ المجتمع . وهناك اتجاه للابتعاد عن التاريخ الكلى الشامل الذى كان بلوك يعمل فى سبيل الوصول إليه ، وذلك من أجل اجتهاد أكثر تحديداً ، وأكثر قيمة فى الوقت نفسه ، ألا وهو دراسة البناء الطبقى ، ولم يخرج من فرنسا فى الأربعينيات والخمسينيات من هذا القرن أى كتاب هام عن الملكية الفرنسية فى العصور الوسطى ، والباحث اللامع الوحيد فى هذا المجال هو روبير فوتييه Robert Fawtier الذى ينتمى إلى جيل أكبر . وبات من الواضح أن تلاميذ بلوك وأتباعه هجروا تاريخ التعليم والفلسفة فى فرنسا القرنين الثانى عشر والثالث عشر ، تاركين إياه بأيدى الباحثين الكنسيين، وتكشف الدراسات الفرنسية المعاصرة عن ميل نحو جمع المعلومات من أجل المعلومات ، كما تكشف عن كراهية للتأمل العام المستمد من النظرية الاجتماعية والأنثروبولوجية . وثمة خاصية مزعجة أخرى تتسم بها المدرسة الفرنسية تتمثل فى تأكيد وإبراز الاتجاه الذى ظهر بالفعل فى كتابات بلوك ، إذ لصق بهذه المدرسة العيب الذى شاب علماء الاجتماع والمتمثل فى قلة اهتمامهم بالأفراد ، وميلهم التلقائى لرؤية الأفراد باعتبارهم مجرد جزء من مجموعة ، الأمر الذى يؤدى إلى إهمال الشخصية الانسانية الحقة .

وقد يستنتج الدارس المبتدىء أثناء المقارنة بين أعمال هذه المدارس الخمس ، أنه كانت توجد خمس حضارات فى العصور الوسطى ، ويسقط فى هوة النسبية اليائسة ؛ ولكن الحيرة هى بداية الطريق إلى الحكمة ، فمن خلال هذا التنويع فى المداخل التى تتناول التاريخ الوسيط، قد يكون بوسعنا أن نخرج بتوفيق أكثر عمقاً ووجاهة وحذقاً عما كان يمكن تخيله منذ نصف قرن مضى .

ويبدو الاتجاه نحو إيجاد توفيق بين المدارس التقليدية فى التفسيرات الحديثة لعالم العصور الوسطى واضحاً فى الدراسات الحديثة ، إذ تتميز أعمال روبير لوبيز Robert Lopez التى قدمها حديثا باهتمامها بالنموذج العام للتغير الاجتماعى ، كما تتمتع بخاصية التخيل والحساسية التى كانت تميز أهم دراسات بلوك ، أما الباحثان النمساويان هاينريش فيختناو Heinrich Fichtenau وفريدريش هير Friedrich Heer فإنهما يربطان التاريخ الثقافى بالمشاكل السياسية والاجتماعية ، أما عالم كمبردج بولجار R.R. Bolgar فقد مزج فى دراسته عن التراث الكلاسيكى فى العصور الوسطى بين مدخل نولز وسوثرن وبين اتجاه المدرسة الجدلية الألمانية فى التاريخ الثقافى ، واهتمام المدرسة الفرنسية بالحقائق الاجتماعية . وعلى أية حال ، فقد ظهر فى فرنسا وبلجيكا جماعة من شباب المؤرخين أخذوا فى إعادة تقييم النظم السياسية والقانونية فى العصور الوسطى ، ولايحدد هذا التطور انعطافاً فى اتجاه الدراسات الفرنسية والبلجيكية نحو الاهتمام بالتاريخ الاجتماعى والاقتصادى فحسب ، بل إنه قد ربط كذلك بين النظم السياسية والقانونية ، وحقائق الحياة الاجتماعية والحضارية وذلك فى أعمال فان كينيجيم R.C. Van Caenegem ودونت Doohndt . وفى أواخر الستينيات من هذا القرن كان هناك اتفاق جديد فى الرأى حول النموذج المعقد للتغير الذى شهدته العصور الوسطى قد بدأ يتألق فى الافق .

٢- فترات التاريخ الوسيط

أظهر العمل المكثف فى ميدان البحث التاريخى على مدى أكثر من قرن من الزمان بما لايدع مجالاً للشك أن رؤية الانسانيين Humanists للفترة مابين القرن الرابع والقرن الخامس عشر كفترة لاتتميز سوى بالبربرية المتخلفة المجدبة رؤية خاطئة ولايقبلها العقل ، إذ أن هذه الفترة الممتدة فى التاريخ الأوربى ، والتى تزيد فى مداها مرتين عن الفترة الواقعة مابين عصر النهضة وعصرنا الحالى ، كانت فى حقيقة الأمر فترة تغير سريع ، بل فترة تغير ثورى فى بعض الأحيان . ولاتتسم فترة العصور الوسطى كلها بالوحدة ، إذ يمكن تقسيمها إلى ثلاث فترات متمايزة على الأقل ، ولذا فإن مؤرخى اليوم لايتحدثون عن العصر الوسيط ، ولكنهم يتحدثون عن "العصور الوسطى" وبينما يتحدثون عن "الحضارة الوسيطة" فإنهم يجنحون إلى تقسيم تطور الحضارة الوسيطة إلى ثلاث فترات متمايزة ، وقد غدا هذا التقسيم مقبولاً اليوم فى شتى أنحاء العالم ، كما صار تقليدياً لدى المؤرخين .

أولى هذه الفترات عصر طويل جداً يبدأ من اضمحلات الامبراطورية الرومانية ، ولنقل حوالى عام ٣٠٠ حتى منتصف القرن الحادى عشر ، وهو العصر الذى بدأت فيه ملامح حضارة غربية متمايزة تظهر فى خلفية الصورة . ويستطيع المرء أن يدرك هذه الملامح فى تصادم الأفكار والنظم المسيحية واليونانية - الرومانية ، والجرمانية ، ولنأخذ بالصيغة المفضلة فنقول إن العصور الوسطى الباكرة هى مرحلة الطفولة والشباب ، أو ربيع العمر بالنسبة للحضارة الغربية ، وهى فترة تتسم بقدر كبير من الفوضى والاضطراب ، حيث ابتليت أوربا الغربية بالتمزق الداخلى والغزو الخارجى المستمر على أيدى الشعوب المتحالفة التى كانت فى الغالب أقل شأناً فى مستواها الحضارى ، ويرجع الفضل إلى حد كبير لزعامة الكنيسة فى نضال هذه الحضارة فى سبيل تطوير مثلها العليا ، ثم ماتحتم عليها من مواجهة المهمة الأصعب المنوطة بها ؛ وهى تطوير النظم والمؤسسات التى كان لها أن تجسد وتنشط هذه المثل العليا فى الحياة اليومية .

وبغروب شمس القرن الحادى عشر كانت معظم هذه الأفكار قد تحققت ، وتمثلت نتيجة ذلك فى انتعاش أوربا وازدهارها الملحوظين فى مجالات الفن والأدب والفلسفة خلال القرنين الثانى عشر والثالث عشر اللذين يمثلان سويا مايسميه المؤرخون اليوم العصور الوسطى العالمية high middle ages وقد أثبت البحث المتزايد المطرد أن هذه الفترة المثمرة الناضجة المستقرة كانت قصيرة للغاية ، ومن المؤكد أنه فى النصف الثانى من القرن الثالث عشر ظهر الصراع بين المثل القديمة والممارسات الجديدة ، وهو مايعتبر مؤشراً على تدهور أية حضارة .

وتمثلت نتيجة الفجوة التى تفصل بين المثل العليا والواقع فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر اللذين يسميهما المؤرخون العصور الوسطى المتأخرة Larer middle ages وهى فترة أشبه ماتكون بسن الشيخوخة أو خريف وشتاء الحضارة الوسيطة ، ففى هذه الفترة تمزقت أوربا بالفوضى ، والانحلال الاقتصادى والسياسى ، حتى بدأت مُثل العصر الحديث ونظمه تظهر فى نهاية القرن الخامس عشر على أساس الدولة الحاكمة ، والقومية ، والفردية . ومن ثم فإن دراسة التاريخ الوسيط تقدم لنا حالة ممتازة نتتبع فيها نهوض حضارة من الحضارات ونرقب ازدهارها وأفولها ، وفيما يتعلق بأوربا العصور الوسطى فإن الوثائق اللازمة لدراسة تاريخها أكثر منها فى تاريخ أية حضارة أخرى أتمت تطورها واتضح نموذجها من حيث النمو والنضج ثم التدهور والاضمحلال أمام ناظرى من يدرسون المجتمع والحضارة .

ومع عدم إغفال قيمة مثل هذا التقسيم التقليدى لفترة العصور الوسطى ، وفعاليته العامة، فإن هذا الكتاب سوف يستخدم تقسيماً إضافياً أكثر جدوى ودقة من التقسيم التقليدى ، إذ أننا نبدأ بمناقشة اضمحلال حضارة البحر المتوسط ، وبزوغ الكنيسة المسيحية حتى القرن الرابع ، وهذه هى فترة الأسس اللاتينية والمسيحية لحضارة العصور الوسطى (الجزء الأول) ثم مناقشة ظهور مجتمع جديد متمايز فى العصور الوسطى فى الفترة من سنة ٤٠٠ حتى سنة ٧٢٥ ، وينبغى هنا أن نركز اهتمامنا على الأسس الجرمانية للحضارة الأوربية وتأثير التوسع الإسلامى (الجزء الثانى) ويلى ذلك من سنة ٧٢٥ حتى سنة ٩٠٠ عصر واعد بالكثير وإن لم يتحقق كل شىء . وهذا هو العصر الذى تحقق فيه أول توفيق بين المنابع اللاتينية والمسيحية والجرمانية ، ذلك التوفيق الذى خلق أوربا الأولى ، ومن الواجب أن نفحص مميزات أوربا الأولى هذه بالمقارنة مع حضارتين منافستين ومعاصرتين هما حضارة بيزنطة وحضارة الإسلام (الجزء الثالث) وفى فترة التوازن والتقدم الناجحة بين سنة ٩٠٠ وسنة ١٠٥٠ أمكن تلاشى أخطاء أوربا الأولى ، وفى خلال هذا العصر بدأت نظم أوربية كثيرة فى الظهور (الجزء الرابع) وعلى كل حال ، فقد إنهار التوازن الذى شهدته العصور الوسطى خلال الفترة من سنة ١٠٥٠ إلى سنة ١١٣٠ نتيجة لأزمة الوعى بين الكثيرين من زعماء الكنيسة . ويجدر بنا أن نفهم الصراعات الكبرى فى ذلك العصر الذى تميز بالاصلاح الجريجورى باعتباره نقطة تحول أساسية فى التاريخ الوسيط (الجزء الخامس) . بيد أن المشتركين فى تلك الصراعات سرعان ما أفسحوا الطريق أمام جيل جديد ، وتميزت الفترة من سنة ١١٣٠ إلى سنة ١٢٠٠ بالنمو العظيم فى جميع نواحى الحياة ولاسيما فى الشئون الدينية ، والدراسات الإنسانية ، والسلطة الزمنية ، وينبغى أن نفحص بالتفصيل ماتحقق من إنجازات وأن ندرس الرجال الذين كانوا يقودون هذه التطورات (الجزء السادس) . ولكن ما أن أهل عام ١٢٠٠ حتى كانت نتائج النمو الذى شهده القرن الثانى عشر قد باتت واضحة ، وحينذاك بدأت محاولات يائسة من قبل قادة الفكر والسياسة الأوربيين لوضع الاتجاهات والميول المتعارضة المتنافرة فى صيغة متوازنة جديدة. وكانت الفترة من سنة ١٢٠٠ إلى سنة ١٢٧٠ فترة تلخيص النتائج وتنظيم الأمور أكثر منها فترة خلق وابتكار (الجزء السابع) ، إلا أن هذه الجهود الجبارة أخفقت فى تجنب الصراع الذى تمثلت نتائجه فى المواجهات العنيفة المدمرة فى الفترة مابين سنة ١٢٧٠ وسنة ١٣٢٥ . وحينئذ إنقطع إتصال الأزمنة ، وإتضح عمليا الاضمحلال والفشل (الجزء الثامن) . أما الفترة الختامية فى التاريخ الوسيط فتهتم بالعصر الذى يمتد من سنة ١٣٢٥ حتى سنة

١٥٠٠ ، وهى فترة تميزت بالحروب ، والأوبئة ، والتدهور الاقتصادى ، فضلاً عن الخصومات الدينية والفكرية المريرة ، وبعض ملامح العصر الحديث (الجزء التاسع) .

وفى هذا التقسيم الجديد للتاريخ الوسيط نجد أن الأجزاء الأربعة الأولى تختص بالعصور الوسطى الباكرة والأجزاء الأربعة التالية تختص بالعصور الوسطى العالمية والجزء التاسع والأخير يختص الفترة الوسيطة المتأخرة .

٣- موضوعات التاريخ الوسيط الباكر

إذا ماتحولنا الآن صوب العصور الوسطى الباكرة ، فإنه سيكون من المفيد أن نؤكد ثلاثة موضوعات سيتم التركيز عليها فى الأجزاء من ١-٤ من هذا الكتاب .

وقد تم اقتراح الموضوع الأول بالفعل ، إذ كانت فترة العصور الوسطى الباكرة فترة ظهور حضارة غربية متمايزة ، وتشكلت المثل العليا التى ميزت الحضارة الأوروبية الغربية من خلال ميراث العالم القديم فى ظل الظروف الجديدة ، وسوف نرى الناس فى العصور الوسطى يناضلون فى سبيل صياغة هذه المثل العليا منذ القرن الثامن ، وستتولى الكنيسة زمام هذا العمل لأنها كانت المؤسسة الوحيدة التى تتمتع بالقدر الكافى من القوة بحيث تستطيع القيام بدور القيادة المطلوبة ، وبحلول عام ٨٠٠ ، أثناء حكم شارلمان ، تمت صياغة الشطر الأكبر من هذه المثل العليا ، التى بدأت تؤثر فى كل مناحى الحياة السياسية والاجتماعية ، وعلى أية حال ، فإن القرن الحادى عشر لم يكد ينتهى حتى كان لدى أهل العصور الوسطى الوسائل الكافية لوضع مثلهم العليا موضع الممارسة بشكل ثابت وعلى نطاق عالمى فى إطار معقول .

أما الموضوع الثانى الذى نقصد بحثه فهو تأثير الكنيسة المسيحية والملكية الجرمانية المتبادل على كل منهما ، وهو مايقودنا إلى بحث المشكلات الناجمة عن علاقات الدولة والكنيسة ، تلك المشكلات التى لايزال بعضها قائماً حتى اليوم ، ومن ثم يجب علينا فحص عقائد وسلطة كل من الكنيسة والملكية والكيفية التى تؤثر بها كل منهما فى الأخرى .

وفى نهاية المطاف ، سنولى اهتمامنا لا لأوربا الغربية فقط ، ولكن أيضاً لعالم البحر المتوسط بأسره ، وسننظر إلى الحضارتين اللتين فرضتا وجودهما بجانب الحضارة الأوروبية ، ونعنى بهما الحضارة البيزنطية والحضارة الاسلامية باعتبارهما خليفتين للامبراطورية الرومانية فى حوض البحر المتوسط وسنقتفى أثر النضال الذى خاضته الحضارة الأوروبية ضد هاتين الحضارتين من أجل البقاء أولاً ، ثم من أجل السيادة والتفوق .

من أين تبدأ دراستنا لقصة حياة وموت حضارة العصور الوسطى ؟ لقد تركت الدراسة الحديثة كلاً من البداية والنهاية مسألة تقديرية غير محددة . ولكن نفهم حضارة العصور الوسطى ، وكيف صارت على ماهى عليه ، ينبغى أن نحدد أصولها فى فترة تدهور العالم القديم بشكل واضح . ومن ثم فإن البداية الصحيحة للعصور الوسطى تبدأ بالأمبراطورية الرومانية واضمحلالها بعد مرحلة ازدهارها التى شهدها القرن الثانى بعد الميلاد .

الجزء الأول
المصير الرومانى
من القرن الثانى حتى القرن الخامس

إن المصير الامبراطورى يسير باتجاه
صعب سوى فرقة أعدائنا .

تاكيتوس

إن العالم الرومانى يسقط ، ومع ذلك
فإننا نرفع رؤوسنا بدلاً من أن نحنبها .

سان جيروم

الفصل الأول
الاضمحلال والسقوط

١- الامبراطورية الرومانية فى القرن الثانى بعد الميلاد

كان ادوارد جيبون يعتقد أن الناس عاشوا أسعد أيامهم تحت حكم الامبراطورية الرومانية فى القرن الثانى بعد الميلاد . وفى وسعنا أن نقوم بمناقشة معقولة للرأى القائل بأن ذلك العصر كان هو العصر الذهبى للانسان ، إذ أن الرومان لم يكونوا على قدر عظيم من الابداع ، وإنما كانت براعتهم تنحصر فى أنهم نبنوا أفضل أفكار عالم البحر المتوسط ونظمه ثم مزجوها فى نظام عضوى مترابط ، فعن حكام عالم البحر المتوسط السابقين أخذ الرومان الأفكار والنظم ثم صاغوها فى حضارة عالمية جديدة ، وساهم المصريون ، والأغريق ، والامبراطورايات الهلينستية والفرس جميعا مساهمة فعالة فى الحضارة الرومانية التى شهدها القرن الثانى ، ولاحظ الشاعر فرجيل Vergilius صاحب الإينيادة ، التى كانت تعبيرا واعيا عن أيديولوجية الحكم الامبراطورى ، أن "بناء الدولة الرومانية كان عملا عظيما " والواقع أن الرومان القدماء كانوا هم وحدهم بين كل شعوب البحر المتوسط الذين يتمتعون بصفات التضحية بالنفس ، وجنون العظمة ، وانعدام الرحمة والقسوة بالقدر الذى جعلهم يخلقون إمبراطورية عالمية .

ففى مطلع القرن الثانى كان الامبراطور الرومانى يحكم دولة عالمية عظمى تمتد من الفرات حتى استكتلنده ، ومن الدانوب حتى الصحراء . وفى هذه المنطقة عاشت مجموعات جنسية ولغوية وحضارية تتباين فيما بينها تباينا كبيرا ، ولكن اللغة اليونانية الهللينستية كانت هى اللغة السائدة فى النصف الشرقى من الامبراطورية ، بينما كانت اللغة اللاتينية سائدة فى الغرب . وعلى قمة هذا الصرح الضخم تربع الامبراطور الذى كان فى القرن الثانى حاكما مستبدا تحيط به مظاهر تخلع عليه صفات مقدسة . وارتكزت حكومته على بيروقراطية نشيطة متواضعة فى حجمها وجيش كبير . وكان الأباطرة بشكل عام رجالا ذوى كفاءة خلقوا السلام الرومانى Pax Romana؛ وهو عبارة عن وحدة اقتصادية وسياسية شاسعة الأبعاد مركزها البحر المتوسط الذى قامت فى بلدانه مدن عظمى ، وكان الجزء الغربى من الامبراطورية، باستثناء ابطاليا ، أقل سكانا وتحضرا من النصف الشرقى . ولكى نفهم حوادث السنوات الألف التالية ، فإنه يجدر بنا أن نخلص أنفسنا من المفاهيم المسبقة عن تاريخ أوربا ، وهى المفاهيم التى كانت نتاجا لتطورات العصور الوسطى . أما شمال فرنسا وانجلترا ، اللتان

قدمتا الكثير من القيادات فى مرحلة متأخرة من مراحل الحضارة الغربية ، فقد كانتا مجرد مركزى استطلاع خلفيين للعالم الرومانى .

وحتى وقت متأخر من القرن الثانى كان الامبراطور يسيطر على الحكومة والقانون ؛ ولكنه لم يكن يتدخل فى الحياة الاقتصادية والدينية والثقافية سوى بقدر محدود ، وأدى هذا التحرر من السيطرة الامبراطورية إلى الازدهار وممارسة كل أنواع التعبير الفكرى . وعلى أية حال ، يجب الاعتراف بأن الامبراطور كان يفتقر إلى الأداة البيروقراطية الكبيرة التى تمكنه من السيطرة على مقاليد الحياة الاقتصادية والثقافية . ولكن على الجانب الايجابى كان ازدهار الامبراطورية يتوقف إلى حد ما على انتشار المثل العليا للصالح العالم بين أفراد الطبقة الحاكمة فى الامبراطورية . وقد أعلن فرجيل أن واجب الامبراطورية أن "تأخذ بيد المتواضعين وتسحق أبناء الكبرياء" وتكلم داعية آخر من دعاة الحكم الامبراطورى هو الشاعر هوراس Horasius كلاما مماثلا . وليس هناك فصل مجيد فى التاريخ الرومانى مثل الفصل الذى انتشرت فيه الدماثة الانسانية Humanitas بين أولئك الأجلاف الأنانين الذى قهروا عالم البحر المتوسط . وكان الأغريق على وجه الخصوص من بين كل الشعوب المغلوبة ، هم الذين لقنوا سادتهم الجدد المثل العليا الرواقية التى تدعو إلى الإخاء بين شعوب العالم ، كما تدعو إلى إيثار الغير ونكران الذات من أجل رفاهية الإنسان والدولة العالمية . وفى القرن الثانى صارت الفلسفة الرواقية فلسفة واسعة الانتشار بين أفراد الطبقة الارستقراطية وفى أوساط المتعلمين ، كما أثرت على تطور القانون الرومان إلى حد كبير ، وبحلول عام ٢١٢ أصبح كل الأهالى الأحرار فى الامبراطورية مواطنين فى روما [١] (كان لايزال هناك عدد كبير من العبيد) وتم تنفيذ هذا الإجراء بمقتضى القانون الرومانى ، كان الرومان مجددين فى مجال القانون ، إذ أنهم أبدعوا واحدة من أحسن مجموعات القوانين فى العالم ، وكانوا يعتقدون أن كل المواطنين مهما كانت أعرافهم يستظلون بحماية قانون موحد .

كانت هناك جوانب كثيبة فى حياة العالم الرومانى يفضل علماء الدراسات الكلاسيكية أن يغفلوها على الدوام ، فقد كانت هناك جموع غفيرة من العبيد ، وأحياء فقيرة شاسعة تكتظ بالسكان ، واستشرى هناك الفقر المدقع والشذوذ لجنسى، ومع ذلك تبقى حقيقة لانختلف

---

(١) هذه الاشارة إلى القانون الذى منح به الأمبراطور كاراكلا (٢١١-٢١٧) حقوق المواطنة الرومانية لجميع السكان الأحرار فى الامبراطورية الرومانية . (المترجم)

هبرانيا
المحيط الجرماني
بريطانيا
بلاد الجرمان
سارماتيا
المحيط الأطلنطي
بلاد الغال
إليريا
البحر الأسود
أسبانيا
كورسيكا
روما
تراقيا
إيطاليا
سردينيا
أنطاكية
بالميرا
قبرص
دمشق
سوريا
كريت
البحر المتوسط
أفريقيا
قرطاجة
مصر
بلاد العرب

الإمبراطورية الرومانية عند بداية القرن الرابع
طرق التجارة الرئيسية

عليها وهى أن الامبراطورية الرومانية فى القرن الثانى قدمت صورة لحضارة مشرقة انتشرت فيها المدن المزدهرة ، وعمت فيها الخدمات الصحيحة ، وسيطرت فيها الإدارة الحاذقة ، والنظام القانونى الذى لايبارى ، فضلا عن النشاط الثقافى المزدهر ، وثمة طريق سلمى آمن فعال كان مفتوحا فى القرن الثانى أمام أبناء الطبقة الوسطى والارستقراطية فى الامبراطورية الرومانية. وبالرغم من ذلك بدأ اضمحلال الامبراطورية منذ نهاية القرن الثانى .

٢- أزمة العالم الرومانى

عُرفت مشكلة سقوط الامبراطورية الرومانية بأنها أكبر مشكلة فى التاريخ ، لأنها جزء من المشكلة المتعلقة بالأسباب التى تؤدى إلى إخفاق أية حضارة من الحضارات . ولهذا السبب حاول كثير من المؤرخين اكتشاف عيوب الحضارة الرومانية وتمثلت نتيجة هذه المحاولة فى عدد كبير من الاستنتاجات .

كانت روما فى قمتها فى القرن الثانى ، ولكن عيبا أساسيا كان كامنا فى بنائها السياسى، فلم يكن ثمة مبدأ محدد لطريقة ولاية العرش الامبراطورى . فقد كان اعتلاء العرش فى القرن الثانى يتم بالتعيين من قبل الامبراطور السابق ؛ إلا أن هذا النظام انهار فى القرن الثالث ، وهو ما أدى إلى صراع مرير لعب فيه الجيش دورا كبيرا تسبب فى الأضطراب وعدم الاستقرار . وكانت الفوضى هى النتيجة المتوقعة إذْ أخذت كل فرقة من فريق الجيش تحاول إجلاس قائدها على عرش الامبراطورية . وفى النصف الأخير من القرن الرابع تقرر مبدأ وراثة العرش ، وهو المبدأ الذى ساد فى الامبراطورية البيزنطية فى العصور الوسطى . وقد نشبت قبل استقرار هذا النظام ، حروب أهلية وثورات متوالية ، وكان احتمال تمرد الجيش يهدد الامبراطور على الدوام . وبالرغم من أن روما أنجبت الكثيرين من رجال الدولة والسياسيين ورجال القانون، شأن سائر دول العالم القديم ، فإنها فشلت فى انجاز ثورة صناعية . ولهذا السبب تفاقمت الأزمات الاقتصادية فى أواخر القرن الثانى ، فقد بقيت الأساليب الصناعية على حالتها ؛ ومعنى ذلك أن الصناعة ظلت معتمدة على العمالة اليدوية ، ولم يتم تطوير سوى عدد قليل من الآلات بعد بداية العصر المسيحى ، وبالرغم من أن الاغريق عرفوا فكرة الآلة البخارية ، فإنها لم تستخدم فى الصناعة على الاطلاق فلماذا كان الفشل فى تطبيق العلم على التكنولوجيا ؟ كان هناك خطأ ما فى الفلسفة السائدة بين القادة الارستقراطيين الذين لم يحبذوا مثل تلك الأساليب ، ولم يكن هناك دافع قبل نهاية القرن الثانى يحث على اكتشاف مصادر جديدة للطاقة ، كما أنه لم تكن هناك حاجة لذلك طالما أن طاقة العبيد

المجلوبين من البلدان المستعمرة كانت كافية للانتاج ، وكان يمكن مضاعفة الانتاج عن طريق مضاعفة عدد العاملين من العبيد، كما أن سهولة الحصول على الطاقة الانتاجية من أعمال العبيد لم تشجع على اختراع آلات أو أساليب صناعية جديدة . ولذلك يمكن القول بأن الخطأ الجوهرى فى نظام الاقتصاد الرومانى كان ماثلا فى نظام العمالة .

وفضلا عن عدم تشجيع البحوث الصناعية والتطوير التكنولوجى فإن تشغيل العبيد حدد نوعية السلع المنتجة ؛ فقد أدى الانتاج البسيط نسبيا إلى سهولة التقليد ، كما وقف عقبة فى تطوير المنتجات . فعلى سبيل المثال كانت الملابس المنتجة سهلة التقليد بسبب بساطة تصميمها ، وتقدم صناعة الفخار مثالا آخر على سهولة تقليد السلع البسيطة . فالواقع أن صناعة الفخار اليونانية القديمة واجهت منافسة من جنوب بلاد الغال فى القرن الثانى ، وأدت هذه الحال إلى عدم انتعاش التجارة الخارجية لعدم وجود المنتجات المحلية الجيدة ، وبدلاً من التوسع فى تنشيط التجارة الخارجية كان هناك اتجاه متزايد نحو الاكتفاء الذاتى ، أى الانتاج من أجل الاستهلاك المحلى والاستغناء عن الاستيراد من الولايات الاخرى ، واذا كانت هناك بعض المحاولات الناجحة لإحياء التجارة الخارجية فى القرن الرابع ، فإن الامبراطورية الرومانية، كوحدة اقتصادية كانت قد بدأت فى التحلل والتفكك باطراد منذ أواخر القرن الثانى بشكل عام .

ومع ذلك فإن الرغبة المستمرة فى الحصول على السلع الترفيهية أبقت على التجارة مع العالم الواقع فى شرق الامبراطورية ، ولما لم يكن لدى روما من السلع الجيدة ما تقايض به على السلع الشرقية الفاخرة ، فقد كان عليها أن تدفع ثمن هذه السلع الشرقية بالنقد . ومن ثم كان هناك نزيف ملحوظ للذهب فى اتجاه الشرق ، مما أحدث صدعا فى نظام الامبراطورية الاقتصادى ، وهكذا كان الاقبال على استيراد البضائع الفاخرة من الشرق مؤشرا لإخفاق الرومان فى تثبيت نظام اقتصادى سليم . لقد كان للرومان فى الماضى نظام نقدى ثابت ، ولكن أباطرة القرن الثالث خفضوا قيمة العملة فى محاولة لتدعيم مالية الدولة ، ولم يدرك أغلب الأباطرة أن مثل هذا الاجراء لابد أن يؤدى إلى ارتفاع الأسعار ، لأنهم لم يفهموا هذه الأمور على أنها تضخم .

وكانت تقابل عيوب الامبراطورية فى مجالات التجارة والصناعة والمالية أزمات فى الحياة الزراعية ، فقد كانت الزراعة فى زمن الجمهورية تعتمد على صغار المزارعين الذين كانوا يمثلون العماد السكانى ، والذين قدموا للجمهورية قيادات فى المجالات السياسية والعسكرية . ومنذ

القرن الأول قبل الميلاد بدأت المزارع الصغيرة تتراجع أمام اللاتيفونديا Latifundia، وهى الضياع الكبيرة التى كانت تعتمد على عمالة العبيد ، والتى تعد الأساس لإقطاعيات العصور الوسطى . والحقيقة أن تشغيل العبيد كان يتم بصورة سيئة للغاية ، وكان صغار المزارعين ينزحون إلى المدينة ، بينما كان العبيد يواصلون العمل فى الأرض ، وكان مالك الضيعة هو الذى يجنى وحده الأرباح والمكاسب . وهذا النحو الذى سارت عليه الحياة الزراعية كان له أثر بعيد المدى على الحياة العسكرية ، لأن المواطنين الذين يعملون بالزراعة كانوا يشكلون العمود الفقرى للجيش الجمهورى والفرق العسكرية فى عهود الامبراطورية الأولى ، ولذلك فما أن حل القرن الثانى بعد الميلاد حتى برزت إلى الوجود مشكلة الحصول على الجنود اللازمين لتكوين جيش يعتمد عليه .

ويبدو أن الامبراطورية فى عهودها الأخيرة عانت من تدهور فى عدد السكان ، وهو التدهور الذى كان نتيجة لانتشار الأوبئة على الرغم من أن مشكلة القوة البشرية كانت نتيجة عوامل اجتماعية أكثر من كونها نتيجة عوامل ديموغرافية (سكانية) ، لأن الامبراطورية كانت فى عام ٣٠٠ تضم عددا يتراوح بين خمسين وسبعين مليون نسمة ، وهو عدد كبير يكفى للاحتفاظ بجيوش قوية ، غير أن الأباطرة كانوا يخشون تزويد الفرق العسكرية بأبناء الطبقة الارستقراطية حتى لايحاولوا الاستيلاء على الحكم . كما أن أبناء الطبقة المتوسطة لم يكونوا يرغبون فى ترك أعمالهم ، وكانوا شغوفين بأى شيء سوى الالتحاق بالخدمة العسكرية . وبقى هناك مصدران للقوة البشرية : العبيد وبروليتاريا المدن ، والأعداء الرابضون على الحدود الشمالية ونعنى بهم العشائر الجرمانية . لقد كان الجرمان يريدون الأخذ بأسباب الحياة فى عالم البحر المتوسط ، وفى أواخر القرن الثانى بدأ الأباطرة فى توطين القبائل الجرمانية داخل حدود الامبراطورية لتكون حزام أمن ضد القبائل الجرمانية الأخرى . ومُنح هؤلاء المتحالفون الأرض والامتيازات فى مقابل هذه الخدمة . أما المتاعب التى نجمت عن هذه السياسة فقد كانت كامنة فى زعماء الجرمان ، إذ ارتقى هؤلاء الرجال وتولوا مناصب قيادية عليا فى الجيش الامبراطورى وكادوا يستولون على العرش على حين كانوا يتوانون عن مهاجمة أبناء عشائرهم من الجرمان ، فقد كشف تاريخ الغزوات الجرمانية عن خيانة بعضهم للامبراطور .

كانت المشكلة النهائية للامبراطورية تتمثل فيما أصابها فى الصميم ، فقد تدهورت روما نفسها كمركز اقتصادى ، بينما ظلت مركزا للحكم ، وبحلول عام ٢٠٠ كانت روما تغص بشراذم الغوغاء التواقين إلى التمرد والإخلال بالأمن . واضطر الأباطرة فى بعض الأحيان إلى مقابلة العنف باجراءات بالغة القسوة ، واضطروا فى أحيان أخرى إلى استمالة الرعاع بحفلات السيرك وعطايا القمح .

وعند وفاة ماركوس أوريليوس Marcus Aurelius فى سنة ١٨٠ بدأت فترة عمت فيها الفوضى صفوف الجيش ، وسادها تدهور اقتصادى شديد ، وعلى مدى خمسين سنة (٢٣٥-٢٨٥) تعاقب على ولاية العرش ثمانية عشر امبراطورا كان جل اهتمامهم موجها إلى إغداق الأموال على الجنود ، بل إن واحدا من الأباطرة[٢] نادى صراحة بهذه السياسة ، وأسداها نصيحة إلى خليفته وهو على فراش الموت . واستمرت قيمة العملة فى الهبوط ، وأخذت تظهر علامات الفشل على برنامج السلام الرومانى ، وسرعان ما اخترق الجرمان مواقع الدفاع على طول الحدود ، ونشط القراصنة فى البحار . ولكن بالرغم من ذلك ظل المثل الامبراطورى الأعلى ماثلا فى الأذهان ، واستطاعت الامبراطورية أن تصلح من شأنها من جديد بعد أن عادت إلى سياسة المركزية فى عهد دقلديانوس وقسطنطين من سنة ٢٨٤ حتى سنة ٣٣٧ .

ورأى دقلديانوس، الذى كان قائدا بلقانيا من أصل ريفى ، أن الأوقات العصيبة التى تمر بها الامبراطورية تتطلب القيام باجراءات حاسمة ، فعمل على إصلاح النظام الاقتصادى ، وأقام نظاما مركزيا على غرار النظام المصرى القديم ، وجاء قسطنطين ليضع اللمسات الأخيرة فى هذا الصرح الضخم ، إذ أن دقلديانونس رفع الامبراطور إلى مكانة مقدسة على الطريقة الشرقية ؛ من حيث العرش المرتفع ، والتيجان ، والثياب الأرجوانية ، هذا الرفع المادى والمعنوى للمنصب الامبراطورى أعاد للامبراطور كثيرا من هيبته . فقد كان تأثير هذه الاجراءات عظيما على الناس ذوى التعليم البسيط والتفكير المتواضع ، ودعم دقلديانوس البيروقراطية بجهاز من الشرطة السرية والمخبرين ، كما فرض عقوبات تصل إلى حد التعذيب على المخالفين ، وعمل على الحد من امتيازات المدن التى كانت تتمتع فى أرجاء الامبراطورية بما يشبه الحكم الذاتى ، وغدت جميع المدن بذلك خاضعة للحكم المركزى ، وصدر مرسوم إمبراطورى فى محاولة لتثبيت الأسعار . وحتى فيما يتعلق بشئون الكنيسة صارت الكلمة النهائية للامبراطور . وأدى ذلك كله إلى إنعكاش اقتصادى محدود قام فى معظمه على أساس الثقة التى أشاعها تداول العملة الجديدة ؛ مما جعل معدل التدهور والاضمحلال أكثر بطئا ، بيد أنه قضى بذلك على رخاء الطبقة الوسطى بواسطة ما استحدثه من ضرائب لتمويل الجيش والجهاز البيروقراطى . واقتضى النظام الضريبى القاسى أن يضطلع أبرز رجال الأعمال (وهم مستشارو المدن Curials) بمسئولية جمع الضرائب فى مدنهم ، وتعين عليهم أن

---

(٢) هو الامبراطور سبتميوس ساويرس Septimius Severus ١٩٣-٢١١م الذى قال لأبنائه "إغدقوا المال على الجنود ، ولاتلقوا بالاً لغيرهم" . (المترجم)

يسددوا أى عجز من ذمتهم ، وبفضل هذا النظام البالغ القسوة وغيره من الالتزامات - مثل إجبار الرجل على البقاء فى مهنة أبيه ، وعلى دفع ضريبة ثابتة القيمة بغضّ النظر عن حالته ودرجة ثرائه - أجّل الامبراطوران المصلحان إنهيار الامبراطورية النهائى . ذلك أن اصطلاحات دقلديانوس وقسطنطين حفظت كيان الامبراطورية من السقوط على مدى قرن من الزمان إلى أن صارت الكنيسة قوية بالقدر الذى يمكنها من تولى قيادة المجتمع فى القرن الخامس . وعلى أية حال ، فقد كان الدواء ، الذى وصف للامبراطورية ، أكثر سوءا من الداء .

فى تناولنا لمختلف النظريات التى عالجت تدهور الامبراطورية وسقوطها ينبغى علينا أن نحدد بدقة ماهو المقصود . إذ يجب علينا أن نوضح ما إذا كان المقصود هو تدهور الحضارة ، أم المثل الأعلى ، للامبراطورية ، أم الدولة الرومانية ذاتها . لقد أثار اضمحلال الامبراطورية ، باعتبارها حضارة ، الجدل الأكبر بين المؤرخين . وفى وسعنا ، من غير شك ، أن نستبعد الأسباب المنافية للعقل مثل تلك التى ترجع سقوط الامبراطورية الى موجات وباء الملاريا ، وأن نتجاوزها إلى نظريات أكثر عمقا حول تدهور الحضارة الرومانية .

يوضح بعض الباحثين أن روح الحضارة القديمة نمت وتقدمت فى المدينة - الدولة City-State ومع التدهور الحضرى المطرد ، انهارت الحضارة وتلاشت روحها . ومن الممكن أن يكون هذا التفسير سليما ، ولكنه يهتم بالسببية الوسيطة فقط ويهمل الأسباب النهائية . فما الذى أدى إلى تدهور الحضارة ؟ وثمة نظرية أخرى تقول إن الاستشراق هو سبب الانهيار الرومانى ، لقد كان هناك بالفعل استشراق عن طريق التزاوج ، ولكن التغير الذى نتج عن ذلك لم يكن ذا بال وأهم من ذلك بكثير هو الاستشراق الأخلاقى والثقافى ؛ أى تسرب روح جديدة وحضارة جديدة من الشرق إلى كيان العالم الرومانى . وهذه النزعة الصوفية الجديدة جعلت الناس يتخلون عن اهتمامهم بأمور هذا العالم . ومن الواضح أن ثمة تغير فى قيم العالم الرومانى ومثله قد حدث بين عام ١٥٠ وعام ٤٠٠م ، ونتج عن ذلك أن افتقد المجتمع العناصر القيادية الحقة ، فالرجال الذين كانوا يتمتعون بمقدرة عظيمة ، مثل أمبروز Ambrose وأوغسطين Augustine ، كان من الممكن أن يعتركوا الحياة السياسية لو لم يكرسوا أنفسهم لخدمة الكنيسة ، وهم الذين كانوا سيوفرون الزعامة التى افتقرت إليها الامبراطورية .

يرى ميخائيل روستفتزف Michael Rostovstzeff ، أعظم مؤرخى الامبراطورية الرومانية ، أن تمرد الجماهير هو سبب التدهور . إذ أن أفراد الطبقات الدنيا من الكادحين والعبيد - أو ذرياتهم على الأقل - ارتقوا إلى أعلى المناصب وتمكنوا من السيطرة على الجيش

والحكومة ، ولم يكن لهذه الطبقات بطبيعة الحال حظ من التعليم فى العصور الكلاسيكية كما كان مفهومهم عن المثل الأعلى الامبراطورى غامضا ، ولم يكن لديهم الوعى الكافى لاحترام حرية الفرد والقانون . هؤلاء الرجال ذوو الأصل المتواضع والمجهول وصلوا الى مواقع السلطة فى القرنين الثالث والرابع ، وعجزوا عن فهم تقاليد الصفوة التى كانت تسيطر على الإمبراطورية فى القرن الثانى . ولم تستطع حضارة الصفوة التى عرفها العالم القديم أن تقاوم استقطاب الجماهير لها . ويكمن الضعف فى تفسير روستفتزف فى أنه يقدم صورة واضحة قاطعة "للجماهير" فى مواجهة "الطبقات" . لقد حدث بالفعل أن تولى السلطة فى أواخر عصر الامبراطورية رجال من الكادحين والفلاحين ، رغم بقاء الكثيرين من أفراد الطبقة الارستقراطية فى المناصب الحكومية ، الا أن هؤلاء القادة الجدد للطبقة الدنيا لم تكن لديهم أية رؤية طبقية خاصة ، ومن المؤكد أنهم لم يعتبروا أنفسهم قائمين بثورة طبقية .

وفى العصر الحديث لاقت آراء أرنولد توينبى قبولا واسعا . ويقدم لنا توينبى تفسيرين أولهما : أن تدهور الحضارة القديمة بدأ منذ الحرب البلوبونيزية ؛ وما تاريخ الامبراطورية بأسره إلا خاتمة لإخفاق الحضارة اليونانية . وثانيهما ، أن الحضارة الرومانية ، شأنها شأن كل الحضارات فشلت فى استجابتها للتحدى ، وكل مافى الأمر أن استمرار هذا الفشل أدى إلى أن تبوأت الكنيسة المسيحية مكانتها ، وأن أصبحت الديانة المسيحية بمثابة الشرنقة التى سوف تخرج منها حضارة أوربا القادمة . وبينما تبدو النظرية الأولى غير معقولة . فإن الثانية تحصيل حاصل ، برغم أنها نظرية مفيدة وتفسر سبب التدهور إلى حد ما . الا أن مجرد وصف ماحدث فى عبارات فضفاضة لايعتبر شرحا للسبب .

وأخيرا ، فإننا قد نأخذ فى اعتبارنا نظريات أخرى ثلاث عن أسباب إنهيار الحضارة الرومانية ، ولكنها نظريات تحمل فى طياتها بذور الحقيقة . تتعلق النظرية الأولى بوجهة نظر الأخلاقيين فى العصر الفيكتورى عن فساد الحياة التى عاشتها الطبقة الحاكمة الرومانية باعتبارها سبب الاضمحلال . والحقيقة أن رجلا من رجال الكنيسة فى أواخر القرن الرابع يدعى سالفيان Salvian كان قد سبق الأخلاقيين الفيكتوريين إلى هذه النظرية ، فقد أدان سالفيان تلك "الحياة الفاسدة" التى عاشها معاصروه واعتبرها سببا لتدهور الامبراطورية . ويمكن الرد بأنه ليس من المؤكد أن الحياة الشخصية للطبقة الحاكمة أصبحت بالضرورة أكثر حطة فى العصور الامبراطورية المتأخرة ، إذ كان حكام الامبراطورية المبكرة يتصفون فى أحيان كثيرة بالضعة والفساد . وكانت الدعارة واحدة من أكثر المهن الرومانية رواجا وتنظيما ، كما كان الشذوذ الجنسى متفشيا فى أوساط الأرستقراطية الرومانية على سبيل تقليد المجتمع

اليونانى، وفى عصر الامبراطور أوغسطس أشار الشاعر هوراس Horace فى إحدى قصائده إلى أن يفضل الغلام على المرأة فى كل وقت . ولم يقدر المؤرخون النتائج الاجتماعية المترتبة على الفساد الجنسى حق قدرها . وفيما يتعلق بالامبراطورية الرومانية فإن السؤال يمكن أن يطرح عما اذا كان للدعارة والشذوذ الجنسى تأثير سلبى على أداء العائلة الأرستقراطية لوظائفها . فقد ساهمت العائلة الارستقراطية مساهمة قوية للغاية فى أعمال الجمهورية الرومانية القديمة. ويمكننا ، على الأقل ، القول بأن الشذوذ الجنسى إذا لم يكن سببا للفساد الاجتماعى ، فهو من أعراض فساد النظام الاجتماعى والأخلاقى وعجزه عن أداء وظيفته فى المجتمع . ويجدر بنا أن نلاحظ أن الشذوذ الجنسى تفشى بين الصفوة الحاكمة فى مجتمعين آخرين عانيا من التدهور السريع ، وهما العالم العربى فى العصور الوسطى وانجلترا فى القرن العشرين .

وفيما يتعلق بالنظريات العامة للتدهور والسقوط ، نأتى الى كتاب عظيم هو كتاب "المسيحية والحضارة الكلاسيكية" لكوشرين C.N. Cochrane . وقد نشر سنة ١٩٣٩ ولكنه لم يلق من المؤرخين الاهتمام الذى يستحقه . وانطلاقا من رؤية كوشرين الأوغسطينية الجديدة ، يرى أن العيوب الأساسية للفكر الكلاسيكى كانت هى العقبة الكؤود فى سبيل استمرار الحضارة : فبسبب الايمان الساذج بقوة العقل الانسانى اللامحدودة خرج القادة السياسيون والثقافيون للحضارة الكلاسيكية عن نطاق قدراتهم وحاولوا أن يخلقوا النموذج والمثل الأعلى فى مجال السياسة والثقافة . وشادوا بالعقل عالما كان يرتكز فى حقيقة امره على ماهو غير عقلى فى الطبيعة الانسانية ؛ مثل الغرائز الحيوانية والايمان بالمقدسات التى استبعدتها نظرتهم الضيقة الى الأمور . ويختتم كوشرين نظرينه بتأييد وجهة النظر المسيحية "الأوغسطينية" عن الطبيعة البشرية . وليس من الضرورى أن تكون للمرء حماسة أحد أصحاب النظرية الأوغسطينية عن الطبيعة البشرية ، مثل كوشرين ، لكى يعترف بأنه قد أبرز بحق أن الرؤية الخاطئة للطبيعة الانسانية (والتى افرزتها الحضارة الكلاسيكية) كانت سببا أساسيا فى عجز قادة العالم الرومانى عن التعامل الواقعى مع المشكلات السياسية والاجتماعية والثقافية التى فرضت نفسها على عصرهم .

وثمة موضوع جدلى ثالث – إلاّ أنه يساهم فى تفسير تدهور الحضارة الرومانية – ركزت عليه البحوث والدراسات الحديثة ؛ ومؤداه أن الامبراطورية الرومانية لم تحقق سوى التجميع السطحى لحضارات عالم البحر المتوسط . ففى شرق المتوسط بصفة خاصة ، لم تكن هناك غير صفوة قليلة العدد من سكان المدن اتخذت لنفسها الصبغة الرومانية على حين ظلت جماهير السكان متمسكة بشخصيتها اللغوية والدينية التى ترجع فى أصلها الى عدة قرون قبل ذلك .

وما أن بدأت الحكومة الامبراطورية تعانى من المشكلات العسكرية والاقتصادية ، وحين بات السلام الرومانى Pax Romana أقل جدوى ونفعا ، عادت هذه القوميات تفرض نفسها فى قوة واستطاعت أن تكتسب - بالتدريج - إلى صفوفها حتى تلك الصفوة التى كانت قد اتخذت لنفسها الصبغة الرومانية . وفى القرنين الرابع والخامس كانت قد اجتذبت جماهير السكان بعيدا عن الولاء للنظام الرومانى . ويقال فى هذا الصدد أيضا أنه حتى بعض أفراد الارستقراطية الرومانية القديمة لم يتوافقوا أبدا مع السلطة القيصرية ، وعملوا بحذق على تقويض دعائم الولاء للمثل الأعلى الامبراطورى فى قلب العاصمة الامبراطورية نفسها . ونتج عن هذا التخريب الذى قام به السكان الوطنيون والارستقراطيون الرومان أن تحولت السلطة الإمبراطورية الى مجرد واجهة لا أكثر ، كما تحول الأغنياء والفقراء الى قضايا داخلية بعيدة عن السلام الرومانى . وحين نشهد بأنفسنا فى أيامنا هذه مدى ضحالة التغلغل الحضارى الأوربى فى آسيا وافريقيا فى ظل حكم الإمبراطوريات الحديثة ، يمكن لنا أن نقدر أن عملية صبغ العالم بالصبغة الرومانية Romanization لم تكن اكثر من مجرد تسرب ضحل واجهته مقاومة الحضارة الوطنية القديمة .

أيا كانت فعالية هذه النظريات المتضاربة ، فمن الواجب التأكيد على أن اضمحلال الامبراطورية الرومانية كمثل أعلى لم يحدث بشكل كلى على الاطلاق ، إذ كاد المثل الأعلى الامبراطورى أن يختفى خلال القرون الخامس والسادس والسابع فى الغرب . ولكنه بقى قويا فى الشرق متمثلا فى الامبراطورية البيزنطية وتم إحياؤه فى الغرب فى القرن التاسع فى امبراطورية شارلمان وخلفائه . ويعد استمرار فكرة روما فى العصور الوسطى أحد الموضوعات الأساسية فى التاريخ الوسيط ، فإن روما بالنسبة للشعب المسيحى كانت قد صارت مرادفا لوحدة العالم السياسية والحضارية ، كما أن البيزنطيين لم يتخلوا عن هذه الفكرة اطلاقا ، اذا كان امبراطور القسطنطينية يعتبر نفسه امبراطورا رومانيا يخضع له كل من عداه ، وبعد القرن السادس لم يعد هناك أساس واقعى للمفهوم البيزنطى عن الامبراطورية ، فقد كان أفضل ماتوصل اليه الحاكم البيزنطى هو الاحتفاظ بموقع مزعزع فى جنوب ايطاليا حتى بداية القرن الحادى عشر .

وفى الغرب ، إبان فترة الغزوات الجرمانية (٤٥٠-٧٥٠) ، كانت فكرة روما واهنة للغاية وحفظتها الكنيسة المسيحية والبابوية بصفة خاصة ، إذ أن البابا ، بوصفه أسقف روما ، اعتبر نفسه خليفه الامبراطور الرومانى . وبسبب منازعات البابوية مع الامبراطورية البيزنطية تطلعت البابوية إلى ملك غربى يعيد بناء الامبراطورية فى الغرب ، ويعيد بناء السلطة والوحدة السياسية الى البلاد الكاثوليكية اللاتينية ، وهو الإحياء الذى تم فى عهد شارلمان

فى بداية القرن التاسع ، وهكذا كانت فكرة الامبراطورية ذات أهمية فائقة فى الغرب الأوربى منذ القرن التاسع حتى القرن الرابع عشر ، كانت هذه فكرة ذات أهمية خاصة لدى ملوك الألمان منذ القرن العاشر حتى القرن الثالث عشر ، إذ أنهم اعتبروا أنفسهم خلفاء لشارلمان . ولم يكن بوسعهم أن يمدوا نفوذهم الى انجلترا أو فرنسا ، إلا أن حكمهم تخطى جبال الألب مع سيطرة ضعيفة نسبيا على ايطاليا ، ولكن انهيار سلطة الإمبراطور الرومانى المقدس فى ألمانيا وايطاليا فى القرن الثالث عشر حال دون أن تؤتى فكرة الامبراطورية ثمارها فى شكل وحدة سياسية حقيقية قوية تضم الغرب فى العصور الوسطى .

من السهل أن نفسر تدهور الامبراطورية الرومانية كدولة ، إذ كانت الامبراطورية كدولة مترامية الأطراف تشكل عبئا باهظا على سكانها . وبحلول عام ٤٠٠ صارت سلطة ضاغطة مسيطرة ، ولم تقدم سوى القليل فى مقابل هذا الظلم ، ولم تقم حتى بحماية السكان من غزوات الجرمان، ومع بداية القرن الخامس كان هناك تناقص واضح فى ولاء الناس للامبراطورية والامبراطور ، وحين اخترق الجرمان حدود الامبراطورية فى النهاية ، لم يهتم بانقاذ الدولة الرومانية سوى نفر قليل من سكانها ؛ إذ كانت قد صارت وحشا لايستحق الانقاذ .

٣- المطلب الدينى للعالم الرمانى

كان لاستشراق الامبراطورية - أى استجلاب الأفكار والقيم الشرقية - مغزاه من حيث أنه كان يعنى أن الناس فى الامبراطورية بدأوا يتناولون أمور العقيدة بحرية متزايدة خلال القرون الثانى والثالث والرابع بعد الميلاد . وصارت الديانة واللاهوت عماد الحياة الثقافية والعاطفية بالنسبة للامبراطور وأبناء الطبقة الارستقراطية والطبقات الدنيا على حد سواء . ولم يكن الامبراطور دقلديانوس - الذى كان سيدا على نصف العالم - ليقدم على عمل مادون أن ينظر طالعه فى أكباد الدجاج المذبوح . وكانت ديانات قوى ماوراء الطبيعة تلقى إقبالا واسعا من الناس فى القرن الثالث .

فلماذا كانت مثل هذه الديانات تتمتع بهذه الشعبية المتزايدة ؟ كان الناس فى القرن الثالث يعانون من انعدام الأمن . وحين افتقدوا الأمن فى العالم أداروا وجوههم شطر العالم الآخر ، إذ كانت غالبية السكان فى العصر الامبراطورى المتأخر يقاسون البؤس وشظف العيش . كان عبء استبداد الامبراطور والحكومة الامبراطورية يرهق كاهل المواطنين ، على حين عاش قطاع كبير من الكادحين فى المدن يحصلون أقواتهم يوما بيوم اعتمادا عل الصدقات التى تغدقها

الحكومة عليهم . فضلا عن أن أعداداً كبيرة من السكان كانوا عبيدا لاحقوق لهم ، يحيون فى ظل أسوأ الظروف . ولم يكن بوسع أولئك الذين يئنون تحت عبء النظام الاجتماعى أن يعتبروا هذا العالم معقولا ، بل إنه حتى اولئك الذين تمتعوا بمستوى معيشى أفضل كانوا يخشون القوى الطبيعية إلى حد كبير ، كما أنهم كانوا جاهلين بأبسط قواعد الاقتصاد ، وعاشوا حياة يائسة فى عالم غير معقول . وإذ لم يكن بالإمكان التخلص من الشرور والأذى فقد تطلع سواد الشعب نحو الخلاص Soteria من هذا العالم وآلامه. وتركزت الآمال على إله منقذ يموت ويبعث من جديد يمكنهم الارتباط به والهروب من قيود الحياة الزائلة ، وتغلب افتنانهم بما وراء الحياة على سائر الاهتمامات الأخرى ، وبات كل فرد يبحث عن الوسيلة التى ينقذ بها نفسه ، بدلا من الاهتمام بإنقاذ الدولة . وبحلول القرن الرابع كان سكان العالم الرومانى قد فقدوا إيمانهم بالدولة والحضارة ، وانطلقوا يبحثون عن البديل المتمثل فى الخلاص الفردى ، وكانت هناك حلول عديدة مطروحة ، وان تأثر كل منها بالآخر ، وحتى الحلول التى اجتذبت عددا ضئيلا من الاتباع الدائمين كان لها تأثيرها الكبير على كل الحلول والديانات الأخرى وقد عرف هذا الخليط من الديانات باسم Syncretium ؛ وهو مايعنى بعبارة أخرى أنه كان هناك توفيق بين المعتقدات الدينية المتعارضة .

كانت للرومان ديانة رسمية state religion منذ بداية العصر الامبراطورى فى عهد أوغسطس ، وقامت هذه الديانات على أساس تأليه الامبراطور ، وإضفاء الصفات شبه المقدسة والخارقة على الامبراطور بعد مماته. وفى القرن الثالث تطورت عبادة الأباطرة فأصبحت أقل تواضعا ، إذ كان الناس يتقبلون ما يغدق على الامبراطور من صفات خارقة للطبيعة البشرية فى حياته ، وقام شعراء معينون بإذكاء الحماسة لهذه الحركة ، فقد تحدث كل من هوارس Horace، وفرجيل Virgil عن الامبراطور أوغسطس بعبارات تفيض بالتبجيل فى القرن الأول الميلادى (٣) وعلى أية حال ، فإن غالبية الناس لم يندمجوا عاطفيا فى عبادة الامبراطور،

---

(٣) عبر كانتور عن هذه العبارة بـ messianmic terms ، ومعناها "بعبارات مسيحانية" ولم يكن ممكنا أن ندخل هذا المعنى فى النص العربى لأن هوارس وفرجيل كتبا قبل مولد المسيح بنحو أربعين سنة ، ويرجع استخدام كانتور لهذه العبارة الى أن فرجيل كتب قصيدة رعوية - هى القصيدة الرابعة التى عرفت لدى نقاد الادب "بالقصيدة المسيحية"- تحدث فيها عن مولد طفل سوف يحكم العالم وسوف يعم الرخاء فى عصره، وقد فهم علماء الكنيسة فى العصر المسيحى أن الطفل هو المسيح وان فرجيل تنبأ بظهور المسيحية قبل مولد المسيح .

انظر : على الغمراوى ، مدخل الى دراسة للتاريخ الأوربى الوسيط (ط. الثانية : القاهرة ١٩٧٧) ص ٢١١- ص ٢١٢ .

والتى كانت فى بداية الأمر مجرد "ديانة رسمية" صيغت بهدف الحفاظ على الوحدة السياسية للعالم الرومانى ، أما ما أثار اهتمام الناس فى أواخر عصر الامبراطورية ، فهو البحث عن ديانة تضمن لهم الخلاص الفردى .

وكانت الديانة اليهودية فى الاسكندرية قد توصلت منذ زمن الى صياغة قانون أخلاقى صارم ومذهب دينى يؤمن بالوحدانية . وراق الأدب العبرانى للرومان من خلال الترجمة اليونانية للعهد القديم ، وهى الترجمة المعروفة بالترجمة السبعينية Septuaginta. وعلى الرغم من أن اليهود نادرا ماكانوا يقومون بأى نشاط تبشيرى ، فان يهود الاسكندرية كانوا يأملون فى تحويل البعض الى اليهودية ، وأحرزوا بعض النجاح فى هذا العدد خلال القرن الميلادى الأول ؛ حين كانت الديانة اليهودية تجذب أنظار أبناء الطبقة الأرستقراطية الرومانية . وعلى أية حال ، فإن عدد الرومان الذين تمسكوا بيهوديتهم على المدى الطويل كان قليلا . إذ كانت الديانة اليهودية ماتزال غير واضحة فى مفهومها عن المخلص والخلود فى الحياة الأخرى وكان المخلص منقذا قوميا بالنسبة لليهود وظل كذلك حتى بداية العصر المسيحى [٤]. كما كانت اليهودية ديانة صارمة ذات أخلاقيات سامية ، بيد أنها لم تقدم سوى القليل من سبل السعادة فى الحياة الدنيا ، وبسبب ضغوط الحياة فى ظل الامبراطورية الرومانية اتجه اليهود فى تردد صوب الحياة الأخرى [٥]. وبالرغم من آن فيلون السكندرى حاول فى مطلع القرن الأول للميلاد أن يوفق بين التراث الفلسفى اليونانى ، والتراث اليهودى المحفوظ فى العهد القديم ؛ ومن ثم يوجد توافقا بين العلم والدين ، ورغم أن كتابات فيلون أثرت على آباء الكنيسة تأثيرا كبيرا ، فقد فشلت اليهودية فى أن تكون دينا للعالمين .

---

(٤) تأتى فكرة انتظار المخلص (ماشيح بالعبرية) لدى اليهود مرتبطة بفكرة تجديد العهد مع الرب لكى تصبح أمة الله جديرة به ، وتصبح اورشليم (بيت المقدس) مدينة لاتبارى حيث يقيم بها الرب على جبل صهيون ، وحيث يتجمع المشردون من بنى اسرائيل ، وتزول الاحقاد ، ويموت الموت نفسه . كما ان الحوادث الجسام التى تعرض لها اليهود أثناء السبى البابلى جعلت اليهود يتعلقون بهذه الفكرة واعتقدوا أن النبى ايليا سوف يأتى مبشراً بقدوم المخلص.

(انظر ملاخى ٤ :٥ " هاأنذا ارسل ايليا النبى قبل مجىء يوم الرب .. " وبالرغم من هذا فانه حين ظهر المسيح عيسى بن مريم لم يؤمن به اليهود وتعللوا بأن الشروط التى وردت عند الأنبياء السابقين حول المخلص المنتظر لم تتحقق فيه . (المترجم)

(٥) وهو مايعنى عدم اقتناعهم التام بهذه المسألة التى اضطرتهم اليها قسوة الحياة فى ظل الامبراطورية الرومانية . (المترجم)

كانت الفلسفة اليونانية واعدة الى حد بعيد من حيث إشباع المطلب الدينى فى عالم البحر المتوسط ، ولم يكن أرسطوطاليس الذى يعتبر اكثر فلاسفة اليونان الكبار علمية ووعيا - يحظى بإعجاب كثيرين من مفكرى العصر الرومانى لأن كتابات أفلاطون ظلت تحكم الفكر الغربى بصورة ما حتى القرن الثانى عشر ، كأساس للاهوت والفلسفة . وإذا كان فكر افلاطون يبدأ عقلانيا فإنه يبدو فى النهاية مفكرا دينيا وصوفيا ، إذ يرى أن أسمى فكرة للخير تتحقق فى خلاص الروح ، أما التعاليم الأخلاقية الأفلاطونية ؛ فقد أصبحت تتجسد فى الرواقية التى كانت فلسفة اكثر منها ديانة تثير العاطفة . ولهذا السبب نفسه كان ميل الناس الى الفلسفة الرواقية فى ذلك العصر محدود للغاية ، كما أن هذه الفلسفة انحصرت الى حد بعيد فى أوساط الارستقراطية ، رغم أن المبدأ الرواقى القائل بالأخوة العالمية كان له تأثير واسع النطاق. وكان للجانب الصوفى فى الفلسفة اليونانية التأثير الأعظم على الناس فى العالم الرومانى ، وقد أكد أفلوطين السكندرى - مبتدع الأفلاطونية الجديدة فى القرن الثالث - على الجانب الصوفى فى فلسفة افلاطون حين قرر أن الحقيقة المطلقة تأتى من خلال التجربة الصوفية والسمو الروحى ، كما شبه الاله بنافورة تدفع بالمياة المقدسة ، وكلما ابتعدت المياه عن النافورة قلَّ نقاؤها ، والناس مثل المياه غير النقية وعليهم أن يمروا بعملية تطهير حتى يتحدوا بالإله. ومن ثم يجب التطهُّر من جميع الاهتمامات الفكرية والدنيوية ، اذ يجب على الانسان أن يخلص نفسه من المادة ، ويطهر روحه ، إلا أن صعوبة تحقيق هذا التطهُّر الصوفى جعل منه أمرا لايقدر عليه سوى أفراد قلائل ، فضلا عن أن الأفلاطونية الجديدة لم تقدم إلها مخلصا فى الوقت الذى طالبت فيه أتباعها بأن يبحث كل منهم عن إلهه بنفسه ، وهو الأمر الذى قلل من جاذبية هذه الفلسفة الى حد كبير . وعلى الصعيد العلمى تركت الأفلاطونية الجديدة بصماتها على اللاهوت بأسره ، ولكن الناس العاديين كانوا اكثر اهتماما بالبحث عن اله مخلِّص منهم بتلك التدريبات الروحية الشاقة التى يتطلبها التطهير الأفلاطونى .

وفى بحثهم عن ديانة تفى بحاجاتهم ، انجذبت فئات الكادحين صوب أسرار وطقوس الديانات الغامضة التى كانت قد شاعت فى العالمين اليونانى والرومانى منذ قرون ، وسرعان ماتبعهم فى ذلك المتعلمون والأثرياء . وفى القرنين الأول والثانى ازداد نفوذ ديانات الأسرار وشعبيتها وامتدت الى آفاق بعيدة وذلك حين تغلغلت ديانات وعقائد شرقية متعددة فى عالم البحر المتوسط . وكان الفضل فيما اتسمت به هذه الديانات الشرقية من جاذبية طاغية راجعا الى أن الجميع رأوا فيها فرص للخلاص ، ومن هذه الناحية كانت هذه الديانات أولى الديانات العالمية بحق ؛ لأنها تجاوزت الفوارق القومية والثقافية كديانات لها طقوسها الروحانية الخاصة

لقد حددت جميع الديانات الروحانية لنفسها إلها مخلصا يموت ويبعث من جديد ، فضلا عن الطقوس السرية التى تتيح للمؤمن ان ينال الخلود من خلال ربط نفسه بمعاناة الإله وانتصاراته. وبالرغم من أن هذه الاحتفالات السرية - مثل التضرج بدم عجل ذبيح- يمكن أن نرد أصولها إلى طقوس الإخصاب البدائية فى كثير من الأحيان ، فإن الديانات الروحانية شجعت القيم الأخلاقية السامية كما شجعت وجود صيغة من التوحيد.

وفى أواخر القرن الثالث ، ظهرت ديانات روحانية عديدة . فقد كانت عبادة إيزيس عبادة شعبية فى مصر ، كما كانت عبادة الأم العظمى ديانة محبوبة فى آسيا الصغرى ويبدو أن عبادة ميترا Mithra (إله الشمس الذى لايقهر) كانت أكثر الديانات الروحانية أهمية ، فقد ظهرت فى فارس فى القرن الثانى ، وأخذت تنتشر فى اطراد صوب الغرب ، وقد اعتنقها كثيرون من الجنود والضباط فى الفرق الرومانية فى الشرق والغرب على السواء بيد أنه لم يكن يسمح للنساء بالمشاركة فى العبادة مما كان سببا فى الفشل الذى حاق بها فى النهاية. وكان الاله ميترا يضمن الخلاص لأتباعه ويلزمهم بالمبادىء التطهيرية السامية ، والحقيقة أن صلوات الميترائية التى وصلتنا تشبه الى حد كبير الابتهالات اليهودية والمسيحية الى الرب.

وفى ظل هذا الجو الذى يميزه الجدب الدينى ظهرت المسيحية ، ولم تكن مجرد ديانة توفيقية؛ ولكن كان لها واقع تاريخى افتقرت اليه الديانات الروحانية الأخرى. فقد كان المسيح شخصية تاريخية عاشت فى عصر تاريخى . لقد ظهر المخلص المسيحى فى صورة آدمية ، ولم يكن مجرد شخصية اسطورية . ولم يكن هناك من الدلائل فى القرن الثالث ما يؤكد انتصار المسيحية على الديانات الروحانية الأخرى . فقد كانت ديانة ميترا ، على سبيل المثال تتمتع بشعبية واسعة فضلا عن تأييد الكثير من اباطرة الرومان لها ؛ فمنذ عصر الامبراطورية المتأخر بات واضحا أن إحدى الديانات الروحانية سوف تنتصر على الديانات الأخرى إن عاجلا أو آجلا، ولما كان هناك امبراطور واحد فى العالم الرومانى كان من الضرورى أن توجد ، إن عاجلاً أو آجلا ، ديانة عالمية واحدة ؛ اى إله واحد فى السماء مثلما كان هناك حاكم واحد على الأرض ، بمعنى أن الشمولية السياسية فرضت الوحدة الدينية فى النهاية .

لقد واجهت المسيحية منافسة عنيفة ، وبالرغم من هذه المنافسة - وربما بسببها - عملت المسيحية على أن تستوعب كل مزايا ديانات العصر جميعا ، إذ أنها ورثت عن اليهودية العهد القديم وأضافت اليه العهد الجديد ، كما استوعبت قانون الديانة اليهودية الأخلاقى ، فضلا عن أن فكرة الأخاء فى المسيحية تشبه الى حد كبير فكرة الاخاء الرواقية ، كما اقتبس

المفكرون المسيحيون كثيرا من الفكر الصوفى والدينى فى الفلسفة الأفلاطونية الحديثة ، وعلى أية حال ، فقد شعر أولئك المفكرون أن التطهير الذاتى الذى يحقق اتحاد الانسان بالله كان أمرا مستحيلا نظرا لفساد الجسد ، ومن ثم فمن الضرورى أن يكون هناك وسيط لتحقيق الاتحاد النهائى بالله ، ومنذ القرن الثانى فصاعدا ، كان آباء الكنيسة راضين عن الفلسفة الأفلاطونية فى صورتها الجديدة هذه. وقد ثار جدل عنيف حول ما إذا كان المسيحيون قد أخذوا الأسرار المقدسة عن الديانات السرية ، أم أن الجو الدينى العام هو الذى أنتج مظاهر مشابهة فى صورة سر مسيحى يساعد على الاتحاد بالمخلص . ومهما يكن من أمر ، فان وجود طقس سرى من طراز نقى بسيط(العشاء الربانى)- إذا ما أضيف الى مزايا المسيحية الأخرى - كان سببا فى جعلها أكثر الديانات جاذبية فى نظر سكان العالم الرومانى . إلا أن المسيحية فى القرن الرابع لم تكن قد أصبحت بعد هى الاستجابة الأكيدة الوحيدة للمطلب الدينى فى العالم الرومانى فإن نسبة المسيحيين فى الجزء الشرقى من الامبراطورية لم تكن تتعدى ثلث مجموع السكان . ولم يتأكد انتصار المسيحية إلا بعد أن كسبت تأييد الدولة الرومانية بعد سنة ٣١٢، لقد أنقذ دقلديانوس وقسطنطين الامبراطورية الرومانية من السقوط ، ولم يكن هذا سوى تأجيل للسقوط ؛ إلا أنه كان كافيا لأن يمنح المسيحية الفرصة لكى تصبح ديانة عالمية فى عالم البحر المتوسط. وهكذا كان تاريخ تدهور العالم الرومانى وانحلاله يسير فى خط مواز لنهوض الكنيسة المسيحية وانتصارها .

الفصل الثانى
الإمبراطورية المسيحية والكنيسة المسيحية

١- تشكيل الكنيسة الكاثوليكية

بدأ التحقيق الجدى لتاريخ الكنيسة المسيحية الباكرة فى القرن السادس عشر . إذ حدث إبان فترة الاصلاح الدينى أن حاول كل من علماء الكاثوليك والبروتستانت أن يقيموا الدليل على أن نظم الكنيسة الباكرة وعقائدها كانت أكثر ارتباطا بعقائد ومذاهب الطائفة التى ينتمون إليها . ولم تخمد جذوة الجدل الذى ثار حول هذا الموضوع على الاطلاق لا بسبب الاختلافات الطائفية فحسب ، وانما أيضا لأن مصادر معلوماتنا عن الكنيسة الباكرة تتسم فى كثير من الأحيان بالجزئية والنقص ، فضلا عن الغموض بل والتناقض ، وثمة جوانب كثيرة فى تطور الكنيسة قبل القرن الرابع لاتزال محل شك حتى اليوم ، وليس هناك مايضطر دارس التاريخ الوسيط الى محاولة حسم المشاكل الجدلية الناشبة حول تاريخ الكنيسة الباكر ، وبالرغم من هذا ، فإنه من الضرورى أن تكون لديه رؤية عامة لأفكار ونظم الكنيسة فى القرون الثلاثة الأولى بعد المسيح لكى يفهم بوضوح ماكان عليه بناؤها فى القرن الرابع ومايليه. لقد حدد التطور الذى مرت به الكنيسة فى مطلع تاريخها طبيعة كنيسة العصور الوسطى من عدة جوانب .

عند موت القديس بولس ، فى منتصف القرن الأول الميلادى ، كانت المسيحية قد انتشرت انتشارا واسع النطاق فى الجزء الشرقى من الامبراطورية الرومانية . إذ كانت المسيحية قد ولدت بفلسطين ، وأخذت تنتشر باتجاه الغرب على طول طرق التجارة فى شرق البحر المتوسط وساعد يهود الشتات (الدياسبورا Diaspora) - الذين كانوا يعيشون فى كبريات مدن البحر المتوسط - مساعدة كبيرة فى انتشار المسيحية فى بواكير تاريخها [1]. وعلى ذلك نظر مؤرخو الكنيسة منذ أوائل القرن الرابع إلى تشتت اليهود على أنه تمهيد إلهى لنشر المسيحية

فمنذ البداية كانت المسيحية موجهة إلى سكان المدن وظلت ديانة حضرية إلى حد كبير حتى أواخر القرن الرابع ، وكانت الوثنية مرتبطة بحياة الريف وسكان الضياع الزراعية ، إذ إن كلمة

---

(١) بدأت الدعوة المسيحية بين اليهود أساساً . ولما كانت هناك جماعات يهودية تقيم فى المدن الكبرى فى عالم البحر المتوسط ، فقد أدى ذلك إلى انتشار المسيحية فى هذه المدن . (المترجم)

Paganus ، (٢) أي وثني ، تعني "رجل ريفي" وبالتالي غير المسيحي ، وحين اعتلى قسطنطين العرش الامبراطوري كان هناك عدد يتراوح مابين عشرين إلى ثلاثين فى المائة من سكان الجزء الشرقي اليوناني اللسان (٣) مسيحيين ، ومابين خمسة إلى عشرة فى المائة من سكان الغرب اللاتيني ، الأقل تحضرا من الشرق ، يعتنقون المسيحية وبحلول سنة ٣١٢ ، ربما كان ثلث سكان مدن الامبراطورية من المسيحيين .

أشاع نيتشه ، فيلسوف القرن التاسع عشر ، فكرة أن المسيحية كانت ديانة للعبيد وأن أخلاقياتها أخلاقيات عبيد . وصحيح أن المسيحية قد جذبت تماما أبناء الطبقات الدنيا ، ولكن من المؤكد أنها استحوذت على إيمان أبناء الطبقات العليا بحلول القرن الثاني ، وكان أبطأ معدل انتشار لها بين أفراد الطبقة الارستقراطية الرومانية ، فحتى عام ٣٥٠ كانت ماتزال هناك بعض عائلات ارستقراطية تقاوم المسيحية فى روما . وبالرغم من ذلك فإننا يجب أن نؤكد أن الديانة المسيحية لم تكن دينا للعبيد وحدهم ، فقد جاءت قياداتها من بين أبناء الطبقة المتوسطة المتعلمين النشطين ومنهم رجال من أمثال بولس احتلوا أسمى مكانة .

وهناك عدة أسباب وراء انتشار المسيحية ، فقد أشبعت الحاجة الدينية لدى الناس كما رأينا ؛ إذ وفرت لهم علاقة مشبعة عاطفيا تقوم على أساس رفقة الحب الديني agapa فى المدن المعزولة ، فضلا عن أن المسيحية سرعان ماصارت ديانة ذات أدب راق جذب كثيرين من المتعلمين للانخراط فى صفوف أتباعها ، وبينهم أفضل المفكرين فى الامبراطورية الرومانية ، فقد استوعبت المسيحية الثقافة الكلاسيكية ، وأصبحت لها سمة فلسفية تشبه ماوصل اليه تراث العالم القديم فى مجال الفكر .

وقد أطلق المسيحيون على أنفسهم فى رفقة الدين اسم اكليزيا ecclesia وهى الكلمة التى استخدمتها الترجمة السبعينية للتوراة ، وكلمة اكليزيا تعنى شعب الله المختار من بنى اسرائيل. وعبر المسيحيون الأوائل عن قناعتهم بأنهم بنى اسرائيل الجدد من خلال كلمة اكليزيا

---

(٢) لما كان التبشير بالمسيحية يتم أساساً فى المدن - حيث يقيم يهود الشتات - فى بداية الأمر ، فقد ظلت المسيحية ديانة تغلب عليها الصفة الحضرية حتى أواخر القرن الرابع. (المترجم)

(٣) كانت اللغة اليونانية هى اللغة المتداولة فى أوساط المثقفين فى بلدان شرق البحر المتوسط إلا أنها لم تكن هى اللغة المستخدمة فى الحياة اليومية - عدا بلاد اليونان - فقد كانت لشعوب هذه البلدان لغاتها القومية بطبيعة الحال . (المترجم)

التى أطلقوها على أنفسهم ، وفسر معنى الكلمة على هذا النحو بأنه يشمل جميع المسيحيين فى كل مكان ، وبالرغم من وجود كنيسة ecclesia محلية وجودا ماديا متمايزا فى أنطاكية وفى الاسكندرية على سبيل المثال ، فإن المسيحيين اعتقدوا فى الوقت نفسه ، أن الكنيسة كيان عالمى خالد يمتد منذ الخليقة إلى يوم الحساب ، كما كان للفكرة القائلة بأن الكنيسة عروس المسيح تأثير عظيم على الفكر فى العصور الوسطى ، وسرعان ما أدى هذا المفهوم إلى مبدأ عدم زواج رجال الاكليروس . بل إن الأهم من ذلك هو ما أدى إليه هذا المفهوم من زيادة التوتر بين وجهة النظر القائلة بأن الكنيسة واقع دينوى مادى ، ووجهة النظر القائلة بأن الكنيسة كيان روحى خالد . وإذا كانت الكنيسة هى عروس المسيح فإلى أى مدى يمكن أن يصل اهتمامها بأمور الدنيا ؟ وإلى أى مدى يمكن إخضاع عروس المسيح للحكام العلمانيين ؟ من المؤكد أن كثيرا من المنازعات والمجادلات قد ثارت فى العصور الوسطى فى محاولة للإجابة على هذه الأسئلة الأساسية .

وكان على الكنيسة التى وصلت إلى هذا القدر من الوعى بذاتها أن تصر على أن تكون تعاليمها كاثوليكية ، أى عالمية تتميز بالاتساق ، وأن تكون هى التعاليم نفسها فى كل مكان ، وقد عبر القديس ايرنايوس Iernaeus عن هذا المفهوم الخاص بالكنيسة الكاثوليكية (العالمية) الواحدة بشكل واضح فى القرن الثانى . وعلى الرغم من ذلك ينبغى التأكيد على أنه حتى القرن الحادى عشر كانت الكنيسة - فى الغرب على الأقل - تميل إلى التسامح والتساهل بشأن النظم والمذاهب مما أوجد خلافات كبيرة بين المذاهب والأعراف الدينية .

ولسنا نعلم سوى القليل عن تنظيم الكنيسة فى أيامها الأولى . ومن الواضح أن كل جماعة كنسية كانت تتمتع بقدر كبير من الاستقلال الذاتى وعلى قمتها زعماؤها يديرون شئونها . ويبدو أن أولئك الموظفين الاداريين قد اضطروا إلى تأكيد السلطة الدينية تحت ضغط الحركة الغنوصية [٤] وكان الغنوصيون يعتقدون أن بإمكانهم القيام بتجربة دينية باطنية

---

(٤) هم جماعات يهودية فى أصلها ، كانت تتفق على أن المعرفة هى الطريق الى الله ، وهى إدراك علم السموات والأرض . وبمرور الزمن تأثروا بالتراث العلمى والفلسفى لحضارات بابل والفرس والاغريق ، ومن ثم أخذوا يبتعدون عن اليهودية مما جلب عليهم نقمة اليهود ، وللغنوصيين (ومنهم الصابئة) دين خاص ونصوص مقدسة خاصة بهم مما جعل اليهود والمسيحيين يعتبرونهم كفارا ، بينما اعتبرهم الاسلام من أهل الذمة ، ومن أهم أركان دينهم: =

ويتلقون المعرفة gnosis عن الله مباشرة . وكرد فعل لهذه الفوضى الدينية الشاملة طورت الكنيسة سلطة حكومة كهنوتية قوية ، وظهر الأساقفة (رعاة شعب المسيح) كرجال يتمتعون بسلطة دينية وإدارية أيضا . فقد حددوا العقيدة الجوهرية dogma ومارسوا سيطرة مطلقة على رعيتهم . أما القسيس فقد ظهر ليكون مساعدا للأسقف الذى يتولى إدارة كنيسة إحدى المدن الهامة ، وتحت الأسقف ، كان القساوسة يساعدونه فى أعماق كاتدرائيته ، كما وجد القساوسة فى كل كنيسة بمفردها . وكان من المعتقد أن الأساقفة يستمدون سلطتهم من الرسل، على اعتبار أن ثمة تتابع مباشر للقوى الروحية المنبعثة من المسيح نفسه ، يمر خلال الحواريين والرسل ، ليصل الى جميع الأساقفة . وقد تبدت قوة الكنيسة وسلطانها الربانى الروحى واضحين فى رؤية المعاصرين لها على أنها فيض ينبع من المسيح فى خط مباشر يصل إلى كل من يتولى منصبا أسقفيا .

وساعد على تطور السلطة الكنيسة نمو نظام الأسرار المقدسة ، فمن خلال الطقوس الغامضة للأسرار الربانية كان بوسع المؤمن أن يحوز ، أو يستعد ، للدخول فى رحمة الرب المنقذة . وللكنيسة حاليا سبعة أسرار مقدسة ، بيد أن أعدادها لم تكن قد تحددت حتى القرن الثالث عشر . إذ أن أحد رجال اللاهوت البارزين فى القرن الحادى عشر يحدد لنا مالا يقل عن أحد عشر سرا مقدسا ، وكان التعميد والعشاء الربانى الأخير (افخارستيا) eucharistia أهم هذه الأسرار فى كل العصور . ولايرتبط التعميد فى أصله بظهور المسيحية ، ذلك أنه كان أحد طقوس التطهير لدى شعوب الشرق الأوسط كما هو ثابت من خلال شخص يوحنا المعمدان وتقاليد الطائفة الآسية اليهودية [٥] وفى المسيحية صار التعميد وسيلة للتطهير يستعد المؤمن

= (١) الايمان بموسى وتوراته - (٢) الايمان بالمسيح المنتظر واليوم الآخر (٣) الايمان بالملائكة والجن وتقديس بعض الكواكب ، وهو ماجعل البعض يعتقد أنهم من عبدة الكواكب ، وبمضى الزمن تفرق الغنوصيون فرقا وأحزاباً منهم الصابئة (انظر القلقشندى صبح الأعشى ط: ٤٢٩) والمندائيين الذين لاتزال جماعة منهم تعيش بالعراق . (المترجم)

(٥) هى فرقة يهودية كانت وقت ظهور المسيح من أهم فرق اليهود وأكثرها نشاطا واحتراما ، إلا أن المعلومات المتاحة عن هذه الفرقة لاتزال موضع شك حتى الآن . ولعل أهم ماكان يميز هذه الفرقة عزلة أفرادها على نحو يشبه حياة الأديرة المسيحية فيما بعد، ويحاول بعض العلماء الربط بين هذه الفرقة التى اشتهرت بحرص أفرادها على النظافة والطهارة وتمسكهم الشديد بالتعاليم الدينية اليهودية وبين الوثائق المعروفة باسم"لفائف البحر الميت" التى تم اكتشافها فى الأردن ، وبالتالى يعتقدون أن هذه الجماعة هى التى كانت تقيم فى قلعة مسعدة "الماسادا" حيث أبيد أفرادها على يد الرومان أثناء الثورة اليهودية فى القرن الأول=

بواسطتها للدخول فى رحمة الرب. ومن وجهة النظر الدنيوية كان التعميد استعدادا للانتساب إلى الكنيسة ، أما طقس العشاء الأخير (وهو طقس التناول) فقد كان تمثيلا رمزيا ، وهو عبارة عن تناول كسرة من الخبز (ترمز إلى جسد المسيح) وجرعة من النبيذ (ترمز إلى دمه) وهو الاتصال الضرورى للخلاص ، كانت المسيحية تؤمن بأن الانسان فاسد بالفطرة ، وأن العشاء الأخير هو فقط الذى يمكنه من المشاركة فى استحقاق افتداء المسيح المخلص حتى يستطيع الانسان أن يتلقى الرحمة وينعم بالخلاص ، فهل كان هذا الاحتفال احتفالا رمزيا أم إعجازيا ؟ لقد كان الناس فى العصور الوسطى يعتقدون ، كلهم تقريبا ، أنها معجزة وعن طريق المعجزة يتحول النبيذ والخبز بالفعل إلى جسد المسيح ودمه ، وكانت للاحتفال قيمة تجريبية نفعية كبيرة ، كما كان ممكنا أن يقوم به الأسقف فى كاتدرائيته الكبيرة ، أو أن يقوم به القسيس فى إحدى الكنائس الصغيرة . ففى جميع الأحوال كان الناس يعتقدون أن الكاهن الذى يقوم بهذا الطقس يرتبط مع المسيح فى علاقة خاصة .

وهكذا علا شأن أفراد الاكليروس Sacerdatium فوق سائر أعضاء الكنيسة (الشعب المسيحى) بفضل قيامهم بمعجزة العشاء الأخير، وربما كان لفظ Sacerdos أى قسيس يطلق على أى عضو فى الجماعة المسيحية فى أيام الكنيسة الباكرة ، ذلك أن كل المؤمنين كانوا قساوسة (هكذا يقول الباحثون البروتستانت). ومع وجود سلطة الكهنة صارت صفات القساوسة صفات كامنة غير ظاهرة فى عامة أعضاء الكنيسة (العلمانيون) الذين تم اخضاعهم آنذاك لسلطة الكنيسة ، أى لسلطة القساوسة والأساقفة . وتقول وجهة النظر الكاثوليكية أن وظيفة القسيس ، وليست مؤهلاته الفردية ، هى التى تمنحه الصلاحية التى تؤهله للقيام بالأسرار المقدسة ، وفى القرن الرابع ثار جدل كبير حول هذه النقطة ، فقد زعم الدوناتيون(٦) أنه يجب أن يكون القسيس نفسه فى حالة النعمة – أى ينبغى عليه أن يكون

= للميلاد بينما ينفى البعض الأخر إمكانية ذلك على أساس أن فرقة الآسين كانت فرقة مسالمة (لمزيد من المعلومات عن هذا الموضوع :

Edgell (H.A.R) : Dead Sea discoveries, Oxford. 1970

وكذلك حسن ظاظا ، الفكر الدينى الاسرائيلى ، معهد البحوث والدراسات العربية – ١٩٧١) . (المترجم)

(٦) نسبة إلى دوناتوس Donatus أحد زعماء الدوناتيين فى شمال أفريقيا فى القرن الرابع. (المترجم)

لكى يقوم بعمل السر المقدس على نحو سليم . والكاثوليكية ترغب، بطبيعة الحال ، فى قديسا يحيا حياة طاهرة - أن يعيش القساوسة الذين يقومون بالأسرار المقدسة حياة لاغبار عليها ، ولكن على الرغم من هذا يقول الكاثوليك إنه بغض النظر عن سجايا القسيس الشخصية ، تكون الطقوس المقدسة صالحة لأن القسيس يقوم بها بوصفه موظفا فى الكنيسة وممثلا للمسيح وليس بوصفه انسانا عاديا. هذه المشكلة أثيرت مرات ومرات خلال تاريخ المسيحية اللاتينية ؛ فقد أثارت المجادلات والمناظرات الدينية من حولها في القرن الرابع ، وفى العصور الوسطى العالية والمتأخرة ، وفى القرن السادس عشر أيضا .

وقد أثرت التقسيمات الجغرافية والسياسية فى الامبراطورية على تنظيم الكنيسة ؛ إذ صار القسم الادارى المعروف باسم diocese[٧] والذى كان تقسيما اداريا استحدثه دقلديانوس هو منطقة النفوذ الأسقفى ، وعلى نفس المنوال جعل التقسيم الامبراطورى من الولاية منطقة نفوذ لكبار الأساقفة الذين طوروا سلطاتهم العليا عن طريق الحكم فى كبريات المدن فى الامبراطورية . والحقيقة أن كبير الأساقفة كان يسمى أسقف العاصمة. وفى النهاية ، اعترف المسيحيون الشرقيون بزعامة كبار الأساقفة فى المدن الكبرى فى شرق الامبراطورية ، وهى الاسكندرية وأنطاكية ، والقسطنطينية وحمل هولاء لقب "بطريرك" وعلى نحو مماثل كان أسقف روما ، أو البابا ، يتمتع بسلطة لاتقبل التحدى . فقد قامت كنيسة روما على أيدى القديس بطرس، والقديس بولس اللذين استشهدا فى المدينة الخالدة ، ولم تكن هناك مدينة لاتينية لها مايضارع هذا التراث . فضلا عن أن مدينة روما كانت بالضرورة مرادفا للزعامة الدينية مثلما كانت لها الزعامة الدنيوية ، كما أن أسقف روما فى القرون الثلاثة الأولى بعد المسيح كان بالصدفة دائما فى الجانب الرابح فى أى نزاع مذهبى ، ولم يكن هناك مايسىء إلى سمعة البابورية ، بما فى ذلك المذاهب الدينية المخالفة التى ظهرت بشكل مؤقت. بيد أنه على الرغم من هذه العوامل التى ساهمت فى صنع سلطان البابوية العظيم سنة ٣١٢ ، فلم يكن مقبولا على نطاق العالم المسيحى ، بل وفى الغرب نفسه ، أن يكون البابا هو الزعيم المطلق الأوحد للعالم المسيحى . فقد قاوم البطاركة الشرقيون أية مزاعم بابوية فى هذا الاتجاه وفى القرن الرابع كان أسقف روما متواريا تماما خلف ظلال الامبراطور الرومانى المسيحى الجديد.

---

(٧) حين قام الامبراطور دقلديانوس (٢٨٤-٣٠٥) باصلاحاته الادارية ضمن عملية الترميم التى قام بها لصرح الامبراطورية المتداعى ، قسم الامبراطورية إلى أربعة أقسام كبرى ، ثم قسم هذه بدورها إلى سبع عشرة وحدة إدارية أصغر فى مساحتها عرفت كل منها باسم diocese . (المترجم)

ومهما كان من أمر ، فقد كسب البابا هيبة ضخمة خلال القرون الثلاثة الأولى ، كما أرسى التقاليد التى رسمت ما تمتع من به أهمية فائقة فى حياة الكنيسة . وبعد انهيار الامبراطورية فى القرن الخامس أفادت البابورية من هذا الإرث كثيرا .

ولم تهتم روما ، كدولة ، اهتماما حقيقيا بالمسيحية حتى القرن الثالث ، فقد بالغت الأساطير المتأخرة كثيرا فى أعداد الشهداء المسيحيين ، إذ كان اضطهاد المسيحيين محليا وقليل الحدوث . وكانت الدولة الرومانية متسامحة مع المسيحيين رغم أنهم لم يحوزوا موافقتها ، ورغم أنها لم تعترف بالمسيحية ديانة مشروعة ، كما كان المسيحيون يضايقون الدولة حين يرفضون أن يقسموا يمين الولاء للامبراطور أو يقيموا الشعائر الامبراطورية . وبالرغم من هذا فقد سمحوا للمسيحية أن تتطور لأنهم لم يتدخلوا فى شئونها إلا قليلا. فعلى سبيل المثال يطالب الامبراطور تراجان ، فى مراسلاته مع بلينى الأصغر حاكم آسيا الصغرى بشأن المسيحيين فى ولايته ، أن يتركهم وشأنهم . وفى النصف الثانى من القرن الثالث طرأ تغيير على موقف الامبراطورية ؛ إذ أن تدهور الأحوال الاقتصادية والسياسية فى العالم الرومانى سبب موجات من أعمال العنف ضد المسيحيين . وأصبحت الكنيسة بمثابة كبش الفداء فى الامبراطورية المثقلة بالمشكلات . وحين حاول الامبراطور دقلديانوس إقامة نظام شامل أدرك أن الكنيسة المسيحية دولة داخل الدولة الرومانية ، فقد اعتقد أن المؤسسات المسيحية القوية التى تفوق الحصر سوف تقلل من فعالية جهوده لتوحيد الامبراطورية وتقويتها . وعلى مدى عشر سنوات كانت هناك محاولة منظمة بأوامر من الامبراطور للقضاء على الكنيسة المسيحية ، واستشهد بعض المسيحيين كما تخلى كثيرون عن دينهم ، إلا أن العديد من الحكام المحليين لم ينفذوا أوامر دقلديانوس بدقة .

وعلى أية حال ، جاء تحول الدولة الرومانية ضد الكنيسة المسيحية متأخرا للغاية ، إذ كان من المستحيل اقتلاع المؤسسات المسيحية من جذورها عندما استطاعت أن تستحوذ على ولاء مايقرب من خمس سكان العالم الرومانى على الأقل ، ولم تستطع الامبراطورية أن تقضى على الكنيسة ، ومن ثم كان عليها أن تتعايش مع هذه القوة العظمى الجديدة التى ظهرت فى العالم. وفى سنة ٣٠٦ اعتزل دقلديانوس منصبه ، وبعدها بسبع سنوات أعلن إمبراطورا الشرق والغرب مبدأ حرية العقيدة فيما عرف باسم "مرسوم ميلانو" ومضى قنسطنطين حاكم العالم اللاتينى ، خطوات أبعد من ذلك حين أعلن تأييده الفعال للمسيحيين ، ومنذ ذلك الوقت فصاعدا أخذت الامبراطورية الرومانية ترتبط أكثر بالكنيسة المسيحية .

٢- قسطنطين الأمبراطور المسيحى

لقد تحدد شكل الامبراطورية الرومانية الشرقية إلى حد كبير بفضل اثنين من الأباطرة هما: قسطنطين فى القرن الرابع ، وجستنيان الأول فى القرن السادس ، وكانت أصولهما الاجتماعية متشابهة لدرجة ملحوظة ، فقد كان كلاهما من أصل ريفى بلقانى ، وقد خرج والد قسطنطين وخال جستنيان من هذا الأصل المتواضع ليصبح كل منهما قائدا بارزا يستولى على السلطة الامبراطورية فيما بعد . وكانت هيلينا أم قسطنطين (وهى القديسة هيلانه فى الكنيسة الشرقية) ساقية فى إحدى حانات البلقان وربما كانت تمتهن الدعارة .كما أن جستنيان تزوج من راقصة سيرك هى تيودورا التى ربما كانت تمتهن الدعارة أيضا . وقد تشابه قسطنطين وجستنيان من حيث الكفاية الإدارية ، والدأب والكد العظيم ، والاخلاص للكنيسة .

ولقد ولد قسطنطين حوالى سنة ٢٨٠ من أبويه هيلينا وقنسطنطيوس خلوروس Constantius Cholorus الذى كان قيصرا أو امبراطورا مساعدا فى الامبراطورية الغربية وكان مسئولاً عن بريطانيا وغاليا . وكان قنسطنطيوس خلوروس يعتنق ديانة تعتقد باله وثنى واحد (اله الشمس الذى لايقهر) أما قسطنطين نفسه ، والذى كان قد أرسل إلى بلاط دقلديانوس ، وسافر كثيرا فى أرجاء الامبراطورية الشرقية ، فقد تعرف على الكثير من المسيحيين فى مطلع حياته . وحين اعتزل دقلديانوس العرش سنة ٣٠٦ فشل النظام المعقد الذى رضعه لولاية العرش الامبراطورى ، والذى كان يتكون من اثنين من الاباطرة أحدهما امبراطور أكبر ، والثانى أدنى منه مرتبة ، واثنين من القياصرة أو الأباطرة المساعدين . وهكذا اندلعت نيران حرب أهلية مريرة استمرت حتى عام ٣١٠ حين كان هناك ثلاثة من الزعماء يتنازعون السلطة ، كان هناك ليكينيوس Lucinius فى الشرق ومكسنتيوس Maxentius فى إيطاليا ؛ وقسطنطين الذى ارتكزت قوته على غاليا وبريطانيا اللتين كانتا أفقر أجزاء الامبراطورية وأقلها سكانا . وفى سنة ٣١٢ غامر قسطنطين بكل شىء فى زحفه عبر جبال الألب إلى روما لمقابلة خصمه مكسنتيوس الذى كان يتفوق عليه كثيرا فى عدد جنوده . وفى معركة القنطرة الملفية Milvian Bridge على مقربة من روما ، دارت واحدة من أهم المعارك فى التاريخ وانتصر قسطنطين على منافسة وقتله شر قتلة ، وجعله هذا النصر حاكما وسيدا على الغرب . وتقاسم قسطنطين حكم الامبراطورية مع ليكينيوس حاكم الشرق فيما بين عامى ٣١٢ و٣٢٤ ، وفى سنة ٣٢٤ هزم قسطنطين خصمه الشرقى وخلعه عن عرشه ليصبح الحاكم الوحيد للعالم الرومانى .

وقد حار المعاصرون فى تفسير فى تفسير انتصار قسطنطين الذى بدا وكأنه معجزة حدثت عند القنطرة الملفية ، وزعم قسطنطين فيما بعد أن الانتصار لم يكن حدثا عارضا ، وربما كان نتيجة لاعتناقه المسيحية قبيل المعركة . وقد صار اعتناق قسطنطين للمسيحية مثار جدل كبير بين المؤرخين ، وتأتى معظم الأدلة التى تبرهن على اعتناق قسطنطين للمسيحية مما أمدنا به كاتب لاتينى فى آسيا الصغرى هو لاكتانتيوس Lactantius الذى ألف حوالى سنة ٣٢٠ كتاب "موت المضطهدين" ، وهو كتاب لاقى رواجا كبيرا وشعبية واسعة فى العصور الوسطى ، وهو عبارة عن مجموعة من قصص الرعب حول سقوط أولئك الحكام الذين اضطهدوا المسيحيين. وفى ثنايا هذا الكتاب يناقش لاكتانتيوس الأحداث التى أدت إلى معركة القنطرة الملفية ، حيث يروى لنا أن قسطنطين تلقى تعليمات فى الحلم بأن يضع شارة الصليب على دروع رجاله حتى تجلب له النصر . كما أن الأسقف ايوزيبيوس Euscbius اسقف قيصرية ، وأول مؤرخى الكنيسة الكبار ، وأحد أصدقاء قسطنطين وموضع ثقته ، يورد لنا ثلاث روايات عن الأحداث التى أدت إلى الانتصار الكبير الذى أحرزه قسطنطين . ففى سنة ٣١٦ يقرر أن قسطنطين تقبل المسيحية ، ووضع شارة الصليب على دروع فرقه العسكرية ، وفى سنة ٣٢٥ يؤكد ايوزيبيوس فى كتابه "التاريخ الكنسى" أن قسطنطين صلى للرب المسيحى قبيل المعركة، كما أنه أقام لنفسه تمثالا فيما بعد فى روما يمثله حاملا الشارة المسيحية ، ولم يعثر حتى الآن على الدليل الأثرى لهذا التمثال ، وربما كانت رواية ايوزيبيوس فى هذا الشأن غير صحيحة . أما كتاب ايوزيبيوس عن "حياة قسطنطين" الذى كتبه بعد موت الامبراطور سنة ٣٣٧ بوقت قصير - فيقدم لنا نموذجا لحياة مثالية لحاكم مسيحى ، وهو النموذج الذى ظل يحتذى فى كتابة سير الملوك المسيحيين حتى القرن الحادى عشر . وفى هذا الكتاب يذكر المؤلف أن قسطنطين وجنوده شاهدوا قبيل عبورهم جبال الألب إلى ايطاليا ، حيث دارت المعركة ، صليبا يتلألأ فى السماء وتحته عبارة "بهذه الشارة سوف تنتصر" وهو الأمر الذى أدى إلى إشاعة أن قسطنطين مؤزر بقوة الرب المسيحى الذى حمل جنود قسطنطين شارته منذ ذلك الحين فصاعدا .

وثمة دليل تحمله المسكوكات على اعتناق قسطنطين المسيحية ، بيد أنه غير شامل فقد سكت على إحدى العملات صورة إله الشمس التى لاتقهر وسكت معها على نفس القطعة صورة الصليب . بينما أوضحت قطعة أخرى شارة المسيح تدمر إحدى الحيات رمزا إلى تدمير المسيحية للوثنية . وفى قطعة ثالثة يبدو قسطنطين فى زيه الحربى والشارة المسيحية تعلو

خوذته . وهناك ميدالية ترجع فى تاريخها إلى سنة ٣٣٠م بمناسبة تأسيس مدينة القسطنطينية، وهذه الميدالية ذات خصائص رومانية واضحة ، وتوضح الالهة فيكتوريا Victoria [٨] تتوج الامبراطور بيديها . ولو كان قسطنطين مسيحيا مخلصا ، فلابد أنه كان واعيا بضرورة التعبير عن قبوله للديانة المسيحية على عملاته [٩].

وبمضى الوقت حاول كثير من المؤرخين إقامة الدليل على اعتناق قسطنطين للمسيحية ، وصور المؤرخ السويسرى الناطق بالألمانية ياكوب بوركهارت Jacob Burkhardt فى كتابه "عصر قسطنطين العظيم" (الذى صدر سنة ١٨٥٢) قسطنطين كأمير ميكافيللى (انتهازى) . فقد كان بوركهارت صديقا لنيتشه ، كما كان يؤمن بالنظرية الألمانية عن الارادة والقوة وأوضح أن الامبراطورية كانت تعانى من الفوضى سنة ٣١٢ ، وكانت الكنيسة محط الآمال فى إعادة بناء السلطة والاستقرار .

ويصور بوركهارت قسطنطين فى صورة الرجل القوى غير العاطفى الذى أراد أن يفيد من قوة تنظيم الكنيسة المسيحية . وإذ لم يكن باستطاعته أن يقضى على المسيحيين ، فإنه انضم إليهم . ومن ثم فإنه استغل المسيحية لتدعيم قوة إمبراطوريته. وبالرغم من أن بوركهارت حاول أن يحط من شأن ايوزيبيوس باتهامه بأنه مجرد بوق دعاية وكذاب كبير ؛ فإنه شخصيا لم يقدم لنا أى دليل يفند الاعتقاد بأن قسطنطين كان يتصرف من خلال اقتناع دينى عميق ، وربما كان الناس فى القرن الرابع قد ضُلِلوا ، ولكنهم لم يعرفوا الهزل فى المسائل الدينية .

أما الباحث الفرنسى المعاصر أندريه بيجانيول A.Piganiol فيعتبر أن قسطنطين كان فلاحا مشوش الذهن ، نصف متعلم خلط بين الديانات وبعضها ، كما اعتبره " رجلا مخبولا" يتملس طريقه كيفما اتفق دون أن يرى ماهو فاعل . إلا أن قسطنطين كان يعى بالتأكيد

---

(٨) ربة النصر عند الرومان .

(٩) كانت طرز العملة الرومانية رما تحمله من أساطير - والتى كانت تتغير سنويا - من أهم وسائل الدعاية الامبراطورية . وكان بوسع قسطنطين أن يستبعد مايشير إلى الآلهة الوثنية على عملاته . والراجح أن قسطنطين رغم إخلاصه للبسيحية وتعاطفة مع اتباعها ، لم يكن مسيحيا بمعنى الكلمة . إذ أنه لم ير بأسا فى أن توجد آلهة وثنية أخرى على عملاته.

انظر مناقشة تفصيلية لهذه المسألة فى :

Jones A.H.M. Constantine and the conversion of Europe. (Penguin, 1972), Pp.48 - 105

مـابفعله فى مجال الحكم ومجال الحرب ، فلمـاذا نفترض أنه كـان مشوشا على هذا النحو فى شئون العقيدة ؟ لقد كان من الشـائع فى العشرينيات والثلاثينيات من هذا القرن أن نفكر فى قسطنطين إما باعتباره رجلا مستهتـرا هازئا. وإما باعتبـاره انتهـازيا ، وفى الأربعينيات والخمسينيات - نتيجة التغير الذى طرأ على فروض علم التدوين التـاريخى - كان هناك رد فـعل دينى تجاه هذه النظريات ، فـإن المؤرخ الانجليـزى بينز N.H. Baynes المتخـصص فى التـاريخ البيـزنطى ، يصـور قسطنطين فى صورة البطل المسـيحى المخلص الورع . كـمـا يقدم المؤرخ الفـرنسى بالانك J.Z. Palanque نظريتـه عـن المراحل الثـلاث التى مـر بهـا اعـتناق قسطنطين للمسـيحية . أولا ، إيمانه بوحدانيـة الشمس التى لاتقهر التى أخذها عن أبيـه، ثانيا الاعـتقاد فى الوهيـة روحيـة حوالى سنة ٣١٠ وأخيرا التـقبل الفعـلى للديانة المسيحيـة قبيل معـركة القنطرة الملفية ، وفى رأى بالانك أن اعتناق قسطنطين للمسـيحية بحق كان سنة ٣١٢ حين كـان قسطنطين قد صار عـضوا ثابتـا ورعا تقيـا فى الكنيسـة ؛ رغم بقاء تأثير الخرافـات على شخصيتـه ، ويعتبر تفسير بالانك لاعتناق قسطنطين المسيحية أفضل التفسيرات حتى الآن بالرغم من المبالغة الواضحة تعقيده والحذلقة التى لاضرورة لها .

وينبغى أن نـتذكـر أن قسطنطين لم ينل قسطا طيبا من التعليم . وأثناء حالة القلق التى أنتابتـه قبيل معركـة الجسر الملفى اعتقد أن بوسعه أن يعقد صفقـه مع الرب . ومن الواضح أن هذه المراهنة على المسيحيـة هى التى قـادته إلى نصره ، ومن ثم أصبح مؤيدا للكنيسة . وكـان قنسطنطين يعـتقد فى جميع الحالات بقوة إله واحد ، كـمـا أن الضـغـوط التى تعرض لهـا فى الفتـرة التى سبقت المعركـة قـوت إيمانه برب المسيـحيين ووطدته ، صـحيح الامبـراطور لم يتلق المعمودية حتى اللحظة التى رقد فيها على فراش الموت ؛ ولكن تعـميـد الأطفال لم يكن شائعا فى تلك الأيام . وكان قسطنطين مسيحيا مخلصا طوال السنوات الخمس والعشرين الأخيرة من حياته ، كـما تميز بنشاطه وحيويتـه المتدفقة ، أكثر من الروحانية والاهتـمام بالنشـاط العقلى ، كذلك كـان قسطنطين أكـثـر جنوحا نحو الغـضب والعنف ، وأقل مـيـلا إلى التـفكيـر الهـادىء المتأمل والواضح أنه لم يكن قديسا ؛ بيد أنـه اعتبر نفسه رجلا أرسلته العناية الإلهية لانقاذ الامبـراطورية الرومـانيـة والكنيسـة المسيحيـة . وكـان يرى أن كـلا من الامبـراطورية والكنيسة ترتبط بالأخرى . ومنذ بداية ولايته للعرش الامبـراطورى أدرك قسطنطين أن الكنيسة يمكن أن تكون بمثابة العـمـود الفقرى للامبراطورية ، ومن ثم فإنه بذل مـحـاولات مستميتة فى سبيل الحفاظ على وحدة الكنيسة ، انطلاقا من إيمانه بأن الرب قد اختاره لهذه المهمة ـ وقد حفظت جهوده الدينيـة والسياسيـة الامبراطورية من السقوط حوالى مائة سنة ، كـمـا أضعفت من قـوة المذاهب المخالفة مثل الأريوسيـة والدوناتيـة ، وبرهن قسطنطين من خلال هذه الأعمـال على أنه

رجل ثاقب النظر وله مثله العليا ، كما أكد نشاطه ومهارته الإدارية الفائقة . ولم يكن فهم قسطنطين للمسيحية فهما عقلانيا على الاطلاق إلا أنه كان يعتبر نفسه مسيحيا تقيا . لقد وضع الأساس ومهد الطريق أمام الكنيسة فى العصور الوسطى .

ومنذ بداية حكمه حاول قسطنطين مساعدة الكنيسة المسيحية عن طريق منح الامتيازات الخاصة للأساقفة ، ومن الواضح أنه قصد أن يتصرف باعتباره ممثل الكنيسة أمام السكان غير المسيحيين فى الامبراطورية ، فقد أطلق على نفسه اسم "أسقف الذين خارج الكنيسة"، كما تعمد أن يسمح للأساقفة بإدارة شئون الكنيسة الداخلية ، بيد أن قسطنطين سرعان ما أدرك أن ذلك أمر غير ممكن ، إذ كان الأساقفة يفدون عليه فورا من شتى إنحاء الامبراطورية لكى يحسم المنازعات الدينية التى أخذ تهدد بتمزيق وحدة الكنيسة ، فلم تكن الكنيسة قد طورت بعد نظاما من السلطة العليا التى يمكنها تحديد ملامح العقيدة ، وترك لكل أسقف أن يقرر مثل هذه المسائل بما يتلاءم مع مصلحة أسقفيته ، وأدى هذا إلى ظهور الحاجة إلى مجلس عظيم يضم كل أساقفة الامبراطورية لمناقشة هذه المشكلات ووضع الحلول المناسبة لها ، وكان مجمع نيقية الذى انعقد ٣٢٥ هو أول هذه اللقاءات العامة ، وقد رأس قسطنطين هذا المجمع وحاول أن يفرض معادلة مذهبية تخضع لها كل الفرق الدينية ونجح فى ذلك مؤقتا.

كان اشتراك الغرب محدودا فى محمع نيقية ؛ لأن المشكلة الآريوسية التى كان على مجمع نيقية أن يحلها كانت مشكلة تهم الشرق وحده . فقد كان على الكنيسة فى القرون الثلاثة الأولى أن تتبنى ثقافة مختلف المناطق التى كان أتباعها يقطنون بها . وهكذا كان ثمة تمهيد لانفصال دينى ومذهبى بين الشرق والغرب ؛ إذ كان المسيحيون فى الامبراطورية الرومانية الشرقية ، التى شاعت بها اللغة اليونانية راغبين فى صياغة العقيدة وتحديد جوهرها فى مصطلحات منطقية وفلسفية (١٠).

---

(١٠) الحقيقة أن هذا الاختلاف فى التفسير فى شئون الدين بين الشرق والغرب إنما يعود فى معظمه إلى القوانين التى ميزت الشرق بمستواه الحضارى وتراثه الفلسفى المستمد من الحضارات القديمة التى قامت على أرضه ومستوى سكانه الذين كان عدد كبير منهم من أهل المدن - التى قامت كثير منها فى أرجاء الشرق - عن الغرب بمستواه الحضارى المتواضع حيث الطابع الريفى هو السائد ، وحيث المستوى الحضارى المتواضع لسكانه الذين تميزوا ببساطة التفكير وسذاجته ، ومن ثم كان طبيعيا أن ينتشر المذهب الآريوسى بإطاره الفلسفى فى الشرق بينما انتشر مذهب أثناسيوس بإطاره العاطفى فى الغرب . على أن مايهمنا هو النتائج السياسية والاجتماعية البعيدة المدى لهذا النزاع الدينى الذى كان فى بعض جوانبه تعبيرا عن القوميات الشرقية وسيما مصر والشام. (المترجم)

أما العالم اللاتينى فى الغرب . فقد خلا فى معظمه من المذاهب التى اختلفت حول طبيعة المسيح والتى أصابت الكنيسة الشرقية ، وبدا الأمر فى نظر المسيحيين الغربيين وكأنما يحاول رفاقهم فى الشرق أن يحددوا مالا يمكن تحديده ، أى ثالوث الأب والأبن والروح القدس . وبدلا من المشكلات الفلسفية التى كانت ذات أهمية بالغة بالنسبة للشرقيين اهتم الغربيون بمشكلات عملية تهتم بإدارة الكنيسة ، والعلاقة بين الله والانسان ، وظلت مسألة تحديد الثالوث المقدس بعيدة عن قدرة العقل الانسانى فى نظر الكنيسة الغربية اللاتينية حتى القرن الثانى عشر حين حاول أبيلار Abellard أن يقوم بذلك . أما فى الشرق ، فقد داوم قادة الكنيسة منذ القرن الرابع حتى القرن السادس دون كلل على المهمة التى حددوها لأنفسهم وهى تحليل طبيعة المسيح . وقد أدى الإصرار الشرقى على التحديد الفلسفى والمنطقى للثالوث إلى كثير من المنازعات تركزت فى مذهبين كبيرين هما الآريوسية فى القرن الرابع ، والمونوفيزيتية (مذهب الطبيعة الواحدة) فى القرن السادس.

أما الآريوسية ، التى اشتقت اسمها من آريوس Arius القس السكندرى ، فقد أصرت على التمييز الشديد بين الله والمسيح ، وقد أدخلت هذه العقيدة فكرة تعدد الآلهة فى المفاهيم المسيحية ، وهى الفكرة التى أخذ بها العالم اليونانى - الرومانى القديم . لقد حاول آريوس ، مثلما فعل المفكرون الوثنيون ، أن يجعل هناك تمييزات ومستويات للألوهية وسرعان ما اتخذت الكنيسة الغربية موقفا معاديا للآريوسية ادراكا منها للخطر الكامن فى الارتداد إلى مثل هذا الشرك . وانشقت الكنيسة الشرقية تماما بسبب المسألة الآريوسية . وبالرغم من وجود المشاعر الوطنية ، التى جعلت الموقف يتفاقم ؛ فقد تولدت المرارة عن الصراع الطويل الذى نشب بين الاسكندرية وغيرها من كبريات مدن الشرق . فلم تكن الاسكندرية مستاءة وغيورة من أسقف القسطنطينية فحسب ، بل إن المصريين أيضا لم يكونوا راضين قط عن الحكم الامبراطورى . وكانت القومية المصرية تمر بموجة إحياء عظيمة فى القرن الرابع ، ومن الواضح أن مذهب آريوس قام فى معظمه على أرضية من الاختلافات الوطنية والفكرية . ومما زاد فى حدة الصراع أن أسقف روما والامبراطور قد ساندا بطريرك القسطنطينية فى موقفه أواخر القرن الرابع مما قوى رغبة المصريين فى الانسلاخ عن الامبراطورية ، وعبروا عن مشاعرهم الوطنية من خلال المذهب الآريوسى فى القرن الرابع ، والمذهب المونوفيزيتى فى القرن السادس ، واستمر الصراع فترة تزيد على قرنين من الزمن اتسمت بالمرارة ثم انتهت بتسليم المصريين البلاد بلا مقاومة إلى الفاتحين المسلمين فى القرن السابع .

أما المذهب الدوناتى فكان أكثر أهمية بالنسبة للمسيحيين ، فى الكنيسة الغربية ، إذ أدى هذا المذهب إلى إندلاع النزاع بين الدوناتية والكاثوليكية وهو النزاع الذى استمر منذ القرن الرابع حتى القرن السادس عشر وتخللته فترة من الهدوء من سنة ٧٠٠ إلى ١٠٥٠ . وهذا هو النزاع الأساسى فى الكنيسة الغربية . ففى القرن الرابع كان المذهب الدوناتى محدودا بإطار مكان مولده فى شمال أفريقيا (الجزائر وتونس حاليا) حيث كان المجتمع القديم ذو الطابع الحربى ينقسم إلى كنائس تتبع الإيمان القويم وكنائس منشقة ، وقد اشتق المذهب الدوناتى اسمه من الأسقف دوناتوس Donatus الذى كان أحد مؤسسيه ، وكان هذا المذهب هو إحدى النتائج غير المباشرة لاضطهادات دقلديانوس . فقد كان حاكم ولاية أفريقيا متساهلا تماما ، إذ كان يطلب من المسيحيين مجرد التنصل الرمزى من دينهم بتسليم كتبهم المقدسة له ، وركن المسيحيون الأغنياء إلى هذا التصرف . ولكن حينما انحسرت موجة الاضطهادات وجدوا أنفسهم متهمين بالخيانة من قبل جماعة من المتعصبين الذين كان معظمهم من أبناء الطبقات الفقيرة ، والذين طلبوا أن تقتصر عضوية الكنيسة على القديسين الأبطال الذين لم يخونوا دينهم على أى وجه .

وزعم المتزمتون أن أولئك الخونة خسروا رحمة الرب ، ولم يعودوا مسيحيين ، كما طلبوا أن تتم الأسرار المقدسة على أيدى قساوسة طاهرى الأرواح ، واعتبروا أن الاسرار التى تتم على أيدى قساوسة غير جديرين بذلك تعتبر باطلة ، أما الأغلبية الكاثوليكية فقد ظلت على اعتقادها بأن صحة الأسرار المقدسة تتوقف على منصب القسيس وليس على صفاته الشخصية. وكان هذا الأمر هو نقطة الخلاف - كنيسة من القديسين فى مواجهة كنيسة كاثوليكية لكل العالم - وعند نهاية القرن الرابع سخر القديس أوغسطين St. Augustine ، وهو أحد آباء الكنيسة الكبار ومن أبناء شمال أفريقيا - كل علمه وفصاحته ضد الدوناتيين مناصرا الموقف الكاثوليكى ، ولكن لا مجادلات الكاثوليك ، ولا الاضطهادات التى مارسها الامبراطور الأرثوذكسى استطاعت أن تقضى تماما على الدوناتيين ، إذ صار هؤلاء يشكلون كنيسة سرية ولكنهم لم يختفوا إلا بعد الفتح الاسلامى فى القرن السابع . وقد ظهرت الدوناتية من جديد فى الغرب فى النصف الثانى من القرن الحادى عشر ، وكان اختفاؤها من على المسرح الدينى المسيحى لعدة قرون قد ساعد الكنيسة الكاثوليكية على تاكيد زعامتها لأوربا فى العصور الوسطى الباكرة وهى المهمة التى كانت الكاثوليكية لاتستطيع القيام بها لو أنها انساقت وراء المثل التى يطرحها المذهب الدوناتى ولم تجتذب الناس أجمعين إلى حظيرتها ، وتحاول أن تمدينهم .

وفى العصور الوسطى العالية ، طلب الرجال المتعلمون من أصحاب الوعى الأخلاقى بين العلمانيين أن يكون الأكليروس فى مستوى أخلاقى أكثر سموا ، منتهجين بذلك خطى أصحاب المذهب الدوناتى . وإذ لم يكونوا راضين بهذا الشأن ، فقد أنكر بعض المتعصبين الغلاة من بينهم التمييز بين العلمانيين ورجال الأكليروس . وبرزت إلى الوجود نظريات هرطقية فى أنحاء متفرقة من أوربا الغربية ترجع فى أصولها إلى المذهب الدوناتى ، وقد حاربت الكنيسة الهرطقات بكل الوسائل المتاحة ، ذلك أن الهرطقات كانت تضرب الأساس الذى قامت عليه الكاثوليكية ، بيد أن الكاثوليكية لم تتمكن أبدا من أقتلاع الدوناتية من جذورها تماما ، وبمجيء القرن السادس عشر شعر كثيرون أن المذهب الدوناتى كان سليما فى موقفه . فقد أظهرت حركة الاصلاح الدينى - وفقا للمفهوم البروتستانتى - تراثها الدوناتى : فلكى تكون عضوا فى الكنيسة بحق ينبغى عليك أن تكون قد مررت بتجربة اعتناق العقيدة، كما يتعين عليك أن تكون على اقتناع تام بقبول نعمة الايمان . وكانت المشكلة التى واجهتها الكنيسة الكاثوليكية تتمثل فى استيعابها للمجتمع ، وفى أنه بقدر ما كان يحتمل أن يتحضر المجتمع ويتطور من خلال ارتباطه بالكنيسه ، كان من المحتمل أيضا أن تتدهور الكنيسة بتأثير هذا المجتمع . وكان يمكن التقليل من هذه الأخطار لو أن المسيحية ظلت ديانة الصفوة ، كما كان يمكن تحقيق المثل الدوناتية عن كنيسة القديسين . إلا أن مجتمعا مسيحيا يقتصر على القديسين لم يكن ليستطيع أن يصبح فى الوقت نفسه كنيسة كاثوليكية (عالمية) تجلب الرحمة والنعمة لبنى الانسان جميعا ، ولم يكن ممكنا على الاطلاق التوفيق بين الكاثوليكية والدوناتية ، واحتار قسطنطين بسبب النزاع المذهبى حول المذهب الدوناتى . وكان من الضرورى ، ومن المحتم ، أن تفشل محاولاته لإقرار السلم بين الطائفتين .

كان قسطنطين يستشير صديقه ومؤرخ قصة حياته أيوزيبيوس أسقف قيصرية بفلسطين فيما يتعلق بتعامله مع الكنيسة ، ويعتبر كتاب أيوزيبيوس "حياة قسطنطين" واحدا من أهم الأعمال الأدبية فى العصور الوسطى . فهو يضع نموذجا لحياة مثالية لأحد ملوك العصور الوسطى.كان ملوك العصور الوسطى رجالا برابرة متوحشين حتى أواخر القرن الحادى عشر . وعلى أية حال فإن قصص حياة أولئك الرجال كتبها الوزراء الذين كانوا من رجال الكنيسة والذين كانوا يرغبون فى تصوير سادتهم فى صورة أصحاب الفضائل النبيلة الذين اختارهم الرب لمناصبهم ، كما صوروهم على أنهم أصدقاء عظماء للكنيسة يتمتعون بالنعمة ويتسمون بالرحمة . فإن جريجورى التورى (القرن السادس) فى كتابه "تاريخ الفرنجة" يقدم لنا حياة كلوفيس Clovis ملك الفرنجة ، على النحو الذى قدمه أيوزيبيوس لحياة قسطنطين ، بل إن

كلوفيس قد سمى "قسطنطين الثانى". وفى أواخر القرن العاشر كتب قس فرنسى اسمه دودو Dudo سلسلة تراجم لدوقات نورمانديا الأوائل ، كانت تعكس تأثيرات طريقة أيوزيبيوس . وتتجلى الحرفية العظيمة فى هذه الأعمال النورماندية ؛ فقد ظهرت بعد الأحداث بحوالى ثمانين أو مائة عام ، لتسير على نهج التراث الأيوزيبى (نسبة إلى أيوزيبيوس) فى محاولة خلق ما كان يجب أن يكون ؛ لاتقرير ماحدث بالضبط ، فإن الحقائق التاريخية فى هذه السير ماتزال موضع تساؤل ، لا لأن الذين كتبوها كانوا جاهلين بالحقيقة ، ولكنهم لأنهم طرحوا ماكانوا يريدونه بمهارة فائقة .

كان الأدب التاريخى أوائل العصور الوسطى ، مثل سير القديسين Hagiography، قائما على أساس مفهوم تقديم المثل الأعلى لاتقديم الواقع ، وقد تبع هذا النوع من التدوين التاريخى Historiography مفهوم الفلسفة الأفلاطونية عما يجب أن يكون عليه الملك أو الإمبراطور أو الأسقف . وتحفل الكتابات التاريخية فى العصور الوسطى بأخبار القديسين الذين تتم المعجزات على أيديهم ، وذلك تحقيقا لمفهوم الكاتب نفسه عن القديس المثالى ، كما تمتلىء هذه الكتابات بأخبار الملوك الذين يتوافقون ويتلاءمون مع النموذج المثالى للملك . واستمر هذا الالتزام الأدبى بالمثل الأعلى فى كتابة التاريخ حتى القرن الحادى عشر على أقل تقدير . ولم يكن هناك مكان فى أدب العصور الوسطى المبكرة للشخصية الحقيقية ذات الميزات والخصائص الفردية ؛ فإن احتذاء الاتجاهات التى كانت واضحة بالفعل فى الكتابات الرومانية المتأخرة جعل المثل الأعلى والشخصية العامة يطردان الشخصية المتميزة الحقيقية من ميدان الأدب . ومن حين لآخر نجد فى الكتابات التاريخية أوائل العصور الوسطى رنة واقعية، فإن جريجورى التورى ، على سبيل المثال ، يزيح النقاب أحيانا عن كلوفيس الهمجى كما هو دون رتوش . وثمة سؤال يطرح نفسه عما إذا كان مثل هذا الخروج المؤقت عن تقاليد الكتابة التاريخية آنذاك راجعا إلى ضعف مفهوم المثل الأعلى أم أنه كان ببساطة تقليلا من حدة الصنعة الأدبية .

هكذا حاول ايوزيبيوس أن يصور قسطنطين كما يجب أن يكون ، لا كما كان بالفعل . كان قسطنطين فى نظر ايوزيبيوس تحقيقا لخطوط التطور العالمى التى أرسيت حين كانت الامبراطورية الرومانية (تحت حكم أغسطس) والكنيسة تبدآن حياتهما فى الوقت نفسه ، ووفقا لهذا الموضوع الذى كتبه ايوزيبيوس دخل العالم أعظم مرحلة من مراحل تاريخه بالبداية المشتركة لكل من الديانة المسيحية والسلطة الامبراطورية الرومانية اللتين تجسدتا فى شخص

قسطنطين . اعتقد ايوزيبيوس أن الامبراطورية ستضمن استمرار وبقاء المسيحية إلى الأبد ، وأن الرب لابد وأن يكافئها على ذلك بالسعادة والمجد العظيم . ولم ينحسر هذا النوع من التفاؤل إلا مع فشل الامبراطورية قرب نهاية القرن الرابع ، وتخلى التفاؤل القائم على اتحاد الامبراطورية والكنيسة عن مكانه للتشاؤم المصحوب بالتحقق من أن الامبراطورية بناء زائل فى نهاية الأمر ، وأن مصير الكنيسة مستقل عن مصير باقى الامبراطورية . وكان هذا هو موضوع كتاب "مدينة الله" لأوغسطين ، فقد عاش ايوزيبيوس فى زمن بدا فيه أن أشياء عظيمة سعيدة على وشك الحدوث ، ولم تحدث هذه الأشياء . بيد أننا لانستطيع أن نلوم ايوزيبيوس على تفاؤله ، فقد كانت كل مؤشرات عصره تشير إلى عصر هذه السعادة والتقدم الذى لم يسبق له مثيل . ولم يكن ثمة شك فى أن الرب سيكافىء الامبراطورية على اعتناق المسيحية . ولم يكن تشاؤم أوغسطين أقل ارتباطا بالظروف الاجتماعية ؛ ذلك أنه حين مات سنة ٤٣٠ كان الغزاة الوندال يطرقون أسوار مدينته الأسقفية .

وقد أساء النقاد المحدثون فهم ايوزيبيوس ؛ إذ أنهم غالبا مايزجون به بشكل ما فى مقارنة غير عادلة مع أوغسطين . فبينما كان كتاب أوربا العصور الوسطى يدينون بالكثير لأوغسطين فانهم لم يروا أن آراء ايوزيبيوس التاريخية ضحلة بالقدر الذى رأيناها نحن به . وكلما ظهر ملك يحابى الكنيسة هللوا له وأعتبروا أنه قسطنطين آخر ، وتسربت إلى الكتابات المعاصرة عن الحاكم نغمة متفائلة تقول بأن الرب سوف يكافىء الملك المسيحى التقى بالنصر والمجد ، بلا جدال !

كانت آخر جهود قسطنطين لصالح الكنيسة هى تأسيس روما جديدة فى القسطنطينية . فبالرغم من كل جهوده على مدى السنوات العشر الأولى من حكمه ظلت الأرستقراطية الرومانية على ولائها للآلهة الوثنية القديمة ، وحتى أواخر القرن الرابع لم تكن غالبية الطبقة الحاكمة القديمة فى المدينة الخالدة قد تحولت إلى المسيحية . ولم يكن قسطنطين يشعر أنه قوى بالقدر الذى يكفى لإجبار الارستقراطية القديمة على الدخول فى حظيرة الكنيسة ؛ ولكنه كان يأمل فى التقليل من شأن روما فى العالم وتدمير مكانة الوثنية الأرستقراطية وتأثيرها ، واستمرت الارستقراطية الرومانية فى التمتع بالثروة والسلطان فى الغرب وفى روما على وجه الخصوص. وبناء القسطنطينية جسد قسطنطين عاصمة امبراطورية جديدة حيث تتفرق المسيحية تفوقا لايقبل التحدى ، ويحكى ايوزبيوس عن الحلم المعجزة الذى دفع بقسطنطين إلى بناء عاصمة جديدة فى بلدة بيزنطة الاغريقية القديمة على ضفاف البسفور ، حيث تتمتع بموقع حصين يحفظها من الهجوم بفضل مراياه الاستراتيجية الفائقة .

وقد صممت القسطنطينية - العاصمة الجديدة - على نمط روما بتوجيه من قسطنطين ، وملئت بالأعمال الفنية القديمة المجلوبة من مدن البحر المتوسط . بل إن قسطنطين جلب من روما جموعا من العامة أسماهم " الشعب الرومانى" لكى يضفى على المدينة الجديدة رونق وبهاء العاصمة القديمة . وعلى المدى الطويل ، ورغم جهوده وخططه العظيمة من أجل العاصمة الجديدة / فإن القسطنطينية لم تؤد إلا إلى تصعيد عملية تقسيم الامبراطورية الرومانية . فان خلق عاصمة شرقية جديدة شجع على تقسيم الامبراطورية بين حاكم شرقى وآخر غربى ، وهو ما كان دقلديانوس قد حاوله بالفعل . وحدث عدة مرات فى القرن الرابع أن وجد امبراطوران ، وبعد عام ٣٩٥م انفصم الجزآن اليونانى واللاتينى لعالم البحر المتوسط عن بعضهما انفصاما لم تضمهما من بعده وحدة سياسية أبدا) وبحلول القرن السادس صارت القسطنطينية يونانية تماما فى لغتها وثقافتها ، فقد حولت العاصمة الجديدة شعوب شرق المتوسط بعيدا عن روما وشجعت انفصالهم المتزايد عن الغرب اللاتينى وحضارته (وكانت مجموعة قوانين جستنيان ، التى نشرت فى القرن السادس ، آخر الأعمال التى كتبت باللغة اللاتينية فى القطاع الشرقى من الامبراطورية ؛

بيد أن القسطنطينية كانت على الأقل قلعة جديدة عظيمة فى الشرق ، واستطاعت أن تنقذ أوربا الغربية المسيحية أوائل العصور الوسطى بفضل كفاءتها . فقد كانت القسطنطينية ، بفضل موقعها الاستراتيجى على مفترق الطريق بين الشرق والغرب ، قادرة على التصدى لغزوات الأجناس والديانات الشرقية المختلفة ، وسد الطريق المؤدى إلى روما وأوربا الغربية أمامها . وأوضح الأمثلة على ذلك هو وقف الزحف الاسلامى عند أسوار القسطنطينية فى القرن الثامن . فبسبب الدور الذى لعبته القسطنطينية كقلعة تحمى أوربا نجت الشعوب الأوربية فى العصور الوسطى من الخضوع للسيطرة الدينية ، والسيادة العسكرية للجيوش الاسلامية .

(وعلى المدى القصير ، فإن النتائج التى نجمت عن بناء القسطنطينية لم تحقق آمال قسطنطين . لأن هيبة روما ومركزها فى العالم اللاتينى لم ينلهما أذى بسبب العاصمة الشرقية. فقد كانت القسطنطينية مجرد بديل لروما . وهنا تظل الأسئلة الحقيقية مطروحة عما إذا كان ممكنا تحويل الارستقراطية الرومانية القديمة إلى المسيحية ، وإذا ما كان تحويل روما النهائى إلى مدينة مسيحية يمكن أن يتحقق ؟ وقد تحقق هذا فعلا فى القرن التالى لموت قسطنطين على أيدى خلفائه الأباطرة المسيحيين وأساقفة روما .

٣- الامبراطورية الرومانية المسيحية

أثيرت مشكلة العلاقة بين الكنيسة والملكية المسيحية للمرة الأولى فى القرن الرابع ، بعد اعتناق أباطرة الرومان للمسيحية ، وظلت هذه المشكلة واحدة من المشكلات المميزة فى حضارة العصور الوسطى ، وليس من قبيل المبالغة أن نقول إن علاقة الدولة بالكنيسة كانت هى الموضوع السائد والمستمر فى الشئون الأوربية الداخلية حتى القرن الثانى عشر .

وتكمن جذور هذه العلاقة فى الفترة السابقة على انتصار المسيحية . ففى العالم القديم كان ثمة تقارب شديد بين السلطة الملكية والسلطة الكهنوتية ، كانت سلطة الملكية ترتكز على دعامة وثيقة الصلة بالآلهة ، ومن ناحية أخرى كان رجال الكهنوت فى الغالب بمثابة قوة اجتماعية وسياسية أيضا . فمن المعلوم جيدا أن حكام بلاد النهرين ومصر كانوا مرتبطين بالآلهة ، بل إنه حتى الرومان المحدودى الأفق الذين عاشوا فى القرنين الأول والثانى بعد الميلاد ، كانوا متأثرين جزئيا بهذه التقاليد الخاصة بالملكية المقدسة ، وقد قطعت الديانات الشرقية التى تعبد الشمس والتى انتشرت فى العالم الرومانى فى القرن الثانى شوطا أبعد فى هذا السبيل ، وترتب على هذا أن تطورت كثيرا فكرة القداسة التى أضفاها الأباطرة على السلطة الامبراطورية . وتجسد ذلك فى نوع من الوحدانية السياسية ، إذ كان من المعتقد آنذاك أنه يوجد اله واحد فى السماء وامبراطور واحد على الأرض نائبا للذات المقدسة وشريكا لها .

وقبل قسطنطين ، كان قادة الكنيسة يبذلون مافى وسعهم لمقاومة هذه الوحدانية السياسية لأن إلههم لم يكن هو نفسه إله الدعاة الامبراطوريين . وكان غاية مايمكنهم قوله عن الملوك والأباطرة أنهم شر لابد منه ، كما كان كثيرون من المسيحيين الأوائل يعبرون عن عصيانهم للامبراطور أما سلبا أو ايجابا . ووفقا لعقيدة الكنيسة فى الحياة الآخرة ، فان سلطة القوى الأرضية (الحكام ، الملوك ، الأباطرة) كانت تعتبر سلطة مؤقتة ومقيدة إلى حد كبير وستزول فى يوم الحساب الأخير الذى يتوقعه المسيحيون فى المستقبل القريب .

إلا أن ارتقاء أحد المسيحيين للعرش الامبراطورى حتم على الكنيسة أن تعيد النظر فى موقفها من الملكية . فطالما كان الامبراطور غير مسيحى ، ومعاديا للكنيسة فى بعض الأحيان، لم تكن الأسئلة النظرية حول العلاقات بين الكنيسة والدولة تثار إلا فيما ندر . وكان بوسع الكنيسة أن تأخذ موقفا سلبيا من الدولة دون أدنى شك أو تردد من قبل قادتها . ولكن تتويج ملك مسيحى ، كان يثير زوبعة من المشكلات الجديدة التى لم يكن من اليسير أن يجدوا لها حلا .

كانت إعادة صياغة مفهوم الكنيسة عن الملكية مسألة حتمية بسبب تدخل كل من الامبراطور والأساقفة في شئون الآخر في القرن الرابع . ذلك أن الهرطقات ، والانقسامات ، وطلب الأساقفة لتدخل الدولة في حياة الكنيسة من ناحية ، وما أسماه بيورى J.B. Bury "ميل الأباطرة الاستبدادى للتحكم فى جميع القوى الاجتماعية" من ناحية أخرى ، قد خلق إتحادا وثيقا بين الكنيسة والدولة .

ومنذ عصر قسطنطين أخذ الامبراطور المسيحى يلعب دورا هاما ورائدا فى حياة الكنيسة ، وقد تحدد تاريخ كنيسة القرن الرابع فى جزء كبير منه بسياسة مختلف الأباطرة المسيحيين المتقلبة وآرائهم الدينية ، وقد رأينا بالفعل كم كان هذا واضحا فى عهد قسطنطين الذى شهد تدخل الدولة فى منازعات الكنيسة ، وتضارب الأهداف الكنسية والعلمانية ، كما شهد تعاون الامبراطور والأساقفة والعداء الشديد بينهم أيضا ، فإن الحوادث الكئيبة ، والمثيرة للسخرية أحيانا ، فى مجرى العلاقات بين الدولة والكنيسة زمن قسطنطين تكررت مرات ومرات فى أيام خلفائه حتى نهاية القرن الرابع . ويجب علينا أن نتذكر أنه لم يمكن القضاء على الآريوسية بمجرد إدانتها فى مجمع نيقية سنة ٣٢٥م ، إذ استمر الصراع بين الاساقفة الارثوذكس ، والفرقة الآريوسية والمجموعات الهرطقية الأخرى ، بشكل مدمر وعنف غالبا ، حتى العقد الأخير من القرن الرابع .

وتسببت الفوضى الناشئة عن الانقسامات العنيفة فى الكنيسة حول مسائل العقيدة فى تدخل السلطة . كانت الفرق المسيحية المتنافسة فى القرن الرابع - وهى الآريوسية والارثوذكية الشرقية وما شابهها من الفرق - تولى اهتماما كبيرا للحصول على مساعدة الحكومة لإسكات معارضيها ، ومن ثم فانه مع بداية وجود الامبراطورية الرومانية المسيحية كان باستطاعه قسطنطين أن يرسى التقاليد التى جعلت من حق الامبراطور أن يقوم بحل مشكلات العقيدة ، وفقا لرأيه الخاص فى غالب الأحيان ، ولكى يدعو إلى عقد المجامع الكنسية ويرأسها ثم ينفذ قراراتها .

وأدى هذا الموقف إلى تشجيع التحول العام نحو بعث وحدانية القرن الثالث السياسية فى صيغة مسيحية ، كان قسطنطين يعتبر نفسه مبعوث العناية الإلهية لتولى المنصب الامبراطورى . وكان ايوزيبيوس يظن أن الامبراطور تفويض إلهى على الأرض يعلو فى مكانته على الكنيسة بأسرها . وطبق أيوزيبيوس الأفكار السياسية الخاصة باللاهوت التوحيدى على الامبراطور المسيحى ، وفى سياق المديح الذى أغدقه على قسطنطين حجب السلطة

الامبراطورية خلف ضبابية مقدسة ، وهنا تكمن بداية النموذج البيزنطى الذى ظهر فيما بعد (القرن السادس) عن الملك - الكاهن ، وهو النموذج الذى يجمع فيه الامبراطور حقا بين القيصر والبابا ، وما أن أهل القرن السادس حتى كان الامبراطور يوجه السياسة الكنسية وفقا لنظرية القيصرية - البابوية تلك التى تقول بأن الإمبراطور هو نائب الله على الأرض ، وأنه يتفوق فى سلطته الدينية على بطريرك القسطنطينية وجميع رجال الكنيسة ، ولم تواجه هذه النظرية بأى تحد فى بيزنطة حتى القرن الثامن ، وظلت دائما تعنى الاتجاه السائد فى العالم المسيحى الشرقى .

وليس من الصعب أن نحدد الضرر العظيم الذى لحق بكل من الامبراطورية والكنيسة بل والحضارة الغربية ، من جراء اعتناق القادة المسيحيين لمذهب الوحدانية السياسية فى القرن الرابع . ويرجع السبب الجوهرى فى فشل الكنيسة الكاثوليكية فى الحفاظ على وحدتها فى العصور الوسطى إلى أن مختلف وجهات النظر التى وجدت فى الشرق والغرب كانت قائمة على أساس فعالية وجدوى المحافظة على مبادئها والممارسات المتعلقة بعلاقة الدولة بالكنيسة. ذلك أن الاساقفة اللاتين الذين لايدينون بشىء للامبراطور ، والذين سايروا القيصرية - البابوية بسبب دوافع داخلية بسيطة ، بدأوا يطورون أفكارا مغايرة فى العقدين الأخيرين من القرن الرابع . وعند نهاية القرن الخامس كان أسقف روما ينكر حق الامبراطور فى التدخل فى شئون الكنيسة المذهبية وتنظيمها . وكان النزاع الذى استمر عدة قرون نتيجة لذلك بمثابة السبب الرئيسى فى الانشقاق بين الكنائس الشرقية اليونانية والكنائس الغربية اللاتينية . الا أن الغرب فى القرن الثامن أخذ بشىء يشبه الفكرة الرومانية - البيزنطية عن الملكية المقدسة إلى حد كبير ، وسرعان ما أصبح هذا سببا من أسباب الصراع والمنازعات التى شهدتها أوربا العصور الوسطى . هذه المذاهب الضارة القائلة بالسلطة الملكية المطلقة ، والتى لم يتم التخلص منها تماما فى العالم الحديث حتى القرن العشرين ، ترجع فى أصولها الأولى إلى الوحدانية السياسية ، أى نظرية الحاكم الواحد المقدس ، التى عرفها القرن الرابع .

وحتى فى بيزنطة نفسها ، فإن المزاعم المبالغ فيها والمستمدة من الوحدانية السياسية آتت نتائجها المدمرة ؛ ليس فقط لأنها أبعدت أسقف روما الذى لم يكن ممكنا أن تتحقق السيادة الكاملة للامبراطور الشرقى البيزنطى دون موافقته وتأييده ، ولكن أيضا لأن المزاعم نفسها هى التى أدت مباشرة إلى فقدان أغنى الولايات الشرقية التى فتحها المسلمون فى القرن السابع . ففى القرنين الخامس والسادس جعل الامبراطور من نفسه نائبا عن الرب ورئيسا للكنيسة وبذلك وجد نفسه مضطرا إلى اضطهاد مجموعات كبيرة جدا من الهراطقة فى مصر

وسوريا مما جعلهم يتحولون من الخلاف المذهبى إلى المعارضة السياسية ويرحبون بالعرب الفاتحين باعتبارهم منقذيهم .

وإذا كانت الآثار الطويلة المدى الناجمة عن استيعاب الفكر المسيحى لفكرة الملكية المقدسة غير ملائمة فى كثير من الأحيان ، فإنه ينبغى أن نلاحظ أن ثمة فوائد كثيرة قد تحققت من جراء قبول المسيحيين للوحدانية السياسية وتطبيقاتها . وذلك أن اعادة الامبراطورية والسلطة فى القرن الرابع لم يكن ممكنا بدون وجود ايديولوجية تعيد للامبراطور ولاء واخلاص عامة الجماهير فى الامبراطورية ، فمن الصعب أن نرى فى عصر قسطنطين أى أساس آخر لاستعادة ولاء الناس غير اضفاء صفة القداسة على المنصب الامبراطورى . كانت الوحدانية ضرورة سياسية ، كما كان ضغط الحاجة السياسية والاجتماعية هو الدافع إلى نمو مذهب الملكية المسيحية المقدسة أواخر عصر الامبراطورية ، وبينما استطاعت الايديولوجية الجديدة أن تحتفظ بالولاء الشعبى فى الغرب لمدة قرن من الزمان ؛ فإنها فى الشرق ، الأكثر سكانا وتحضرا ، وضعت أساسا للسلطة المطلقة للامبراطور المقدس التى استمرت إلى مابعد غزوات الجرمان . وكان للوحدانية السياسية أثرها من حيث النقد المستمر لوسائل أباطرة القرن الرابع فى تركيز كل سلطة الدولة بأيديهم . ويمكن الرد على هذا بالقول بأن هذا النظام الاستبدادى كان نظاما لايمكن لأى قائد مسيحى أن يتعاطف معه ، بيد أنه بات واضحا خلال الجزء الأكبر من القرن الرابع أن البديل الوحيد للامبراطورية ، هو انطفاء شعلة الحضارة ، وبالنسبة لأى زعيم مسيحى كانت الامبراطورية - بكل مزاعمها الدينية المتطرفة - أفضل من الفوضى الشاملة والبربرية .

وبمجيء العقدين الأخيرين من القرن الرابع ، بدأت تطرق أذهان مفكرى الغرب اللاتينى فكرة أنه من الممكن أن توجد حضارة تستمر بعد انهيار الامبراطورية ، وهو ما أدى إلى امكانية وجود موقف اكثر انتقادا للأيديولوجية الامبراطورية ، كما مهد الطريق للمقاومة التى شهدها القرن الخامس ضد القيصرية - البابوية ، بيد أنه كان بوسع الأساقفة آنذاك أن يتخذوا موقفا أكثر استقلالا لأن الأباطرة الرومان المسيحيين الذين خلفوا قسطنطين كانوا قد قضوا على أكثر أعداء الكنيسة خطورة ، أعنى الآريوسية من ناحية والفكر الوثنى فى معقل الارستقراطية الرومانية من ناحية أخرى ، فضلا عن أنهم عضدوا الكنيسة وساعدوها فى الوقت نفسه .

كانت إحدى المشكلات الرئيسية التى واجهت الأباطرة الرومان المسيحيين بعد موت قسطنطين هى فعض النزاع الآريوسى التى تفاقمت خطورته على الكنيسة ، وكان الحزب الآريوسى قويا منذ البداية بدرجة لايمكن معها أن تسحق المجموعة الآرثوذكسية دون مساعدة

الامبراطور ، واتجه الاساقفة الارثوذكس إلى الدولة الرومانية طالبين تدخلها لصالحهم ، ولكن اعتماد الكنيسة على الامبراطور فى اقرار المنازعات المذهبية ، واستئصال الهرطقات على هذا النحو ، أدى فى النهاية إلى صعوبات أكثر تعقيدا ، فكيف ستكون النتائج لو أن الامبراطور نفسه أصبح متعاطفا مع الآريوسيين ؟

لقد تم تعميد قسطنطين على فراش الموت على يد أسقف آريوسى [١١] ومال أبناؤه الذين خلفوه[١٢] إلى التعاطف مع المذهب الآريوسى ، وبمجىء العقد الخامس من القرن الرابع أصبح الموقف حرجا بالنسبة للارثوذكسية فقد أخرست الدولة كل الأصوات التى ارتفعت مؤيدة لقرارات مجمع نيقية (التى أدانت الآريوسية) ومحتجة على تدخل الحاكم العلمانى فى الشئون الكنسية ، بينما كانت هناك وظائف أسقفية كبيرة عديدة خالية ، أو يشغلها الآريوسيين أو من يتعاطف معهم على الأقل ، ولم يطرأ أى تحسن على حظ الفريق الأرثوذكسى سوى فى العقد السابع من القرن الرابع ، وكان سبب ذلك ببساطة هو أن أباطرة تلك الفترة صاروا متعاطفين مع عقائدهم ومن ثم تزايد عداؤهم تدريجيا للآريوسية .

وفى مطلع العقد الثامن من القرن الرابع أدينت الآريوسية إدانة صريحة من الامبراطور الارثوذكس ثيودوسيوس الأول (الكبير) ولم تقم لها قائمة بعد هذه الادانة . وأخيراً شن هذا الامبراطور حملة عنيفة سنة ٣٨٣ وسنة ٣٨٤ للقضاء على معاقل الاريوسية فى النصف الشرقى من الامبراطورية ، وهو الجزء الذى كان يحكمه والذى كان بمثابة معقل الآريوسية ، كما أصدر المراسيم التى تحرم اجتماعات هذه الطائفة ، وكان أن شكل الناجون من الآريوسيين طوائف منعزلة لاحول لها ولا قوة فى شتى أنحاء الامبراطورية .

وهكذا استطاعت الكنيسة المسيحية فى القرن الرابع أن تقضى فى النهاية على المشكلة التى عكرت صفو الحياة الكنسية بشكل خطير ، بيد أنها لم تحقق ذلك إلا بإخضاع نفسها للامبراطور. وعلاوة على ذلك فإن القضاء على الآريوسية جاء متأخرا للغاية بحيث لم يمنع

---

(١١) أيوزيبيوس أسقف نيقوميديا .

(١٢) هم قسطنطين الثانى ، وقسطنطيوس ، وقسطانز ، ثم توحدت الامبراطورية فى عهد قسطنطيوس بعد موت قسطنطين الثانى ومقتل قسطانز ، وذلك فى الفترة من ٣٥٣ - ٣٦١ التى شهدت تفوق المذهب الآريوسى. (المترجم)

انتشار المذهب الآريوسى بين الشعوب الجرمانية ، فقد كانت الكنيسة الآريوسية أكثر نشاطا من الكاثوليكية فى ارسال البعثات التبشيرية إلى ماوراء الدانوب والراين مما أدى إلى تحول الكثيرين من الملوك الجرمان فى القرن التالى إلى مؤيدين للآريوسية ، وعلى حين كانت الآريوسية تخبو وتتلاشى داخل الامبراطورية نفسها قرب نهاية القرن الرابع ، ظهرت منازعات جديدة حول طبيعة المسيح فى الامبراطورية الرومانية الشرقية فى القرنين الخامس والسادس ، لقد كاد الامبراطور البيزنطى أن يكون على الدوام فى صف الارثوذكسية تقليدا للسياسة التى سار عليها ثيودوسيوس من قبل . وكانت النتيجة أن رحبت الكنائس الشرقية المخالفة بالفاتحين المسلمين الذين طرقوا بلادهم فى القرن السابع وبنفس الطريقة شجعت الكنيسة الدوناتية فى شمالى أفريقيا الفتح العربى . وهكذا فان المنازعات المذهبية فى القرن الرابع ألحقت ضررا جسيما بالمسيحية فى سوريا ، ومصر وشمال أفريقيا ؛ فمنذ وقفت الدولة فى جانب الارثوذكسية ، على الأقل منذ عهد ثيودوسيوس ، تحول خصومها المذهبيون إلى الفاتحين المسلمين طلبا للنجدة ، وهكذا لم تستطع ارادة الامبراطور الرومانى أن توفر للكنيسة الحماية من كل النتائج المترتبة على المنازعات المذهبية الكبيرة التى اندلعت فى القرن الرابع .

وعلى نحو مماثل ، كان على قادة الكنيسة أن يعتمدوا على سلطة الامبراطور من أجل درء الخطر العظيم الآخر الذى هدد أمن وسلامة الكنيسة فى القرن الرابع ، وهو الخطر الذى تمثل فى بقاء الوثنية ، وهنا كانت السياسة الامبراطورية أكثر نجاحا منها فى محاربة المذاهب الهرطقية.

ومن الممكن أن يساورنا الشك فى أن يكون ظهور الأباطرة المسيحيين قد أفزع العديد من مناهضى المسيحية كما أن يكون هذا هو السبب فى تشجيع الوثنيين على إعتناق الدين الجديد. وعلى الرغم من هذا فانه يجدر بنا أن نتذكر أنه حين اعتنق قسطنطين المسيحية لم يكن هناك أكثر من ١٠٪ من سكان نصف الامبراطورية الغربى يدينون بالمسيحية ، وبسبب الارستقراطية الرومانية الوثنية ، أرغم قسطنطين على بناء العاصمة المسيحية الجديدة التى عرفت باسم القسطنطينية فى سنة ٣٣٠ ، وخلال القرن الرابع كان مايزال هناك أتباع غيورون للوثنية ، كما كان هناك مؤيدون نشطون لها. وحدث أكثر من مرة أن أدت مساوىء التطورات السياسية فى الامبراطورية إلى تعلق الوثنيين بالأمل فى تحول جديد فى الأحوال يكون فى صالحهم ويغير الموقف مرة أخرى .

وقد وجدت الوثنية أخلص المدافعين عنها بين صفوف الارستقراطية الرومانية فى أوساط المثقفين فى ايطاليا واليونان ، إذ ظل الوثنيون يحتفظون بقوتهم وثقلهم فى السناتو (مجلس الشيوخ) الرومانى والوظائف المدنية حتى أواخر القرن الرابع وتزايد احترام وحماسة الطبقات العليا للوثنية التى أصبحت أكثر روحانية خلال هذا القرن ، فتحت تأثير الرواقية والأفلاطونية الجديدة طور الكثيرون من أبناء الارستقراطية الوثنية نوعا من العبادات الوحيدية ، وتخلوا عن اخلاقياتهم القديمة المتراخية ليتجهوا نحو قانون جديد أكثر جدية وحماسة ، يعيد إلى الأذهان ذكرى الارستقراطية الرومانية فى أفضل أيام الجمهورية . ومن ثم فليس من الممكن أن نعتبر وثنية القرن الرابع بقايا من الماضى فى طريقها الى الزوال أمام تقدم المسيحية ، فضلا عن أن هذه الوثنية التوحيدية بقوتها الجديدة قد منحت الديانة القديمة فرصة جديدة للحياة كما شكلت تهديدا خطيرا على أمن الكنيسة المسيحية فى الغرب .

ولم يكن باستطاعة قادة الكنيسة أن يقضوا على هذه الوثنية المجددة القوى بمفردهم فتطلعوا إلى الأباطرة الرومان المسيحيين كى يساعدوهم فى أعمالهم التبشيرية. ومهما يكن من أمر ، فإن قسطنطين وأبناءه الذين خلفوه على العرش كانوا أميل إلى الحذر ، نظرا لقوة الوثنية بين الطبقة الارستقراطية الرومانية . وقد حال اعتلاء جوليان Julian ابن اخى قسطنطين العرش الإمبراطورى سنة ٣٦١ ، دون استمرار الجهود التى بذلها خلفاء قسطنطين لكبت الوثنية ، اذ أنه سرعان ما عمل على قلب السياسة الدينية التى اتبعها الأباطرة منذ قسطنطين رأسا على عقب .

ويعرف جوليان عموما باسم جوليان المرتد Julian the Apostate وقد تحول عن ديانته مثل قسطنطين ولكن فى الاتجاه المضاد - إذ أنه تحول من المسيحية إلى الوثنية ، فبينما نشأ جوليان على الدين المسيحى ؛ كان يتذوق الأدب الرومانى والفلسفة اليونانية وفى النهاية ارتد عن الديانة المسيحية إلى هذا النوع التوحيدى من الوثنية الذى سبق وصفه . وأخفى جوليان أمر ارتداده عن المسيحية طوال الفترة التى قضاها ابن عمه - ابن قسطنطين - على العرش ، بيد أنه لم يخف اعتناقه للوثنية بعد ارتقائه العرش .

وأثار جوليان المرتد اهتمام كثير من الباحثين ودارسى الأدب ، لاسيما أولئك الذين يقدرون الثقافة الكلاسيكية أكثر من تقديرهم للمسيحية. والحقيقة ، أنه رجل تشكلت شخصيته وأفكاره بفضل أحسن ما كان يمكن للثقافة الكلاسيكية أن تقدمه فى القرن الرابع ، فقد كان على قدر طيب من التعليم ودرس الفلسفة الأفلاطونية الجديدة ، كما درس النتاج الأدبى للفكر اليونانى - الرومانى وعاش على الدوام حياة واعية صارمة متقشفة ، وكان يشغله حلم كبير بإعادة الديانة الوثنية والثقافية الكلاسيكية إلى مستوى عال جديد . ولم يجد الوسائل

الكفيلة بتحقيق هذا المفهوم الطموح ، والواقع أن جوليان لم يحقق سوى قدر ضئيل من النجاح في سبيل عرقلة انتشار المسيحية وإعادة الوثنية .

فما أن ارتقى العرش حتى بدأ يعيد بناء المعابد الرومانية القديمة ويعيد إليها بهاءها ، وكانت غالبية هذه المعابد قد تردت في هاوية الاضمحلال وسرعان ما أخذ يضطهد رجال الكنيسة المسيحيين ، ثم منعهم في نهاية الأمر من الاشتغال بالتعليم . ولكن الشعوب غير المسيحية في الامبراطورية كانت أكثر اهتماما بمختلف الديانات الغامضة الحافلة بالأسرار منها بوثنية جوليان التي كانت فرعا ثقافياً عالي المستوى - من الناحية الفكرية - من الوثنية الرومانية ، وعندما كان الامبراطور جوليان يطيل في دفاعه عن الديانة الوثنية والثقافية الكلاسيكية إلى حد الاملال كانت عامه الجماهير في سائر مدن السحر المتوسط تقابله إما بالصمت المطبق أو السخرية اللاذعة . وقبل أن يتمكن من إلحاق اى ضرر بالكنيسة المسيحية، قتل سنة ٣٦٣ أثناء قتال الفرس ، ومنذ ذلك الحين فصاعدا كان أباطرة الدولة الرومانية في الشرق والغرب مسيحيين على الدوام [(١٣)].

على أن حكم جوليان ، بالرغم من عدم تأثيره ، قد شجع الارستقراطية الرومانية على مقارمة تقدم المسيحية بعناد وترك مشكلة الوثنية الباقية في الشطر الغربي من الامبراطورية وهي أكثر صعوبة مما كانت عليه قبل ارتداد جوليان. فقد رفض الأباطرة في العقدين السادس والسابع من القرن الرابع مساعدة الكنيسة في قمع الوثنية بالرغم من كونهم مسيحيين وانتهجوا سياسة التسامح الديني ، ولم تنجح الكنيسة في الحصول على تأييد الامبراطور في قمع بقايا الوثنية مرة أخرى إلا في العقد الثامن من هذا القرن .

---

(١٣) قام أحد الكتاب السريان فيما بين عامي ٥٠٢-٥٣٢ ، بكتابة قصة جوليان المرتد التي تعتبر واحدة من أهم الكتابات التاريخية التي خلفها لنا الأدب السرياني في القرن السادس والقصة في أقسام ثلاثة تتناول على التوالي قصة قسطنطين وأبنائه الثلاثة ، ثم ايوزيبيوس وما لقيه من اضطهاد في عصر جوليان ، ويتحدث القسم الثالث عن جوفيانوس الذي خلف جوليان وحكم فترة لاتزيد عن سبعة شهور عاودت فيها المسيحية انتصارها . وقد كتبت قصة جوليان المرتد على يد هذا الكاتب السرياني بغرض الاشادة بانتصار المسيحية على الوثنية وحث الوثنيين على اعتناق المسيحيه . ومن المثير أن التأثير الكبير لهذه القصة لم يقتصر على المؤرخين السريان ، مثل ابن العبري ، فحسب ، بل شمل المؤرخين المسلمين الأوائل أيضاً، فقد تناول الطبري في الجزء الأول من تاريخه ، وربما يكون قد قرأها في نص معرب ، ونقلها ابن الأثير وأبو الفدا واليعقوبي والمسعودي في "مروج الذهب" لمزيد من المعلومات عن هذا الموضوع انظر :

دكتور مراد كامل (وآخرون) "تاريخ الأدب السرياني" القاهرة سنة ١٩٧٤ . (المترجم)

وقد رأينا بالفعل كيف انحاز ثيودوسيوس إلى جانب الأرثوذكسية وقضى على الآريوسيين كما استطاع زعماء الكنيسة أن يحصلوا على تأييده فى سحق الوثنية ، واتخذ جراتيان Gratian (٣٧٥-٣٨٣) امبراطور الغرب خطوات هامة على نفس الطريق ، إذ فصل الوثنية عن الدولة الرومانية . فقد استبعد أخيراً لقب " الكاهن الأعظم Pontifex Maximus الوثنى من قائمة ألقاب الامبراطور ، كما أزال جراتيان مذبح النصر الذى ظل قرون عديدة يرمز إلى الرابطة التى تجمع بين الدولة والآلهة من قاعة السناتو فى روما ، وحرم كهنة الديانة القديمة من الاعانة المالية التى كانوا يتلقونها من الدولة ، وبهذه الطريقة تحررت اجتماعات السناتو ، والهيبة الامبراطورية من أى اتصال رسمى بالديانة التقليدية القديمة .

كانت إزالة جراتيان لمذبح النصر هى المناسبة التى تمت فيها المناظرة الكبيرة بين سيماخوس Symmachus زعيم الارستقراطية الوثنية ، وأقدر رجال الكنيسة فى إيطاليا إمبروز Ambrose أسقف ميلانو (القديس أمبروز)[١٤] وكانت نتائج المناظرة باهرة ومؤسفة فى الوقت نفسه بالنظر إلى ماانتج عنها من مساوىء فى تاريخ حرية الفكر ، فقد كان سيماخوس مثالا للمفكر الحر بكل محاسنه ومساوئه : كان متسامحا كريما ، بيد أنه كان ضعيفا سليم الطوية ، إذ كان من رأى هذا الرومانى الفاضل أن ثمة طرقا كثيرة تقود إلى الله - فلماذا لاتترك روما القديمة التى فى ظلها ازدهرت الدولة الرومانية لتعيش فى سلام ؟ إلا أن أمبروز كان هو الرجل الصلب الذى يعلم أنه يمتلك الحقيقة ، فقد كانت المسيحية هى الديانة الحقيقية الوحيدة فى رأيه، ولذا يجب تدمير كل الديانات الأخرى . وسوف يبنى القارىء اليوم حكمه فى هذا الشأن

---

(١٤) القديس أمبروز (٣٤٠-٣٩٧) ولد فى مدينة تريف Treves شمال وسط غالة لأبوين من أسرة نبيلة عريقة فى المسيحية ، وكانت تريف التى اتخذها عدد من الأباطرة على التوالى مركزا لاقامتهم بسبب غارات البرابرة ، مركزا حضارياً يضارع روما نفسها حيث وجدت بها المدارس والمكتبات ، كما قصدها المشاهير من الدارسين ورجال العلم . ورغم أنه بدأ حياته فى المجال السياسى حيث تولى عدة مناصب عامة ، إلا أنه اختير أسقفا لميلانو سنة ٣٧٤ بمحض الصدفة ، وإذ لم تكن لديه أية اهتمامات لاهوتية حتى ذلك الحين فقد كرس نفسه للدراسات الدينية وأحرز نجاحاً كبيرا فى هذا المجال حتى وصف بأنه "خادم جيد للصالح العام" Usus minister publici كما استحوذ على احترام الأباطرة . لمزيد من المعلومات عن هذا الرجل انظر :

L.K. Rand : Founders of the Middle Ages (Rover, New York, 1957), pp. 69-101.

وعن مؤلفاته وموقفه الحازم من الامبراطور ثيودوسيوس انظر : على الغمراوى ، المدخل ، ص ٥٧ ومابعدها . (المترجم)

وفقا لمشاعره الشخصية ، وهناك حقيقتان على كل حال هما : أن الرجال الأشداء الذين يمتلكون الحقيقة عادة مايتفوقون على المفكر الحر المتسامح الذى لايستطيع أن يصل بفلسفته الخاصة إلى حد القضاء على خصمه فى الوقت الذى يفعل خصمه كل ما فى وسعه للقضاء عليه ، ثانيا أننا سوف نلاحظ أن الفكرة الشمولية الحديثة عن الحرية - بمعنى أن الحرية لاتوجد سوى لطاعة الدولة - هى الصياغة العلمانية لمذهب أمبروز المستمد من رأى القديس بولس القائل بأن الحرية الحقيقية هى طاعة الحقيقة المتمثلة فى يسوع المسيح . فهل هى شطحة بعيدة أن نرى سر جاذبية الفلسفات الشمولية الحديثة كامنا فى حقيقة كونها هرطقات مسيحية؟ إن هذا القول ، لايعنى بأى حال ، أن المسيحية مسئولة بأية طريقة عن هذه الهرطقات ؛ وإنما يعنى أن المسيحية لايمكن أبدا أن تتعايش أو تتوام مع هذه الهرطقات .

كان الوقت فى صالح أمبروز ، ولم يكن فى صالح سيماخوس ، وأيا كانت جدوى هذه المناقشات فإنها كانت موجهة لاقناع الامبراطور الرومانى ، الذى انحاز تماما - فى شخص ثيودوسيوس الأول - إلى جانب أسقف ميلانو ، فقد ذهب ثيودوسيوس - الذى كان قد قضى على أعداء الأرثوذوكية داخل الكنيسة فعلا - إلى مدى أبعد مما ذهب إليه جراتيان فى محاربة الوثنية ، وعمل على تدمير أعداء الارثوذوكسية خارج الكنيسة أيضا ، ففى عام ٣٩٢ وبعد أن أحكم السيطرة على الامبراطورية بأسرها ، أصدر تحريما رسميا للوثنية ، يقضى بمنع أى شخص فى أى مكان ، حتى ولو كان خاصا ، من ممارسة شعائر الديانة القديمة .

وأدت خطورة هذا التشريع المزعج إلى رد فعل خطير . إذ أن فلول الارستقراطية الوثنية الرومانية قاتلت قتالا يائسا فى سبيل المحافظة على ديانة الدولة الرومانية القديمة. وتجمعت هذه الارستقراطية فى النهاية حول قائد وعد بإعادة الوثنية إلى سابق مكانتها إذا مانجح فى الاستيلاء على السلطة ، ونجح هذا المغتصب ، بطل الوثنية الأخيرة ، فى السيطرة على روما فترة من الوقت ، ولكنه لقى هزيمة ساحقة على يدى ثيودوسيوس سنة ٣٩٤ ، وفى هذه المعركة هلك معظم المسئولين عن الحركة الوثنية المضادة .

وهكذا فإن انتصار ثيودوسيوس يعتبر مؤشرا على الهزيمة النهائية للوثنية ، وبعد موت ثيودوسيوس فى سنة ٣٩٥ بعد انتصاره العسكرى مباشرة ، أصدر إبناه اللذان خلفاه فى حكم الشرق والغرب مزيدا من القوانين ضد الوثنية [١٥] فصدرت أوامر بتدمير كل المعابد والهياكل

---

(١٥) هما أركاديوس فى الشرق ، وهونريوس فى الغرب، كما أن أركاديوس (٣٩٥-٤٠٨م) أصدر مرسوما بتحطيم المعابد الوثنية واستخدام احجارها فى منشآت عامة. (المترجم)

المقدسة للآلهة اليونانية - الرومانية القديمة ، ولم يعد مسموحا بحرية العبادة فى الامبراطورية الرومانية ، وصارت المسيحية هى الديانة الشرعية الوحيدة فى الامبراطورية منذ ذلك الحين .

وهكذا تمتعت الكنيسة وحدها بالامتيازات المادية والمعنوية بعد عام ٣٩٤م. وهى الامتيازات التى كان قسطنطين قد أسبغها على الأكليروس الكاثوليكى ، لكى يضعهم على قدم المساواة مع الكهنة الوثنيين ، ومن خلال الانعامات الجديدة التى تلقتها الكنيسة من الأباطرة الأرثوذكس أواخر القرن الرابع ، تمتعت الكنيسة بعدد كبير من الامتيازات القانونية والمالية التى رفعتها فوق القانون العام فى الامبراطورية وجعلت منها دولة داخل الدولة. فمنذ عهد قسطنطين تمتع أفراد الاكليروس المسيحى بالاعفاء من الضرائب المفروضة على سائر المواطنين وفى العقدين الأخيرين من القرن الرابع ذهب الأباطرة الأرثوذكس خطوات أبعد فى طريق الاعفاءات المالية للكنيسة وسمح الأباطرة لملتزمى الضرائب فى المدن بترك الخدمة وأعفوهم من كل الالتزامات الضريبية المفروضة على بورجوازية المدن ، لكى يدخلوا فى عداد الاكليروس ، حيث لاتكون عليهم أية التزامات مالية تجاه الدولة. وبهذا يكون الأباطرة الأرثونوكس فى أواخر القرن الرابع قد ساعدوا على انهيار النظام الضريبى الذى أقامه دقلديانوس وقسطنطين من أجل تقوية صفوف الاكليروس .

وأضيفت إلى الامتيازات المالية التى تمتع بها رجال الكنيسة امتيازات قضائية. فقد سمح بأن يكون للكنيسة محاكمها الخاصة وبأن تطور قانونها الخاص وهو القانون الكنسى. واستطاع الاساقفة بطريق غير مباشر أن يخففوا من الأحكام التى أصدرتها المحاكم العادية فى الامبراطورية ، لدرجة أن تخلت الدولة الرومانية تماما عن سلطتها القضائية على الكنيسة المسيحية. وهكذا جعل الأباطرة الرومان المسيحيون فى القرن الرابع - وثيودوسيوس الأول على وجه الخصوص - من الكنيسة كيانا مستقلا تمام الاستقلال عن سلطان الدولة الرومانية القضائى .

ومع بداية القرن الخامس كان الأباطرة الرومان المسيحيون فى الغرب قد حرروا الكنيسة من تفككها المذهبى ، وسحقوا أعداءها الوثنيين ، ومنحوها الامتيازات الواسعة التى جعلت منها دولة داخل الدولة. ومن الممكن أن نجادل بأنه بتحرير الكنيسة من سلطان الدولة التشريعى قوض ثيودوسيوس والأباطرة المسيحيون الآخرون صرح النظام الاستبدادى الذى شاده دقلديانوس وقسطنطين، والذى حفظ الامبراطورية فى القرن الرابع ، وبالتالى يمكن القول بأن السياسة التى انتهجها الأباطرة الأرثوذوكس تجاه الكنيسة كانت سياسة انتحارية بالنظر إلى تأثيراتها على الدولة الرومانية .

ومهما يكن من أمر فإنه على المدى الطويل كانت سياسة أباطرة القرن الرابع المسيحيين تجاه الكنيسة من عوامل بقاء الحضارة الغربية . لأن الامبراطورية الرومانية فى الغرب قد وهنت وضعفت بالفعل قبل مقدم الشعوب الجرمانية الغازية . وبطلوع شمس العقد الرابع من القرن الخامس لم يكن للامبراطورية الرومانى فى الغرب أى نفوذ خارج إيطاليا ، وبدأت الممالك الجرمانية تظهر فى غرب أوربا . وفى العقد السابع من القرن الخامس ، لم يعد يوجد بإيطاليا حاكم يحمل لقب " الامبراطور الرومانى" الضخم الفارغ من أى معنى ، ولو لم يتحد أباطرة القرن الرابع المسيحيون مع الكنيسة ويقوموا بحمايتها ومؤازرتها إلى المدى الذى جعلها دولة داخل الدولة ، لما أصبحت الكنيسة قوية بالقدر الكافى للوقوف فى مواجهة الغزوات الجرمانية فى القرن الخامس . فبفضل الأباطرة الرومان المسيحيين ، كانت الكنيسة فى القرن الخامس ماتزال قوية بالقدر الذى يكفى لأن تبدأ فى تنصير الشعوب الجرمانية ، وتلقينهم الحضارة المسيحية اللاتينية ، ولو لم تكن هذه القوة قد بنيت فى القرن الرابع ، لكان من المحتمل أن تستسلم أوربا للبربرية الشاملة ، والظلام الحضارى الذى ساد أوائل العصور الوسطى ، فقد أقامت الامبراطورية الرومانية المسيحية سلطة الكنيسة المسيحية فى القرن الرابع ، وجاء الآن دور الكنيسة لكى تحل محل الدولة الرومانية .

كان الأباطرة الذى خلفوا ثيودوسيوس رجالا تنقصهم الكفاءة . فقد حرص ثيودوسيوس على مسالمة الجرمان ولكن ولديه (أركاديوس وهنريوس) ناصباهم العداء ، وفى سنة ٤٠٦ انهارت حدود الراين واندفعت قبائل عديدة إلى داخل الامبراطورية. ومن الناحية الرسمية كانت هناك امبراطورية غربية حتى سنة ٤٧٦ بيد أن الأباطرة الأواخر لم يكن لهم أى تأثير على مجرى الأحداث ، بل إنهم هجروا روما إلى رافنا Ravenna فى أوائل القرن الخامس ، مما ترك المدينة الخالدة مفتوحة أمام الغزاة ، وظهر أسقف روما كقائد وزعيم يملأ مكان الامبراطور الغائب.

وبينما كانت الامبراطورية الرومانية تتدهور فى القرن الخامس . بدأ اهتمام الناس يتحول رويدا رويدا تجاه المؤسسة الوحيدة التى كان يمكنها أن توفر قدرا من الوحدة وتتولى الزعامة فى مجالى التعليم والدين ؛ أى أسقفية روما حيث الزعيم المعترف به للكنيسة المسيحية فى الغرب.

كان أول البابوات الذين قاموا بالدور الأعظم فى الحضارة الغربية - هو ليو الأول Leo I (٤٤٠-٤٦١) الذى يعرف عادة باسم "القديس ليو العظيم" فقد كان بابوات القرن الرابع

وأوائل الخامس رجالا ضعفاء غير طموحين لم يفيدوا شيئا من هيبة ومكانة المنصب الذى يشغلونه . فعلى سبيل المثال ، طلب قسطنطين من أسقف روما أن يحل المشكلة الدوناتية ، ولكن البابا فشل فى التصرف وخسر بذلك فرصة هائلة لتأكيد السلطة البابوية . وينبغى علينا ألا نفكر فى البابا (وهو الاسم الذى صار يطلق على أسقف روما) فى أوائل العصور الوسطى على ضوء المكانة التى أحرزتها البابوية خلال العصور الوسطى العليا ، ذلك أن البابوية لم تصبح قادرة على البدء فى إحراز مكانتها الضخمة سوى فى النصف الأخير من القرن الحادى عشر ، وهى المكانة التى أمنتها فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر ، وذلك بعد فترة طويلة مؤلمة تعرضت فيها للكثير من تقلبات الأحوال وحركات التقهقر والتخلف. وكان ليو الأول هو الذى صاغ فى وضوح المذهب الذى استطاعت البابوية أن تقيم على أساسه مزاعمها فى الصلاحيات وهى المزاعم التى اقتربت من تحقيقها فى العصور الوسطى العليا ، ومن ثم يمكن القول بأن القديس ليو هو مبتدع نظرية بابوية العصور الوسطى .

ولد القديس ليو أواخر القرن الرابع ، وانتخب أسقفا لروما سنة ٤٤٠م . وكان ينتمى لعائلة ارستقراطية رومانية عريقة ، مما يوضح أن الكنيسة كانت قد بدأت تجتذب عددا من أبناء الطبقة الحاكمة القديمة فى روما لتولى زمام القيادة فيها . وكان نشاط ليو هو أكثر عناصر شخصيته فعالية ، وهى ميزة اتسم بها كل بابوات العصور الوسطى العظام . إذ عمل بلا كلل على رفع المستوى التعليمى والأخلاقى لرجال الكنيسة فى الغرب ، وتحسين خدمة القداس الكنسى ، كما لعب دورا رائدا فى المنازعات المذهبية التى نشبت فى عصره ، ففى مجمع خلقدونية الذى انعقد سنة ٤٥١ تقبلت الكنيسة اليونانية التفسير الذى قدمه ليو للثالوث المقدس ، كما أنه بذل الكثير فى سبيل تحسين القانون الكنسى .

وقد خرج ليو مرتين من روما سنة ٤٥٢ وسنة ٤٥٥ - وهو واع لانهيار الامبراطورية الرومانية الوشيك الحدوث - لمفاوضة ملوك الجرمان الذين غزوا إيطاليا وأقنعهم بترك مدينة روما. وفى المرة الأولى ، على الأقل ، أى أثناء مفاوضته مع الهون Huns ، كللت جهوده بالنجاح . بيد أنه كان أقل نجاحا سنة ٤٤٥م أثناء تعامله مع الوندال Vandal. ولكن الأمر لايخلو من دلالة هامة حين يقوم أسقف روما بدور المدافع عن المدينة الخالدة بدلا من الامبراطور الرومانى . ولم يستطع ليو ، سليل الارستقراطية الرومانية ، أن يقتنع بنهاية الامبراطورية بالرغم من وجود عدة مؤشرات فى أيامه توضح أن السلطة الامبراطورية كانت تنزلق فى طريق

الزوال ؛ إلا أن البابا عمل على جعل الأسقفية الرومانية خليفة للامبراطورية الرومانية فى الغرب .

وتمهد السبيل لنقل زعامة الغرب من الدولة الرومانية إلى أساقفة روما ، لا بفضل نشاطات ليو فحسب ، ولكن بفضل النجاح الذى زكى به مزاعم الأسقفية الرومانية بشأن التفوق النظرى داخل الكنيسة المسيحية بوجه عام ، وسادت هذه المزاعم فى أوربا إبان جميع تقلبات الأحوال التى مرت بالبابوية أوائل العصور الوسطى وشكلت تحديا مباشرا لمزاعم الامبراطور البيزنطى.

وقد قامت المزاعم التى أوجدها سان ليو حول أسبقية أسقف روما فى الكنيسة على أساس مايعرف باسم **المذهب البطرسى** ، ويمكن إرجاع هذا المذهب فى إصوله إلى القرن الثانى ، ويجد الكاثوليك أصوله طبعا فى العهد الجديد ، بيد أن سان ليو كان أول من عبر عنه تعبيرا كاملا قويا ، ويقوم المذهب البطرسى على أساس كلمات المسيح وهو يخاطب حوارييه فى إنجيل متى (١٦ : ١٥-١٩) **"قال لهم ، وأنتم من تقولون أنى أنا ، فأجاب سمعان بطرس وقال أنت هو المسيح ابن الله الحى ، فأجاب يسوع وقال له طوبى لك ياسمعان بن يونا ، أن لحما ودما لم يعلن لك لكن أبى الذى فى السموات وأنا أقول لك أيضا أنت بطرس وعلى هذه الصخرة ابنى كنيستى وأبواب الجحيم لن تقوى عليها وأعطيك مفاتيح ملكوت السموات ، فكل ماتربطه على الأرض يكون مربوطا فى السماء" وكل ماتحله على الأرض يكون محلولاً فى السماء".**

وتختلف تفسيرات هذا النص المقدس اختلافا كبيرا بقدر مايمكننا أن نتصور ، فإن وجهة النظر البروتستانتية العامة تقول بأن المسيح كان يخاطب كل الحواريين فى شخص قائدهم بطرس ، ومن ثم فإن كل الأساقفة - أو كل ممثلى المسيح - يتمتعون بهذه القوة التى منحها لهم الرب فى الربط والحل ، وكان ليو العظيم هو الذى أرسى أسس وجهة النظر الكاثوليكية التى لقيت القبول بفضل الرواية القائلة بأن بطرس كان هو أول أساقفة روما وأنه استشهد فيها ، وتتجه الأبحاث الأثرية الحديثة إلى محاولة البرهنة على هذه الرواية من الناحية التاريخية .

ويزعم المذهب البطرسى الذى نادى به ليو أن المسيح قصد أن يكون بطرس وكل من يخلفه فى كرسيه رئيسا للكنيسة بأسرها ، فهو الصخرة أو الأساس الذى قامت عليه الكنيسة ، ولذا يجب أن يتمتع بسلطان مطلق على العقيدة والأخلاق بوصفه نائب المسيح على الأرض ، وهكذا يكون أسقف روما هو الوحيد الذى يمتلك مفاتيح ملكوت السموات وهو وحده نائب المسيح على الأرض ، وهو الراعى الأول لشعب المسيح . ولم يلق هذا الرأى أى قبول من جانب الأساقفة

الشرقيين . والواقع أن مسيحيى شمال أفريقيا اللاتين قد أنكروه فى القرن الثالث . وفى أيام ليو تقبلت الكنيسة اللاتينية النظرية البطرسية وسلمت بها ، ولم يثر سؤال حول هذا الموضوع حتى القرن الثانى عشر . ولكن بينما اعترف أساقفة الشطر الغربى من الامبراطورية بمزاعم ليو حول المذهب البطرسى ، ظلت السلطة الفعالة للبابا قاصرة على إيطاليا ، إذ كانت كل من فرنسا وأسبانيا تهتم بأمر نفسها . وحين حاول البابا أن يمد نفوذه على هذه المناطق فى القرون التالية ليجعل من نفسه رئيسا حقيقيا للكنيسة الغربية ، ثارت مشكلات كثيرة . وكان مقدراً لمحاولة تحويل المذهب البطرسى إلى حقيقة واقعة أن تكون الموضوع الرئيسى فى تاريخ بابوية العصور الوسطى .

وعلى الرغم من هذا فمن الأهمية بمكان ، بالنسبة للحضارة الوسيطة ، أن اعترفت كنائس الغرب جميعا ، فى أيام ليو ، بالمذهب البطرسى . وخلال جميع المتاعب التى وجدت الكنيسة نفسها فى غمارها ، كان المذهب البطرسى الذى أرسى قواعده القديس ليو ، بمثابة المثل الأعلى الذى يحفز البابوية إلى فرض وصايتها واشرافها الفعلى على الكنيسة الغربية . ووجدت الكنيسة الرومانية فى النظرية البطرسية مثلا أعلى يدعوها لأن تحل محل الامبراطورية المتداعية فى الغرب كمؤسسة تتركز حولها الحضارة الغربية ، وبفضل القديس ليو صارت البابوية مؤسسة مستقرة وثابتة بحيث لم تستطع التغييرات العظيمة التى حدثت أوائل العصور الوسطى أن تفلل من فعاليتها أو تنال من مكانتها وتقضى على هيبتها . وبفضل أعمال القديس ليو وجدت الامبراطورية الرومانية خليفة لها فى شخص البابا الرومانى باعتباره القوة التى تلم شمل الغرب الأوربى .

وفى الختام فإننا نستطيع أن نرجع القهقرى ، عبر الفترة مابين موت قسطنطين ونهاية بابوية ليو العظيم ، لنرى أن الأباطرة الرومان المسيحيين أرسوا الأسس التى قامت عليها سلطة البابوية فى العصور الوسطى . وخلال القرن الرابع كان أساقفة روما سلسلة من الرجال الضعفاء الذى ينقصهم الطموح فلم يفيدوا إلا قليلا من تراثهم الكبير ومن قوة منصبهم العظيمة . ومن حسن الحظ أن الأباطرة هم الذين قاموا بأعمال البابوات نيابة عنهم ، فقد سحقوا الوثنية وحولوا روما إلى مدينة مسيحية - وهو ما فشل قسطنطين فى تحقيقه - وهو ما كان البابوات سيعجزون عن تحقيقه اعتمادا على جهودهم الذاتية ، لقد قام الأباطرة بالقضاء على الهرطقات وأكدوا الوحدة المذهبية للكنيسة الغربية ، كما حققوا للكنيسة مكاسب مادية ضخمة أغدقوا عليها الامتيازات الكثيرة .

ثم سقطت الامبراطورية الرومانية فى منتصف القرن الخامس ، وكل ماكان ضروريا ومطلوبا هو الشخصية العظيمة للجلوس على عرش بطرس ، لقد كان المطلوب رجلا ذا فكر جرىء ونشاط جم ، وكان القديس ليو هو الرجل المناسب لتولى زعامة الكنيسة الغربية بدلا من الامبراطورية ويفضل أعمال الأباطرة المسيحيين تم إرساء قواعد السلطة البابوية ، صحيح أن الأمر استغرق خمسة قرون أخرى حتى يكتمل البنيان ، ولكن القديس ليو حدد للبابوية مهمتها آنذاك ، ومن خلال المكاسب المادية التى حصلت عليها البابوية من الأباطرة المسيحيين ، ومن خلال الايديولوجية البطرسية التى قدمها سان ليو ، كان من الممكن حينذاك أن يبدأ بناء السلطة البابوية فى كنيسة العصور الوسطى .

الفصل الثالث

بناء المسيحية اللاتينية

١- أثينا وأورشليم

إن توافق قادة الكنيسة المسيحية فى الامبراطورية الرومانية المتأخرة مع الثقافة الكلاسيكية أمر بالغ الأهمية بالنسبة لتاريخ الثقافة الغربية . فقد تمثلت نتيجة ذلك فى تبنى النظام التعليمى الذى وضعته الكنيسة فى أوربا العصور الوسطى لشطر كبير من الادب الكلاسيكى والفلسفة ، كما صار الشطر الأهم من نتاج الفكر اليونانى - الرومانى محورا تتركز حوله الثقافة اللاتينية المسيحية . وقد هلل كل الكتاب المحدثين تقريبا لما قامت به المسيحية من تطويع للثقافة الكلاسيكية ؛ بل إنهم صوروا ذلك على أنه تطور حتمى .

والواضح فعلا ، أن قادة الفكر فى الكنيسة ، منذ القرن الثانى على الأقل - إن لم يكن منذ عهد القديس بولس نفسه - تلقوا تعليما كلاسيكيا رفيعا ، ومن ثم يمكن القول بأن أولئك العلماء كانوا محدودين داخل إطار التعليم الذى تلقوه بحيث جلبوا معهم آداب الثقافة اليونانية - الرومانية وفلسفتها ، وبحيث طبعوا المسيحية اللاتينية بطابع الاتجاهات الجوهرية فى الفكر الكلاسيكى . بيد أن هذا التحول الثقافى الحاسم كان ضروريا . ولو كانت هناك محاولة لمقاومة هذا الاتجاه ، لما كان ذلك فى صالح التعليم المسيحى . ومع ذلك فقد انتقد الاتجاه إلى تبنى الثقافة الكلاسيكية واحد من أعظم المفكرين فى عصور الكنيسة المبكرة ، وهو المفكر المسيحى ترتوليان Terutllian الذى عاش فى شمال أفريقيا على مفترق القرنين الثانى والثالث [1].

وفى الامبراطورية الرومانية ، كانت أكثر أجنحة الكنيسة اللاتينية تمسكا بتقاليد المسيحية الأولى موجودة فى المدن الكبيرة الغنية فيما يعرف الآن بالجزائر وتونس . وربما كان هناك شىء ما فى البيئة فى شمال افريقيا هو الذى مكن لنزعة التعصب ؛ ذلك أنه كان هناك اتجاه مماثل

---

(١) ولد ترتوليان حوالى سنة ١٦٠ بقرطاجة ، أو بالقرب منها ، ومات حوالى سنة ٢٤٠ . (المترجم)

فى شمال افريقيا فى وقت لاحق حين تحول هذا الاقليم الى الاسلام [٢].كان ترتوليان ، وهو المتحدث بلسان المسيحيين فى شمال أفريقيا فى الزمن السابق على عصر القديس أوغسطين ، رجل قانون مثقفا اعتنق المسيحية فى منتصف عمره ، والحقيقة أن ترتوليان على خلاف غيره من المفكرين ، لم يحاول أن يفرض ثقافته الكلاسيكية على الفكر المسيحى ، وأكد أنه ينبغى على الكنيسة أن تحافظ على رسالتها بتخليص نفسها من الفكر الكلاسيكى . ويبدو أنه كان قد تحقق - أكثر من غيره من آباء الكنيسة - من أن هناك فروقا شاسعة بين التراث اليهودى والتراث اليونانى ، وكان الوحيد بين آباء الكنيسة الأوائل الذى عارض اقحام ثنائية الروح والجسد فى الفكر اليونانى فى المسيحية ، وعمل على الحفاظ على فكرة الأنبياء العبرانيين عن النفس (نفش) ، أى الانسان ككل [٣] ، وحط من شأن الآداب الوثنية باعتبارها أراجيف فى نظر الرب ، كما أهاب بالمسيحيين أن يرفضوها تماما بدافع من حماسته المتعصبة ، وحقر الفلاسفة اليونان والرومان ووصفهم بأنهم "باعة يتجولون بالحكمة والفصاحة" وبأنهم" حيوانات

---

(٢) يشير المؤلف هنا الى انتشار مذهب الخوارج- بفرقه المختلفة - فى شمال افريقيا أواخر العصر الأموى وينبغى أن تشير هنا الى أن الظروف الاجتماعية والسياسية لبلاد المغرب آواخر القرن الهجرى الأول ، وأوائل القرن الثانى (أواخر السابع الميلادى وأوائل الثامن) كانت من أهم عوامل انتشار مذاهب الخوارج بين البربر فقد نجمت عن سياسة الامويين الاواخر فى جمع الأموال ، وسوء معاملة البربر واعتبار بلادهم دار حرب رغم اعتناقهم للاسلام ، والنزاع بين القيسية واليمنية الذى ترك آثاره السلبية على شمال افريقيا - التى ثبت أن غالبية من قاموا بفتحها كانوا من اليمنية - موجة من السخط مهدت التربة لانتشار مذاهب الخوارج التى تحض على الثورة على السلطان الجائر ، كما أن ما أعلنه الخوارج من أن الامامة حق متاح لكل مسلم جعل هذا المذهب يلقى قبولاً لدى أهل شمال افريقيا بما جبلوا عليه من البداوة الصريحة .

لمزيد من التفاصيل انظر : محمود اسماعيل، الخوارج فى المغرب الاسلامى (دار العودة بيروت ١٩٧٦)ص٢٨- ص ٤٥. (المترجم)

(٣) نفس Nephesh إحدى الكلمات الدالة على الروح فى الكتاب المقدس وهى تعنى النفس الحية حيث يحكى سفر التكوين (٢:٧) قصة خلق آدم: "وجبل الرب الاله آدم تراباً من الارض ونفخ فى أنفه نسمة حياة فصار آدم نفساً حية "وفى الفكر اليهودى يعتبر الانسان وحدة مركبة من جسد وروح ، مما يؤكد الوحدة بين الروح والجسد وأن الانسان الحى ليس روحاً تسكن جسداً زائلاً ولكنه وحدة عضوية ، والبعث على هذا النحو استعادة للانسان ككل- انظر :

S.G.F. Brandon, The Idea of the Soul in Religion in ancient History, Studies in Ideas Men, and events (Charles Scribner's sons, New York 1939). p.59

(المترجم)

تمجد ذواتها" وزعم أن " جدل أرسطو الباعث على الرثاء" هو أصل لكل تجديف ، وخلص ترتوليان من هذا كله الى التساؤل بقوله: "أية وشائج ياترى بين الأكاديمية والكنيسة ؟ نحن لسنا بحاجة الى الفضول بعدما نادى به يسوع المسيح ، أو لتقصى حقيقة ماجاء به الانجيل".

والحقيقة أن المفهوم العبرانى عن النفس (نفش) ووجهة النظر اليونانية عن ثنائية الطبيعة البشرية ، متناقضان بشكل أساسى ، كما أن فكرة الوجود الانسانى التى تطرحها الأناجيل الثلاثة الأولى ؛ وحتى فى كتابات بولس (فى رأى كثير من الباحثين) عبرانية فى أساسها ، بيد أن آراه ترتوليان لم تجد لها سوى قلة من الأتباع على مدى الأجيال المتعاقبة من المفكرين الكنسيين ، وقدر لرأيه هذا أن يظل تيارا خفيا فى الفكر المسيحى يثير مشاعر زعماء الكنيسة الذين قبلوا المعارف الدنيوية دون تحفظ ، كما قدر لهذا التيار أن يتفجر من آن لآخر فى اتجاهات ثورية متعصبة . ولكن الموضوع الرئيسى فى تاريخ الفكر المسيحى كان هو ذلك التطويع الذى خضعت له الثقافة الكلاسيكية بحيث تتواءم مع الكنيسة ، وهو الأمر الذى عارضه ترتوليان أيما معارضة .

كان التراث الكلاسيكى قد فقد قوته الابداعية فعلا فى عصر ترتوليان وصار يعتمد على التصنيف والاقتباس المتكرر. وليس من قبيل المبالغة أن نقول إن العمل الذى يمكن أن نعتبره عملا يتناول المسائل الدنيوية بحق فى أواخر عصر الامبراطورية ، هو كتاب "الحمار الذهبى" الذى ألفه أبوليوس Apuleius ، ويعتبر هذا الكتاب النموذج الأول لروايات مغامرات الصعاليك . فقد كتبت جميع الأعمال الهامة فى مجال الآداب اليونانية والرومانية والفلسفة قبل نهاية القرن الثانى ، وكتب معظم هذه الأعمال قبل نهاية سنة ١٠٠ ميلادية ، ومنذ ذلك الحين فصاعدا انحصرت الثقافة الكلاسيكية فى أوساط الأكاديميين ، وغالباً ما استخدمت الكتابات الكلاسيكية ككتب مقررة على طلاب المدارس.

كان الشائع حتى نهاية القرن التاسع عشر - ولايزال شائعا حتى اليوم فى بعض الأوساط - أن ما وصلنا من أدب التراث الكلاسيكى انما هو ثقافة حرة ، واذا كان المقصود بالتعليم الحر هو تعليم "الرجل الحر" أى الرجل الذى يتمتع بدخل خاص يغنيه عن العمل لكسب العيش بالمعنى المعتاد للكلمة ، فهذا حقيقى ، إذ كانت مدارس النحو (مايقابل التعليم الابتدائى) ومدارس البلاغة (مايقابل المدارس الثانوية ومراحل التعليم العالى) الرومانية مخصصة لاعداد أبناء الطبقة الأرستقراطية وأبناء الطبقة الوسطى لتولى مناصب القيادة فى الحكومة والقضاء ؛ ولذا لم يكن ثمة داع لأى نوع من أنواع التعليم الفنى . فقد كان المطلوب أن يكون المرء قادرا

على أن يقرأ بدقة وأن يكتب ويتحدث وفقا لمستويات الفصاحة المعترف بها فى الامبراطورية والتى كانت تهتم كثيرا بالمحسنات البديعية ، وكان الطالب الذى يتلقى هذا التعليم الحر فى ذلك الوقت – كما هو الحال في عصرنا – يتميز على الآخرين بأن يصبح قادرا على أن يكتب ويتحدث ويقرأ بفهم ووضوح ، إلا انه فى الواقع لم يكن فى مقدور هذا الانسان المتعلم أن يضيف شيئا جديدا ، اللهم الا أقل القليل ، فمهما كانت معلوماته فى العلوم الطبيعية والرياضيات والتاريخ والجغرافيا والاقتصاد ، كان عليه أن يغترف من الكتب الكلاسيكية . وبحلول القرن الثانى ، ومع توارى الفكر الأرسطى خلف أستار النسيان ، لم يعد من الممكن دراسة كتب التراث الكلاسيكى التى كتبت بمنهج تحليلى دراسة متعمقة .

وهكذا كان التراث الكلاسيكى الذى قدر للمسيحية أن تتبناه فى الغرب اللاتينى مضمحلا وكاد أن يكون مجدبا من الأفكار الجديدة . والواقع أن آباء الكنيسة هم الذين أعطوه دفعة جديدة للحياة ، إذ كانت كل الأعمال الهامة المكتوبة باللغتين اليونانية واللاتينية فى أواخر عصر الامبراطورية من انتاج رجال الكنيسة ، فلماذا أنقذ آباء الكنيسة التراث الكلاسيكى واستوعبوه، وتجاهلوا انتقادات ترتوليان الشديدة لاخفاق الثقافة الكلاسيكية وضلالها ؟ بوسعنا أن نقدم هنا اجابات لهذا السؤال : ففى المقام الأول كان آباء الكنيسة أنفسهم من نتاج مدارس النحو والبلاغة الرومانية ولم يكن فى استطاعتهم أن يتصوروا أى نظام تعليمى آخر ، أو أى برنامج دراسى مخالف لذلك الذى كان قد تبناه الرومان ونشروه فى شتى أرجاء امبراطوريتهم بطبيعة الحال . ولايمكن أن نقول بأن آباء الكنيسة قد اخطأوا لمجرد انهم لم يصلوا الى المستوى الذى يسمح لهم بالقيام بمحاولات للنهوض بالتعليم نهوضا كاملا ، فقد كان على العالم أن ينتظر ألف عام حتى يجىء جون ديوى John Dewey (٤).

وثمة عامل آخر حسم المسألة التى تبنت الكنيسة التراث الكلاسيكى على أساسها ، وهو العامل الذى تمثل فى وجود مستويين بين المؤمنين بالعقيدة المسيحية . وتحددت أبعاد المذهب القائل بوجود هذين المستويين بشكل واضح للمرة الأولى على يد اللاهوتى السكندرى أوريجين Origen الذى عاش فى أوائل القرن الثالث ، وقد تقبل هذا غالبية آباء الكنيسة بما فيهم

---

(٤) فيلسوف أمريكى ولد سنة ١٨٥٩ ، وكان له تأثير عميق ، لابين الفلاسفة فحسب بل ايضاً بين دارسى التعليم وعلم الجمال والنظريات السياسية ، وهو رجل (ليبرالى) النظرة غير ان التعليم كان يحتل مكان الصدارة بين اهتماماته وكان تأثير جون ديوى على التعليم فى امريكا شاملاً وعميقاً – لمزيد من المعلومات انظر :

Bertand Rusell : History of Western Philosophy. (10 th ed. 1967) pp. 664 - 82.

(المترجم)

القديس أوغسطين ؛ ولو أنهم تقبلوه ببعض الشك وبعد أخذ ورد . وينادى هذا المذهب بأن هناك مستوى لعامة الجماهير فى فهم الدين دون مناقشة ، ومستوى آخر يتناسب مع زعماء الكنيسة وهو الذى يفهم الدين من وجهة نظر فلسفية وبعد بحث وتمحيص . وبالنظر الى المعارضة العنيفة التى واجهتها الكنيسة من دوائر المتعلمين حتى القرن الرابع ، فليس هناك مايدعو للدهشة فى أن المتحدثين باسم الكنيسة كانوا يريدون التظاهر بأن عقيدتهم تناسب العلماء والفلاسفة الذين قرأوا أشعار فرجيل وكتب أفلاطون .

وقد مهدت كتابات الفيلسوف اليهودى فيلون Philo ، الذى عاش بالاسكندرية فى مطلع القرن الأول بعد الميلاد ، الطريق أمام التوفيق بين الايمان بالعهد القديم وكتب التراث الكلاسيكى . لقد كان التأثير العظيم الذى تركه فيلون على اللاهوتيين المسيحيين من بعده بمثابة السبب الثالث الذى حدا بالكنيسة الى معارضة آراء ترتوليان المتزمتة . كان اليهود قد نزحوا الى الاسكندرية فور تأسيسها فى زمن الاسكندر الأكبر ، وفى أيام قيصر وأوغسطس كان ربع سكان الاسكندرية البالغ عددهم مليون نسمة من اليهود ، وسرعان ما اصطبغ اليهود بالصبغة اليونانية فى غمرة الحياة المزدهرة الدائبة فى المدينة . أما اليهود الذين كانوا قد هاجروا الى بلاد النهرين ، فقد قاوموا الثقافة العلمانية التى اتصلوا بها وطوروا قانونا شرعيا جامعا وهو التلمود (٥) (تأسيس طائفة اليهود الربانيين) (٦) لكى يفصلوا أنفسهم نهائيا عن

---

(٥) "التلمود" مصدرها الكلمة العبرية "لمد" ومنها "تلمد" التى تقابل كلمة "تلميذ" فى اللغة العربية ، واسم التلمود مشتق من كونه يعلم الفقه والدين وتفسير التوراة ، وهو عبارة عن جزئين احدهما "المشنا" (وهو كتاب عبرى فقهى بمنزله التفسير للتوراه) ويعتقد الربانيون أنه وحى أوحى به الله الى موسى اثناء الايام الاربعين التى قضاها فى طور سيناء وامره الا يكتبها ، ثم كتب فى عهد " يهوذا الناسى" (وهو ستة اسفار) وثانيهما "الجمارا" وهو شروح المشناه ويضم التلمود عدة ابحاث كتبها أحبار اليهود وفقهاؤهم وربانوهم فى شئون العقيدة والشريعة والتاريخ المقدس وما الى ذلك . وتقع فى ثلاثة وستين سفراً . وهناك تلمودان احدهما بابلى (بسبب السبى البابلى) والثانى أورشليمى (نسبة الى مدينة أورشليم) والاوورشليمى اقدم ، وهناك عدة اختلافات بين التلمودين – انظر ·

مراد فرج : القراءون والربانيون ، ص ٣٦– ص ٤١، حسن ظاظا، الفكر الدينى الاسرائيلى ص ٧٨–٩٤ . (المترجم)

(٦) الربانون (ويعرفون ايضاً باسم الربيين او الربانيين) اشهر فرق اليهود واكثرهم عدداً وكلمة "ربانيم" بالعبرية تعنى الامام أو الفقيه أو الحبر ، وقد عربت هذه الكلمة الى "ربانى" ووردت بهذا النص فى القرآن الكريم (المائدة :٤٤) ، وقد تسمى ابناء هذه الفرقة "ربانيين " اشارة إلى اتباعهم تفاسير علماء اليهود وفقهائهم الواردة فى المشناه وفى التلمود وتقيدوا بهذا الاسم حتى صار سمة عامة لهم – انظر : =

المجتمع العلمانى والفكر الدنيوى ، وحاول اليهود فى الاسكندرية من ناحية أخرى ، أن يبرزوا التوافق بين الديانة اليهودية والثقافية الكلاسيكية ، وكانت تحركهم الى ذلك رغبتهم فى أن يقبلهم الأمميون (٧) ، وهى الرغبة نفسها التى ألهمت التيارات اليهودية المتحررة فى عصرنا الحديث . وحاول فيلون السكندرى فى كتاباته العديدة أن يشيع أن ثمة معنى مجازيا كامنا فى نصوص العهد القديم يتوافق مع الفلسفة الأفلاطونية ، كما قال بأن العنصر التاريخى الواضح فى العهد القديم يكشف عن العناية الالهية. وكان هناك عنصر أخلاقى وراء هذه الآراء وهو العنصر الذى يحبذ الفضائل التى نادى بها افلاطون . وفى رأى فيلون أن من الممكن أن نكتشف فى أعلى مستويات المعنى المجازى مذهبا فلسفيا لاهوتيا يماثل التعليم الأفلاطونية الى حد كبير .

وتلاءم تفسير فيلون للتوراه - من حيث احتوائها على مذاهب تاريخية وأخلاقية وفلسفية- إلى درجة كبيرة مع المذهب الذى نادى به آباء الكنيسة فيما يخص مستويات الايمان ، ولم يكن هناك مايدعو الى ارتباك مفكرى الكنيسة من جراء ماورد بالتوراه من وجهات نظر لاتتوافق مع الفكر الأفلاطونى . فمثل هذه الأمور يمكن شرحها بطريقة مجازية ؛ ومن ثم كانت مدرسة المدافعين المزدهرة فى القرنين الثانى والثالث تعكف على كتابات فيلون تستقى منها آراءها فى اللاهوت ، كما انكبت بنفس الثقل على شرح التوافق بين المسيحية والتراث الكلاسيكى . وبالرغم من أن هناك مدرسة أخرى من مدارس التفسير المسيحى للكتاب المقدس ظهرت بأنطاكية فى مرحلة لاحقة فى القرن الخامس ، ونحت نحو التفسير الأدبى والتاريخى ، فإن المذهب السكندرى فى الشرح المجازى لنصوص العهد القديم توافق بشكل أفضل كثيرا مع مذهب العقيدة ذات المستويين الذى اتبعه آباه الكنيسة ، ومن ثم صار هو المنهج الواضح للتفسير المسيحى للكتاب المقدس منذ القرن الثالث حتى القرن الخامس عشر .

وبينما ساورت الكنيسة اللاتينية ، التى اتخذت حيطتها ضد تعالى ترتوليان على التراث الكلاسيكى ، بعض الوساوس حول تقبل الثقافة اليونانية - الرومانية فإن الكنيسة الشرقية ، التى تبعت قيادة فيلون ، سرعان ما استوعبت التراث الكلاسيكى ، والمذهب الأفلاطونى على

= Universal Jewish Encyclopaedia. art. Rabbis, Rabbanite.

وانظر كذلك : حسن ظاظا ، الفكر الدينى الاسرائيلى، ص ٣٤٣-ص٢٣٢ (طبعة معهد الدراسات والبحوث العربية) .

(٧) أى غير اليهود .

(المترجم)

وجه الخصوص . وفى الاسكندرية بدأ شارح الكتاب المقدس وعالم اللاهوت أوريجين (ت سنة ٢٥٤)- الذى يعد اكثر آباء الكنيسة الشرقية المبكرة غزارة فى علمه ومؤلفاته - تقليدا جديدا لتفسير العقيدة المسيحية فى اصطلاحات أفلاطونية وقدر لهذا التقليد أن يعمر على مدى زمن طويل . فقد أصّل أستاذه كليمنت السكندرى الأسطورة التى لقيت شعبية واسعة فى العصور الوسطى ، والقائلة بأنه يجب ترسم خطى المذهب الأفلاطونى بشكل متعمق لتفسير نصوص الكتاب المقدس ، ولم يعتذر أو يتحرج من اطلاعه الواسع فى الآداب اليونانية ؛ بل انه العكس من ذلك أرسى المبدأ الذى لقى قبولا عالميا تقريبا بين آباء الكنيسة وكتاب العصور الوسطى ، ألا وهو المبدأ القائل بأن التعليم الكلاسيكى شرط أساسى وضرورى لفهم الكتاب المقدس فهما كاملا .

وقد تركت مسألة تقرير مناقشات الآباء السكندريين المقنعة وحسمها الى من جاء بعدهم فى القرن الرابع . وفى كل من الكنيسة الشرقية اليونانية والكنيسة الغربية اللاتينية كانت المسألة تدور حول مجرد تحديد الكم اللازم من الثقافة الكلاسيكية لخدمة التعليم المسيحى ، وكان يخالج قادة الكنيسة الشرقية الكبار فى النصف الأخير من القرن الرابع قدر ضئيل من الشك حول ضرورة التطويع الحر للميرات الكلاسيكى . وكان القديس باسيل (ت، سنة ٣٧٩) الذى وضع لمساته على النظام الديرى فى الشرق متحمسا لقيمة الأدب اليونانى - الرومانى فى تلقين الفضائل التى تتوافق مع المفاهيم الأخلاقية للأجيال ؛ وذلك بالرغم من ادراكه لأن التعليم الكلاسيكى ليس الا وسيلة لفهم الحقيقة فهما شاملا ، كما كان مدركا للحاجة الى خلق الانسجام بين العلم اليونانى وعقيدة الكتاب المقدس . بل إن هناك آباء آخرين فى الكنيسة اليونانية الشرقية كانوا أكثر حماسة للثقافة الكلاسيكية - فإن القديس جريجورى النازينزى St. Greogory Nasianzen الذى كان بطريرك القسطنطينية لفترة قصيرة (ت. سنة ٣٩٠) ، أدان المسيحيين الذين بحطون من شأن الثقافة الوثنية ووصمهم بأنهم أميون أجلاف لايقدرون مايعود على الكنيسة من مزايا من خلال التعليم . ولم يخطر ببال جريجورى أن باستطاعة المسيحية أن تطور مناهجها التعليمية الخاصة أو مذهبها المتمايز . وفى كتابات يوحنا ذهبى الفم (الفصيح) St. John Chrisostom الذى كان بطريركا للقسطنطينية ومات سنة ٤٠٧ ، وفى خطبه البليغة ، يمكن أن نجد المواقف الدالة على مذهب انسانى مسيحى بمعنى الكلمة ينظر الى الثقافة الكلاسيكية ، لا كمجرد أداة يمكن للكنيسة أن تستخدمها ، ولكن كشىء جذاب وله قيمته الخاصة . وتميز التاريخ الثقافى لبيزنطة فى الفترة التالية بموجات إحياء للدراسات الكلاسيكية ، من آن لآخر ، لاسيما فى القرن العاشر. ولم تحقق محاولة بيزنطة فى

مجال الدراسات الكلاسيكية ما كان ينتظر لها أن تحققه فى مجال الأدب ؛ إذ كانت الآداب اليونانية فى القسطنطينية فى العصور الوسطى مستمدة من نماذج قديمة ، كما كانت تفتقر إلى الأصالة فى مجملها . ومن ناحية أخرى ، كان مقدرا للتراث الكلاسيكى الذى أتت به آراء آباء الكنيسة فى القرن الرابع أن يكون له تأثير قوى على طراز الفن البيزنطى مرة أخرى فى القرن العاشر بصفة خاصة .

وبينما كان الأدب الكلاسيكى اليونانى فلسفيا الى درجة كبيرة - أو عالميا فى محتواه على الأقل - كان الأدب اللاتينى لا أخلاقيا ، بل وفاضحا. ومن يقرأ افلاطون ، وما نظمه كاتوللوس Cattullus هياما فى محبوبته لسبيا Lesbia، وكتاب "فن الحب" الذى كتبه أوفيد Ovid يجد الدليل على ذلك . وادى هذا الموقف الذى سببته الاستجابه المتزايدة لآراء ترتوليان إلى أن اتخذ مفكرو الكنيسة الغربية فى القرن الرابع موقفا أكثر حذرا تجاه التراث الكلاسيكى من موقف رفاقهم اليونانيين . وعلى الرغم من ذلك فإنهم تخلوا عن موقف ترتوليان الذى جرد الأدب الكلاسيكى من أية قيمة ، وان كان ذلك بدرجات متفاوته بين رجل وآخر ، وحسموا بذلك مصير أوربا التعليمى والفكرى على مدى السنوات الألف التالية ، وكانت آراء القديس جيروم والقديس أوغسطين حاسمة بهذا الصدد .

وبالرغم من أن جيروم كان سليل عائلة مسيحية ، فانه تلقى تعليما كلاسيكيا شاملا ، ولم يلبث ان تخطى مرحلة دروس النحو والبلاغة العقيمة الى مرحلة التقدير العميق لجمال اللغة والصياغة فى الأدب اليونانى والأدب الرومانى ، وهو يحكى لنا كيف أنه سقط مريضا أثناء الرحلة التى قام بها إلى الشرق وهو فى أواسط عمره وكانت شهرته كعالم كبير قد رسخت بالفعل - وفى الحلم وجد نفسه متهما أمام العدالة المقدسة بأنه ليس مسيحيا بل شيشرونيا[٨]، ويبدو أنه عانى من انهيار نفسى ومعنوى شديد القسوة ، إذ أنه هرب الى برية مصر ، كما كان شائعا فى الأوساط التى اشتهرت بشدة تقشفها . وعلى مدى خمس سنوات عاش حياة ناسك مسكين ودرس اللغة العبرية أثناء هذه الفترة ، ويبدو أن شفاء جيروم كان سريعا مثل انهياره ، فقد هجر الصحراء المصرية الى القسطنطينية حيث استأنف إشباع ميله الى الدراسات الكلاسيكية ، ثم ذهب فيما بعد الى مدينة بيت لحم حيث استقر وقد صار رجلا مسنا واكمل ترجمته العظيمة للكتاب المقدس الى اللاتينية. وقد صارت ترجمة جيروم التى عرفت بالفولجاتا Vulgata[٩] هى النص المعتمد فى الكنيسة الرومانية وفى العصور الوسطى

---

(٨) نسبة الى شيشرون الخطيب الرومانى المفوه الذى عاش فى عصر الجمهورية الرومانية ، ويقصد المؤلف أن جيروم كان متعلقاً بالتراث الوثنى .
(المترجم)

(٩) أى النسخة الشعبية وذلك لأنها كانت مكتوبة باللغة اللاتينية الدارجة . (المترجم)

والحديثة . وقد اعتمدت ترجمة الملك جيمس على ترجمة جيروم اعتمادا كبيرا ، وتعتبر ترجمة جيروم عملا فنيا عظيما وتمتاز بدرجة فائقة من الدقة ، ولم يكن ممكنا أن يقوم بترجمة الكتاب المقدس إلى اللغة اللاتينية سوى فقيه لغة Philologist متمكن ، يتمتع في الوقت نفسه بحساسية فائقة بدقائق اللغة اللاتينية .

وأجاب جيروم على زملائه ، حين ذكروه بحلمه الذى شاع أمره بين الناس ، بأن الحلم فى النهاية ليس الا حلما. وقد بات حلم القديس جيروم الشهير موضوعا شعبيا فى أدب العصور الوسطى وفنونها ، وغالبا ماكان غلاة المتعصبين يلجمون به علماء العصور الوسطى وباحثيها . وعلى أية حال ، فقد تمثل أهم أثر لأعمال جيروم فى أنه مضى قدما بعملية استيعاب الكنيسة اللاتينية للتراث الكلاسيكى . ولم يقدر معاصروه – ومنهم أوغسطين – مدى عظمة الترجمة اللاتينية التى قام بها للكتاب المقدس حق قدرها . بيد أنه بالنسبة لمن عاشوا فى العصور الوسطى الباكرة كانت حياة جيروم ومؤلفاته خير داعية للفكرة القائلة بأنه ليس من الضرورى أن يؤدى حب المسيحى المؤمن للأدب الكلاسيكى إلى إنحراف عن عقيدته . فعلى العكس من ذلك ، لم يكشف القديس جيروم عن الفكرة القائلة بأن الجمع بين التراث الكلاسيكى والديانة المسيحية ممكن وغير متناقض فحسب ، ولكنه أوضح أيضا أنه يمكن تسخير هذه الفكرة لخدمة الكنيسة فى مجالات التعليم المسيحى والدفاع عن العقيدة .

أما القديس أوغسطين فكان أقل محاباة لقيم الثقافة الكلاسيكية من معاصره العظيم جيروم ، إذ كان أوغسطين متمكنا من اللغة اللاتينية ، فقد عمل بتدريس البلاغة قبل أن يعتنق المسيحية فى منتصف حياته ، ولكنه لأسباب عقلانية من ناحية ، ولأنه كان أفريقيا شماليا عنيدا مثل ترتوليان من ناحية أخرى ، وجه انتقادات قاسية ضد بعض الجوانب الجوهرية فى التراث الكلاسيكى . ورأى أوغسطين أن يؤخذ من التراث الكلاسيكى مايبدو ضروريا ومفيدا لتحقيق غايات الكنيسة وأهدافها ، وأن تهمل النفايات ، وطرح عدة اقتراحات محددة عن كيفية تحقيق هذا البرنامج ، فقال إنه أوصى بإعداد ملخصات للفنون الحرة ، وملخصات دراسية لموضوعات الفلسفة الكلاسيكية والأدب الكلاسيكى التى تتوافق مع العقيدة المسيحية. والحقيقة أن أوغسطين نفسه قد نهل كثيرا من مورد الفلسفة الأفلاطونية فى كتاباته اللاهوتية.

وكان للاقتراحات التى وضعها أوغسطين عن العلاقة الصحيحة بين المسيحية والأدب الكلاسيكى تأثير هائل فى العصور الوسطى الباكرة . وفيما بين القرن الخامس والقرن الثامن

سار التعليم المسيحى على الخط الذى حدده أوغسطين : أى الدراسة المستمرة للنحو والبلاغة باعتبارهما قوام البرنامج التعليمى ، وتأليف ملخصات الفنون الحرة ، ولم يكن هذا راجعا إلى تأثير أوغسطين الفعال على التعليم المسيحى فحسب ، ولكنه كان راجعا أيضا إلى الظروف الثقافية العامة التى كانت سائدة فى تلك الفترة . ففى المحل الأول - عندما غدت الثقافة الكلاسيكية فى عصرها الأخير أكثر عمقا وحذلقة - كان هناك اتجاه عام ، حتى قبل أوغسطين، نحو تلخيص الفكر الكلاسيكى فى موجزات تسهل قراءتها ، الا أن مثل هذه الموجزات كانت هى بالضبط ما كان أوغسطين يدعو إليه ويحث عليه من أجل التعليم المسيحى. وثانيا أن العالم الذى كان يطغى عليه الجهل والفظاظة فى الفترة مابين الغزوات الجرمانية وقيام الملكية الكارولنجية المصلحة فى القرن الثامن ، لم يكن ليستطيع أن يهضم الزاد العقلى الذى تقدمه الثقافة الكلاسيكية ، وغاية ماكان يستطيعه هذا العالم أن ينهل من التراث الكلاسيكى من خلال الموجزات والملخصات والموسوعات .

وهكذا ، تسبب تأثير القديس أوغسطين من ناحية ، وظروف تاريخ الغرب الثقافى بين القرن الرابع والقرن الثامن من ناحية أخرى ، فى أن يصل التراث الكلاسيكى إلى الكنيسة المسيحية من خلال الملخصات والمقالات الموجزة فى البلاغة والفنون الحرة والعلوم . وعيوب مثل هذه المقالات تبدو واضحة بدرجة أكبر من مزاياها ، فهى متواضعة القيمة إلى أبعد الحدود ، فكثيرا ما كانت المعرفة العلمية التى تقدمها مستوحاة من عالم الخيال والخرافات . ومع أن هذه الموسوعات التى ضمت الفكر الوسيط لم تكن تفى بالحاجة المطلوبة ، فإنها كانت الجسر ما بين مدارس القرن الرابع والمدارس الكارولنجية التى أخذت فى الأزدهار منذ أواخر القرن الثامن .

كان أول أولئك الموسوعيين ، أو "الناقلين اللاتين" كما عرفوا آنذاك هو مارتيانوس كابلا Martianus Capella الذى كان من معاصرى أوغسطين ومن أبناء شمال أفريقيا . وليس من المؤكد ما إذا كان مارتيانوس مسيحيا - فان المسيحية لاتظهر اطلاقا فى ثنايا مقالته - ولكن المؤكد أن الناس فى العصور الوسطى كانوا يعتقدون أنه مسيحى، وظل مؤلفه يلقى شعبية واسعة ويؤثر فى الحياة الفكرية حتى القرن الثانى عشر. وتحمل مقالته عنوانا غريبا هو "زواج الفيلولوجيا ومركوريوس" ويبدأ موضوع المقالة بقصة مجازية ، وتنتهى ككتاب مدرسى عن الفنون الحرة السبعة . والواقع أن رسالة مارتيانوس كابلا هى التى حددت عدد الفنون الحرة بسبعة وثبتت ذلك فى أذهان الناس فى العصور الوسطى الباكرة ، بالرغم من أنه كان فى نص الكتاب المقدس - بطبيعة الحال -- ما يؤيد هذا التحديد ، وهو النص الوارد فى كتاب الأمثال

"**الحكمة بنت بيتها ، نحتت أعمدتها السبعة**" [١٠] بل إن جامعات العصور الوسطى العالية قسمت مجرى الفنون التى تدرسها على نهج تقسيم مارتيانوس . وفى رسالة مارتيانوس تقع الفنون السبعة الحرة (التى تبدو فى البداية كوصيفات الشرف للفيلولوجيا) فى مجموعتين إحداهما تضم ثلاثة فنون وتضم الثانية أربعة فنون ، أما المجموعة الثلاثية (التى أطلق عليها كتاب العصور الوسطى منذ ذلك الحين اسم تريفيوم Trivium ؛ فكانت تضم الفنون الأدبية : النحو والبلاغة والمنطق وكانت المجموعة الرباعية وهى الكوادريفيوم Quadrivium والتى تسمى كذلك بالمجموعة الرياضية ، أو مجموعة الفنون غير الأدبية أو الفنية ؛ فهى الحساب والهندسة والفلك والموسيقى. ومن الأمور ذات الدلالة أن مارتيانوس قد حذف الطب والقانون من قائمة الفنون الحرة مما أدى إلى عزلها من كليات الدراسات الانسانية فى جامعات العصور الوسطى العالية بل ومن معاهدنا الأكاديمية الحديثة . وكانت حجة مارتيانوس كابلا فى ذلك متفقة مع رأى أوغسطين بأن الطب والقانون ليسا من الدراسات "الحرة" لأنهما يهتمان بأمور تطبيقية أو باعتبارهما مخالفين للعلوم النظرية. وقد صارت مقالة مارتيانوس عن الفنون الحرة أساس المنهج الدراسى فى مدارس العصور الوسطى الباكرة ، فان موقفه المتعالى من القانون والطب- والذى أصبح موقفا يحتذيه العلماء فى العصور الوسطى الباكرة - كان سببا أساسيا فى تدهور المعرفة الطبية أوائل العصور الوسطى وفى أن الطلاب نادرا ماكانوا يتابعون دراسة القانون الرومانى - خارج ايطاليا على الأقل - حتى القرن الحادى عشر . وازدهرت دراسة الطب والقانون من جديد كدراسة أكاديمية فى القرن الحادى عشر كدراسات عليا تؤدى بعد اتمام دراسة الفنون الحرة .

وفضلا عن مقالة مارتيانوس ، كان هناك مؤلفان موسوعيان كتبهما إثنان من علماء إيطاليا فى بواكير القرن السادس - كاسيودروس Cassiodours وبوئثيوس Boethius وكان كلاهما من أبناء العائلات الأرستقراطية الرومانية كما ارتقى كل منهما مناصب عليا فى حكومة ثيودروريك Theodoric ملك القوط الشرقيين . وكان قصد كاسيودروس الأول ، وهو يعمل فى سبيل الحفاظ على الميراث الكلاسيكى فى الممالك الجرمانية ، أن يؤسس نوعا من الجامعة المسيحية فى روما ، بيد أن اضطراب الأحوال السياسية والاقتصادية آنذاك حال دون تحقيق ذلك ، ولذا فانه عمل على توظيف الحركة الديرية فى خدمة هذا الغرض . وكان كاسيودوروس أول من أسس ديرا كمركز للدراسة ، وهو النمط الذى سارت عليه أديرة عديدة

---

(١٠) كتاب الأمثال ٩: ١-٢ .

فيما بعد ، أما الملخص الذى كتبه كاسيودورس عن الفنون الحرة فقد كان نتيجة للحاجة إلى صياغة برنامج لتعليم تلاميذه فى الدير . ولما كان كاسيودوروس يؤمن طبعا بأن الهدف من التعليم الديرى هو دراسة اللاهوت والكتاب المقدس وتاريخ الكنيسة ؛ فقد نادى بأنه يجب البدء بدراسة الفنون الحرة لكى يتحقق هذا الهدف على نحو سليم ، وهو التقليد الذى سار عليه العلماء المسيحيون فى الدراسات الانسانية فى الوقت الحاضر ، ومن ثم أعد كاسيودوروس خطة لدراسة الفنون السبعة الحرة وهى عبارة عن نوع من المقررات المدرسية للمعرفة العامة ، وألحق بها قائمة بمصادر الكتابات الكلاسيكية التى توسع من دائرة مايقوم به الرهبان من دراسات حرة . وكان برنامج كاسيودوروس هو الأساس الذى قام عليه المنهج الدراسى فى المدارس الديرية أوائل العصور الوسطى . وهكذا كانت هذه الخطوة إسهاما فعالا للغاية فى الحفاظ على الميراث الكلاسيكى فى الغرب ، ونبه إلى أن الرهبان يحتاجون إلى نسخ عدد من الأعمال الكلاسيكية حتى يتمكنوا من قراءة هذه الأعمال . ومنذ ذلك الحين فصاعدا ، بدأ ظهور الأديرة كنوع من مراكز النشر ، ظهورا بطيئا . وفى هذه المراكز كانت تنسخ النصوص الكلاسيكية المختارة ؛ إما للمكتبات ، وإما لهذه الأديرة ذاتها ، أو لكى ترسل إلى الأديرة التى تفتقر إلى مثل هذه الامكانيات الطيبة ولاتتمتع بمثل هذا المستوى من التقدم العلمى .

وأخذ معاصر كاسيودروس الفيلسوف بوئثيوس ، على عاتقه مهمة ترجمة جميع مؤلفات أفلاطون وأرسطو إلى اللغة اللاتينية ولكن المنية وافتة قبل أن ينجز مهمته ، ولكن ترجمته لمنطق أرسطو كانت هى النص الوحيد المتاح فى الغرب من مؤلفات الفيلسوف الكبير فى العصور الوسطى الباكرة ؛ ومن ثم كانت مساهمة هامة للغاية فى الحفاظ على بعض مظاهر الفلسفة اليونانية فى العصور الوسطى . وتعد مقالة بوئثيوس المعروفة باسم "سلوى الفلسفة" إحدى الأعمال الفلسفية القليلة التى كتبت فى الفترة مابين عصر أوغسطين والقرن الحادى عشر ، ولايزال لديها ماتقوله للقارىء الحديث . وقد كتبت حين كان بوئثيوس ينتظر الاعدام لاتهامه بخيانة ثيودوريك ملك القوط الشرقيين ، وهى تمدنا بملخص متناسق للنظريات الأخلاقية الكلاسيكية ، رغم غلبة المسحة الصوفية عليها .

أما آخر المساهمين الكبار فى الميراث الكلاسيكى فى الغرب ، منذ القرن الرابع حتى القرن الثامن ، فهو عالم القرن السابع ايسيدرور Isidore أسقف أشبيلية والذى كان ينحدر هو الآخر من صلب عائلة رومانية قديمة غير جرمانية ، وكانت عائلته قد نزحت من شمال أفريقيا إلى أسبانيا فى القرن السادس . وكان لايسيدور تأثير عظيم على التعليم فى العصور

الوسطى من خلال موسوعة تتألف من عشرين كتابا اسمها "الاشتقاقات أو الأصول". ويعكس هذا العنوان الغريب اعتقاد ايسيدور - وهو الاعتقاد الذى كان شائعا فى العصور الوسطى الباكرة نتيجة للاهتمام السائد آنذاك بالمجازية والرمزية - بأن الطريق الى المعرفة يمر من خلال أصول الكلمات . ولم تكن معلومات ايسيدور فى فقه اللغة كافية بالمرة لكى يتتبع اشتقاقات الكلمات على نحو صحيح . وعلاوة على ذلك فقد حفلت مؤلفاته بالخيال والخرافة ، ولكنها مع ذلك لقيت اقبالاً واسعا كما كان لها تأثير عظيم لأن ايسيدور لم يقيد نفسه داخل إطار الفنون الحرة ، ولكنه حاول أن يقوم بمسح كلى للمعارف فى العالم اليونانى - الرومانى ، بما فى ذلك الطب وعلم الحياة ، وعلم النبات والعمارة . وبالنسبة للناس فى العصور الوسطى الباكرة كانت أعماله تتميز أيضا بالترتيب الدقيق والايجاز ، وبالرغم من أخطائه العديدة ، فإنه عمل على أن ينقل إلى عالم العصور الوسطى الباكرة قدرا كبيرا من المعلومات المستقاة من خارج نطاق الفنون الحرة . وربما لايحق لنا أن نلومه ، لأن العلماء فى العصور الوسطى قد درجوا ، على مدى قرون عديدة ، على أن ينظروا إلى عمله باحترام قد لايكون فى محله ، كما أنهم يرددون آراءه الخيالية دون أدنى نقد . وقد استقى ايسيدور هذه الآراء بدوره من كتاب الامبراطورية الرومانية المتأخرة .

ولم يكن من يلقبون "بالناقلين اللاتين" مفكرين يتمتعون بقدر من الأصالة أو المعرفة الوثيقة باللغة ؛ ولكنهم كانوا مجرد مدرسين ومؤلفين للكتب المدرسية . ولايكاد يكون هناك شىء مما كتبوه يستحق أن يقرأ لذاته . ولكن دورهم فى تاريخ الثقافة كان دورا هاما للغاية ، فقد أنيطت بأولئك المفكرين ، الذين أوقفوا حياتهم على هذه المهمة التى تفوق قدراتهم ، مهمة تحقيق حفظ الكنيسة المسيحية للجزء الأكبر من التراث الكلاسيكى . لقد ظهر هذا البرنامج من خلال الجدل العظيم الذى دار حول قيمة الدراسات الكلاسيكية ، وهو الجدل الذى كان بمثابة النغمة الدالة فى فكر آباء الكنيسة ، فيما بين القرنين الثانى والخامس ، وقد حسم آباء الكنيسة الكبار الأمر لصالح الثقافة المسيحية اللاتينية ، وعارضوا النزعة الراديكالية المتزمته التى عرفت عن ترتوليان ، وتركت لخلفائهم الذين كانوا أقل منهم فى هذا المستوى - منذ القرن الخامس حتي القرن الثامن - مهمة وضع هذا البرنامج موضع التنفيذ بالوسائل المتاحة لديهم ، وقد أحسنوا عملهم بالقدر الذى كان كافيا لأن تظل الكنيسة متعلمة ومرتبطة بالميراث الكلاسيكى . وثمة هوة هائلة فى المستوى العلمى والادراك العقلى تفصل بين أوغسطين وايسيدور الاشبيلى . وبالرغم مما كان يشوب "الناقلين اللاتين" فانهم مهدوا السبيل أمام الإحياء الثقافى فى القرن الثامن وطوال القرن التاسع فى العالم الكارولنجى الذى شهد- على أقل تقدير - عودة جزئية لعصر ثقافة آباء الكنيسة بما تميز به من ثراء وعطاء .

٢- حج أوغسطين

فى سنة ٤٣٠ تحقق سكان مدينة هيبو Hippo فى شمال أفريقيا (بالقرب من قرطاجة القديمة ، وهى قرطاجة الحديثة فى تونس) أن الحضارة الرومانية كما عرفوها كانت تعيش أيامها الأخيرة . فمنذ سنوات خلت ، قام الوندال Vandal ، وهم من أكثر الشعوب الجرمانية بداوة ، بغزو شمال أفريقيا ، وفى سنة ٤٣٠ نفسها كانوا فى طريقهم الى القضاء على ماتبقى من السلطة الرومانية فى أفريقيا. وفى تلك الآونة الحرجة لم يكن هناك من يقوم بقيادة المجتمع والسهر على راحته سوى الأساقفة . إلا أن أسقف هيبو ، الذى كان هو القديس أوغسطين فى ذلك الوقت - وهو أعظم مفكرى عصره - كان يرقد مسجى على فراش الموت ، وكان بعض أساقفة شمال أفريقيا يريدون الهرب من البلاد ، وكتبوا إلى أوغسطين طالبين النصيحة ، فأجاب بأنه اذا تخلى الزعماء الروحيون عن رعاياهم ، فلن يكون لعامة الناس دليل يقودهم فى مواجهة الموقف العصيب ، وفى هذا مساس بسمعة الكنيسة : فعلى الاساقفة أن يبقوا فى مواقعهم حتى النهاية . ومن المعتقد أن أوغسطين مات قبل أن ينتهك الوندال مدينته ويُعْمِلوا فيها السلب والنهب . وعلى أية حال ، فقد بقيت مؤلفاته الضخمة لتصبح من المصادر الرئيسية التى تلهم المسيحيين وترشدهم كما تثير الخلافات بينهم حتى اليوم .

ومنذ القرن الثامن عشر حتى القرن العشرين - وهى الفترة التى نشط أثنا ءها تيار التحرر الدينى - انزوت مؤلفات أوغسطين فى زوايا النسيان ، ولكن منذ الحرب العالمية الأولى ، حيث تعرضت الحضارة الغربية لتغيرات هائلة تشابهت مع الكوارث التى حدثت أثناء عصر أوغسطين ، عاد كثيرون من المفكرين الدينيين والعلمانيين العقلانيين على حد سواء واتجهوا صوب مؤلفات أوغسطين بحثا عن رؤية داخلية للعلاقة بين العالم والروح .

وليس من المحتمل أن يكون هناك أكثر من حفنة من أهالى مدينة هيبو فى القرن الخامس قد تحققوا أن أسقفهم هو أعمق مفكر أنجبته الكنيسة المسيحية حتى ذلك الحين . وقد أدرك رفاق أوغسطين من الاساقفة أهميته الفكرية وحاولوا التخفيف من أعبائه الرعوية ؛ ولكنه لم يهمل شأن رعيته على الاطلاق . وتطورت معظم مذاهب أوغسطين كاجابات على قضايا الساعة التى كانت تواجهه خلال ممارسته لواجبه الرعوى ، فهو لم يكن أستاذا متفرغا فى فقه الدين (اللاهوت) يمتلك الوقت الذى يمكنه من تطوير نظرية محددة ؛ وإنما كان رجلا من رجال الكنيسة يحاول مواجهة مايعرض له فى كل يوم من مشكلات حول العقيدة والأخلاق . وقد تمثل تأثير هذه الطبيعة البراجماتية لكتابات أوغسطين فى كونها تفتقر الى الوضوح فى أغلب

الأحيان من جهة ؛ ولكنها من جهة أخرى ، كانت تعبيرا عن فهم وادراك المشاكل الحقيقية فى الحياة على نحو يندر أن نجد له مثيلا عند أى مفكر مسيحى آخر منذ عصره حتى الآن ، وعندما اقتربت حياة أوغسطين من نهايتها الف كتابا صغيرا بعنوان Retractationes(١١) (أى المراجعات أو الاستدراكات) ، وقام فى هذا الكتاب بتقييم مؤلفاته كلها ، واعترف بأنه لم يكن فى هذه المؤلفات متوافقا مع ذاته تماما ، ذلك أنه فى الحقيقة ذكر فى غمرة احتدام الجدل والنقاش أمورا تبعد كل البعد عن رأيه الحقيقى . وكان مقدرا لهذه التناقضات والملاحظات المتطرفة أن تكون مصدر خلاف بين المسيحيين فى العصور الوسطى ، وفى عصر الاصلاح الدينى ، وحتى يومنا هذا. ومن ناحية أخرى ، فإن هذه التناقضات والملاحظات المتطرفة تجعل أوغسطين يبدو كأكثر علماء اللاهوت المسيحيين انسانية . وتعكس أعماله جهوده اليومية فى سبيل الوصول إلى تفسير للعالم فى ضوء العقيدة المسيحية ، اكثر مما تعكس ذلك التوافق والتطابق الذى يتميز به البحث النظرى .

وكانت أعظم المشكلات التى جابهت أوغسطين بوصفه أسقف مدينة هيبو ، هى مشكلة إخضاع الدوناتيين الذين ظلوا أقوياء كما ظل صوتهم عاليا فى شمال أفريقيا ؛ بالرغم من تلك القرارات التى صدرت من الكنيسة بحرمانهم والمراسيم التى صدرت عن الامبراطورية بتجريمهم ، ومن هذا الصراع استنبط أوغسطين مذهبه عن طبيعة الكنيسة والأسرار المقدسة ، وهو المذهب الذى تلقنه الكنيسة لأتباعها حتى اليوم . كما أعلن أوغسطين أن صلاحية الطقوس المقدسة لاتستمد من أخلاق القسيس الذى يقوم بأدائها لأن صلاحيتها تعتمد على المهمة المقدسة التى يضطلع القساوسة بأدائها ؛ أى أن الطقوس الربانية تستمد فعاليتها من الرب الذى يمنح النعم كلها ، وطالما أن القس تكرسه الكنيسة بصفة رسمية فإن قيامه بالسر المقدس يعتبر سليما. وفى مواجهة المثل الأعلى الدوناتى - الذى كان الكاثوليك يرون فيه مثلا متزمتا ، لأنه ينشد كنيسة لاتضم سوى القديسين - ذهب أوغسطين إلى تعريف الكنيسة المسيحية بأنها كنيسة كاثوليكية أى عالمية مسكونية ، ولم يستطع أن يرى أى مبرر لمزاعم الدوناتية القائلة بأن قوة الكنيسة وسلطانها سوف يضعفان إذا سمحت للأشرار بالانخراط فى صفوفها ، إذ أن الرب سوف يحكم بعدله بين الناس جميعا فى النهاية ويقصى الأشرار عن ملكوت السموات . وعلى أية حال ، فإن الكنيسة فى الحياة الدنيا إنما هى شكل أولى غير

---

(١١) أورد المؤلف عنوان الكتاب بصيغة المفرد هكذا Retractatis .

كاملة بالضرورة ، وهى تعبير دنيوى عن الروح القدس . ويخلص أوغسطين فى النهاية إلى أن هناك رجالا صالحين خارج الكنيسة ورجالا فاسدين بداخلها ؛ ولكن واجب الكنيسة أن تحاول ضم الناس جميعا إلى رحابها ، ومن ثم تتقدم نحو تحقيق المدينة السماوية . ونتيجة لذلك كان أوغسطين - استنادا الى النص العهدى الذى دعا فيه المسيح إلى ضم الناس إلى الجماعة المسيحية - يعتقد أن من الممكن تبرير استخدام القوة فى تحويل الناس إلى المسيحية ، وكان يعلم تمام العلم أن القوة لاتكفى ، ولكنه من ناحية أخرى كان يعتقد أنه من الاسهل كثيرا أن يكسب الناس إلى صفوف الدين المسيحى طالما أنهم كانوا ينتسبون إلى الكنيسة بصفة رسمية. وفى نضاله اليائس ضد الدوناتيين ناشد الدولة أن تعيد الهراطقة الذين ضلوا سواء السبيل إلى حظيرة الإيمان ، وبذلك تسهل مهمته كمعلم دينى وكمبشر .

أما فكرة أوغسطين عن تنصير الناس جبرا فلم تجد نفعا مع الدوناتيين ؛ لأن السلطة الامبراطورية لم تكن من القوة بحيث تستطيع ذلك ، ولكن كنيسة العصور الوسطى تقبلت هذه الفكرة فى سياق تعاليمه عن طبيعة الكنيسة والأسرار المقدسة . ولسنا ندرى ما إذا كان أوغسطين سيوافق حقا على العنف الذى نال من الهراطقة واليهود فى القرون التالية ، ويجب أن نتذكر على أية حال أن مذهب أوغسطين عن العضوية الاجبارية فى الكنيسة كان انعكاسا ليأسه من عجزه عن إعادة الدوناتيين إلى رحاب الكنيسة الكاثوليكية ، كما كان يعكس خلفيته الثقافية الرومانية وهو ، مثل كثير من الرجال الذين تأثروا بالفكر الكلاسيكى ، كان يولى اهتماما كبيرا للحفاظ على نظام المجتمع ، ولم يكن الانسجام الدينى فى نظره ضرورة دينية فحسب ، بل كان ضرورة اجتماعية أيضا .

ومن ثم فإن أفراد رعية أوغسطين لم يعرفوه راعيا يلجأون اليه فى الملمات والمتاعب فحسب ، ولكن أيضا باعتباره عدوا لدودا ، وخصما يضطهد الهراطقة فى لحظات الضعف والخذلان . وفوق هذا كله عرفه أفراد رعيته واعظا من أفضل طراز . وقد امتاز فى هذا الميدان، وصارت خطبه ومواعظه نموذجا يحتذيه وعاظ العصور الوسطى ، بل والوعاظ البروتستانت فيما بعد. والحقيقة أن أوغسطين ألف رسالة عن كيفية كتابة الموعظة - وليس هناك جانب من جوانب الحياة الكنسية لم يعره اهتماما فى كتاباته - وهنا يمكن أن نرى كيف كانت تجربته الشخصية فى هيبو تنعكس على القواعد التى حددها للواعظ : أن يلم دائما بطبيعة الجمهور الذى يتحدث إليه وبطبيعة موضوعه ، كما يجب أن تكون اللغة التى

يستخدمها لغة بسيطة دائما بالقدر الذى يكفى لأن يفهمه سامعوه ، وإذا رأى الواعظ طوال استماعهم إلى الخدمة الكنسية ما يدل على أنهم لم يفهموه بالقدر الكافى ، كان عليه حينئذ أن يعيد صياغة فكرته؛ إذ يجب أن تنصب الموعظة على النقاط الأساسية وألا تتوه فى المسائل غير الهامة ، فضلا عن أيه يجب على الواعظ أن يوضح عرضه للعقيدة من خلال ربطها بالواقع الذى يعيشه من يستمعون اليه .

وثمة خاصية تميز أوغسطين كمفكر مسيحى هى استعداده للحديث عن مشاكل الخلاص فى ضوء تجارب رعاياه وتجربته الشخصية ، ولم يتوان فى الكشف عن أفكاره الخاصة وعن الأزمات الروحية التى عصفت بكيانة ، ولم يشبهه فى صراحته والحديث عن خصوصياته سوى نفر قليل من المفكرين المسيحيين . كان أوغسطين بتصليه هذا وباعتقاده أنه على حق أشبه مايكون بواحد من الفريسيين [١٢] المتصلبين فى آرائهم ؛ على أنه من ناحية أخرى كان أبعد مايكون عن العالم توماس الأكوينى المتجرد من قيود الجسد . فقد انساق لكل مايمكن أن ينساق اليه الانسان من غواية ، كما عرف مرارة اليأس . والحقيقة أنه لم يعتنق المسيحية إلا عندما بلغ الثلاثين . ولم يكن هناك من اللاهوتيين المسيحيين من استطاع مثله أن يسبر أغوار الضعف الانسانى ، فلم تكن الخطيئة بالنسبة لأوغسطين (كما كانت بالنسبة لتوماس الأكوينى) مسألة عقلية يمكن تحليلها بالقياس المنطقى ، وإنما كانت واقعا حيا فى التجربة الانسانية منذ الخليقة ومن ثم ، ورغم أننا نرى فى أوغسطين رجلا متشائما ؛ فإنه كان بالنسبة لرعيته فى هيبو يبدو معلما رحيما يرشدهم إلى سبيل الأمل ، فقد كانوا يعلمون إلى أى درك تردى هو نفسه ، لأنه غالبا ماكان يذكرهم بذلك ؛ فقد كانوا يعرفون أنه قام برحلة حج ثقافى وروحى تحمل فيها العذاب المضنى ، أما إذا ارتكب المرء خطيئة ولم يشعر بالندم قط ، فإن هذا يعد فى نظر أوغسطين خطيئة فى حق الروح على نحو ماذكر فى واحدة من أفضل خطبه الوعظية وجاء بها :

---

(١٢) الفريسيون ، واسمهم بالعبرية "فروشيم" أى المفروزين الذين امتازوا من الجمهور ، جماعة يهودية كانت تزعم نفسها معرفة بالشريعة الموسوية أدق من أى إنسان آخر ، وكانوا يطلقون على أنفسهم أيضا أسم "حسيديم" أى الأتقياء "وحبريم" أى الرفاق ، وكان أفراد هذه الفرقة من أشد خصوم المسيح خطراً عليه لأنهم كانوا أصحاب الكلمة العليا فى توجيه المجتمع اليهود آنذاك . وقد وصفهم الانجيل بالتزمت الأحمق والتناقض فى الأقوال والأفعال ، والتآمر والنفاق . (المترجم)

" ليس من الواجب أن تحكم على هذا الكفر وهذا القلب السادر فى غيه طالما" "أن الانسان يحيا حياة الجسد لأنه ليس لنا أن نيأس من أى شخص طالما أن الصبر الالهى يقود الملحدين إلى التوبة ، ولايسرع بالملحد إلى نهاية حياته ، فإن الرب لايريد للمخطىء أن يموت وإنما يريده أن يؤوب من طريق الشر إلى سواء السبيل . فهو وثنى اليوم ، ولكن من يدريك أنه قد لايصير مسيحيا غدا ؟ .. ماذا لو أن أولئك الذين نراهم اليوم ، من الخُطاة .. تابوا قبل أن يحين أجلهم فى هذه الحياة الدنيا واكتشفوا أن الحياة الحقيقية هى الحياة الأخرى ، ومن هنا أيها الاخوة لاتلقوا بأحكامكم على عواهنها وقبل أن يحين الوقت ".

لقد لخص أوغسطين بهذه الكلمات مجرى حياته على النحو الذى عرفناه .

فقد ولد سنة ٣٥٤ فى بلدة صغيرة بالقرب من قرطاجة فى شمال افريقيا ، وكان أوغسطين أكبر ثلاثة أطفال ، وكان أبوه أحد ملتزمى الضرائب Curiale بالمدينة ، وكان مثل غيره من أفراد هذه الطبقة المتوسطة ، من أبناء المدن ، فقيرا يقلد أبناء الطبقة الراقية : ولم يكن أوغسطين يحب أباه الذى عاش وثنيا طوال حياته ؛ على حين أخلص لأمه المسيحية المؤمنة إخلاصا عميقا وكان لأمه أعظم تأثير عليه طوال الشطر الأكبر من حياته . ولم تكن تجرى فى عروق أوغسطين دماء رومانية ، فلم يكن آريا وإنما كان من البربر ، وهو الجنس الذى اشتهر أيامه ، بل وفى العصور الوسطى والحديثة ، بتدينه العميق ، وقد أرادت أم أوغسطين له أن يكون مسيحيا . والحقيقة أن أباه لم يكن ليعترض على ذلك ، بل إنه كان على استعداد أن يقبل تعميده فى سن مبكرة لو حدث ذلك ، بيد أنه كان من الشائع أن يؤجل المرء معموديته حتى يصير رجلاً ناضجا ويطرح خلفه خطايا المراهقة ، ومع ذلك كان أوغسطين يهتم كثيرا بتعميد الأطفال فى سن مبكرة ، وكان هو فى الواقع المسئول عن إدخال مثل هذا التقليد فى الكنيسة الكاثوليكية .

وقد أفاض فى اعترافاته فى الحديث عن تمرغه فى خطايا الجسد . والحقيقة أن اعترافاته لم تكن سيرة ذاتية بقدر ما كانت تأملات لاهوتية ، ففى وصفه لأنانيته كطفل كان أوغسطين فى الحقيقة يشرح مذهب الخطيئة الأصلية ، وفى هذه القصة الشهيرة التى روى فيها سرقته للأجاص "الكمثرى" وهو طفل نعرف أن أوغسطين لم يسرق الثمار عن جوع أو عن حاجة إليها، وإنما لكى يشد أنظار أترابه من الأطفال إليه . وغرضه من هذه الحكاية أن يبين طبيعة الخطيئة بوصفها تمردا ، وكل مانعرفه عن أوغسطين فى شبابه يوضح أنه كان جادا مقبلا على الدراسة، بل كان فى حقيقة الأمر متزمتاً ، ويرسم لنا أوغسطين صورة لنفسه فى شبابه تصوره

ضجرا من الرغبة الجنسية التى لم يكن يقوى على كبتها. وهنا مرة أخرى نجد جدلا لاهوتيا لأن الجنس عند أوغسطين يوضح تماما عدم قدرة العقل على السيطرة على الارادة ، ومايتنتج عن ذلك من ضعف الطبيعة الانسانية ، ومع ذلك ، فاذا كان أوغسطين قد أذنب وارتكب الخطيئة بمعنى الكلمة المتداولة ، فقد كان ذلك بسبب الرغبة الجنسية ، وقد حدث ذلك فى حدود المعقول فقط. وبعد أن أرسل الأبوان الطموحان ابنهما إلى قرطاجة لدراسة البلاغة ، التى كانت بمثابة المسوغ للنجاح فى مجال القانون والحياة العامة فى عصر الامبراطورية ، اتخذ أوغسطين لنفسه عشيقة عاشت معه خمسة عشر عاما ، وأنجب منها ابنا ، ثم هجرها حين اعتنق المسيحية فيما بعد .

وفى قرطاجنة مرّ أوغسطين الذى غمرته نشوة الايمان بالله بأول أزمة دينية كبيرة . والحقيقة أنه طالما درس العقيدة المسيحية ، وهيأ نفسه لتلقى المعمودية ، غير أن شغفه بدراسة الأدب الكلاسيكى والفلسفه صرفه عن اعتناق الدين المسيحى . ومن خلال ذلك بدت المسيحية فى نظر أوغسطين الشاب غير مقنعة ومجافية للعقل وبعيدة عن الفكر الكلاسيكى : وسرعان ماتخلص من هذه الأزمة الروحية التى عصفت بكيانه بأن اعتنق المانوية التى أخذت على مر تطورها بعض أفكار المسيحية الواردة فى كتابات بولس الأمر الذى جعلها تبدو فى النهاية كما لو كانت إحدى العقائد الهرطقية . وكانت المانوية بصفة مطلقة تؤمن بفكرة ثنائية الخير والشر ، التى تظهر فى الصراع الأبدى بين إله النور وإله الظلام : ففى هذا العالم ينقسم الناس إلى أقسام ثلاثة هى : النخبة الذين هم الزهاد وأبناء النور ، والسماعين الذين فى مرحلة التحضير ليكونوا أبناء النور ، والملعونين أتباع إله الظلام ، وقد رفض المانويون عقيدة أساسية فى المسيحية وهى عقيدة التجسد ، إذ كان المسيح فى رأيهم مجرد اسم آخر لاله النور. كما أنهم قصروا اهتمامهم على رسائل بولس التى كانت أكثر أسفار الكتاب المقدس تناولا للمسائل الفلسفية ، ورفضوا كل ماعدا ذلك باعتباره عبثا لامعقول وجهلا. وبالنسبة لشاب جاد مثل أوغسطين الذى تعمق فى دراسة الفكر الكلاسيكى كانت المانوية حلا لمشكلة الشر ، التى ربما كانت أصعب المشكلات الدينية التى أزعجت أوغسطين طوال حياته : إذ أن المانويين ببساطة ، أكدوا على أن الشر جوهر قائم بذاته ، ومن خلق إله الظلام . وظل أوغسطين يدين بالمانوية على مدى عشر سنوات فى الوقت الذى كان يدرس البلاغة ثم صار يلقى دروسه فيها فى قرطاجة ، ومالبث أن أخذ يرتقى على مهل درجات النجاح ، ولكنه ارتد عن المانوية فى النهاية ، وكان الفضل فى ذلك لأمه التى أقنعته بذلك من ناحية ، ولأنه توصل من ناحية أخرى إلى أن الحل الذى تطرحه المانوية لمشكلة الشر ليس حلا مقنعا .

وبالرغم من أن أوغسطين بوصفه أسقف هيبو ، كان خصما مريرا للمانوية فإن بعض العلماء المحدثين يرون أنه نقل فى كتاباته اللاهوتية بعض الاتجاهات المانوية ، كما يبرزون تمييز أوغسطين بين النخبة والملعونين على أنه تقليد يتماثل مع موقف المانوية فى هذا الصدد ، وبينما يعترفون أن أغسطين ارتد عن المانوية بما يميزها من فكرة المطلق فى الثنوية فإنهم يزعمون أنه كان يتورط أحيانا فى غمرة الجدل واندماجه فى الكتابة كما لو كان هناك شر مطلق وخير مطلق . ويمكن الرد على ذلك بأن رجلا له مثل طباع أوغسطين الحادة المتحمسة ، واهتمامه العميق بمشكلة الشر ، لابد وأن يضع فروقا واضحة وفاصلة يمكن أن تفسر بأنها انعكاس لتأثير المانوية ، ولكن الحقيقة أن لاهوت أوغسطين ينفى بشدة فكرة وجوده الشر كجوهر قائم بذاته .

والحل الذى طرحه أوغسطين لمشكلة الشر لايرجع فى أصله إلى المانوية بقدر ما يرجع إلى العقائد الأفلاطونية الجديدة التى اعتنقها بعد وصوله الى إيطاليا سنة ٣٨٣ بوقت قصير ، فقد كان ينتهج خطأ ناجحا كمعلم للبلاغة ، وكان مقدرا له أن يصل إلى مكانة مرموقة فى الحياة العامة ، وصدفته أزمة فكرية زلزلت حياته ، فترك عمله وأدار ظهره للعالم وكرس نفسه للتدريبات الروحية الأفلاطونية الجديدة واكتشف فى النهاية أن الافلاطونية الجديدة ، وماتتطلبه من تطهر مسألة مستحيلة ، فقد كان رجلا يستجيب تماما لغرائزه بحيث لايمكن أن يصبح روحانيا يستطيع أن يتحد بالذات الالهية اتحادا صوفيا . ولكن الافلاطونية الجديدة علمته أن جميع مخلوقات الله طيبة ، وأن الشر ليس إلا انحرافا عن الخير ، أى ابتعادا عما يصل بالله . وفيما بعد ضمن أوغسطين أفكاره اللاهوتية هذا المذهب الأفلاطونى الجديد ، وصارت هذه هى التعاليم الشائعة فى كنيسة العصور الوسطى والحديثة فيما يتعلق بطبيعة الشر .

وليس تحول أوغسطين عن الأفلاطونية الجديدة إلى المسيحية بالأمر المدهش إذا ما أخذنا فى اعتبارنا أنه عجز عن إنجاز تجربة روحية كاملة ، وهو يورد فى اعترافاته قصة أخاذة تبين كيف أنه بينما كان يتأمل فى الحديقة ، سمع صوت طفل يطلب منه أن يتناول الكتاب المقدس ويقرأه ، وليس من المدهش أنه أخذ كتابات بولس التى كان قد درسها أثناء اعتناقه المانوية، وهى الرسائل التى يوصى فيها بولس بأن يتبع المرء طريق المسيح ولا يستجيب لنزوات الجسد، وهو ما كان يعنى بالنسبة لأوغسطين أن الإيمان بالمسيح كمخلص ومنقذ يمكن للناس من أن يهربوا من قيود الجسد ويدخلوا فى اتحاد مع الرب ، وهو الأمر الذى كان مستحيلا أيضا من

ناحية أخرى . ففى كل إنسان إرادتان : الارادة الروحية ، والإرادة الجسدية ، أو الارادة السماوية والأرادة الارضية ، وهى التعاليم التى أخذ أوغسطين يلقيها فى خطبه فيما بعد . ومن خلال المسيح فقط يمكن للانسان أن يهرب من قيود الارادة الجسدية وأن يعيش للارادة الروحية . وبهذه الطريقة يشرح أوغسطين مذهب بولس فى تبرير الايمان ويؤكده .

وينطلق أوغسطين فى اعترافاته نحو الدعوة إلى مذهبه فى الخلاص وهو المذهب الذى استقاه من تجربته الشخصية . إذ كان يتخبط فى الظلمات طوال الوقت ، ليجرب نظاما فكريا تلو الآخر ، وكانت العناية الالهية تقوده الى تلك اللحظة التى تحقق فيها ، وهو فى حديقته ، من ضروره الايمان بالمسيح . ومايعنيه أوغسطين هو أن القضاء والقدر لايمكن استيعابه فى كل لحظة من لحظات الحياة الانسانية ، والحقيقة أنه يحتمل ألا نلحظ الجبرية فى التجربة الانسانية إلا فى أحوال نادرة . بيد أننا حين نتأمل تجاربنا بعد مرور سنوات عديدة يمكن أن نلاحظ يد الله الخفية وهى تقودها إلى أسمى لحظات الحقيقة ، حين تنبلج أمام أعيننا كالنور نعمة الله المنقذة ، وهذا هو ماكان أوغسطين يعنيه بقوله لرعاياه **"لا تحكموا بشىء قبل النهاية"** وعنده أن نعمة الله المنقذة ليست شيئا يمكن ملاحظة تأثيره يوما بيوم ؛ ولكننا نستطيع أن نرى أن الطريق الذى مضينا فيه لم يكن طريقا بلا هدف ، ولكنه طريق يتوافق مع الارادة الالهية ، وهو الأمر الذى يمكن الكشف عنه خلال الحياة الانسانية بأسرها ومن خلال موازنة صروف الدهر وتقلباته التى تشكل التجربة الانسانية . هذه هى رسالة الأمل التى يتوجه بها أوغسطين إلى جمهور السامعين ، وقد قصد باعترافاته أن يقول ضمنا إن نعمة الرب المنقذة قد حلت به وعلى ذلك فإن من الممكن أن تحل بأى إنسان آخر ، والواقع أن أوغسطين فى اعترافاته إنما يرمز إلى كل إنسان فهو يرمز إلى الكائنات البشرية ، يضعفها وحمقها ، وتخبطها الأعمى وهى تناضل فى حياتها اليائسة التى لايكون لها أى معنى إلاّ بما يقضى به الله .

وبعد اعتناق أوغسطين للمسيحية بوقت قصير تمت رسامته قسيسا ، ثم اختير أسقفا لهيبو سنة ٣٩٥ فى موطنه بشمال أفريقيا. ويعتبر الدور الذى قام به أوغسطين فى تاريخ الفكر بمثابة البوابة الواصلة مابين العصور القديمة والعصور الوسطى على نحو ما أوضح ماور H.I. Marrou وكان أوغسطين بتكوينه الفكرى لايعتقد فيما هو نفعى على الاطلاق . وكانت معرفته باللغة اليونانية ، والرياضة والعلوم محدودة ، كما كان يميل الى سير القديسين. وعرف بتمكنه من اللغة اللاتينية ، بحيث لم يتفوق عليه فى مهارته البلاغية سوى قلة من

الكتاب اللاتين ، وقد أخذ الكثير من أفكاره الفلسفية من التراث الأفلاطونى ، ولكن أعماله كانت بمثابة المسمار الأخير فى نعش الفلسفة القديمة ، لقد كان رائدا لرؤية عالمية جديدة . إذ كان كل من سقراط وأفلاطون يربط بين المعرفة والفضيلة : بمعنى أنه إذا كان هناك رجل يعرف الخير فسوف يفعله . والواضح أن الناس غالبا مايعرفون ماهو الخير ولكنهم لايقدرون على السير فى طريقه ، ويروى أوغسطين أن الانسان ليس كائنا عقلانيا ، وأن الارادة تتغلب على العقل ، كما أن اتجاهات الانسان العاطفية اللاعقلانية تمنعه من إتباع مايميله العقل ، وهنا يبدو أوغسطين وقد فهم مسبقا الكثير من تعاليم علم النفس الحديث ، فالانسان يبدو عديم الحيلة فى السيطرة على قدره فى الحياة ، إلا أن الحياة يجب أن تمضى فى طريقها وأن تواصل نضالها اليومى فى سبيل الوصول إلى الطريق السوى . وسوف تأتى لحظة قد تبدو بلا معنى ، مثل الوجود الانسانى نفسه ، بالنسبة لأولئك المحظوظين الذين اختارهم الله على حد تعبير أوغسطين ، وعندها تغشى العيون من النور حين تتجلى الرؤية السارة البهيجة .

وربما يمكن أن نميز أى نظام ثقافى ، أيا كانت جوانبه الفنية ، من خلال نغمة معينة تتردد فيه باستمرار ، وكانت النغمة الأوغسطينية هى البطولة التراجيدية .

٣- الموضوعات الرئيسية فى فكر آباء الكنيسة اللاتين

كان الفكر الراقى ، والثقافة فى العصور الوسطى الباكرة ، هى ثقافة الكنيسة . بل إنه حتى عندما اهتم ملوك الجرمان بعد القرن الثامن بتطوير جوانب معينة فى الحياة الثقافية كالنظرية السياسية مثلا ، ظل التعبير الأدبى تحت سيطرة رجال الكنيسة . ففى العصور الوسطى الباكرة ، لم يكن هناك فى أوربا بعد القرن السادس من يعرف الكتابة أو القراءة من غير رجال الكنيسة سوى نفر قليل من كبار الملوك مثل شارلمان وألفرد . ومن ثم ، فإنه حتى فى الوقت الذى كان يثور جدل كبير ، فى القرن الحادى عشر ، حول سلطات كل من البابا والملك ، ويزدهر الأدب من خلال الجدل حول هذه المسألة ، كان رجال الكنيسة هم الذين يعبرون عن كل من وجهتى النظر. أما الكتابات التى هاجم فيها العلمانيون الكنيسة فقد اختفت تقريبا فى العصور الوسطى الباكرة (حتى نهاية القرن الثامن عشر فى الحقيقة) ، بل إنه لم يكن ممكنا لأحد من غير رجال الكنيسة أن يكتب مقالا أو بحثا يهاجم به الكنيسة ، وذلك لأن رجال الكنيسة كانوا هم فقط الذين يتمتعون بمستوى التعليم والثقافة اللازمة للقيام بمثل هذا الأمر ، وعلى مدى قرون عديدة كانت الوسيلة الشائعة لتقرير ما إذا كان المتهم من الكنسيين أو من العلمانيين أن يطلب منه القراءة فى الكتاب المقدس ونادرا ماكان هذا الاختبار يؤدى إلى نتيجة خاطئة .

وتوضح هذه الاعتبارات أن التراث الثقافى الأدبى فى العصور الوسطى الباكرة ، باستثناء بعض الأعمال الشعرية الشعبية الألمانية مثل ملحمة البيوولف Beowulf (التى يحتمل أنها كتبت على يد رجال الكنيسة بشكل أو بآخر)، (١٣) كان محكوما بتقاليد الكنيسة وماتحتاج إليه ، وربما كان السبب الرئيسى فى أن آداب العصور الوسطى الباكرة لاتستحوذ على اهتمامنا وعناية معظمنا راجعا إلى كونها آدابا كنسية . إن قلة اهتمام غالبية الناس بما يكتبه الأساقفة ومقدمو الأديرة فى العصر الحاضر مساو فى ضآلته لاهتمامهم بما كتبه أسلافهم فى العصور الوسطى الباكرة .

وبسبب الطبيعة الكنسية التى ميزت ثقافة العصور الوسطى الباكرة ، ينبغى دراسة مؤلفات أولئك الكتاب الذين عرفوا باسم "آباء الكنيسة" والذين تعرف أعمالهم بالتالى باسم أدب آباء الكنيسة ، على اعتبار أن أولئك الكتاب هم المفتاح إلى فهم فكر العصور الوسطى الباكرة . ذلك أنه حتى القرن الثانى عشر كان علماء الكنيسة يعملون دائما داخل إطار

---

(٣) البيولف Beowulf أو البيوفولف ملحمة جرمانية تدور حول بطل اسكندنانى عاش فى العصور السحيقة ، وقد ظلت هذه الملحمة محلاً للتداول الشفوى على مدى عشرات سنين، وربما عدة قرون ، ثم جمعت أشعارها ودونت فى منتصف القرن الثامن تقريباً على يد قسيس انجلو- سكونى ، وهذه الملحمة حافلة بأثار شتى من المصادر الأخرى ، وقد تأكدت بعض أحداث الملحمة وشخصياتها بورودها فى المصادر التاريخية التى ترجع إلى القرن الخامس ، والملحمة تضم فى ثناياها كما مدهشاً من أعلام وأحداث العصور الوسطى الباكرة ، كما تكشف عن النظرة الجرمانية التلقائية للأشياء وطريقتهم الطبيعية فى التعبير ، ويرى بعض الباحثين أن أن ماذكره تاكيتوس فى القرن الأول عن أحوال الجرمان يجد تأييداً له فى أبيات ملحمة بيولف التى تعتبر مصدراً محترما من مصادر معلوماتنا عن النظم الجرمانية فى وقت الغزوات حين كانت السيادة وعصبة الحرب قد صارت محور الحياة الجرمانية على نحو أشد تركيزا مما كانت عليه عند نهاية القرن الأول – انظر .

Norman F. Cantor . The Medieval World (Macmillan Co. New York 1968), pp. 61-63

Robert Brentono, The Early Middle Ages 500 - 1000 (Macmillan Co. New York 1964 (pp. 243-53) .

والجدير بالذكر أن الكتابين قد أوردا مختارات من ترجمة الملحمة ، كما أن هناك ترجمة كاملة لها – انظر:

Beowulf. transl. CB. Tinker (New York : New Dom & Co. 1902).

(المترجم)

الأفكار الواردة فى الكتاب المقدس كما فسرها آباء الكنيسة ، ووفقا للاهوت والنظريات التعليمية ، والمذاهب الأخلاقية والفلسفة السياسية ، وفلسفة التاريخ التى تضمنتها كتابات آباء الكنيسة . وقبل أن ندين علماء العصور الوسطى الباكرة بسبب هذا الموقف الفكرى المحافظ، ينبغى أن نتذكر أن هذا الأدب الذى كتبه آباء الكنيسة لم يكن دوره كخلفية ثقافية دوراً ضئيلا. فعلى العكس من ذلك كان آباء الكنيسة اللاتين الأربعة الكبار - أوغسطين وجيروم ، وأمبروز قرب نهاية القرن الرابع والبابا جريجورى العظيم عند نهاية القرن السادس - قد تركوا لنا قدرا ضخما من المؤلفات التى طرحت مناقشات مثمرة حول معظم المسائل المتعلقة بكنيسة العصور الوسطى ، ولم يحدث حتى القرنين الثانى عشر والثالث عشر أن كان هناك أحد يمكنه أن يقاربهم فى المستوى : وحتى القرن الثانى عشر كان علماء الكنيسة يعتبرون أنفسهم مجرد أقزام يجلسون فوق أكتاف آباء الكنيسة العمالقة ، وبطبيعة الحال لم يكن رجال الكنيسة فى العصور الوسطى هم وحدهم الذين تناولوا أدب آباء الكنيسة بالتبجيل والاحترام الكامل ، فقد ظل تأثير آباء الكنيسة ، ولاسيما القديس أوغسطين ، قويا حتى يومنا هذا ، فالكل يعرف مقدار مايدين به لوثر [١٤] وكالفن[١٥] لأوغسطين ، بيد أن الشىء نفسه يمكن أن يقال عن علماء اللاهوت فى عصرنا الحالى من أمثال كارل بارث Karl Barth ورينولدنيبور Reinold Niebuhr ولايجب أن ننسى أن الذين ترجموا نسخة الملك جيمس للكتاب المقدس إلى اللغة الانجليزية فى القرن السابع عشر اعتمدوا كثيرا على الترجمة

---

(١٤) مارتن لوثر Martin Luther (١٤٨٣-١٥٦٤)رائد حركة الاصلاح الدينى فى ألمانيا، والتى كانت أساساً لطائفة البروتستانت (المحتجون) . وقام مبدؤه على أساس أن الايمان وحده هو سبيل الخلاص ، مما عرضه لغضب البابا ليو العاشر والامبراطور شارل الخامس إمبراطور الدولة الرومانية المقدسة ، فحرم من حقوقه الدينية ، ولكنه أصر على موقفه بأن الكتاب المقدس هو وحده المرجع فى شئون العقيدة ، ومن ثم فليس ثمة حاجة لوجود طائفة خاصة برجال الدين لأن كل مسيحى يمكنه أن يكون رجل دين ، وقد انتصر مذهب لوثر فى ألمانيا فى نهاية الأمر ، بيد أنه كان يعتمد فى صراعه على النبلاء وأهمل شأن عامة الشعب . (المترجم)

(١٥) جنا كالفن John Colvin (١٥٠٩-١٥٦٤) فرنسى الأصل من أتباع لوثر ، هرب إلى جنيف فراراً من اضطهاد فرانسوا الأول ملك فرنسا الكاثوليكى المتعصب . وقد امتازت حركة جون كالفن باهتمامها بجميع طبقات الشعب بخلاف اللوثرية التى اتخذت شكلا طبقيا بحيث اقتصرت على النبلاء ، ومن ثم فقد لقيت حركة كالفن انتشارا واسعا فاق انتشار مذهب لوثر بكثير . (المترجم)

اللاتينيـة المسماة بالفـولجاتا Vulgata التى قام بها جيروم، وقد نقـول إجمـالا أن أدب آباء الكنيسة غنى بالفروض ، والمفاهيم والارشادات المتـعلقة بكل جوانب الحياة تقريبا ، ولم يكن الناس الذين اعـتبروا أوغسطين وجيروم وأمبروز وجريجورى علمـاء ثُقاة يرجعون إليـهم حمقى أو جـهلاء ، فـقـد كان آباء الكنيســة اللاتين مـفكرين ذوى إطلاع واسع ، وتقـوى عـمـيقـة ، وحكمـة، كمـا تميزوا بعـمق التـفكيـر الذى كان يعلن عن نفسـه بوضـوح بين الآونة والأخرى . ويجدر بنا أن نتذكر أنه فى أوائل العصور الوسطى لم يكن فى السـاحة الثقافية مايناقس أدب آباء الكنيـسة فى مـجال التأثير الفكرى ، ولم تكن هناك ثقـافة راقـيـة خـارج الكنيسـة ، وفى الداخل لم تكن ثمة حركة تقلل من شأن أدب الآباء مـثل تلك الحركة الاحيـائية للفكر الأرسطى فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر .

وهكذا فـإذا كنا بصـدد البحث عن مصـطلح يصـف ثقـافـة أوربا العـصـور الوسطى البـاكـرة بإيجـاز فلن نسـتطيع إلا أن نسـتـخـدم عـبارة " تراث آباء الكنيسـة العـهدى Biblical - Pa- tristic إذ كان نص الكتاب المقدس ، بطبيعة الحال ، هو نقطة البداية لكل نظرية ، فقد كان الكتـاب المقدس بمثابة المنبع الوحيد وأساس كل فكر وعقـيـدة (فى مـيـادين التـاريخ ، والفكر السـيـاسى ، والعلوم . . وما إلى ذلك) وكـان كل مـا يتـنـاقض مع الكتـاب المقدس لايحظى بالاحترام ، فعلى سبيل المثال ، لم يكن بوسع أحد أن يعتقد بخلود المادة ، لأن سفر التكوين يتحدث عن خلق العالم من العدم . وعلى أية حال ، كـان الكتـاب المقدس ، كـمـا فـسـره آباء الكنيسـة فى مؤلفاتهم الضخمة هو المرجع الأساسى لكل الأفكار. فـعن طريق ترجمة الكتـاب المقدس دخل حشد كامل من الاتجاهات الفكرية التى طورها آباء الكنيسـة فى فكر العـصـور الوسطى .

فـمـا هى هذه الاتجاهات السائدة فى فكر آباء الكنيسـة اذا كان اعـتـمادهم على الكتـاب المقدس اعتمادا مطلقا بوصفه أساسا لكل فكرة وعقيدة ؟ كان أولها اتجاها لجعل اللاهوت ممكنا ولجعل التفسير المجازى للكتاب المقدس ضرورة : وهو ماعرف باسم نظرية العقيدة : ذات الوجهين أى نظرية المستويين فى فهم العقيدة ؛ بمعنى أن هناك مستويين فى فهم العقيدة: مستوى عامة الناس ، ومستوى المثقفين من علماء الكنيسة ، وهى النظرية التى نشأت أصلا فى رحاب الكنيسة الشرقية أصبحت نظرية شائعة فى الكنيسة اللاتينية فى العصور الوسطى الباكرة بفضل آباء الكنيسة ، ولاسيما أوغسطين . وعلى الرغم من أن هذه النظرية لم ينتج عنها ما يؤثر على الحياة فى هذه العصور تأثيرا حقيقيا - إذ كانت تفسر أحيانا على أنها

تعنى عدم الحاجة إلى تعليم العلمانيين ، حتى ولو كانت الظروف الاجتماعية تسمح بذلك - فإن هذه النظرية سهلت سبيل الوصول الى لاهوت متطور على أساس من التفسير المجازى للكتاب المقدس .

وهناك اتجاه ثان يتعلق بفكر آباء الكنيسة يميز بين المسيحية اللاتينية الغربية ووجهة نظر الكنيسة اليونانية الشرقية . ففى أوربا الغربية ركزت الكنيسة على الجوانب الأخلاقية والقانونية للعقيدة ، أى العلاقة بين الله والانسان ، وهو مايميزها عن الكنيسة اليونانية الشرقية التى اكدت على البحث فى طبيعة المسيح وهو ما أدى الى كثير من الهرطقات والانقسامات . ويبدو هذا الاتجاه واضحا تمام الوضوح فى مؤلفات ترتوليان أول اللاهوتيين اللاتين الكبار ، فعلى الرغم من عدائه للثقافة الكلاسيكية ، لم يستطع أن يغض البصر عن جميع المجازات الفكر الرومانى . لقد كان ترتوليان من رجال القانون قبل أن يعتنق المسيحية ، وفى كتاباته أخذ الفكر المسيحى يتسم بالطابع القانونى الذى قدر له أن يؤثر بعمق فى مفهوم العصور الوسطى عن العلاقة بين الفرد والكنيسة من ناحية ، والذات المقدسة من ناحية أخرى. وفى كتابات ترتوليان - كما هو الحال فى كثير من المؤلفات اللاهوتية فى العصور الوسطى - يبدو المسيح شبيها بالأباطرة الرومان وهو يفرض مطالب محددة على رعاياه ، كما يصدر القوانين التى لايمكن انتهاكها خوفا من قسوة العقاب . وتمثل التراث الذى خلفه ترتوليان من بعده فى المفهوم القانونى للخطيئة باعتبارها دينا لابد من الوفاء به أمام الرب الشبيه بالامبراطور . وقد سار أوغسطين وجريجورى فى هذا الاتجاه ، وربطه كل منهما برؤية الكنيسة فى العصور الوسطى ، حتى بات هو الرأى الأكثر شيوعا فى التعبير عن الخطيئة فى آداب العصور الوسطى .

هذا المفهوم القانونى يفسر السبب فى أن العهد القديم كان أكثر جاذبية بالنسبة للناس فى أوائل العصور الوسطى من الأناجيل . إذ أن الفن والأدب فى العصور الوسطى الباكرة يصوران المسيح كامبراطور يحكم فى القضايا أى كإله للقانون والعقاب . اما الصورة التى يبدو فيها المسيح وقد برح به الألم والوجد ، والعذراء بجواره حزينة باكية ، فلم تداعب خيال الأدباء والفنانين فى العصور الوسطى الا عندما قامت الحركة الرومانسية الكبيرة فى القرن الثانى عشر ، وعندها فقط غلبت صورة المسيح ومريم العذراء كما وردت فى العهد الجديد على صورة الاله القاضى (الرومانية العبرانية) التى ظهرت من قبل .

وكان المبدأ الثالث فى فكر آباء الكنيسة متمثلا فى فلسفة تاريخ مسيحية متمايزة تقف على طرف النقيض من التدوين التاريخى عند اليونان والرومان . وفى هذا المجال كان كتاب "مدينة الله" لأوغسطين هو العمل صاحب الاثر الاكبر على الرغم من أن جيروم ساهم بإضافات هامة فى هذا المجال .

وتمثل المبدأ الرابع فى أدب آباء الكنيسة ، فيما قدموه من تفسيرات لكيفية الوصول الى الخلاص عن طريق النعمة الالهية ، وهنا تنوعت الآراء فثمة آراء تقول إن أوغسطين لم يكن له الأثر الأكبر وإنما البابا جريجورى العظيم ، إذ أن فكرة جريجورى عن الفضائل والخير ، حسب هذه الآراء هى التى صارت محورا فى فكر العصور الوسطى الباكرة ،لأن جريجورى يقول بامكانية الخلاص لكل مسيحى يطيع تعاليم الكنيسة وينال أسرار طقوسها المقدسة .

أما الموضوع الخامس فى فكر آباء الكنيسة فقد تمثل فى وجهة النظر الخاصة بمسائل الجنس والزواج ، وهى وجهة النظر التى ظل تأثيرها الكبير على الحياة الشخصية حتى عصرنا الحديث، والتى مازالت تحظى بأهميتها فى حياة الروم الكاثوليك حتى اليوم . وفى هذا الصدد كانت آراء آباء الكنيسة اجماعية فى الواقع .

واخيرا ، كان أحد آباء الكنيسة اللاتينية الكبار ، وهو القديس أمبروز ، أول من رفض بوضوح قبول حق الامبراطور فى التدخل فى المسائل الكنسية ، وأول من حدد المبادىء التى صارت هى النظرية السياسية التقليدية للكنيسة فى العصور الوسطى الباكرة .

واذا مانظرنا الى التراث المستمد من الكتاب المقدس فى فكر العصور الوسطى ينبغى علينا أن نعترف بأن القديس جيروم كان أعظم من ساهم من آباء الكنيسة اللاتينية فى هذا المجال ، فقد كان جيروم حجة لايبارى فى ثقافة العصور الوسطى بوصفه مترجما وناقدا للنصوص وشارحا. لقد كانت هناك ترجمتان باللغة اللاتينية للكتاب المقدس ، غير أن هاتين الترجمتين شابهما كثير من النقص والقصور ، وكان من الضرورى أن يقوم عالم متمكن من اللغة اليونانية واللغة العبرية بكتابة ترجمة أمينة للكتاب المقدس ، وقد أنيطت هذه المهمة بجيروم الذى أخذ على عاتقة إنجاز ترجمة العهد القديم مباشرة من النصوص العبرية والآرامية التى تيسر له الحصول عليها. وعلى الرغم من أن عددا كبيرا من زعماء الكنيسة فى زمن جيروم ، ومنهم أوغسطين، لم يظهروا أى اهتمام أو تأييد لعمله ، فإن ترجمته الفوجاتا Vulgata صارت بمرور الزمن النسخة الثقة فى الكنيسة الكاثوليكية فى القرن التالى لموته .

أما أعظم وأفضل جزء فى عمل جيروم ، كشارح للكتاب المقدس ، فهو ماكتبه عن أسفار العهد القديم . وكان لهذه الشروح تأثير عظيم على تفسيرات الكتاب المقدس طوال العصور الوسطى ، لقد حدد جيروم وظيفة شارح الكتاب المقدس بأنها إقامة صرح روحى ضخم على أساس من الواقع التاريخى . ومع أنه استفاد من التفسير المجازى الذى أرسى أسسه فيلون وأوريجين ، فانه تجنب المبالغة فى استخدام هذا النمط من التفسير وغالبا ما قيد نفسه فى حدود التفسير التاريخى الأمين للنص ؛ وهكذا تقابلت تفسيراته مع اتجاهات اللاهوت فى مدرسة الاسكندرية لتفسير الكتاب المقدس . ويقدر ما وافق جيروم على مبدأ التفسير المجازى، صارت طريقته فى العرض طريقة مؤثرة فى كنيسة العصور الوسطى . وفى الوقت الذى تعودنا على التأكيد بأن آداب العصور الوسطى وفنونها كانت مكرسة للرمزية المجازية الى حد بعيد ، فقد يكون من الصالح أن نصف هذه النزعة فى الصورة التى وصلتنا ، بأنها نزعة تقليدية ، إن عددا كبيرا من الرموز التى تظهر فى الفن والأدب حتى فى العصور الوسطى العالية ليست سوى استمرار للنزعة التقليدية التى جسدها فى الأصل القديس جيروم وغيره من آباء الكنيسة . واذ أرسيت الرموز المجازية مرة أخرى على أيدى آباء الكنيسة ، فقد بقيت طوال القرون الوسطى ، وكان الفنان أو الكاتب فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر يستخدمها كمجرد مواد شائعة تدخل فى حرفته ، وكانت المسألة بمثابة تكرار تقليدى أكثر من كونها رمزية واعية .

كذلك أسهم القديس جيروم بقسط وافر فى الفكر التاريخى فى العصور الوسطى . فقد كانت المؤلفات التاريخية الكلاسيكية محدودة من حيث المكان والزمان ، وكان موضوع كل المؤرخين اليونان والرومان تقريبا يتمثل فى بلد واحد وفى فترة زمنية محدودة ، ولم يكن التاريخ العالمى معروفا . ولكن تجسد المسيح - وهو حادث تاريخى على مر العصور من وجهة النظر المسيحية- كان يتطلب كتابة تاريخ عالمى ؛ اذ يجب الربط بين الحوادث التاريخية قبل حياة المسيح وبعدها ، بهذا الحادث الجليل ، ولأن المسيح مات من أجل البشرية فإن الإقتصار على تاريخ بلد واحد لم يعد يفى بالحاجة . وقد حاول أيوزيبيوس أسقف قيصرية ، بالفعل ، أن يكتب قائمة زمنية عالمية تبين كيفية ارتباط جميع الحوادث التاريخية المعروفة بتجسيد المسيح، والتقط جيروم قائمة ايوزيبيوس وترجمها ، ثم نقحها وزاد عليها وقدمت مدونة أيوزيبيوس - جيروم التاريخية العالمية خيط البداية الذى سار عليه مؤرخو العصور الوسطى نحو كتابة المدونات التاريخية . وتبدأ معظم المؤلفات التاريخية التى دونت فى العصور الوسطى الباكرة بقائمة زمنية أو جدول زمنى يضم الأحداث الهامة فى تاريخ العالم قبل المسيح،

ومنذ موته حتى زمن تلك المدونات . وحتى نهاية القرن الرابع ، كانت هذه المدونات التاريخية تنقل ببساطة من كتاب جيروم . والواقع انه لم تكن هناك مكتبة ديرية تعتبر كاملة مالم تكن تضم نسخة من مدونة ايوزيبيوس - جيروم التاريخية العالمية . وسيرا على هذا المدخل فى تدوين التاريخ بطريقة التتابع الزمنى Chronology كان لابد أن يبدأ المسيحيون فى استخدام سنة ميلاد المسيح بداية لحساب التاريخ ، صحيح أن إيسيدور الاشبيلى فى القرن السابع كان أول من استخدم هذا النظام الزمنى المسيحى ؛ ولكن مدونة جيروم العالمية هى التى جعلت هذا النوع الجديد من الحساب التاريخى أمراً لاغنى عنه .

وعلى أية حال ، فإن فلسفة التاريخ المسيحية تمثلت فى كتاب "مدينة الله" لأوغسطين بشكل أساسى . وربما يكون هذا الكتاب هو أكبر عمل مؤثر فى تاريخ الفكر المسيحى باستثناء الكتاب المقدس نفسه ، ومهما يكن من أمر ، فاننا لايجب أن نظن أن أوغسطين كان يريد أن يكتب بحثا اكاديميا عن تدوين التاريخ Historiography. فقد كان هدفه الأساسى أن يقدم تفسيرا مسيحيا لسقوط الامبراطورية الرومانية ، ولكن حاسته التاريخية كانت من النضج بحيث يتحقق من أن هذا التفسير لابد وأن يعتمد بدوره على فلسفة التاريخ . وفى نهاية الأمر وجد نفسه منساقا الى تأمل مسألة التدوين التاريخى عند اليونان والرومان برمتها. كما ظهر أخيرا أن من الضرورى القيام بعملية نقد لهذا التدوين التاريخى حتى يتسنى له أن يقدم جوابا عن السؤال الحاسم عن سقوط روما .

كانت نقطة البداية فى سلسلة الأحداث التى أدت الى كتابة أهم مؤلفات أوغسطين هى سقوط روما ، ثم استباحتها على مدى أيام قليلة على أيدى القوط الغربيين سنة ٤١٠ . فلأول مرة على مدى عدة قرون ، ترقد روما تحت أقدام قاهر مغرور متكبر ، ولو أن ذلك لم يستمر سوى أيام قلائل فقط . وبدا أنه من غير المستطاع مواصلة إنكار حدوث الانهيار الكامل للحضارة الرومانية .

لقد كان هذا الحادث صدمة كبيرة لكل من الوثنيين والمسيحيين على السواء. فالوثنيون ، الذين كان عددهم مايزال كبيرا فى غرب اوربا ، اتخذوا من انتهاك القوط الغربيين واستباحتهم لروما سببا يستطيعون من خلاله أن يكيلوا التهم والطعون فى حق الديانة المسيحية . "لقد سقطت روما زمن المسيحية" كانت هذه هى الصيحة التى أطلقها أولئك الذين أرادوا أن يجعلوا من المسيحيين كبش فداء لما حل بروما من تدهور. فطالما ظلت روما على ولائها لمجمع الآلهة (البانثيون) القديم كانت المدينة تتقدم من نصر الى نصر ، وحين انصرف الرومان عن أقداس زيوس وأبوللو أخذت روما طريقها نحو التدهور والذبول .

ويقال عادة إن أوغسطين ألف كتاب "مدينة الله" ردا على هذه التهم التى كان يوجهها أعداء الكنيسة ، وهذا حقيقى الى حد ما ، الا أن هذه ليست كل القصة بل انها لاتشكل اكبر أجزائها . فإن كثيرين من المسيحيين فزعوا ، مثل الوثنيين ، حين طرقت أسماعهم أنباء اضمحلال روما . ولأنهم كانوا مواطنين مخلصين للامبراطورية ، واعضاء فى الكنيسة فى الوقت نفسه ، فانهم جنحوا الى الاعتقاد بأن اعتناق الأباطرة الرومان للمسيحية فى القرن الرابع لم يكن ليعرقل ؛ وانما على العكس قد ساعد كثيرا على زيادة هيبة الامبراطورية وثروتها . ومن المؤكد أنهم كانوا يجادلون بأن الرب كافأ الأباطرة الرومان لقاء اعتناقهم الدين المسيحى فى القرن الرابع بأن جعل ثروة الامبراطورية وسلطانها فى تقدم مستمر . أو لم يولد المسيح فى عهد اول الأباطرة الرومان ؟ إن هذا يوضح بالتأكيد أن مصائر العالم المسيحى والامبراطورية الرومانية سوف ترتبط ببعضها حتى نهاية العالم يوم الحساب . ولكن هذه الفكرة المسيحية عن التقدم كانت عرضة للنقد والتفنيد من أساسها بسبب الحقائق المثيرة التى أسفر عنها تدهور الامبراطورية ، وذلك بعد أن جعل الأباطرة من المسيحية ديانة رسمية للدولة الرومانية وكان لابد من إعادة النظر فى مسألة العلاقة بين مجرى الأمور الدنيوية والعقيدة المسيحية ككل . وتمثلت نتيجة تأملات أوغسطين فى هذه المشكلات فى كتاب "مدينة الله" الذى استغرقت كتابته خمسة عشر عاما ، إذ أنه بدأ كتابته سنة ٤١٣ ، وأنجزه على عدة اجزاء، وهو مايكشف عن السبب فى أن العمل لايتسم بالاتساق الكامل ، فليست ثمة خطة عامة للكتاب يمكن تتبعها إذا تجاهلنا بعض الفقرات غير المتناسقة ، إذ أن الكتاب فى مجمله يتألف من اثنتين وعشرين كراسة : تهاجم الكراسات الخمس الأولى الوثنية وتناقش علاقة الانسان بالآلهة فى حياته ، على حين تشن الكراسات الخمس التالية هجومها على أولئك الذين يتطلعون الى الآلهة الوثنية لكى ينعموا بالحياة فى ظلها ، وفى الكراسات الاثنتى عشرة الأخيرة يتتبع أصل ومنشأ المدينتين ، وتطور كل منهما حتى النهاية ، وفى مجموعة الكراسات الأخيرة تكشف الكراسات الأربع الأولى عن أصل المدينتين : بينما تقدم الكراسات الأربع التالية صنورا لمراحل تطورهما ، كما تناقش الكراسات الأربع الأخيرة المصير النهائى لكل من المدينتين .

وكان من الممكن من وجهة نظر التدوين التاريخى الكلاسيكى ، تطبيق النظرية الدورية على مشكلة اضمحلال روما الملحة ، كما أن من الممكن مناقشة هذه المشكلة من منطلق أن مرحلة التدهور فى الدورة التاريخية قد حدثت بالفعل ، وان العالم سوف يشهد عصرا من التدهور والانهيار ، ثم تبدأ عجلة التاريخ حينذاك دورة جديدة تماما . وكان يمكن لهذا التفسير أن يلقى

رضاء بعض الوثنيين ، ولكن هل كان بوسع المسيحيين أن يقبلوه ؟ أو لم يكن المسيح شخصا تاريخيا مات مرة واحدة ؟ وهل يمكن للمرء ان يقتنع أن هناك عددا غير محدود من شخص المسيح يموتون ويقومون خلال دورات الزمن جميعا ؟

من الواضح أن أوغسطين كان يواجه - أثناء كتابة "مدينة الله" - بالكثير من الأسئلة الهامة من الجانب المسيحى والجانب الوثنى على السواء . وعلى أية حال فان أصدقاءه كانوا يحثونه على أن يرد على الهجوم الوثنى أولا ، وهكذا كرس أوغسطين اهتمامه للرد على المزاعم الوثنية القائلة بأن روما سقطت فى زمن المسيحية ، فى الكراسات الثلاث الأولى من كتاب "مدينة الله".

ويبدأ أوغسطين مناقشته ضد الانتقادات التى وجهتها الوثنية للمسيحية بالقول بأن انحلال الرومان أنفسهم كان كافيا لأن يجلب عليهم المصير الذى لقيته مدينتهم .

وهو يعترف بأن بناء الامبراطورية تم بفضل رجال ضحوا بأنفسهم فى سبيل الصالح العام للدولة كما كانوا يتصورونه ؛ ولكن على المدى الطويل كانت فضائل الرومان محدودة للغاية حتى فى أفضل أيام روما ، بل إن أوغسطين نفسه يؤكد أن الفضائل الرومانية ، لم تكن سوى "رذائل باهرة" :

ويجيب أوغسطين على التهمة القائلة بأن روما تعرضت لفترة جديدة حافلة بالكوارث بعد اعتناق الأباطرة للدين المسيحى بالقول بأن روما عانت الكثير من النكسات والمصائب حتى عندما كان الرومان مايزالون على عبادة آلهتهم الوثنية . وتبدو لنا هذه المناقشة مفتقرة الى الحجة وغير مقنعة . والواقع أن هناك دليلا ملموسا على أن اوغسطين نفسه لم يكن راضيا عنها . فبعد أن انحسرت موجة الصدمة الأولى الناتجة عن نهب روما ، وجد أوغسطين فسحة من الوقت لكى يفكر بطريقة متأنية فى الأهمية التاريخية لهذا الحادث . وعلى الرغم من أن مجادلته ضد الوثنيين ، والتى تتسم بالسطحية والضحالة ، تتركز فى الكراسات الثلاث الأولى من "مدينة الله" فالواضح أنه تخلى عن هذا المنطلق فى بقية كتابة وأخذ على عاتقه عبء البحث فى المشكلة الأساسية وعن فلسفة تاريخية يمكن من خلالها الوصول الى رؤية سليمة لسقوط روما .

وأوكل الى واحد من مساعديه ، هو القس الأسبانى أورسيوس Orosius ، مهمة كتابة تاريخ مفصل يوضح ماهية المصائب التى حلت بمختلف الأباطرة الوثنيين خصوصا فى العالم الرومانى قبل انتصار المسيحية . وقد أنجز أوروسيوس هذه المهمة بعد عدة سنوات. وتمثلت

نتيجة عمله فى كتابه المثير الذى أسماه "الكتب السبعة ضد الوثنيين " وهو يصور بقدر الإمكان ، كل جريمة وكل مصيبة عرفها العالم قبل العصر المسيحى ، أما أوغسطين الذى كان قد تقدم آنذاك نحو فهم تاريخى أكثر عمقا ، فربما هاله ذلك الحصر الذى قام به أوروسيوس لحوادث الرعب . ولكن مجموعة قصص الرعب التى جمعها أوروسيوس لاقت شعبية كبيرة فى العصور الوسطى . ولم يكن دفاعه عن المسيحية بهذه الطريقة الفجة أيسر على الفهم من نظريات أوغسطين المتحذلقة .

وبعد أن خانه التوفيق فى طرح التفسير التاريخى لسقوط روما ، أدرك أوغسطين أن عليه أن يقوم بتحقيق وبحث طبيعة العملية التاريخية فى شكلها النهائى ، وكان عليه أن يصوغ فلسفة تاريخ مسيحية يمكن على أساسها فهم الأحداث الزمنية ووضعها فى مكانها الصحيح ، . وقد بدأ أوغسطين بمقالة نقدية لتدوين التاريخ عند اليونان والرومان ، مع أخذ النظرية اليونانية عن التجدد الدورى فى الاعتبار. وقبل أن يصبح بالامكان صياغة فلسفة تاريخ مسيحية ، كان من الضرورى حسم مدى صلاحية التدوين التاريخى الكلاسيكى .

ولم يكن علماء اللاهوت المسيحيون ، قبل أوغسطين ، قادرين على التحرر من ربقة النظرية الدورية اليونانية ، ذلك أن أعظم لاهوتى بين آباء الكنيسة الشرقية ، وهو أوريجين السكندرى ، قد احرز مكانته الكبيرة بفضل تبنيه للنظرية الدورية وصياغتها فى صورة مسيحية . فقد نادى اوريجين بانه وجد فى الكتاب المقدس مايدعم الرؤية اليونانية للتاريخ ، وذلك فى القول المأثور الوارد فى سفر الجامعة " فليس تحت الشمس بجديد " (١٦) ، ولايبدو هذا أمرا غريبا لأن سفر الجامعة هو ذلك الجزء من العهد القديم الذى يعكس تأثير الفكر الهللينستى فى أوضح صورة . وذهب أوريجين فى تأكيده الى القول بأن المسيح قد عانى وسوف يُعانى الكثير على أساس أن ماكان مفيدا ذات مرة سيكون مفيدا على الدوام ، وكان يؤمن بأن الانسان يموت مرات ومرات ، وأن المسيح يقاسى مرات ومرات خلال دورات التاريخ .

كان أوغسطين هو أول من أدرك بوضوح أنه ليس هناك شىء يمكن أن يكون أشد خصومة للمسيحية وايمانها بالتجسد من هذه النظرية الدورية فى التاريخ ، فقد حذر أوغسطين من انه من خلال النظرية الدورية "يسعى الكافر الى الحط من شأن عقيدتنا البسيطة ، وذلك بأن يجرنا بعيدا عن الطريق السوى ويجبرنا على السير معه" كما قال ان لولئك الذين يؤمنون بمثل هذا التفسير للتاريخ " لايعرفون كيف كانت أصول الجنس البشرى وأحوال الانسان الأخلاقية ،

---

(١٦) الجامعة ١ : ٩ .

ولاكيف ستنتهى . . " ويخلص أوغسطين الى القول بأن " الله يمنعنا من ابتلاع مثل هذا اللغو الفارغ والقائل بأن الثورات التى وقعت فى الزمن ، وان الأمور الزمنية ذاتها تتكرر ، ومقدر لها أن تتكرر خلال عصور المستقبل الفائقة الحصر" .

وفى مواجهة النظرية الدورية أبرز أوغسطين ان تجسد المسيح ، أى حياته على الأرض ، كانت حادثا فريدا غير قابل للتكرار أبدا فى التاريخ : أى أن المسيح قد مات مرة وإلى الأبد فداء لخطايا الانسان ، وفى رأى أوغسطين ان العقيدة المسيحية توضح - بغض النظر عن الظواهر كلها - أن التاريخ الانسانى لايتألف من سلسلة من الأنماط المتكررة وإنما هو تطور يسير صوب الغاية النهائية ، وإن كان خط التطور غير ثابت . فللتاريخ بداية محددة هى بداية خلق العالم ، كما أن له نهاية محددة هى يوم الحساب . وداخل هذا الزمن المحدد وقع أعظم حادث فردى ، ذلكم هو حياة المسيح ، وتجسد المسيح هو الذى يبدأ به العصر التاريخى السادس والأخير فى حياة العالم (١٧).

---

(١٧) تخلى المفكرون المسيحيون عن الرؤية الكلاسيكية التى تعتقد أن الزمن يمضى فى دورات تتم كل منها "بالسنة الكبيرة" وبالتالى يعيد التاريخ نفسه فى هذه الدورات ، كما تخلوا عن الرؤية الكلاسيكية القائلة بأن الزمن يمضى من الحاضر صوب مستقبل غير محدود وجعلوا للزمن بداية ونهاية هما يوم الخليقة ويوم الحساب لقد بدأ الزمن بالخلق كما سجل سفر التكوين (تكوين ١:١ - ٣١) ثم مضى الزمن خلال العهد القديم والعهد الجديد حتى الحاضر ، وسوف ينتهى بعودة المسيح ويوم القيامة . وقد حاول المسيحيون الأوائل تقدير عمر العالم انتظاراً لعودة المسيح ، فافترضوا أن العالم سيمر بستة عصور ، كل منها ألف سنة ، قياساً على خلق السموات والأرض فى ستة أيام (تكوين ١:٣١: "ورأى الله كل ما عمله فإذا هو حسن جدا ، وكان مساء وكان صباح يوما سادساً ") وأضاف الالفيون سبتا هو العصر السابع . وحين تقوم القيامة ويعود المسيح يحل اليوم الثامن الذى يحل فيه الخلود محل الزمن والتاريخ وقد حدد أوغسطين مجرد العصور الستة على النحو التالى : من آدم إلى نوح الطفولة ، ومن نوح إلى ابراهيم الصبا ، ومن ابراهيم الى داود الشباب ، ومن داود إلى الأسر البابلى الرجولة، ومن الأسر البابلى إلى يوحنا المعمدان العصر الوسيط الذى يقع بين مجىء المسيح الأول وعودته ، وهو عصر شيخوخة العالم . كما قسم كلا من هذه العصور تقسيماً فرعياً قياسا على الليل والنهار فجعل لكل عصر صبحه وظهره ومساءه .

Beryll Smalley, Historians in the Middle Ages (New york, 1971) pp. 27 - 35.

وكذلك . على الغمراوى ، نظرات هيستور يوغرافية فى التاريخ الأوربى فى العصور الوسطى (مجلة الآداب والتربية - جامعة الكويت العددان ٣ ، ٤) ص ٤٣٢ - ٢٣٣ . (المترجم)

"لقد كان تجسُّد المسيح حدثا فريدا يمضى كل التاريخ السابق باتجاهه" كما يجب أن ينسب اليه مجرى التاريخ بأسره .

ومن هذا المفهوم الطولى للتاريخ نبعت نتائج هامة تركز على حياة المخلص (المسيح) التاريخية . لقد مات المسيح فداء لجميع البشر ، وليس هناك يهودى أو أممى ، بربرى أو يونانى، أمام الرب . ومن ثم فإن التاريخ هو تاريخ البشر أجمعين ، منذ آدم ، حتى الحساب. والتاريخ الوحيد الذى يمكن الأخذ به هو تاريخ الجنس البشرى بأسره . فالتاريخ الذى يتناول حياة شعب روما على سبيل المثال لم يعد كافيا أو حتى صالحا ، وهو ما ينقص من قدر التدوين التاريخى الكلاسيكى الذى اقتصر على هذا الاتجاه . فالمسيحية تستوجب أن يكون التاريخ عالمياً يكشف عن أعمال العناية الالهية وارتباطها ببنى الانسان . وكانت مدونة أيوزيبيوس - جيروم التاريخية العالمية قد أخذت هذه الرؤية التاريخية بالفعل .

وقد تمخض مفهوم أوغسطين للتاريخ أيضا عن الرأى القائل بأن كل حياة انسانية وكل تصرف انسانى يحمل بحد ذاته قيمة بالنسبة للمؤرخ ، وهو ما أوضحه تيودور مومسن T.E. Mommsen، من حيث أنه يلعب دورا فى المسار الذى حددته العناية الالهية للتاريخ العالمى ، هذا الاتجاه الذى شاع فى القرن العشرين باسم " حركة العلم التاريخى His-toricism ، كان مناقضا لاعتقاد اليونانيين بصلاحية الأنماط المتكررة الدالة على المواقف والأنماط النفسية المتماثلة ، وهو اعتقاد لم يسمح بوجود شخصية متفردة ، أو بوجود مغزى للحادثة التاريخية الواحدة والشخصية التاريخية الفردية . وليس من قبيل المبالغة أن نقول إن مفهوم أوغسطين عن التاريخ قد كشف عن أهمية وقيمة الشخصية الانسانية المفردة ؛ إذ أن الله يحاسبنا كأرواح مفردة ، ومن ثم فاننا نحتل مكاننا فى العملية التاريخية التى قدرتها العناية الالهية بوصفنا شخصيات فردية غير قابلة للتكرار .

ومن هذا الهجوم على فلسفة التاريخ الكلاسيكية ، والاستعاضة عنها بنظرية مسيحية تقوم على أساس عقيدة التجسد ، ينتقل أوغسطين إلى الهجوم على الفكرة المسيحية التى تقول بالتقدم ، وهى الفكرة التى جعلت من العسير تماما على المسيحيين فهم سقوط روما. فيقول أوغسطين ، أننا إذا بدأنا بالروح الفردية ، سنجد أن هناك صراعا بين الارادة الروحية والارادة الجسدية على السيادة ، وأولئك الذين تسمو بداخلهم الارادة الروحية ، يحبون الله الى درجة تجعلهم ينكرون ذواتهم . ومن ثم فاننا قد نقسم الانسانية الى مجموعتين ؛ أى مجتمعين أو مدينتين ، إحداهما هى مدينة الله وهى مجتمع أولئك الذين انتصرت بداخلهم الارادة الروحية ،

والمجتمع الآخر هو المدينة الأرضية حيث أولئك الذين تسود بداخلهم الارادة الجسدية ، فمنذ سقوط الشيطان ؛ أى منذ عصر قابيل وهابيل وجدت المدينتان فى حالة من التناقض الصارخ والدائم ، واحداهما هى مدينة المسيح ، والأخرى مدينة للشر ، ويشير هذا التعميم الفضفاض إلى الملائكة كما يشير إلى البشر على السواء . ذلك أن هذا التعميم شامل للجنس البشرى بأسره ، لأنه يضم فى ثناياه جميع شعوب الأرض على اختلافها وتفرقها فى أصقاع المعمورة ، كما أنه يتضمن للتاريخ الانسانى برمته .

وتمتد حياة المدينتين منذ بداية وجود الجنس البشرى حتى نهاية العالم ، وخلال هذه الفترة من تاريخ العالم يختلط المجتمعان على المستوى المادى ؛ ولكنهما يظلان على انفصالهما الروحى والأخلاقى . ذلك أن حياة الانسان الداخلية ، وحال كل روح فردية هى فقط التى تحدد من ينتمى إلى مدينة الله ، ومن ينتمى إلى المدينة الأرضية ، وفى يوم الحساب سوف ينفصل مواطنو المدينتين على المستوى المادى أيضا . وسوف يحظى مواطنو مدينة الله بالحياة الخالدة ، على حين يعانى أعضاء المدينة الأرضية عذاب اللعنة الأبدية .

على أنه لايمكن - ونحن نحاول فهم النظرية التى صاغها أوغسطين عن المدينتين - أن نميز مدينة الله أو المدينة الأرضية ، أو نطبقهما على أية دولة أو مؤسسة قائمة ، فليست الامبراطورية الرومانية الوثنية هى المدينة الأرضية ، كما أن الكنيسة المسيحية ليست مدينة الله ، على الرغم من وجود علاقة مبهمة بين كل من الامبراطورية والمدينة الأرضية ، وكل من الكنيسة ومدينة الله ، وهى علاقة شبيهة بتأثير الأفكار الأفلاطونية على الأمور الدنيوية ، والصراع بين المدينة السماوية والمدينة الأرضية صراع يحدث خارج دائرة التاريخ العادى : فهو يحدث داخل الانسان نفسه ، أى داخل النفس الفردية . ونحن نشير إجمالا إلى النفوس التى انتصرت بداخلها الارادة الجسدية على أنهم مدينة الأرض . بيد أن الخلاص يبقى مسألة تتعلق بالنفوس الفردية وليس بالمجموعات ، ويقول أوغسطين " أننا نطلق عليهم ، بطريقة محددة اسم المدينة السماوية والمدينة الأرضية" .

والمذهب الأوغسطينى عن المدينتين يجعل من المستحيل وجود فكرة مسيحية تؤمن بالتقدم الزمنى ؛ فالتاريخ ، من وجهة النظر المسيحية التى يمثلها أوغسطين ، يجب أن يتم معناه على مستويين ، المستوى العادى للأمور الزمنية وهو المستوى الذى يتميز بأهميته الكبيرة ؛ ذلك أن الأحداث التى تقع فى التاريخ الانسانى مقدرة سلفا بارادة الله ، وماهى إلا لحظات فى الخط الذى يمتد منذ الخليقة مرورا بتجسد المسيح إلى يوم الحساب . وبالتجسد بدأ العصر السادس

والأخير فى التاريخ الإنسانى ، ولكن بينما يتعين على المؤرخ أن يقيم كل حادثة مفردة فى التاريخ باعتبارها انعكاسا لأعمال الالهية ، فإنه لايستطيع أن يستنتج الغرض الذى توخاه الرب فى تقدير الأحداث التى تشكل مصير بنى الانسان . والمؤرخ المسيحى يهتم بالتدهور والفشل بقدر مايهتم بالنجاح الاقتصادى والرخاء ، فلابد أن يكون لتدهور الامبراطورية الرومانية مكان فى الخطة التى قررتها العناية الالهية لمسار التاريخ ، شأنه فى ذلك شأن العصر الذهبى الذى شهدته الامبراطورية فى قمة مجدها ورقيها . وعلى أية حال ، لايتعين على المؤرخ أن يكتشف الغاية التى تغياها الله من هذه التغيرات العنيفة فى مسار البشر والحضارة ، وليس لنا أن نعتبر أن فشل دولة ما ، أو حضارة ما ، عقابا من الرب ، كما أنه لاينبغى لنا أن نعتبر أن نجاح ورفاهية احدى الدول ، أو احدى الحضارات بمثابة المكافأة التى يمنحها الله لقاء الفضائل التى يتحلى بها البشر .

وما أحداث التاريخ الزمنى جميعا سوى الخلفية التى يقوم عليها التاريخ الداخلى ذو الأهمية الحقيقية لبنى الانسان ؛ أى تاريخ المدينتين . بيد أنه لما كان هذا التاريخ قائما على أساس العلاقة بين الله والنفس الفردية ، فهو تاريخ لايمكن إلا أن يكتبه كاتب ملهم وليس من عامة البشر ، فإن أهم الأحداث التى تقع فى التاريخ بعيدة عن متناول المعرفة التاريخية ، ومن ثم فإن أوغسطين يرى أن المسيحى يرى فى نهوض الحضارة وسقوطها عملا من تدبير العناية الالهية دون افتراض الحكم الدقيق على السبب الذى جعل العناية الالهية تقدر هذه التغيرات العنيفة فى تاريخ الانسانية ، وكل مانعرفه أن مثل هذه الأمور ترتبط بتجسد المسيح فى علاقة ما كما ترتبط بيوم الحساب ومن ثم فهى مسخرة لخلاص بنى الانسان ورفاهيتهم ، ويعرف المسيحى أن مايستحق الأهمية فى نظر الله ، هو تاريخ المدينتين كما يرى المسيحى لمحة من هذا التاريخ فى الصراع الدائر بداخله بين الارادة الروحية والارادة الجسدية ، إلا أنه فى يوم الحساب فقط - حين ينفصل سكان المدينة الأرضية عن سكان المدينة السماوية - سيكون من المتاح أن نفهم تاريخ المدينتين على نحو أكثر شمولا وكمالا .

وعلى الرغم من أن أوغسطين قدم اجابات كاملة على الشكوك والأسئلة المسيحية التى أثيرت حول سقوط روما ، بأن أوضح أن وجهة النظر الدورية فى التاريخ لاتتوافق مع العقيدة المسيحية ، كما أنه استبعد فكرة التقدم المسيحية ، فإنه لم يقدم جوابا شافيا على الانتقادات التى وجهها الوثنيون . ذلك أنه حول أرضية المناقشة بأن كشف النقاب عن منظور مناسب للرؤية المسيحية لسقوط روما ، وهى طريقة فى المجادلة لم يكن الوثنيون ليقبلوها بطبيعة الحال، ولكن أوغسطين كان من الحذق بحيث أدرك أنه لايمكن أن يكون هناك نزاع على شىء

سوى الفرض الأساسى . فهو يقول للوثنى : ان مجادلتك لاتعنى شيئا بالنسبة لى طالما أن فروضى مختلفة تماما ، ومن ذا الذى يمكن أن يلومه على هذا الموقف الناضج ؟ ويقول أيضا : باعتناق المسيحية تكون فلسفة التاريخ الوحيدة التى يمكن قبولها هى تلك التى طرحها فى كتاب "مدينة الله". وينبغى رؤية كتاب أوغسطين "مدينة الله" باعتباره نقطة تحول هامة فى المفهوم التاريخى . كان أوغسطين هو الذى أوضح نظرية التاريخ التى تضمنها الكتاب المقدس، وهى رؤية تاريخية تستحق النظر المتأنى حتى فى الوقت الحاضر ، بيد أن عدد المفكرين الذين ترسموا خطاها فى أى عصر كان ضئيلا للغاية ، وذلك لأن الفلسفة الأوغسطينية للتاريخ ، إنما تهدف إلى البحث فيما وراء التاريخ meta - historical .

وغالبا ما يقال إن كتاب "مدينة الله" لأوغسطين كان يسيطر على الفكر التاريخى فى العصور الوسطى ، والواقع أن هذا غير صحيح . قد حظى أوغسطين بالتبجيل إلا أن رؤيته للتاريخ كانت من الغموض والإبهام بالنسبة لكل كتاب العصور الوسطى ، بحيث لم يقدر أغلبهم على استيعابها. إذ كان المؤرخ فى العصور الوسطى يميل تماما إلى أن يجعل من الكنيسة مرادفا لمدينة الله ، وهو ما لم يقصده أوغسطين . وحين كان الكاتب فى العصور الوسطى يصف أحوال ملك آزر الكنيسة وعمل لصالحها ، فإنه سرعان ماكان يسقط فى حبائل اعتقاد ايوزيبيوس المتفائل فى التقدم الانسانى من خلال الاتحاد بين الدولة والكنيسة ، وهو الاعتقاد الذى كان أوغسطين يعارضه بشدة . وأخيرا ، فإن مؤرخ العصور الوسطى كان يحاول باستمرار أن يعثر على يد العناية الالهية فيما يصف من أحداث ، وهو مطلب كان أوغسطين يجده مطلبا أخرقا وخطيرا . فإن نظرية أوغسطين فى التاريخ تتطلب ضبط النفس والتدين العميق ، الأمر الذى كان فوق طاقة جميع كتاب العصور الوسطى تقريبا ، كما أنه بعيد أيضا عن متناول الكتاب المحدثين . فإننا لانزال نميل إلى ربط مصالح دولتنا بارداة الله ، ولانزال نعتقد أن تشجيع مصالحنا الوطنية يحظى بتأييد العناية الالهية . وضد هذه الاتجاهات كتب أوغسطين مؤلفه الأكبر ، ولكن أفراداً قلائل هم الذين اهتموا بأن يستمعوا إلى رأيه ، واستطاعوا فهم رأيه .

وبالمثل ، ففى مسائل القضاء والقدر وحرية الإرادة ، ابتعدت كنيسة العصور الوسطى بالفعل عن الموقف الأوغسطينى المحدد بشكل دقيق ، فإن مشكلة التوفيق بين القدرة الالهية الشاملة ، والحرية الانسانية لم تكن من ابتكار أوغسطين ، ولا حتى من ابتكار القديس بولس الذى تأثر أوغسطين بآرائه تأثراً كبيرا فى هذا الصدد . فقد أثيرت المشكلة بالفعل فى العهد

القديم ، وربما ثارت فى أية ديانة توحيدية أخرى . وأوضح أوغسطين أن الناس مسئولون عن خطاياهم ، ولكنهم ليسوا مسئولين عن الخلاص ، كما فسر اللعنة فى ضوء خطيئة آدم ، وليس باعتبارها نتيجة لتصرف فردى ، فالطبيعة الانسانية فاسدة والناس جميعا مدانون بسبب هذه الطبيعة . وبدون العون الالهى لن يستطيع أى انسان أن يهرب من قيود الطبيعة البشرية . وليست هذه حرية مطلقة ، ولكنها حرية أن تعيش وفقا لمشيئة الله ، وماهذه الحرية إلا نتيجة لما ينعم الله به من هبات ، وبعبارة أخرى ، فالرجال الأحرار هم فقط أولئك الذين يحيون وفقا للارادة الالهية ، أى الذين يهربون من قيود الارادة البشرية لأن الله اختارهم للخلاص . وقد تطور هذا المذهب الصارم على يد أوغسطين من خلال خلافه مع الراهب واللاهوتى البريطانى بيلاجيوس Pelagius الذى زعم أن الانسان يستحق الخلاص عن جدارة لأنه اختار أن يعيش عيشة شريرة . ولم يكن بوسع أوغسطين أن يقبل رأى بيلاجيوس عن الارادة الحرة لأنه ظن أن بيلاجيوس أنكر العقيدة المسيحية عن الانسان الخاطىء وحط من شأن الجلالة الالهية .

بيد أن الكنيسة وهى تعمل لرعاية الشعب المسيحى ، وجدت أنه من الصعب أن تأخذ برأى أوغسطين . فقد كان مذهبه متحذلقا صارما بحيث لايمكن استخدامه لتنصير جماهير الأميين ، وبدا أن المذهب الأوغسطينى لايجعل الخلاص ميسورا لكل أعضاء الكنيسة . وفعلا ، قام بعض الأساقفة الفرنسيين بالدعوة إلى موقف شبيه بموقف بيلاجيوس فى القرن التالى لموت أوغسطين ، وتمسكوا بأن الخلاص يعتمد على نعمة الرب ، ولكنهم قالوا أيضا إن أعضاء الكنيسة يمكن أن يكونوا جديرين بتلك النعمة ؛ فقد أرادوا أن يكونوا قادرين على الوعد بثواب حال لقاء السلوك الأخلاقى لرعاياهم . وبينما كانت الكنيسة قد أخذت بالمذهب الأوغسطينى رسميا فى مجمع أورانج Orange سنة ٥٢٩ ، فإنها أهملت تعاليم أوغسطين وأهدرتها على أرضية الواقع . وكثيرا ما كان القادة المسيحيون فى العصور الوسطى يناقشون الخلاص فى عبارات أمكن لرعاياهم أن يفسروها على أنها تتضمن قدرا كبيرا من حرية الارادة الانسانية . لقد تم إرساء دعائم المذهب الكاثوليكى فى العصور الوسطى على يد البابا جريجورى العظيم قرب نهاية القرن السادس . إذ أن مدخله كان معقولا ، لأنه يقول إنه بينما كان الخلاص نتيجة للنعمة الالهية ، فإن الفرد المسيحى - الذى يقوم بأداء الأعمال الطيبة التى تدعو اليها الكنيسة - إنما يكشف عن نعمة الرب التى حلت به . وكان هذا يعنى فى الواقع أنه إذا كان عضو الكنيسة قد تلقى الأسرار الربانية المقدسة ، وسار على نهج التعاليم الأخلاقية التى تدعو الكنيسة إليها فليس له أن يقلق بشأن الخلاص ، ولم يكن هذا تحولا كبيرا

عن موقف أوغسطين ، ولكنه من ناحية أخرى لم يكن متوافقا تماما مع تعاليم أوغسطين ؛ إذ أن أوغسطين لم يكن ليقبل أبدا أن يكون القيام بالأعمال الطيبة علامة على تقبل النعمة الالهية . إلا أن جريجورى كان أكثر اهتماما بالعمل الرعوى للكنيسة منه بالتعريفات اللاهوتية الدقيقة . فقد كان يريد أن يؤكد لجمهوره أن كل من يصبح مسيحيا فى خلقه وفعاله جدير بالخلاص ، وكان من الصعب تماما حمل الناس على أن يعملوا هذا ، أى أن تدعو الكنيسة إلى تنفيذ تعاليمها وتظل غير قادرة على ضمان الخلاص للناس ، وهو الأمر الذى كان سيضع الكنيسة فى أكثر مواقفها حرجا ، وهى تناضل من أجل تحويل المجتمع الأوربى إلى المسيحية . وفى سبيل ضمان أكبر للخلاص قدمت الكنيسة فى زمن جريجورى العظيم خطة للتكفير عن الانحراف عن تعاليم الكنيسة يمكن من خلالها نيل الغفران . فقد كان يفترض أن هناك مرحلة وسيطة بين النعيم والجحيم تسمى المطهر . ولايدخل الجنة مباشرة أحد سوى القديسين ، بينما يتعين على الآخرين جميعا أن يمروا بعملية تطهر ، وكان المطهر هو المرحلة والمكان حيث يمكن القيام بهذا التطهور للنفوس ، وهذا هو العقاب الذى يناله الناس الطيبون ، تمهيدا لدخولهم الجنة فى النهاية . إلا أنه كان من الممكن - وفقا لتعاليم الكنيسة منذ زمن جريجورى - أن تتم هذه الكفارة التطهرية فى الحياة الدنيا ، ومن ثم تسهل على المؤمن عناء مرحلة المطهر وتقصرها . وإذا سلمنا بحقيقة أن الكنيسة أرادت أن تؤكد لرعاياها أنها تمتلك كافة الوسائل التى تمكنهم من نيل الخلاص ، وإذا سلمنا بالمفهوم القانونى للألوهية ، يكون من السهل علينا أن نرى كيف تم استنباط فكرة المطهر هذه ، وكيف استنبط مذهب التوبة .

وتجسدت تعاليم جريجورى عن الكفارة التى تقوم بها الكنيسة ، كما أصبحت هذه التعاليم جزءا هاما للغاية فى حياة كنيسة العصور الوسطى ، ولاتزال لها هذه الأهمية حتى العصر الحاضر ، وللتوبة مراحل أربع ، أولا ، إدراك الخطيئة والخوف من عقاب الله ثانيا ، الاعتذار عن ارتكاب الخطيئة أو الندم عليها ، وهذه المرحلة ذات أهمية قصوى ، وثالثا : الاعتراف أمام قسيس مكرس من الكنيسة ، وهو خزى واتضاع إرادى للتائب ، وأخيرا : يأتى العمل الفعلى للكفارة وهو مايسبغ عليه شعورا بالرضا لتكفيره عن الخطيئة .

وكان التكفير يتم بصور متعددة فقد كان من الممكن أن يقوم التائب بكفارته أمام الكنيسة فى صورة عمل بدنى شاق يسديه للكنيسة أو الحج إلى احدى المزارات المقدسة ، أو حتى أى عمل فنى من الأعمال التى لها غرض دينى . ومن المعلوم تماما أنه حدث فى أواخر العصور الوسطى أن أسيء استخدام التوبة ، مثلما حدث فى صكوك الغفران الشهيرة التى هاجمها مارتن لوثر بشدة . إلا أنه ينبغى ملاحظة أنه كان للتوبة غرض دينى ونفس سليم إلى حد كبير،

إذ كانت التوبة تتيح للمسيحى أن ينال الغفران عن خطايا كثيرة ، ومن ثم تؤكد له من جديد خلاص روحه كما تسمح له أن يتطلع إلى الحياة الآخرة بقدر أقل من الخوف والهلع . وعن طريق مذهب جريجورى فى التوبة ضيقت الكنيسة من نطاق التشاؤمية التى طلع بها أوغسطين فيما يخص مصير غالبية البشر . والواقع أن مذهب جريجورى هذا لعب دورا كبيرا فى ادخال نظرة التفاؤل فى الفكر الدينى الغربى ، وهو ماكان يروق لمجتمع العصور الوسطى الباكرة على نحو أفضل .

كانت أهمية آباء الكنيسة اللاتينية ودورهم فى إرساء النظرية السياسية لكنيسة العصور الوسطى مساوية لأهميتهم من حيث تحديد الأسئلة التى أثيرت فى قضية القضاء والقدر ، فمنذ عصر أوغسطين كان الأباطرة هم حكام الكنيسة المسيحية حقاً ، بل إنهم لعبوا الدور الأول فى تحديد عقيدتها . وهيمنة الأباطرة هذه على الكنيسة هى التى تمت صياغتها فى مصطلح "القيصرية - البابوية Caesaro - Papism لقد ارتأى الأباطرة المسيحيون على مدى القرنين الرابع والخامس أن يضعوا نظرية يمكن أن يستند اليها مبدأ السيطرة الفعلية على مقدرات الكنيسة .

وتبدو الخطوط الرئيسية لهذه النظرية واضحة بالفعل فى خطبة ايوزيبيوس التى ألقاها فى مدح قسطنطين سنة ٣٣٦ ، فقد خرجت كل من الامبراطورية الرومانية والكنيسة المسيحية الى الوجود فى الوقت نفسه تقريبا ؛ ولذا فإن العناية الالهية هى التى خلقت الامبراطورية من أجل تقدم الدين المسيحى ومن أجل خير الكنيسة . كما أن اعتناق قسطنطين للمسيحية جعل الأهمية الدينية للامبراطورية تبدو جلية واضحة . وكان لابد وأن تتداخل مصائر وأقدار كل من الامبراطورية والكنيسة ، بل وتصبح كل منهما مرادفة للأخرى حقا . وفى ختام خطبته ، يقوم أيوزيبيوس باحياء المفاهيم السياسية فى الديانات التى تعبد الشمس ، والتى شاعت فى القرن الثالث فى صيغة مسيحية : ذلك أن المنصب الامبراطورى قد خلق بنعمة الرب ورحمته ، والامبراطور هو نائب الله على الأرض فى سبيل دعم رفاهية الكنيسة المسيحية والامبراطورية.

إلا أنه لا يتضح من خطبة أيوزيبيوس التى أطرى فيها قسطنطين ، ما إذا كان الامبراطور هو نائب الله الأول على الأرض ، أم أن الأساقفة كانوا له أندادا . وبحلول النصف الثانى من القرن الخامس أخذت دعاوى الامبراطور بشأن علو مكانته على الأساقفة - بسبب طبيعة منصبه - تتخذ شكلا أكثر وضوحا وصراحة . وخلال النصف الأخير من القرن الخامس كانت نظرية القيصرية - البابوية هذه قد نضجت وتمت صياغتها تماما .

وحوالى هذه الوقت كانت الامبراطورية قد تدهورت فى الغرب ، ولكن الأباطرة الرومان الشرقيين ، أو الأباطرة البيزنطيين استمروا فى انتهاج سياسة القيصرية - البابوية التى لم يثر حولها أى سؤال حتى القرن الثامن ، لقد كانت الكنيسة البيزنطية فى العصور الوسطى قسما من الدولة البيزنطية . وكان الامبراطور هو الرئيس النظرى والفعلى للكنيسة الشرقية اليونانية. كما صار بطريرك القسطنطينية مجرد مساعد الامبراطور فى الشئون الدينية . وكان باستطاعة الامبراطور أن يطرد البطريرك إذا خالف المراسيم الامبراطورية ، وقد حدث ذلك بالفعل فى بعض الأحيان .

وهكذا ، التقط الأباطرة البيزنطيون نظرية تدعم سلطتهم على الكنيسة وطوروا هذه النظرية التى كانت قد ظهرت بالفعل منذ زمن قنسطنطين . وعلى أية حال ، فإنه على الرغم من تقريظ أيوزيبيوس لقنسطنطين ، فإنه يبدو واضحا أن قنسطنطين كان يظن أن الله قد اختاره ممثلا عنه بصفته الشخصية فقط ، وأن نيابته لم تكن نابعة من منصبه الامبراطورى . وفى غضون قرنين من الزمان بعد قنسطنطين صارت هذه النيابة الشخصية نيابة رسمية عن الله : فمن دواعى منصب الامبراطور أن يكون حاكما على كل من الدولة العالمية والكنيسة العالمية .

وشيئا فشيئا اتخذت القيصرية - البابوية شكل مذهب الملكية الثيوقراطية ، أى فكرة أن الامبراطور ، بحكم منصبه ، تباركه سجايا وخصال مقدسة . وكان الامبراطور البيزنطى يعتبر بمثابة ملك وكاهن rex et sacerdos فى آن واحد . ولم يكن مجرد رجل علمانى ، فهو مثل الأسقف يتمتع بصفات مقدسة نابعة من طبيعة منصبه . ولم يكن هذا الرأى مجرد دعاية للامبراطور والبلاط الامبراطورى كما أن الكنيسة لم تثر أية تساؤلات حول صلاحيته . واستمر زعماد الكنيسة يفكرون بشكل يتسق مع الخطوط الرئيسية التى تبدو واضحة فى خطبة أيوزيبيوس التى مدح بها قنسطنطين . وفضلا عن ذلك كله كانت الامبراطورية ماتزال موجودة بالنسبة لهم ، فهل كان هناك ما يدعو إلى التساؤل حول الحقيقة القائلة بأن مصائر الكنيسة هى مصائر الامبراطورية المسيحية نفسها على نحو متطابق ؟

وفى الوقت الذى أخذت حضارة القسطنطينية فى العصور الوسطى تزداد تأثرا بحضارة الجزء الشرقى من الامبراطورية مع كل قرن يمضى، كانت نظرية الملكية الثيوقراطية تزداد تأثرا بمفاهيم الملكية المقدسة التى سادت الحياة السياسية فى الشرق الأوسط على مدى قرون عديدة . كان الملوك الشرقيون ، من أمثال الحكام الفرس ، يعتبرون ذوات مقدسة وشبه الهية بصفة

دائمة . فقد وضحت مظاهر البلاط الفارسى بالفعل فى الإمبراطورية الرومانية أيام دقلديانوس، وظلت مظاهر واحتفالات بلاط الملكية البيزنطية فى العصور الوسطى تأخذ عن مظاهر واحتفالات البلاط الفارسى التى تجعل من شخص الملك شخصا شبه الهى يسمو فوق جميع رعاياه بما فيهم الاساقفة .

على أية حال ، كان من الممكن تعضيد فكرة الملكية الثيوقراطية بالرجوع إلى صفحات العهد القديم . فالأمثلة والنصوص الواردة فى الكتاب المقدس ، والتى تدعم وتؤيد مزاعم الامبراطور ، قد استخدمت على نطاق واسع من قبل أبواق الدعاية الامبراطورية ، كما أن الكنيسة الشرقية لم تجد فى سوابق الكتاب المقدس شيئا غير صالح ، بل على العكس من ذلك، كان رجال الكنيسة اليونانية مأخوذين ومتأثرين بما جاء فى الكتاب المقدس من أصول تدعم سلطة الامبراطور ، وكان فى مقدور الأباطرة البيزنطيين ، أن يستشهدوا ، مثلا ، بمثال شاول الذى مسحه صموئيل ملكا باختيار الرب (١٨) ولم يكن لداود أن يرفع يده أمامه ، والراجح - كانت المناقشة تدور على هذا النحو - أن مسح شاول ملكا باختيار الرب أعطاه سلطة مقدسة . كذلك كان المدافعون عن مذهب الملكية الثيوقراطية يشيرون إلى المثال الوارد فى العهد القديم عن ملكى صادق الذى جاء عنه فى سفر التكوين أنه كان ملكا وكاهنا فى الوقت ذاته (١٩) ويعتبر ملكى صادق بمثابة التجسيم السابق لنمط الملك - الكاهن . كما أن المسيح ذاته ، كان سليل بيت داود ملك الملوك ، والكاهن الأكبر فى الوقت نفسه .

وفى القرنين الخامس والسادس مضت نظرية الملكية الثيوقراطية هذه شوطا أبعد فى الامبراطورية البيزنطية ، إذ نمت حول شخص الامبراطور عاطفة دينية روحانية شرقية السمات . فقد كان الناس يرون أن الامبراطور يماثل المسيح ذاته ، فكما أن فى السموات اله واحد يجمع فى ذاته كل السلطة والقوة ، كان على الأرض ملك واحد أيضا . وقد حظيت هذه الفكرة بالتركيز الشديد القوى حين صارت موضوعا رئيسيا من موضوعات الفن البيزنطى .

---

(١٨) صموئيل ١٠ :١،" فأخذ صموئيل قنينة الدهن وصب على رأسه وقبله وقال أليس لأن الرب قد مسحك على ميراثه رئيسا".

(١٩) جاء فى سفر التكوين ١٤ : ١٨-١٩ ".. وملكى صادق ملك شاليم أخرج خبزا وخمرا ، وكان هنا الله العلى وباركه ". (المترجم)

وفى مقابل نظرية الملكية الثيوقراطية ومزاعم الأباطرة البيزنطيين حول القيصرية البابوية ، طرحت البابوية فى العقد الأخير من القرن الخامس ، مفهوما عن علاقات الكنيسة والدولة يختلف تمام الاختلاف عن مفهوم الملكية الثيوقراطية . وقد عرفت هذه النظرية التى تطرح مفهوم العلاقات الصحيحة بين الكنيسة والدولة باسم النظرية الجيلازية Gelasian theory نسبة إلى البابا جيلازيوس الأول Gelasius الذى قدم الصياغة الكلاسيكية لهذه النظرية ، وكانت تلك هى النظرية التى أولاها المنظرون السياسيون اهتمامهم الأساسى فى العصور الوسطى الباكرة . وسوف نقتفى أثر الصراع بينهما ، ولكى نتعرف على أصل النظرية الجيلازية ينبغى أن نرجع القهقرى إلى القرن الرابع ، بل وإلى وقت مبكر عن ذلك .

كان السبب الأول فى تقبل زعماء كنيسة القرن الرابع لسيطرة الأباطرة الرومان ، عن طواعية ورضا ، راجعا إلى تعاليم القديس بولس لهم باحترام سلطة الدولة ، وبوسعنا أن نقول إن النظرية السياسية فى العصور الوسطى بدأت بالاصحاح الثالث عشر من رسالة القديس بولس إلى أهل رومية ، وهو الاصحاح الذى أخذ عنه كتاب العصور الوسطى السياسيون مرات ومرات :

"لتخضع كل نفس للسلاطين الفائقة ، أنه ليس سلطاناً إلا من الله والسلاطين الكائنة هى مرتبة من الله ، حتى أن من يقاوم السلطان يقاوم ترتيب الله ، والمقاومون سيأخذون لأنفسهم دينونة فإن الحكام ليسوا خوفاً للأعمال الصالحة بل الشريرة ، أفتريد أن لاتخاف السلطان ، إفعل الصلاح فيكون لك مدح منه لأنه خادم الله الصلاح ، ولكن إذا فعلتَ الشر فخف ، لأنه لايحمل السيف عبثاً ، إذ هو خادم الله منتقم للغضب من الذى يفعل الشر لذلك يلزم أن تخضع له ليس بسبب الغضب فقط بل أيضاً بسبب الضمير . فأنكم لأجل هذا توفون الجزية أيضاً . الجزية لمن له الجزية ، الجباية لمن له الجباية ، والخوف لمن له الخوف والاكرام لمن له الاكرام".

كان هذا البيان - بما له من أهمية كبرى فى جميع مراحل مجرى الفكر السياسى فى العصور الوسطى - محلا للاقتباس بشكل مستمر منذ القرن الثانى فصاعدا . فقد أوضح بولس أن السلطات التى رتبها الله (وهى سلطات الدولة والسلطات الدينية على حد سواء) تخدم الغايات الالهية ، ومن ثم فهى سلطات صالحة ، ويجب أن يبقى الناس على خضوعهم لأن حكام العالم يمثلون الرب وينوبون عنه ، وزعم بولس أن نظام الحكومة المدنية ترتيب الهى ،

كما أن رفض الخضوع للدولة يعنى رفض الخضوع لله . والغرض الحقيقى للدولة أن تكبت فى نفوس الناس الشر الذى تولد عن خطيئة آدم . وفى رأى بعض العلماء أن بولس هنا كان يطرح حلا مؤقتا فحسب ، لأنه كان يظن أن العالم سينتهى بحكامه عن قريب على نحو ما ، كما أنه اهتم بشكل خاص بأن يلزم المسيحيون فى روما الهدوء وألا يكتسبوا أية سمعة بأنهم يقومون بنشاط هدام مما يجلب لهم المتاعب ، وأيا كان قصد بولس ، فإن تعاليمه جعلت مجتمع العصور الوسطى عاجزا عن مقاومة السلطة الملكية ، ولكن المقاومة بدأت فعلا بالقديس أمبروز.

كان القديس أمبروز زعيم الكنيسة اللاتينية خلال العقدين الأخيرين من القرن الرابع حتى موته سنة ٣٩٧ وهو سليل أسرة مسيحية رومانية عريقة كانت لها مكانة سامية فى الادارة الامبراطورية وأرسل إلى ميلانو كحاكم امبراطورى ، واختير رئيسا لأساقفه ميلانو سنة ٣٩٤ باجماع شعبى أدهشه كثيرا ، وكرس نفسه على مدى العقدين التاليين لادارة شئون أسقفيته والكتابة فى اللاهوت والعبادات ، كما كرس نفسه لبناء سلطة الكنيسة فى مواجهة سيطرة الأباطرة المسيحيين .

وقد جرؤ أمبروز مرتين على التصدى للامبراطور الارثوذكسى العظيم ثيودوسيوس ، فقد أدانه على فعاله وألجأ الامبراطور إلى التسليم والتوبة . وفى كلتى الحالتين ذكر الامبراطور بأنه فى النهاية مجرد انسان وأن عليه أن ينصت الى ممثل المسيح لأن المسيح نفسه يحمى امبراطوريته . وقال أمبروز أنه سيكون من المستحيل عليه أن يقدم القربان المقدس لخاطىء غير تائب . وكان ثيودوسيوس ، من حسن طالع أمبروز ، رجلا عميق التدين ، وفى كلتى المناسبتين التى أثار فيهما حنق كبير أساقفة ميلانو استسلم فى وداعة .

وكان لانتصار امبروز على امبراطور العالم الرومانى بأسره رد فعل عميق فى ذلك الوقت ، كما أن المثل الذى ضربه أمبروز فى مقاومة السلطة الزمنية ترك أثره العظيم على الكنيسة الغربية طوال العصور الوسطى الباكرة . فغالبا ماكان يحدث فى العصور الوسطى الباكرة ، إذا ماتصدى أحد زعماء الكنيسة لمعارضة ملك ما ، أن يستشهد بالمثل الذى ضربه القديس أمبروز فى مقاومة الامبراطور ثيودوسيوس . ويمكن القول بأن استسلام ثيودوسيوس لمطالب رئيس أساقفة ميلانو يبدو كنقطة تحول فى تاريخ العلاقات بين الكنيسة والدولة فى أوروبا الغربية .

بل إن نظرية أمبروز عن علاقات الكنيسة - الدولة والتى وجد الفرصة للتعبير الدقيق عنها فى خطاباته إلى ثيودوسيوس ، وفى عظاته التى ألقاها أثناء نزاعه مع الامبراطور ، كانت أبلغ تأثيرا على التطورات اللاحقة من المثل الذى ضربه بشخصه ، إذ قال أمبروز إن الدولة ينبغى أن تساعد الكنيسة وأن تحميها ، ولكن فى المسائل الدينية ليست للحاكم الزمنى أية سلطة على الكنيسة "فالمسائل الإلهية ليست خاضعة لأحكام السلطة الامبراطورية الرومانية " وعلى الرغم من هذا ، دعا إلى الاستقلال الذاتى للكنيسة خارج اختصاصات الدولة ، لأنهما فى التحليل النهائى مؤسستان منفصلتان " فالقصور تختص بالامبراطور ، على حين تختص الكنائس بالأسقف " . وفى الكنائس يكون الحكم للاسقف وليس للامبراطور ، وهكذا شن القديس أمبروز هجومه على نظرية الحكم الثيوقراطى التى صارت أساسا لمذهب القيصرية - البابوية .

فالامبراطور هو الحاكم الزمنى الأعلى بيد أنه ليس شخصا مقدسا . ويخلص أمبروز فى النهاية إلى أنه : حين يكون هناك صراع بين القانون الالهى والقانون الامبراطورى يجب أن يكون للقانون الإلهى فضل السبق والصدارة على القانون الامبراطورى . وقد صاغ أمبروز المبدأ القائل بأن الكنيسة والدولة مؤسستان منفصلتان صياغة واضحة ، ويتضمن مذهبه من المغزى ماهو أعمق من ذلك ؛ إذ يقول بأن الكنيسة هى السلطة الأعلى فى آخر الأمر لأنها تعمل على خلاص البشر ، بما فى ذلك الامبراطور نفسه . كما أوضح القديس أمبروز بصفة قاطعة أن تعاليم المسيح التى تقتضى بأن " أعط مالقيصر لقيصر ، وما لله لله " تنطبق أيضا على الامبراطور (قيصر) حين يكون من رعايا الكنيسة المسيحية .

وأكثر مايلفت النظر فى جسارة أمبروز فى هجومه على السلطة وهيمنتها على الكنيسة أنه كان يخاطب آخر الأباطرة العظام قبل انحلال الامبراطورية ، وهو الامبراطور ثيودوسيوس العظيم الذى عادت سياسته بالنفع الكثير على الكنيسة ، وربما لم يكن ليجرؤ على تحدى سلطة الامبراطور ، على نحو مافعل أمبروز ، سوى أسقف ينحدر من سلالة أعلى مراتب الارستقراطية الرومانية ، وكانت خطابات أمبروز إلى ثيودوسيوس هى التى حددت الخطوط العريضة للنظرية المثلى للكنيسة الغربية فى العصور الوسطى تماما مثلما قدم ايوزيبيوس ، فى مديحه لقسطنطين الاسس التى قامت عليها النظرية السياسية القيصرية - البابوية فى بيزنطة.

وقد جعل انهيار الامبراطورية الغربية - الذى بات أمرا واضحا بالفعل بعد عقدين من موت أمبروز سنة ٣٩٧ - من هذه النظرية محورا جوهريا للغاية فى حياة الكنيسة الغربية ، ذلك أن

السلطة الامبراطورية الوحيدة الباقية تمثلت فى امبراطور القسطنطينية الذى رفض أن يعترف بالوضع الجديد للممالك الجرمانية التى قامت على انقاض الامبراطورية الغربية القديمة ، وادعى لنفسه الهيمنة على الامبراطورية بأسرها باعتبار أن السلطة الامبراطورية عادت كلها إليه (هكذا كانت صياغة النظرية) وكان هذا يعنى أنه سيحاول أن يمارس على البابا السلطة نفسها التى كان يمارسها على البطاركة الشرقيين . وحتى إذا ماكان الامبراطور سينجح فى استعادة الامبراطورية الغربية ، وهو الهدف الذى وضعه نصب عينيه ليقوم بتنفيذه حالما تتوافر له القوة الكافية ، فسيكون على الكنيسة الغربية أن تقبل مايفرضه الإمبراطور من قرارات فى شئون العقيدة . وفى مواجهة هذه التهديدات من جانب القسطنطينية كانت نظرية أمبروز تمثل الدعوى المضادة الأفضل . وقد أخذ البابا جيلازيوس الأول فى أواخر القرن الخامس ، وجهات نظر أمبروز فيما يخص علاقات الكنيسة بالدولة وطورها ، وصاغها فى تصريحاته التى رد بها على إمبراطور القسطنطينية .

ومهما يكن من أمر ، فإن أمبروز لم يكن هو الوحيد بين آباء الكنيسة الذى ساعد على تشكيل النظرية السياسية للكنيسة . ففى النظرية السياسية ، كما فى معظم مناحى الفكر الأخرى ، كان للأوغسطينية تأثيرها الكبير على كنيسة العصور الوسطى الباكرة ، وهو تأثير يصعب تحديد مداه بشكل دقيق . وعلى الرغم من هذا فان هذا التأثير كان عاما ، لقد كانت كارثة سنة ٤١٠ فى روما تعنى أن الربط الذى قام به ايوزيبيوس بين مصائر كل من الدولة والكنيسة قد أصبح غير ذى موضوع بالنسبة للكنيسة اللاتينية ، وكان الكتاب التاسع عشر من "مدينة الله" محكوما بهذا الوضع السياسى المتغير على نحو قوى . فقد طيب أوغسطين خواطر أخوته المسيحيين فى الكنيسة اللاتينية بأن أصر على أنه ليست للدولة أية وظيفة إيجابية فى الحياة الدينية ، وأن الخلاص مسألة قاصرة على العلاقات بين الله والنفس المفردة . ولاتقدم الدولة لحياة المدينة السماوية هذه الا القانون والنظام اللازمين فقط ، أى السلام الأرضى ، ليكونا بمثابة الخلفية التى تقوم عليها هذه المدينة . وهكذا تكون الدولة ، فى رأى أوغسطين ، مجرد مؤسسة تابعة ذات غرض وظيفى قصد بها أن تهيىء الظروف الاجتماعية والسياسية التى تلائم الممارسة السلمية للحياة الدينية ، ولكن الدولة فى طبيعتها الجوهرية ، لاتسهم فى الحياة الدينية ومن ثم ليست لها أية صلاحيات معنوية فى حد ذاتها ، وينتهى أوغسطين إلى أن الدولة فى حد ذاتها ليست سوى "عصابة من القراصنة" . ومن ثم فإن

أوغسطين لايجعل للدولة تلك المقاصد الدينية والأخلاقية التى تصورها أيوزيبيوس ، بل إنه لايعطيها الصلاحيات المقدسة التى يعطيها بولس للدولة فى رسالته إلى أهل روما (وهو الأمر الذى قد يدهشنا قليلا فى ضوء قبول أوغسطين لفكر بولس الدينى بشكل عام) . لقد تركت الأوغسطينية السياسية تركتين لأيديولوجية الكنيسة ؛ فمن ناحية دعت الكنيسة الى التدخل فى شئون ونشاطات الحكام بشرط ألا يتدخلوا فى حياة الكنيسة ، وأن يهيئوا السلام والنظام اللازمين حتى لاتقف الفوضى الاجتماعية والسياسية حجر عثرة فى طريق الحياة الدينية ، ومن ناحية أخرى لاتجد الأوغسطينية السياسية ، بطبيعة الحال ، أية سجايا مقدسة فى طبيعة الملك، فالحقيقة أن الدولة ليست سوى مؤسسة تتلائم مع الظروف ، ولاتتمتع بأية صلاحيات أخلاقية بصرف النظر عن فائدتها للمدينة السماوية التى تعتبر الكنيسة صورتها المنعكسة كما أن الأوغسطينية تستنكر سلطة الدولة وتستهجنها .

وقد أثرت التركتان ، أو تمثلتا على الأقل ، فى الموقف الذى اتخذته الكنيسة تجاه مختلف حكام العصور الوسطى الباكرة . ويمكن القول بأن الكنيسة اقتفت أثر التركة الأولى وهى تتعامل مع الملوك الجرمان الضعاف فى القرون الثلاثة التى أعقبت الغزوات الجرمانية . فقد كانت الكنيسة تحث أولئك الملوك على حفظ القانون والنظام ، دون أن تجشم نفسها عناء البحث عن أوجه القصور الكثيرة - شخصية كانت أم تنظيمية - التى شابت الممالك الجرمانية المسيحية فى تاريخها الباكر ، بيد أنه عندما كان أحد الحكام الجرمان يمتلك من القوة مايمكنه من فرض سلطته على الكنيسة ، والبابوية على وجه الخصوص ، كانت الكنيسة تبادر الى الدفاع عن نفسها بمهاجمة الأسس النظرية التى تستند إليها الملكية ، موضحة أنه ليست للدولة أية صلاحيات معنوية غير تلك التى تستمدها من الكنيسة . وكان البابا جيلازيوس الأول هو أول من استخدم هذا المبدأ ضد الامبراطور البيزنطى .

وفى العقد الأخير من القرن الخامس حاول البابا جيلازيوس - الذى أفاد من آراء كل من أمبروز وأوغسطين - أن يصوغ للكنيسة نظرية سياسية ، فقد تولى جيلازيوس البابوية من سنة ٤٩٢ إلى سنة ٤٩٦ ، وفى ذلك الوقت ، كان واضحا أن الشقاق سيحدث بين البابا والامبراطور ، إذ كانت الكنيسة البيزنطية والامبراطور يدينان بمذهب مخالف لمذهب الكنيسة الكاثوليكية عن طبيعة المسيح ، وأراد الامبراطور من جلازيوس أن يعلن قبوله لهذا المبدأ ، فأصدر البابا قرار الحرمان ضد بطريرك القسطنطينية كما هاجم سلطة الامبراطور من أساسها.

وواصل سيره على هذا الدرب فحدد العلاقة بين السلطة الزمنية والسلطة الروحية ، وقال بأن من الممكن أن يوجد فى الكتاب المقدس أشخاص مثل ملكى صادق والمسيح ملوك وكهنة ، ولكن الحاصل الآن أن سلطة المسيح مقسمة بين الكنيسة والدولة ، فإن هناك نظامين للسلطة فى العالم : كبار الكهنة أصحاب السلطة المقدسة ، والملوك والأباطرة الذين يمسكون بزمام السلطة الملكية ، وسلطة الكنيسة سلطة تشريعية Auctoritas ؛ على حين أن سلطة الحكام العلمانيين سلطة تنفيذية Potestas وفى القانون الرومانى كانت السلطة التشريعية أسمى من السلطة التنفيذية . وهكذا فصل جيلازيوس بين الكنيسة والدولة من ناحية ؛ الا أنه أوضح أن الكنيسة تحتل المكانة الأسمى من ناحية أخرى . لقد كان يريد أن يفصل بين الكنيسة والدولة بسبب الرغبة فى إبعاد الامبراطور عن شئون الكنيسة ، ولكن جيلازيوس ترك لنفسه خط الرجعة حين أوضح أن المؤسسة التشريعية (الكنيسة) هى التى تمنح السلطة للمؤسسة التنفيذية (الامبراطور) . وكان أمبروز قد قال إن الراعى مسئول أمام الرب عن أرواح رعيته، ويجب عليه أن يتدخل فى سلطة الحاكم اذا انتهكت الدولة المبادىء الأخلاقية للكنيسة ، وهو ماعبر عنه جيلازيوس بقوله إن للكنيسة السلطة التشريعية Acutoritas فى نهاية الأمر .

ويمكن أن تستخدم النظرية الجيلازية للرد على نظام القيصرية البابوية بالقول بأن السلطة الروحية والسلطة الزمنية قد أوكلتا إلى مؤسستين مختلفتين ، تستمد كل منهما سلطتها من الرب ، كما أن كلا منهما لها مكانتها المستقلة عن الأخرى ، فى حدود مجالها الخالص . ولكن النظرية الجيلازية كانت تنطوى على مغزى أكثر عمقا جعل من الممكن تطويرها إلى مذهب يقول بتفوق البابا على الامبراطور . كما أن هذه النظرية لم تكن قاصرة فى مدلولاتها على مجرد الفصل بين مجالات الكنيسة ومجالات الدولة ، وقد هيأت النظرية الجيلازية للبابوية مبدأ كان من الممكن أن يكون معتدلا ومتمشيا فى الوقت نفسه مع أصول الفكرة فى تطبيقاتها حسبما تسمح به الظروف . وحتى القرن الثامن كانت البابوية قانعة بأن تخرج من النظرية الجيلازية بأكثر الاستنتاجات اعتدالا ، وتحت ضغط الامبراطور البيزنطى الشديد ظلت البابوية قانعة بمبدأ استقلال الشئون الكنسية عن السيطرة الملكية . وكانت المعركة التى خاضتها لفرض هذا المبدأ معركة طويلة ومريرة ، ولم تحرز سوى نجاح محدود فى النهاية ، الا أن البابوية بدأت فى القرنين الثامن والتاسع تستخدم الجانب الراديكالى فى النظرية الجيلازية . وفى القرن الحادى عشر استخرج البابا جريجورى السابع كل المضامين الراديكالية فى النظرية الجيلازية ، ولم يكتف بطلب الفصل بين الكنيسة والدولة ، وإنما طالب بمبدأ سمو الكنيسة فوق جميع الحكام .

أليس بوسعنا أن نرى فى هذا الجانب المزدوج من النظرية الجيلازية التركتين اللتين خلفتهما الأوغسطينية السياسية ؟ لقد كان أوغسطين يعنى ضمنا أن مجالات المدينة السماوية (المنعكسة فى الكنيسة) منفصلة تماما عن مجالات الدولة ، وهذه هى أيضا وجهة نظر جيلازيوس فى أكثر الجوانب اعتدالا فى نظريته . ولكن أوغسطين يقول أيضا إن الصلاحية الأخلاقية للدولة ليست من سماتها الجوهرية ، ولكنها مستمدة فقط من المدينة السماوية (المنعكسة فى الكنيسة) وهكذا يقرر جيلازيوس أن السلطة التنفيذية الامبراطورية Potestas مستمدة من السلطة التشريعية البابوية Auctoritas فى الصيغة الأصلية لنظريته . والنظرية الجيلازية فى حقيقتها هى النظرية الأوغسطينية السياسية فى صورة أكثر بساطة ، وأكثر واقعية وقدرة على طرح نقاط الجدل والمساجلة .

لقد أرسيت أسس الفكر السياسى فى القرون الستة التى تلت كتابات آباء الكنيسة وسيكون علينا ، فيما بعد ، أن ندرس بالتفصيل أطوار الصراع الطويل بين فكرة الحكم الثيوقراطى والنظرية الجيلازية ، كما ندرس الخلاف بين وجهات النظر الراديكالية فى المذهب الجيلازى . وحتى قيام حركة إحياء الفكر الأرسطى فى القرن الثانى عشر كانت المساجلات حول علاقات الكنيسة والدولة تدور وفقا للخطوط العريضة لهذه النظرية السياسية .

والتساؤل عما إذا كانت النظرية الجيلازية لاتزال تشكل النظرية السياسية للكنيسة الكاثوليكية مسألة محل أخذ ورد . وفى ضوء التغير الهائل الذى طرأ على الفكر الكاثوليكى فى الستينيات من هذا القرن ، يثور بعض الشك أيضا عما إذا كانت الآراء التى عبرت عنها كتابات آباء الكنيسة عن الزواج والعلاقة بين الزوجين لاتزال هى تعاليم كنيسة اليوم ، بيد أنه يمكن القول بأن هذه الآراء قد شاعت فى الكنيسة الرومانية على مدى خمسة عشر قرنا من الزمان ، ومن ثم فإن تعاليم آباء الكنيسة عن الزواج والعلاقة بين الزوجين كان مقدرا لها أن تؤثر فى حياة الملايين من البشر ، ومن المؤكد أن لهذه المسألة أهميتها من حيث مغزاها التاريخى ، وهى أهمية تماثل تصريحات آباء الكنيسة وآراءهم عن التاريخ الطولى والتاريخ الدورى ، وعلاقات الكنيسة بالدولة .

أن من يقرأ أدب آباء الكنيسة بتوسع لابد أن يتأثر بالنغمة التى نوقشت بها مشاكل الأسرة والعلاقة بين الزوجين . وبالنظر إلى حقيقة أن الآباء اللاتين قد صاغوا مذهبهم فى معظم الأحيان بدافع الحاجة إلى إرشاد رعاياهم ، فليس من المدهش أن نجد الموضوع وقد احتل حيزا كبيرا للغاية فى كتاباتهم . ويتفق جميع آباء الكنيسة على أن للاتصال الجنسى غرض واحد

فقط هو إنجاب الأطفال . وهم يؤمنون إيمانا قاطعا بأن إشباع الرغبة الجنسية بحد ذاتها خطيئة، كما أنها نتيجة الانحلال الخلقى لدى الانسان ومثال عليه . ويعبر القديس جريجورى عن هذا المبدأ بقوله : "فى حين لايكون حب انجاب الذرية ، بل حب المتعة ، هو الذى يحكم عملية الاتصال الجنسى ، فإن الأزواج يرتكبون أمراً يجعلهم يبكون ويحزنون بسببه " ويستمر جريجورى فيقول إن "الدين المسيحى أباح لهم ذلك ، ولكنه حذرهم من أن يكون الاتصال الجنسى بقصد المتعة " . وتتمسك الأفكار العبرانية ، والبروتستانتية ، والعلمانية الحديثة ؛ بل وبعض الأفكار الكاثوليكية الراديكالية فى العصر الحديث ، بأن البشر بحكم طبيعتهم يجدون المتعة فى الحب الجنسى ؛ ولكن آباء الكنيسة كانوا يرون أن الطبيعة البشرية تصل إلى ذروة سموها بالتركيز على الناحية الروحية ، وإنكار الرغبات الجسدية ، أى بالإحجام عن الحب الجنسى .

ونتيجة لهذا ، تمسك آباء الكنيسة بأن الطهر والنقاء هما الحالة المثلى للرجال والنساء . ودعموا دعواهم هذه بالمناقشة اللاهوتية والنفسية – الأخلاقية على السواء . وبالنسبة للقارىء اليوم ، تبدو كتابات جيروم المطولة ، والتى لاتكاد تنتهى حول هذا الموضوع ، ضربا من المبالغة وربما تدل على أن كاتبها قد خرج عن حدود العقل . ولكننا يجب أن نتذكر أن أوغسطين وأمبروز ، وجريجورى ، كانوا رجالا مكتملين ، يتدفقون حيوية ، كما كانوا متمرسين بالخبرة فى دروب الحياة ، لقد قالوا بأن السيدة مريم أم المسيح كانت عذراء وأن الكنيسة هى عروس المسيح العذراء ، ومن هنا فإن الحالة المثلى هى الإحجام عن الاتصال الجنسى ، بل وحتى عن الزواج . ويخبرنا القديس أمبروز بأن أولئك الذين لايتزوجون "كالملائكة فى السماء" ولكن ثمة تحولا آخر ، لايرقى إلى مستوى النظرية فى مسألة العذرية ، نجده عند أمبروز الذى يقيم قضية مقنعة فى إحدى مواعظه ضد الزواج فى ضوء مايسببه من الآم ومتاعب لاسيما بالنسبة للمرأة. وهو يسهب فى الكلام عن عناء تربية الأطفال وتنشئتهم النشأة السليمة ، كما يشير إلى "الخدمات والمساعدة الواجبة على الزوجات تجاه أزواجهن " بما تتسم به من مهانة وعبودية ويختتم كلامة بتقرير بيانى عن كيفية إفساد الزوجات لأرواحهن بواسطة مستحضرات التجميل، والعطور والملابس والمجوهرات حتى يحتفظن بجاذبيتهن فى عيون الأزواج . ويسأل أمبروز أسقف ميلانو الدقيق الملاحظة " ما الذى يتبقى لها إذا كان قد تغير هذا القدر الكبير ؟ ولكن أمبروز من ناحية أخرى ، شغوف بأن يبين النعمة التى تحل " بالعذارى السعيدات" اللاتى "تمتلكن حقاً جمالكن الخاص المستمد من حسن الفضيلة . ولتنشدن الله وحده قاضياً للمحبة ، فهو الذى يحب ، حتى فى الأجساد الأقل جمالاً أرواحاً أكثر جمالاً" . ومن الغريب أن آباء

الكنيسة ، وهم يناقشون مسألة العذرية . كانوا يبدون وكأنهم يقصرون حديثهم عن هذه الحال المثلى على النساء فقط على الرغم من أنهم كانوا يقصدون العذرية كحال مثلى للذكور أيضا ، وقد شاع استخدام هذا المعيار المزدوج بالنسبة للمرأة والرجل لدرجة أن آباء الكنيسة أنفسهم لم يتمكنوا من التحرر من تأثيره حين كان يتعين عليهم أن يدلوا بآرائهم فى المسائل الجنسية .

ولاتزال آراء آباء الكنيسة عن الجنس محل جدل كبير حتى اليوم . ومهمة المؤرخ أن يتسائل عن كيفية وصولهم إلى المناداة بهذه الآراء . فمن المؤكد أنها ليست مستقاة من العهد القديم ، لأن الفكر العبرانى يقبل الجنس كجزء طبيعى فى الحياة ويحث على الزواج بشدة . وفى رأى كثير من العلماء البروتستانت أننا لايمكن أن نجد فى الانجيل تحقيرا للحب الجنسى والزواج الذى نادى به آباء الكنيسة . ومن الواضح أن هذه الآراء مستمدة من تعاليم القديس بولس الذى حث الشعب المسيحى على أن يتشبه به فى عزوبيته ، والذى أكد أن الزواج يكون أحسن "من أن تكون متوقدا" (بالرغبة أو بالخطيئة لسنا متأكدين على الرغم من أنه يبدو أن القديس بولس لم ير فرقا كبيرا بين الخطيئة والرغبة الجنسية الجامحة).

وليس ثمة اتفاق بين العلماء عن السبب الذى دفع بولس إلى هذا القول . ويمكن القول بأن آراءه عن الجنس ، كانت مثل مذهبه السياسى ، مجرد قواعد أخلاقية أخروية ، أى أنها كانت انطلاقا من الاعتقاد فى نهاية العالم الوشيكة . ويمكن القول أيضا : بأن القديس بولس كان شديد التأثر بالثنوية اليونانية عن الروح والجسد ، أو أنه ببساطة كان عُصابيا فى مسألة الجنس . على أية حال ، فإن آباء الكنيسة ترسموا خطاه فى المسائل الجنسية ، على نحو أدق مما فعلوا بمذهبه السياسى . ومع التسليم بميلهم إلى النظر إلى المسيحية من منطق الفلسفة الأفلاطونية الجديدة - أى اقتناعهم بأنه إذا كان الله روحا ، فعلى الانسان أن يصير روحانيا بقدر الإمكان - يبدو استمرارهم فى اعتناق نظرة بولس العدائية للزواج وتضخيمهم لهذه العداوة أمرا لايدعو إلى الدهشة .

ولكى نفهم سبب تحقير آباء الكنيسة للجنس ينبغى أن نضع فى اعتبارنا ذلك الفارق بين بيئتهم الاجتماعية والفكرية ، وبيئتنا الاجتماعية والفكرية ، وعلى الرغم من تركيزنا الشديد على أمور الجنس فى الأدب الحديث ، وفى الأحاديث التى يلوكها الناس بقصد التسلية ؛ فإن المسائل الجنسية فى العالم الرومانى كانت أكثر فسقا وإباحية منها فى عالمنا. وفى مقابل الإباحية التى اتصف بها الرومان ، ارتبط مفهوم الجرمان عن العلاقات الجنسية بفكرة الانتهاك والعنف ، وكان لابد أن يثور آباء الكنيسة ، باعتبارهم رجالا متعلمين ومؤمنين ، على فهم المجتمع للأمور الجنسية ، وكان من الطبيعى تماما أن يتطرفوا فى الاتجاه المضاد ، وألا

يستطيعوا اكتشاف شيء جميل فى عملية الجماع اللهم باعتبارها وسيلة ضرورية لإنجاب الأطفال . ومن الممكن طبعا أن ندلل بشكل مقنع على أن تعاليم آباء الكنيسة لم تكن متطرفة وخاطئة بل كانت تتسم بالحكمة كما كانت لها قيمتها الاجتماعية ، إذ أنهم كانوا يعرفون - وهو الأمر الذى ننساه غالبا فى الوقت الحاضر - أن الدافع الجنسى أضعف كثيرا من دوافع انسانية أخرى مثل الجوع والعطش ، والخوف ، كما أنه أسهل فى كبته والتسامى به من أى دافع إنسانى آخر . وإذ كان الناس فى العصور الوسطى لايفرطون فى طعامهم وشرابهم الا نادرا ، كما أنهم لم يتحرروا من الخوف الا فى أوقات نادرة طوال عدة قرون ؛ فلا شك أن أمورا أكثر أهمية من الجنس كانت تشغل تفكيرهم . لقد كانت تعاليم آباء الكنيسة تتناسب تماما مع ظروف مجتمع العصور الوسطى الباكره ، وليس معنى هذا أن غالبية رجال ونساء العصور الوسطى كانوا أطهارا ؛ ولكنه يعنى بالتأكيد أن الرجال والنساء الذين قطعوا على أنفسهم عهود العفة والطهارة لم يواجهوا سوى القليل من المعاناة فى سبيل كبت رغباتهم لانتهاك مثل هذه العهود ، فقد كان رهبان العصور الوسطى الباكرة يعانون فى سبيل الحصول على كفايتهم من الطعام ، بقدر أكبر كثيرا مما كانوا يعانون فى سبيل الحفاظ على عفتهم . بل أنه حتى بين رهبان العصور الوسطى العالية والمتأخرة الذين كانوا أيسر حالا ، كان الشره فى الأكل ، وليس الإفراط فى مضاجعة النساء ، هو الذى يعتبر خطيئة كبرى . وفضلا عن ذلك ، فإننا يمكن أن ندلل على أن آباء الكنيسة كانوا رجالا يفهمون النفس الانسانية فهما جيدا ، إذ يبدو أنهم عرفوا أن الكبت والتسامى بالغريزة الجنسية يزيدان من اهتمام الفرد وقدراته فى نواحى أخرى من الحياة ، مثل النواحى الفكرية والدينية ، بل إنه حتى فى مجتمعنا الحالى الذى يتمتع بوعى جنسى عال ، ثمة حقيقة معروفة تماما مؤداها أن الكثيرين من الرجال ممن يتميزون بالبراعة الفكرية ، والكفاءة الادارية لايجدون الوقت الكافى لممارسة الحياة الأسرية.

وفى استعراضنا لفكر آباء الكنيسة قد يثور سؤال أخير عما إذا كان هؤلاء قد التقطوا أيا من جوانب تعاليم يسوع المسيح التى تشكل فى مضمونها الجيلا اجتماعيا . فمن أقوال المسيح عن الفقير الذى يرث الأرض وعن الصعوبة التى تجابه الغنى فى محاولته الدخول إلى ملكوت السماء كان من الممكن صياغة فكر ثورى ظل ساريا على مدى ألف عام ، وهو الفكر الذى قدر له أن يشكل تيارا رئيسيا فى الفكر المسيحى من القرن الحادى عشر حتى القرن السابع عشر ، ثم ظهر مرة أخرى فى العصر الحديث . الا أن ما يمكن أن نجده من تأثيره هذا الفكر فى كتابات آباء الكنيسة لايشكل سوى تأثيرات قليلة للغاية ، لقد كان آباء الكنيسة واقعين تحت تأثير المفهوم الرومانى عن النظام والمبادىء الهيراركية (أى تدرج المراتب فى النظام الكنسى) بحيث أنهم لم يتمكنوا من صياغة الانجيل الاجتماعى .

ومهما يكن من أمر ، فمن الممكن أن نجد في مواعظ القديس أمبروز قدرا محدودا من النقد الاجتماعى ، والموقف العدائى تجاه الأغنياء . وحتى الآن لم يقم المؤرخون بالكشف عن الأصول الأولى للانجيل الاجتماعى فى العصور الوسطى ، وهو الانجيل الذى ظهر بين عمال الصناعة فى المدن الايطالية فى القرن الحادى عشر. وعندما يحدث هذا ، فقد يتحول نقد أمبروز الاجتماعى- على الرغم من أنه لايظهر بوضوح فى مؤلفاته - إلى مصدر هام من مصادر هذا الفكر الاجتماعى الثورى المسيحى الذى شهدته العصور الوسطى المتأخرة .

وأدب آباء الكنيسة عبارة عن خضم واسع من الآراء والمعلومات التى لم تبرز منها سوى تيارات رئيسية معينة ، ونظرا لأن مثقفى العصور الوسطى الباكرة كانوا من رجال الكنيسة ، ولأنه لم يظهر فى أوربا قبل القرن الثانى عشر كتاب يقتربون ، من حيث اطلاعهم الواسع وسلطانهم الفكرى ، من مستوى آباء الكنيسة اللاتين ، فاننا يجب أن نستنتج أن تاريخ الفكر الوسيط حتى سنة ١١٠٠ ، فى جزء كبير منه ، عبارة عن بحث المدلولات الضمنية فى آراء أوغسطين وأمبروز ، وجيروم ، وجريجورى ، واستخراجها ثم وضعها موضع التنفيذ العملى . بل إن تأثير آباء الكنيسة كان كبيرا جدا حتى فى أثناء العصور الوسطى العالية والعصور الوسطى المتأخرة . ففى منتصف القرن الثانى عشر يشير حنا السالزبورى Jiohn Of Salis-bury إلى علماء ومفكرى عصره باعتبارهم أقزاما يجلسون على أكتاف آباء الكنيسة العمالقة، ومن الممكن أن نقدم الدليل المقنع الذى يدعم هذا التفسير للتطورات التى مر بها الفكر فى العصور الوسطى .

ويبدو آباء الكنيسة بعيدين تمام البعد عن مشاكلنا وعن عالمنا الفكرى ، وهو ما يجعل الناشرين يحجمون عن نشر خطب آباء الكنيسة الدينية ، الا أننا إذا نظرنا نظرة متأملة فاحصة إلى هذا القدر الهائل من تراث آباء الكنيسة أمكننا أن نعثر فى ثناياه على أفكار لاتزال وثيقة الصلة بعالم اليوم ، سواء فى مجال الدين أو الفلسفة أو الاخلاق أو التاريخ أو السياسة أو الجنس . وسواء وافقنا على آراء الكنيسة أم لم نوافق عليها ، فانه ينبغى علينا أن نصل فى النهاية إلى أن آباء الكنيسة اللاتين - نظرا إلى سعة أطلاعهم وسلطانهم الفكرى ، وشجاعتهم فى تناول المشاكل التى كان يعانى منها المجتمع المتدهور ، والمشاكل المرتبطة بالحضارة الصاعدة الجديدة - يقفون على قدم المساواة مع عمالقة الفكر فى العالم الغربى .

الجزء الثانى
تحول الحكومة والمجتمع الأوربى
من القرن الخامس حتى القرن الثامن

إن قلبى ليـــغص بالحـــزن والأسى وأنا
أروى قصة الحروب الأهلية التى مزقت
جنس الفـــرنجـة وممتلكاتهـا شر ممزق

جريجورى التورى

"قاتلوا الذين لايؤمنون بالله ولا باليوم
الآخر ، ولا يحرمون ماحرم الله ورسوله
،ولايدينون دين الحق من الذين
أوتواالكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد
وهم صاغرون" .

القرآن الكريم

الفصل الرابع

عصر الغزوات الجرمانية [1]

١- الجرمان

يغطى التقسيم الكبير الثانى لتاريخ العصور الوسطى الفترة مابين القرن الخامس حتى أوائل القرن الثامن ، وهى فترة تتميز بالغزو الذى تعرضت له أوربا الغربية ، وعالم البحر المتوسط ، من قبل مختلف الأقوام الرحل والشعوب البدائية : وهى شعوب المغول ، والجرمان[2] وتمثل تأثير ذلك فى قرون ثلاثة تردت فيها الأوضاع ، وسادت الفوضى الشاملة ، وهو ماظهرت نتيجته فى تحول الحكومة الأوربية والمجتمع الأوربى . وكانت أخطر الغزوات هى غزوات الشعوب الجرمانية وتوغلها فى داخل العالم الرومانى - فيما عرف باسم الغزوات البربرية - ذلك أن الجرمان قد استقروا فى أوربا الغربية وحددوا مصيرها ، وهو مالم يفعله الغزاة المغول والعرب فى معظم الأحيان .

---

(١) جعل كانتور هذا الفصل بعنوان The aga of the Barbauian invasions أى عصر الغزوات البربرية، وهو يقصد بذلك عصر غزوات الجرمان وغيرهم من شعوب الهون واللان ، ونظراً إلى أن غزوات الجرمان كانت هى الغزوات الرئيسية التى أدت إلى سقوط الامبراطورية فى الغرب فقد رأينا أن نترجم هذا العنوان إلى اللغة العربية بعصر الغزوات الجرمانية . (المترجم)

(٢) ضم المؤلف العرب إلى هذه الشعوب التى أسماها بالشعوب البدائية ، والواقع أن إلحاق العرب بالجرمان والمغول فى هذا المجال يعتبر مجافاة للحقيقة وتعسفاً غير محمود من كانتور ، فالحقيقة أن حركة الفتوح الاسلامية تختلف اختلافاً جذرياً عن الغزوات التى قام بها الجرمان ، أو الهون أو اللان سواء من حيث دوافعها أو من حيث نتائجها الحضارية . فقد خرج العرب المسلمون من شبه الجزيرة العربية تحت راية الجهاد الاسلامى ليبسطوا سلطانهم السياسى على مساحة شاسعة من العالم المعروف آنذاك ، بيد أن المسلمين لم يتعرضوا لأرواح أهل الأمصار أو حرياتهم أو معتقداتهم ، وسرعان ماتفاعلت هذه الحضارة العربية مع المفاهيم التى جاء بها الاسلام لتخرج لنا الحضارة الاسلامية التى كانت ثمرة رائعة لحركة الفتوح الاسلامية . أما الشعوب الرعوية الآسيوية مثل الهون واللان والشعوب الجرمانية ، فقد قامت بغزواتها بحثاً عن موطن أفضل يبسر لها سبل الحياة والحصول على الغذاء وبينما لم يخلف الهون مثلاً ، سوى ذكريات الدمار والفظائع التى ارتكبوها ، لم يبق من الممالك الجرمانية التى قامت فى غرب أوربا وشمال أفريقيا سوى مملكة الفرنجة وكان على أوربا أن تنتظر طويلا حتى يبدأ أولئك فى الأخذ بأسباب الحضارة والرقى ، وهنا كان الفضل للمؤثرات العربية الاسلامية التي دخلت الى الكيان الاوروبى عبر أسبانيا وصقلية وجنوب ايطاليا ، ومن خلال الحروب الصليبية. (المترجم)

أخذ الرومان كلمة بربرى Barbarian عن اليونانيين الذين استخدموها للدلالة على الأجنبى؛ أى بالتحديد ، للدلالة على من هو أدنى فى مستواه الحضارى من الرجل اليونانى ، أما الرومان فقد استخدموا كلمة "بربرى" بمدلول الازدراء والتحقير للدلالة على الشعوب التى وفدت لتعيش على حدود الراين والدانوب ، كما أطلق الرومان على هذه الشعوب هذه جميعا اسم الجرمان Germani وهو الاسم الذى كانت تعرف به فى الواقع قبيلة واحدة فقط من القبائل القاطنة فيما وراء الحدود الرومانية ؛ إذ كانت هناك قبيلة أخرى تسمى الألمانى Allemani ، وهى الكلمة التى صارت فيما بعد أساسا للمصطلحات الفرنسية والأسبانية الدالة على الألمان، أما الجرمان فكانوا يطلقون على أنفسهم الكلمة التى صارت أساسا لكلمتى دويتش Deutsch وتيوتون Teuton الحديثتين ، وهى كلمة Theut (تيوت ومعناها "الشعب") .

فمن هم الجرمان ؟ من أين وفدوا ولماذا ؟ وماهى نظمهم الاجتماعية والسياسية ؟ هذه الأسئلة شغلت عقول الكثيرين من المؤرخين ، كما كانت مراحا لنشاطهم وخيالهم ، لاسيما فى ألمانيا حيث كانت من الطبيعى أن يشجعهم الشعور القومى على دراسة هجرات الشعوب Voelkcrwanderungen وأيا كان الأمر فإن المصادر الأدبية ضئيلة القيمة إلى حد بعيد ، وكل معلوماتنا عن الجرمان قبل القرن الأول قبل ميلاد المسيح مستمدة من البحوث الأثرية . فقد كشفت هذه الدراسات الأثرية من أن الغزاة الجرمان الذين اقتحموا الامبراطورية الرومانية قد وفدوا فى الأصل من سكنديناوة ، ومن ثم فإن الفايكنج Vikings الذى ظهروا فى فترة لاحقة ، وهاجروا من مواطنهم فى القرن التاسع إلى أوربا وغزوها ، كانوا من الشعوب نفسها التى عرفها الرومان باسم الجرمان من حيث أصلهم العرقى ، وحوالى سنة ١٠٠٠ قبل الميلاد بدأ الجرمان يتحركون من مواطنهم الأصلية فى الدانمرك وجنوب النرويج والسويد الحالية صوب الجنوب . وحوالى سنة ١٠٠ قبل الميلاد وصلوا فى انتشارهم صوب الجنوب إلى نهر الراين . وفى وقت لاحق - ربما فى القرن الأول الميلادى - هاجروا إلى حوض نهر الدانوب.

وإذ بدأ الجرمان يضغطون عبر نهر الراين ، كان من اليسير عليهم أن يدفعوا أمامهم بالشعوب الكلتية Celts ، فقد كان الكلت شعباً مسالماً يشتغل الزراعة وكان لهم ولع شديد بالشعر والغناء ، ولولا ظهور يوليوس قيصر والفرق الرومانية على مسرح الأحداث فى منتصف القرن الأول قبل الميلاد لتمكن الجرمان من هزيمة الغال Gaul ، مثلما فعلوا فيما بعد حين فتحوا بريطانيا ودفعوا بالكلت إلى جبال ويلز . وقد تمكن يوليوس قيصر ، بعد قتال مرير أن يدفع بالجرمان إلى ماوراء نهر الراين مرة أخرى واستعمر الرومان النصف الجنوبى فى بلاد الغال

السلاف
بحر الشمال
القوط الغربيين
الوندال البرجنديون
القوط الشرقيون
الهون
اللمبارد
المحيط الأطلنطى
بريطانيا
لندن
ولاية غاليا
ولاية أسبانيا
كورسيكا
سردينيا
رافنا
داشيا
ولاية ترافيا
البحر الأسود
ولاية بونطس
ولاية آسيا
أنطاكية
ولاية الشرق
أورشليم
قبرص
كريت
صقلية
البحر المتوسط
ولاية أفريقيا

هجرات الشعوب
(يوضح طرق الهجرات الجرمانية)

استعماراً كلياً ، وفى منتصف القرن الثالث عبر الجرمان نهر الراين لفترة مؤقتة ، وهى الفترة التى سبقت انهيار الامبراطورية مباشرة ، إلا أن استحكامات الحدود على جبهة الراين سرعان مابنيت من جديد . وحتى حدوث الانهيار النهائى لتحصينات حدود الراين سنة ٣٠٦ ، لم يعبر النهر الكبير إلى جوف الامبراطورية سوى القبائل الجرمانية التى أصبحت معاهدة فى الجيش الامبراطورى .

وما أن حل القرن الثانى بعد الميلاد حتى كان الجرمان قد استقروا فى حوض الدانوب بأعداد كبيرة ، وأخذ هؤلاء يضغطون على الحدود الامبراطورية فى هذا الاقليم . وكان الجرمان على طول امتداد نهر الدانوب خاضعين لقسمين كبيرين للأمة القوطية : الفيزيقوط (الحكماء) -Vis-igoth الأوستروقوط Ostrogoth (الساطعون) ، وقد عاش القوط الغربيون بالقرب من الحدود الرومانية . وفى القرن الثالث الميلادى اخترق الجرمان جبهة الدانوب لفترة مؤقتة أيضاً ، ولكن القوط اضطروا للتراجع إلى ماوراء النهر مرة أخرى قبل أن ينتهى القرن ، ولم يسمح الرومان لأى من قسمى القوط بعبور الدانوب مرة أخرى قبل سنة ٣٧٦ .

وليس هناك دليل إيجابى عن أسباب هجرات الشعوب Voelkerwanderungen ، وكل مانستطيعه هو أن نخمن الأسباب مسبقاً ، لقد ترك الجرمان سكنديناوة بسبب نقص الأقوات الناتج عن تزايد عدد السكان من ناحية ، وبسبب الحروب المستمرة بين القبائل والتى كان المهزومون فيها يطردون من مواطنهم لكى يبحثوا لأنفسهم عن موطن جديد فى الجنوب من ناحية أخرى . وحين اقترب الجرمان من حدود الامبراطورية ، اتصلوا بعالم الثروة ، والتقدم التكنولوجى ، ومناخ البحر المتوسط البديع ، لقد كان هدفهم أن يدخلوا إلى رحاب الامبراطورية لا أن يدمروها ، وذلك لكى يشاطروا سكانها مستواهم المعيشى المرتفع .

وقد أثارت طبيعة النظم السياسية والقانونية والاجتماعية الباكرة لدى الجرمان اهتماماً كبيراً بين المؤرخين ، ونشرت حول هذا الموضوع مجلدات عديدة ، وهذا الاهتمام الكبير بالموضوع لايعود إلى الدافع الوطنى فحسب ، ولكنه راجع أيضاً إلى أن كثيراً من النظم التى ظهرت فى أوربا فى فترة لاحقة ، تبدو وكأنها قد تطورت من خلال الأساليب الجرمانية الباكرة ، أو ترتبط بها على نحو ما . وفى القرن التاسع عشر بالذات كرس العلماء جهداً ضخماً لدراسة النظم الجرمانية الباكرة ؛ إذ أنهم كانوا متفقين على الرأى القائل بعضوية التطور السياسى والقانونى ، وهو مايعنى أن النظام السياسى أو النظام القانونى الذى بلغ قمة تطوره ، كانت بذرته هى الشكل البدائى المتمثل فى نظام الجرمان .

والواقع أن مصادر الفترة الباكرة من تاريخ الجرمان ضئيلة . ويعتبر كتاب تاكيتوس Tacitus المسمى Germania ، الذى كتب سنة ٩٨ ميلادية ، أفضل وأقيم وصف كتبه مؤرخ قديم لأنماط الحياة عند الجرمان ، وهو يقع فى حوالى خمسين صفحة بالطباعة الحديثة ، ولم يزر تاكيتوس مناطق الحدود الجرمانية على الاطلاق ، إلا أنه كان يستطيع أن يجمع معلوماته من أحاديث الجنود الرومان العائدين من الجبهة ، كما كان بوسعه أن يطلع على الوثائق الحكومية وأن يطرح أسئلته على موظفى الحكومة باعتباره رجلاً أرستقراطياً ذا نفوذ ، ولسوء الحظ أن غرضه من كتابة مؤلفه Germania لم يكن يقصد النشر المحايد للمعلومات ، بل إنه أراد أن يصور لقرائه مدى التناقض بين الجرمان البسطاء الذين لم تفسدهم المدينة ، بنشاطهم وفضائلهم ، والرومان المراوغين المخنثين بانحلالهم الأخلاقى ، وقد يؤخذ تصويره المثالى لسيدة البيت hausfrau الجرمانية الفاضلة بتحفظ ، بيد أن هناك من المعلومات والتفاصيل الكثيرة عن ظروف وأحوال النظم السياسية والقانونية الجرمانية فى كتاب Germania ، مايجعل كتاب تاكيتوس هذا ذا أهمية فائقة بالنسبة للمؤرخ .

وتتألف المجموعة الثانية من مصادر تاريخ الجرمان من الشعر الشعبى الجرمانى . ومن سوء الحظ أن القصيدة الوحيدة الباقية من هذه المجموعة هى قصيدة بيوفولف Beowolf الأنجلو - سكسونية التى وصلتنا فى شكل قريب من القصيدة الأصلية ، بحيث يمكن أن تستخدم كمصدر تاريخى . كما أن ملحمة نيبيلونج Nibelungenlied الكبيرة ، التى كانت مصدر إلهام الأوبرات التى ألفها فاجنر Wagner لم تصلنا سوى فى نص يرجع إلى القرن الثالث عشر ، وهو نص مثقل بأفكار الفروسية التى لاتتوافق مع المفاهيم التى كانت سائدة فى الوقت الذى ظهرت فيه أنشودة نيبيلونج . أما ملحمة البيوفولف فقد دونها أحد رجال الدين فى أواخر القرن الثامن ، ويبدو التأثير المسيحى فيها سطحيا ؛ إذ أن القصيدة تكشف تماما عن مثل وأخلاقيات الفئة العليا فى المجتمع الجرمانى ، ومن الممكن تدعيم الصورة التى ترسمها ملحمة البيوفولف للمجتمع الجرمانى من خلال مقارنة هذه الصورة بالصورة التى ترسمها الحكايات النثرية والشعرية Sagas الايسلندية للمثل والأخلاقيات السائدة فى المجتمع الاسكندناوى . فبينما تصور هذه الحكايات المجتمع الأيسلندى فى العصور الوسطى العالية ، فإنها تكشف أيضاً عن مجتمع يمر بمرحلة مشابهة من مراحل تطوره، وهى المرحلة نفسها التى يمكن أن نضع أيدينا عليها أيضا فى الشعر الهرمرى [٣]. وهذه المرحلة أقرب

---

(٣) نسبة إلى هوميروس صاحب الإلياذة والأوديسا .

ماتكون إلى مايسميه العالم الانجليزى شادويك H.C. Chadwcik "بالعصر البطولى " Heroic age وباستثناء كتاب شاوديك الرائد الذى ظهر منذ نصف قرن مضى ، فإن العلماء لم يبذلوا حتى الآن سوى القليل من الجهد فى سبيل القاء الضوء على الحياة الجرمانية الباكرة، من خلال استخدام هذا المنهج المقارن فى دراسة النظم الاجتماعية .

أما المجموعة الثالثة من مصادر تاريخ الجرمان الباكر ، فتتمثل فى المجموعة التى تعرف باسم مجموعة القوانين الجرمانية : والواقع أنها ليست مجموعات قانونية على الاطلاق ، وإنما هى تقارير مكتوبة قصد بها توضيح الشطر الأكبر من القانون الجرمانى الذى ظل شفويا وعرفيا ، وعلى الرغم من تحديدها الصارم ، فإن هذه القوانين الجرمانية ، مثل قوانين البرجنديين والفرنجة (القانون السالى) وقوانين الأنجلو سكسون (الأحكام the dooms)تحمل قيمة فائقة بسبب ماتحويه من معلومات عن الحياة السياسية والقانونية .

وأخيراً ، فإن الدليل الأثرى قد ساهم فى محاولة المؤرخين لاعادة تصوير الحياة الجرمانية الباكرة ، إذأن علم الآثار يمكنه أن يقتفى أثر هجرة أى شعب من الشعوب الجرمانية ، كما يستطيع أن يزيح النقاب تماماً عن المستوى التكنولوجى والحضارى لهذا الشعب . ويجب ، من ناحية أخرى ، أن نعترف بأن نتائج الأبحاث الأثرية التى تهتم بتاريخ العصور الوسطى تستعصى على التفسير فى أغلب الأحوال ، ويرجع السبب فى هذا إلى أن عالم الآثار المتخصص فى العصور الوسطى – على عكس من ينقب بحفائره فى أطلال الحضارة المصرية القديمة وحضارة بلاد النهرين – مقيد فى بحوثه الأثرية بحقيقة أن مواقع الضياع والمدن والطرق التى كانت مستخدمة فى العصور الوسطى لاتزال مستخدمة حالياً فى معظم الأحوال، ولذا فإنه لايستطيع القيام بحفائر منتظمة فى هذه البقاع .

وفى السنوات الأربعين الأخيرة ، تغيرت صورة الجرمان الأوائل عدة مرات : إذ كان من الشائع فى عشرينيات وثلاثينيات هذا القرن التأكيد على أوجه التشابه بين الحياة الجرمانية والحياة الرومانية ، وعلى استمرارية النظم الجرمانية خلال القرنين الخامس والسادس مما يؤدى إلى اعتبار أن الغزوات الجرمانية لم تكن ذات تأثير يذكر على الحكومة والمجتمع الأوروبيين . وكان العالم النمساوى الفونسى دوبش Alfons Dopsch يتزعم هذا الرأى هو والمؤرخ البلجيكى هنرى بيرين Henri Pierenre ، وقد توصل دوبش فى كتابة الضخم "الأسس الاقتصادية والاجتماعية للحضارة الغربية" إلى أنه كان هناك فرق ضئيل للغاية فى المستوى الحضارى والاقتصادى عند كل من الجرمان وسكان العالم الرومانى ، وقد بنى دوبش استنتاجه

هذا اعتمادا على دليل أثرى مبهم وقراءات خاطئة تماماً لنصوص المصادر ، فضلاً عن تفسيره الخاص لهذه المصادر . وعلى نفس المنوال يجادل بيرين بأن الغزوات الجرمانية لم تحدث أى صدع خطير فى التطور الاقتصادى والاجتماعى لأوربا الغربية ، فهو ينسب هذه النوازل إلى التوسع الإسلامى الذى حدث فى القرن الثامن وليس إلى الغزوات الجرمانية .

ومنذ الحرب العالمية الثانية ، فقد التفسير الذى قال به دويش وبيرين لحياة الجرمان الأوائل فعاليته ، وأصبح غير ذى موضوع بفضل جهود العلماء الفرنسيين وعدنا مرة أخرى إلى الأخذ بوجهة النظر القديمة القائلة بأنه كانت للغزوات الجرمانية آثارها المدمرة . وقدم لنا سالن E.Salin دليلاً أثرياً يتعارض مع المادة التى رتبها دويش واعتمد عليها فى بحوثه ، كما ناقش كورسيل Corcelle فى كتابه الفذ "التاريخ الأدبى للغزوات الجرمانية " مسألة ضرورة الأخذ بآراء المعاصرين حول مغزى الغزوات والتصرفات الجرمانية ، كما أنه كتب أحسن مؤلف تاريخى عام عن هجرات الجرمان ، ومواطن استقرارهم .

ومن خلال الأدلة الأثرية ، والكتابات المحدودة التى توفرت لدينا عن تطور المجتمع الجرمانى فى الفترة التى تبدأ باستقرار الجرمان على طول حدود جبهة الراين والدانوب ، وتنتهى بتأسيس الممالك الجرمانية فى أوربا الغربية - ولنقل أنها الفترة مابين سنة ١٠٠ قبل الميلاد وسنة ٥٠٠ بعد الميلاد - تبرز حقيقتان أساسيتان يجب أن نتحقق منهما إذا كنا نريد أن نفهم المجتمع الجرمانى فى عصر الغزوات على نحو سليم ، وأولى هاتين الحقيقتين هى أن درجة تأثر الشعوب الجرمانية عبر نهر الدانوب بالحضارة الرومانية قد اختلفت من قبيلة لأخرى. إذ وصلت بعض القبائل الجرمانية إلى مرحلة حضارية تقترب من مستوى سكان العالم الرومانى فى مناطق الحدود . وقد كرست هذه القبائل نفسها للزراعة ، كما تبادلت التجارة على نطاق واسع مع التجار الرومان ، واعتنقت هذه القبائل الجرمانية الدين المسيحى على المذهب الآريوسى على أيدى البعثات التبشرية الآريوسية فى القرن الرابع. ولم يكن مثل أولئك الجرمان يرغبون فى شىء سوى الدخول فى رحاب الامبراطورية كمعاهدين لكى يشاركوا عالم البحر المتوسط حياته ، وقد كانوا يحترمون السلطة الرومانية إلى حد كبير ، ولم تكن لديهم أية نوايا لإلحاق الأذى بها. وقد وصل القوط الذى عاشوا فى حوض الدانوب إلى هذا المستوى الحضارى لأنهم كانوا على اتصال بأغنى أجزاء الامبراطورية، وأكثرها ازدحاما بالسكان .

ومن ناحية أخرى ، فإنه يبدو واضحاً أن الشعوب الجرمانية الأخرى قد تأثرت قليلا بنمط الحياة الرومانية ، وظلت على بداوتها وجهلها كما كان أبناء هذه الشعوب برابرة بكل معانى الكلمة . والسبب فى هذا غير واضح . وعلى أية حال فإنه يبدو أن الجرمان فى هذه الحالة ظلوا على اتصال وثيق بموطنهم الاسكندناوى الذى كان أقرب إليهم من الامبراطورية الرومانية بطبيعة الحال ، وهنا أيضا كانت النسبة الكبرى من الشعوب الجرمانية أكثر ابتعاداً عن الامبراطورية وبالتالى أقل تأثرا بالاحتكاك الحضارى بها . وهكذا كان الفرنجة Franks أكثر عنفا وأقل تحضراً من بعض الغزاة الأوائل من أمثال البرجنديين Burgundians ، كما أن الأنجلو – سكسون Anglo - saxons الذين وفدوا مباشرة من منطقة بحر الشمال لم يتأثروا بالنمط الحضارى الرومانى .

وهكذا ، فان التعميم فيما يتعلق بالشعوب الجرمانية ليس أمرا سهلا ، إذ كانت بعض هذه الشعوب تتمتع بمستوى ثقافى واجتماعى يضارع مستوى فلاحى الامبراطورية ، على حين كان البعض الآخر على بدائيتهم بالفعل ، على الرغم من محاولة بعض المؤرخين الألمان المحدثين لتصويرهم كقوم متحضرين .

أما الحقيقة الأساسية الثانية ، التى تساعدنا على فهم المجتمع الجرمانى على نحو سليم ، والتى يجب أن تستقر فى الأذهان حول الجرمان الذين عاشوا أثناء فترة الغزوات الكبيرة ، فهى أن نظمهم السياسية والاجتماعية لم تبق على جمودها وثباتها طوال الفترة مابين سنة ١٠٠ قبل الميلاد حتى سنة ٥٠٠ ميلادية ، ولكنها تعرضت لتغيرات عميقة ، فقد كان المجتمع الجرمانى – شأن الكثير من الشعوب البدائية – يقوم فى تنظيمه فى البداية على أساس روابط الدم والعائلة والنسب . وبينما ظلت هذه الروابط مصونة إلى حد كبير حتى فترة الغزوات وأثناءها (كما يتضح من خلال طلب الثأر فى القضايا الجنائية) ، كان هناك شكل آخر من أشكال التنظيم الاجتماعى يفرض نفسه رويداً رويداً إلى أن صار هو الصيغة الاجتماعية المركزية إبان مرحلة الغزوات (٤٠٠ – ٦٠٠) ، ففى هذه الفترة ضعفت روابط الدم والنسب ، وتجلى ذلك واضحا فى تلك المنازعات التى كانت تنشب بين الاقارب ، وتحولت علاقة القربى السابقة على علاقة بين السيد والرجل Lord and man اللذين لم تكن هناك أية ضرورة لوجود أية رابطة قربى بينهما ، فقد كانت الرابطة الضرورية هى رابطة الولاء فقط . وهكذا شهدت هذه الفترة تدهورا فى قيمة وأهمية روابط الدم والنسب ، وتزايداً كبيراً فى الاعتماد على رابطة الولاء والطاعة .

وقد واكب هذا التغير فى التنظيم الاجتماعى تغير آخر فى التنظيم السياسى ، بل إنه ساعد على حدوثه ، وهو التغير الذى تمثل فى ظهور نمط من الملكية غير المسئولة لاتعتمد

على الشعب ، وإنما تعتمد على الهيبة العسكرية وكان الجند يبذلون طاعتهم للقائد العسكرى الذى يمكنهم من الحصول على الغنائم والأسلاب ، إلا أن هؤلاء الأتباع لم تكن تجمعهم مع "مليكهم" رابطة الدم نفسها ، كما لم يكونوا ينتمون إلى الشعب الذى ينتمى إليه مليكهم .

وهكذا كان هناك تحول سياسى واجتماعى كبير يجرى داخل المجتمع الجرمانى نفسه إبان فترة الغزوات الجرمانية ، وهو الأمر الذى كان فى جانب منه من نتائج ظروف الشعب المتحرك فى سبيل الغزو . وقد تحرر كثيرون من المقاتلين الأشداء من الالتزامات القبلية التى تتحكم عادة فى مجتمعات الشعوب البدائية . فضلا عن أن الأمراء الذين ظهروا بين الجرمان خلال تلك الفترة كانوا يتحررون إلى حد كبير من الالتزام بأية سلطة عامة لصالح قبيلتهم أو عشيرتهم ، وطالما كان بوسعهم أن يوفروا لجنودهم الطعام والمال ، كان أولئك المحاربون يبذلون لهم الطاعة والاخلاص ، ولم يكن للملك ، أو لعصبة المحاربين ، أية التزامات اجتماعية أو سياسية تجاه الشعب ككل . وسوف نرى هذا الموقف يتكرر عدة مرات بين الجرمان خلال مرحلة الغزوات الجرمانية ، ومن هذا السياق الاجتماعى والسياسى انبثقت المملكة الفرنجية فى القرن السادس .

ويمكن القول بأن النظام السياسى الأساسى لدى الجرمان ، كان هو نظام الأتباع أو الكوميتاتوس comitatus باللاتينية ، أو الجيفولجى Gefolge بالألمانية ، وهذا النظام الذى كان سائداً عند الجرمان قرب نهاية القرن الرابع كان يتألف من الرئيس أو الملك ، ومجلس الحرب الذى يدين له بالولاء ويقدم له الخدمات لقاء الحماية والعطايا التى يقدمها الملك أو الرئيس ، وكان باستطاعة الرئيس الذى يحكم مدة طويلة ، أو يتمكن من إحراز نصر عسكرى كبير ، أن يؤسس أسرة ملكية حاكمة ، وتزعم الأسرة أنها تنحدر من صلب فودين Wo-den(٤) ويتخذ أفرادها مظهراً مقدسا ، ويعتبرون العرش الملكى من أملاكهم الخاصة . بيد أن تولى عرش المملكة لم يتم بالوراثة المنحصرة فى الذرية لأن هذه الفكرة لم يعرفها الجرمان فى تاريخهم الباكر ، ولكن ولاية العرش كانت تتوقف على إعلان مجلس الحرب الولاء أو رفضه

---

(٤) الاله فودين Woden أو فودان Wodan هو كبير آلهة الجرمان ، وهو الذى أشار اليه تاكيتوس فى كتابه عن الجرمان تحت اسم ميركورى Mercury وقد حفظ اسم الاله فودان فى اسم يوم الأربعاء Wedenesday فى اللغة الانجليزية انظر :

Tacitus, Germania (translated By H. Mattingly, Penguin 1979), pp. 108 - 108, p. 155

(المترجم)

لذلك . فعند موت الملك كان زعماء الشعب الجرمانى يجتمعون لكى يختاروا أحق أفراد العائلة الملكية بالعرش ، وهو أحسن المحاربين بينهم . وبينما ظهر نظام وراثى محدود للغاية فى ولاية العرش فى الممالك الجرمانية الجديدة التى ظهرت فى القرنين الخامس والسادس ، ظل حق الشعب فى انتخاب الملك من التقاليد الراسخة فى الحياة السياسية فى العصور الوسطى على مدى عدة قرون ، لاسيما فى المناطق التى بقيت فيها النظم الجرمانية الأصلية على فعاليتها . وكان مبدأ انتخاب زعماء الجماعة للملك ساريا فى انجلترا أثناء ارتقاء الملك ألفرد Alfred الشهير للعرش الانجليزى ، كما أن الملك حنا John الذى ارتقى العرش سنة ١١٩٩ يدين بعرشه للمبدأ الانتخابى ، وقد كان المبدأ الانتخابى الجرمانى من عوامل الاضطراب الذى أعاق استمرار الأسرات الحاكمة فى الامبراطورية الجرمانية فى العصور الوسطى . والواقع أن هذا المبدأ الانتخابى الجرمانى ظل باقياً حتى القرن التاسع عشر ، ويرجع الفضل - جزئيا على الأقل - فى دوام هذا الشكل من النظم الجرمانية الباكرة إلى تأييد الكنيسة له ، لأنها اتخذت من مبدأ الجدارة بالعرش ذريعة للاعتراض على من يتولى العرش ممن لاترضى عنهم.

لقد كان الكوميتاتوس Comitatus بمثابة نواة ضعيفة للدولة فى العصور الوسطى ، والحقيقة أنه يمكن القول بأنه لم يكن لدى الجرمان أى مفهوم عن الدولة ، أو أية فكرة عن السلطة العامة ، أو أى مفهوم للولاء والطاعة غير مفهوم ولاء الفرد لرئيسه أو قائده . ويمكن القول ، بشىء من المبالغة ، أن النظرية السياسية الجرمانية لم تكن ترتفع فى مستواها عن مفاهيم عصابات البلطجية فى الشوارع فى العصر الحديث ، ذلك أن المسافة مابين الفكرة الرومانية العقلانية عن السلطة العامة والمنصب العام وعن الولاء للامبراطور الذى يمثل الدولة، بغض النظر عن شخصه ، وبين هذه الفكرة الجرمانية ، كانت مسافة شاسعة ، كما أن مستوى التفكير السياسى كان ضحلا للغاية . ولكى نفهم تاريخ العصور الوسطى الباكرة الحافل بالكوارث ينبغى علينا أن نتذكر أنه قد تعين على الدولة فى العصور الوسطى أن تتطور انطلاقا من هذا المستوى الفج ، فقد كان البنيان السياسى فى العصور الوسطى الباكرة يتعرض باستمرار للتحديات بسبب عدم قدرة الجرمان على الاقتناع بمبدأ الولاء العام وفصله عن الولاء الشخصى ، ومن ثم لايثير دهشتنا أن الدولة فى العصور الوسطى لم تبدأ فى التكوين والتبلور حتى القرنين الثامن والتاسع ، كما أنها لم تدخل أول عصور عظمتها سوى فى منتصف القرن السابع عشر . بل إن ذلك النجاح الجزئى ، والمتأخر زمنيا ، الذى أحرزته الدولة ، لم يكن ممكنا إلا بإضافة المفاهيم الكنسية عن السلطة والولاء إلى التراث السياسى البدائى عند الجرمان .

أما المفاهيم القانونية الجرمانية الأصلية ، فكانت متقدمة قليلا عن رؤيتهم السياسية ، فلم يكن الغرض من ساحات القضاء الجرمانية ، ومن شكل الاجراءات التى تتم فى رحابها ، إقامة العدالة التى لم يكن لدى الجرمان أية وسيلة لتحديدها أو مجرد تعريفها ، ولكن الغرض ببساطة كان وقف الاقتتال. فقد كان هدف الاجراءات القانونية الجرمانية أن تمنع الثأر، وايجاد البديل عنه للعائلة التى تطلب ثأرها ، أو للأقرباء المفجوعين فى مصابهم ، وكانت هناك عدة سبل متنوعة لتحقيق ذلك . فقد كان الغرض من ساحات المحاكم أن تضع بدائل الثأر هذه موضع التنفيذ ، وكانت الدية التى عرفوها باسم فيرجيلد Wergeldهى أول هذه البدائل ، وهى دية نقدية تدفع لأسرة القتيل ، أو مبلغ أقل يدفع للشخص الذى أصيب بعاهة، وتتكون المجموعة المسماة "مجموعة القوانين الجرمانية" فى معظمها من قوائم الدية التى توضح مايجب دفعه تعويضا عن مقتل أحد النبلاء ، ومقدار دية الرجل الحر ، أو القن ، كما تبين مقدار التعويض الذى يدفع فى مقابل الذراع أو العين أو غيرها من أعضاء الجسد . وكانت الدية التى يطلبها المدعى باهظة للغاية ، بل انه فى حالة دفعها لم يكن هناك مايجبر أقارب القتيل ، أو الشخص المصاب على قبولها ، وربما يفضلون أن يشفوا غليلهم بالانتقام ، وكان من واجب المحكمة أن تقنع المدعى بأخذ الدية وبالتالى تستبعد احتمال عمليات الثأر ، وعلى الرغم من هذا ، فإن حوادث الثأر كثيرا ما كانت تقع فى المجتمع الجرمانى الأول ، ولدينا معلومات عن حالة ثأر حدثت فى انجلترا سنة ١٠٦٠ قضت على عائلات بأسرها . وإن نظرة على السجلات القانونية التى ترجع إلى أوائل العصور الوسطى لتكشف عن أن الحياة آنذاك كانت كريهة وحشية وقصيرة ، فقد كان المجتمع عنيفا يعج بمشاجرات السكارى التى تنتهى بالقتل ، وما ينتج عن ذلك بالضرورة من احتمال نشوب عمليات الثأر المتواصلة .

وفى العصور الوسطى الباكرة لم يكن الناس يعتبرون أن المشاجرة التى تفضى إلى الموت تمثل جريمة قتل ، ذلك أن مقتل رجل ما فى شجار عادل كان يحتم أداء ديته إلى ذوى قرباه بيد أن ذلك لم يكن يعد جريمة قتل . فقد كانت جريمة القتل تعنى أن يقتل الرجل غدرا ، فالجريمة فى رأيهم عملية لايعرف الجانى فيها على وجه التحديد ، وكان مثل هذا الموقف يسبب ضغطا شديدا على محاكم الجرمان ؛ وذلك أنه إذا لم تكن المحكمة تستطيع أن تحدد هوية القاتل ، فإن أقارب القتيل كانوا يبادرون إلى أخذ العدالة بين أيديهم وينتقمون ممن تحوم حوله شكوكهم ، ومن ثم كان من الضرورى أن تعقد محاكمة لكى تثبت براءة المتهم أو إدانته. ولكن المحاكم الجرمانية لم تكن تعرف وسائل التحقيق التى حددها القانون الرومانى ، وهى الوسائل التى كانت تأخذ شكل التحقيق والاستجواب الشامل بواسطة هيئة من القضاة ، كما

أنهـا كـانت تجـهل نظام المحلفين فى القانون العـام الذى عـرف فـيمـا بعـد ، ولم يكن رؤسـاء المحاكم الجرمانيـة يعرفـون كيف يقيمون الدليل حتى إذا قدم إليهم ، وهكذا لم يكن أمامهم سوى وسيلتين للإثبات هما : المحاكمة بواسطة وسائل قاسية تختارها القبيلة لمعرفة ما إذا كان المتهم بريئا أو مذنبا وهى المحنة ، وهى التى يعتبر الحكم فيها حكما إلهيا، أما الوسيلة الثانية للاثبات فكانت التبرئة بالايمان التى يقسم بها المتهم على براءته .

وفى الاثبات عن طريق المحنة كان الخصوم يلقون بثقلهم على المدعى عليه ، ففى المحاكمة بوسيلة الحديد المحمى كان يفرض على المتهم أن يمسك بقطعة من المعدن الملتهب ثم تضمد يده فإذا شفيت الحروق بعد أيام ثلاثة ثبتت براءته وإلا كان مذنبا ، وفى محاكمة قبلية أخرى كان يفرض على المتهم أن يضع يده فى وعاء يغلى ، ويرفع حجرا من قاع الوعاء ، ثم تضمد ذراعه وتفحص بعد ثلاثة أيام لتقرر ما إذا كان مذنبا أو بريئا. وكانت المحاكمة عن طريق المياه الباردة هى الوسيلة المفضلة فى انجلترا حيث يوجد عدد كبير من الأنهار والبحيرات فكان يلقى بالمتهم فى الماء وهو مقيد اليدين والقدمين ، فاذا غاص كان بريئا ، وإذا طفا على سطح الماء يكون مذنبا على أساس أنهم يعتبرون الماء عنصرا مقدسا يرفض قبول الشخص المذنب . وفى الفترة الإقطاعية استحدثت محاكمة أخرى جديدة ، هى المحاكمة عن طريق النزال بين المدعى والمدعى عليه أو من ينوب عنهما ، ولأن البراءة أو الإدانة كانت تتقرر وفقا لقوة الخصم ، فإن المحاكمة عن طريق النزال لم تقدم الحل الكافى لمسألة العدل المقدس ، فقد كان بوسع الرجل الثرى أن يستأجر أضخم الرجال فى البلاد ، وبذلك يستطع أن يتخلص من أعدائه بتلفيق التهم لهم . وهكذا خضعت المحاكمة عن طريق النزال للقيود الشديدة التى فرضتها الملكيات القوية فى القرن الثانى عشر ، وذلك على الرغم من أن وسيلة الاثبات هذه ظل معمولا بها فى انجلترا حتى سنة ١٨٦٩. وإذ كانت المحاكمات القبلية الثلاث التى سبق ذكرها قاسية وشديدة الوطأة على المتهم ، فإننا ينبغى أن نؤكد أنه قصد بها أن تكون كذلك ، لأن المتهم الذى كان يمر بهذا الاختبار يكون عادة ممن عرف بين جيرانه بالاجرام ، أو من أصل اجتماعى متواضع . ونادرا ماكان يمر بهذه المحاكمة القبلية رجل ثرى أو من أسرة طيبة ويتمتع بسمعة حسنة فى مجتمعه ، ومن ثم كانت المحاكمة طريقة يمكن بها إضفاء صفة القدسية على هذه الوسيلة المعتادة فى الحكم دون أدلة ، وعن طريق المحاكمة البدائية كان يمكن لكل محكمة من محاكم الشعب الجرمانى أن تطهر المجتمع من ذوى السمعة السيئة باتهامهم بارتكاب جريمة ما وإخضاعهم للمحاكمة .

وفى بداية الأمر ، كانت الكنيسة تتخذ موقفا معاديا من هذه المحاكمة الجرمانية ، ولكنها كانت تريد أن يكون لها تأثير على العملية القانونية فى العصور الوسطى ، وهو مادفعها إلى قبول هذه الطريقة العامة فى الاثبات ، وبعد تحول الجرمان إلى المسيحية فرضت الكنيسة قانونا دينيا على المحاكمة القبلية ، فكان على المتهم أن يمر بالكنيسة قبل ذهابه إلى المحاكمة، وهناك يقسم على الكتاب المقدس أو غيره من المقدسات أنه برىء فى الوقت الذى ينذره القسيس بأن يعترف بذنبه حتى لاتتعرض روحه للعنة وبذلك يخسر الحياة الخالدة كما خسر الحياة الدنيا. وفى ظننا أنه كثيرا ماكان المتهم يعترف بجريمته نتيجة لعملية غسيل المخ هذه ، وهو مايعنى إضفاء السمة العقلانية على هذه العملية القانونية ، وكان المتهم الذى تدينه المحاكمة يشنق فى المكان نفسه ، والجدير بالذكر أن الجرمان هم الذين أدخلوا أسلوب الشنق إلى أوربا. وفى بعض الأحيان كانت كنيسة العصور الوسطى الباكرة تنجح فى جعل الملوك يوقفون عمليات قطع الأعضاء التى تؤدى إلى الموت ، وذلك لأن الطب فى العصور الوسطى كان على حاله المعروف من التأخر وهو ما كان يعنى فى الغالب أن يؤدى بتر أى عضو من أعضاء الجسد إلى الموت البطىء . وثمة شك فيما إذا كانت محاكم الجرمان قد سمحت بمثل هذه الاعفاءات الانسانية .

أما التبرئة بالإيمان ، فكانت امتيازا للمتهم الذى يتمتع برأى شعبى إلى جانبه ؛ أى أن يكون المتهم فى العادة من الأغنياء أو سليل عائلة كبيرة ، والتبرئة تخدم المتهم إلى حد بعيد، إذ كان المتهم ينكر التهمة ببساطة بأن يقسم على ذلك ، ويقدم عددا معينا من الشهود الذين يؤدون اليمين ، وكان من المفضل أن يكون الشهود من ذوى المكانة الاجتماعية الراقية ، ويقسم الشهود على أن اليمين الذى حلفه المتهم كان قسما حقيقيا صادقا . وبينما كانت الكنيسة تحذر من مغبة الحكم دون دليل ؛ فإن المعلومات المتوفرة لدينا تؤكد أن هذه كانت وسيلة شائعة فى الإثبات ، ذلك أن المتهم الذى كانت تجمعه صلة القربى بأصحاب النفوذ ، أو بأحد السادة الأقوياء ، لم يكن يتعرض للادانة أبدا ، لأن أقاربه كانوا على استعداد لأن يكذبوا من أجله . ويتضح من شروط التبرئة أن القانون الجنائى الجرمانى كان طبقيا فى اتجاهاته، فالرجل الفقير ، والرجل غير الحر ، أو من لاسند له من السادة الأقوياء ، لاينقذه من حبل المشنقة سوى حسن الحظ ، وعلى العكس من ذلك ، كان الشخص الثرى ، الذى تربطه بأصحاب النفوذ صلات قوية ، يستطيع أن ينجو من العقوبة فى أكثر الجرائم افتضاحا وتكرارا ، حتى لو كان ضحايا جرائمه من أبناء الطبقة العليا فى المجتمع .

ومن الواضح أنه ليس هناك سوى القليل جدا مما يمكن أن نحسبه من مزايا القضاء الجرمانى فى عصره الباكر ، ومع هذا فإن القانون الجرمانى ساهم مساهمة كبيرة فى الثقافة الغربية ، وكان دون مستوى القانون الرومانى بكثير فيما عدا مايتعلق بمضامينه السياسية : لقد وجد القانون الرومانى أصوله فى إرادة الامبراطور المستبد ، كما كان هذا القانون يحبذ السلطة السياسية المطلقة ؛ على حين أنه لم تكن للملك الجرمانى أية سيطرة على القانون وكانت وظيفته القانونية الوحيدة أن يتابع محاكم الجماعة وهى تنظر القضايا وتفصل فيها . وحتى فى هذه الناحية لم تكن مشاركته هامة فى غالب الأحوال ، فقد قام القانون الجرمانى على أساس أن القانون يعيش بين الشعب ، وأن القانون هو عادات المجتمع ولا يستطيع الملك أن يغير هذا القانون دون موافقة الجماعة ، وبسبب هذا الاختلاف بين القانون الجرمانى والقانون الرومانى ، ولأن انجلترا لم تتأثر بالقانون الرومانى حتى فى العصور الوسطى العالية، فقد اكتشف مؤرخو العصر الفيكتورى أن أصول النظم البرلمانية الانجليزية وفكرة حكم القانون أنما تعود فى جذورها إلى غابات ألمانيا وأحراشها حيث تعيش القبائل الجرمانية، وعلى الرغم من أنه من الشائع أن ينظر كتاب القرن العشرين نظرة إزدراء إلى هذا التفسير ، فانه يحمل جانبا من الحقيقة ، لقد أخطأ الفيكتوريون فى مفهومهم العضوى عن التطور الدستورى ؛ بمعنى ظنهم أن شجرة الليبرالية الانجليزية الباسقة لابد وأن تكون قد نمت من بذرة القانون الجرمانى ، ولكن هذا التطور فى تاريخ انجلترا الدستورى لم يكن تطورا حتميا على أى وجه ، ففى سنة ١٢٠٠ بدا وكأن انجلترا تسير فى اتجاه الحكم المطلق ، واستغرق الأمر عدة قرون من التجربة والنضال السياسى قبل أن تنتصر سيادة الشرعية البرلمانية . ولكن الحقيقة أن انجلترا أخذت عن القانون الجرمانى تقاليد سيادة الجماعة القانونية على الملك ، وكان من الممكن أن ترسى كل بلدان أوربا الغربية التقاليد القانونية نفسها ، إلا أن ماحدث هو أن مبدأ الحكم المطلق الذى عرفه القانون الرومانى قد ساد أنحاء أوربا بعد سنة ١١٠٠ ، على حين كانت انجلترا وحدها هى التى حافظت على الفكرة الجرمانية الباكرة عن أن القانون يوجد بين أفراد الشعب وليس مرهونا بإرادة الملك .

٢- القرن الأول للغزوات الجرمانية

من خلال مقارنة بسيطة بين سكان الامبراطورية الرومانية وأعداد الجرمان ، سيكون من الصعب أن نفسر السبب الذى أدى إلى نجاح القبائل الجرمانية فى الإقامة على التراب الرومانى فى السنوات المائة التى أعقبت عبور القوط الغربيين لنهر الدانوب سنة ٣٧٦ ، فقد

كان عدد سكان الامبراطورية آنذاك يتراوح مابين خمسين مليونا وسبعين مليونا ، وبالمقارنة كان عدد الجرمان ضئيلا ، ذلك أن أكبر القبائل الجرمانية ، مثل القوط الغربيين ، كان تعدادها مائة ألف نسمة فقط ، بما فى ذلك النساء والأطفال ، ولم يكن باستطاعة هذه القبيلة أن تدفع إلى ميدان القتال بأكثر من عشرين ألف مقاتل . وقد بلغ العدد الكلى للجرمان الذين دخلوا الامبراطورية فى القرن الأول بعد الميلاد نسبة لاتزيد عن خمس عدد سكان حوض البحر المتوسط فى العصور الوسطى ، وربما يكون من الأصح أن نسبتهم كانت حوالى عشرة بالمائة من السكان .

ويجدر بنا ، بطبيعة الحال ، أن نتذكر أن الحكومة الرومانية جابهت عددا كبيرا ومتنوعا من المشكلات السياسية والاقتصادية والعسكرية ؛ فقد كان الجيش الرومانى يتألف فى غالبيته من المعدمين والجرمان . وفى أحيان كثيرة ، كانت تصرفات القادة الجرمان العاملين فى خدمة امبراطور الغرب تجعل الاعتماد عليهم أمرا مستحيلا ، فضلا عن أن حدود الامبراطورية كانت من الطول والامتداد بحيث بات الدفاع عنها أمرا صعبا ، ونتيجة لامتداد الحدود بهذا الشكل ؛ فإن الجيوش الجرمانية فى أى مكان (غرب القسطنطينية على الأقل) كانت أكثر عددا من المدافعين الرومان . وكان لابد من الاحتفاظ بجيش كبيرا جدا فى الشرق لصد الفرس الذين كانوا يشكلون تهديدا مستمرا للدفاعات الشرقية منذ القرن الثالث حتى القرن السابع ، ويجب أن نتذكر أن أقاليم الامبراطورية الغربية البعيدة عن حوض البحر المتوسط كانت قليلة السكان ، ومن ثم كان للاستقرار الجرمانى فى كثير من أقاليم العالم اللاتينى تأثيره القوى على الوضع الديموجرافى .

وقد نشأ الدافع الى الغزوات الجرمانية فى سبعينيات القرن الرابع بسبب غزو القبائل المغولية المعروفة باسم الهون (وهى القبائل المعروفة باسم هسيونج – هو Hsioung - Hu فى موطنها الآسيوى) للغرب ، وحتى القرن السابع كان الغزاة الآسيويون الرحل يهددون غرب أوربا بشكل دورى ، وكان الأتراك آخر أولئك الغزاة الذين كان الهون أول طلائعهم . ومن المعتقد أن الهون كانوا يعيشون خلال القرن الثانى أو القرن الثالث فيما يعرف الآن باسم الصين الشمالية أو منغوليا . وقد حدثت تغيرات داخلية معينة فى المجال السياسى فى الصين أجبرت الهون على التحرك صوب الغرب وحاولوا غزو الهند ولكنهم طردوا منها فتحركوا بسرعة عظيمة باتجاه الغرب ، فمروا شمالى بحر قزوين والبحر الأسود ثم مروا خلال منطقة جنوب روسيا نحو البلقان . وحوالى منتصف القرن الرابع اخترقوا حوض نهر الدانوب وقهروا

القوط الشرقيين فى سهولة واستعبدوهم ، وزرعوا الرعب فى قلوب الجرمان الذين لم يكونوا يعتمدون على الفرسان سوى فى حدود ضيقة ، ولم يتمكنوا من الصمود فى وجه الجيوش الهونية التى كان أفرادها يحاربون من فوق ظهور الخيل [٥] ، وقد وصف مؤرخ رومانى معاصر الهون بأنهم شياطين لاتقهر ، لايحاربون فقط من فوق ظهور الخيل وإنما يعيشون فوقها أيضا . وزعم - ولاشك أنه بنى روايته على أساس القصص التى سمعها من الجرمان - أن الهون لاينزلون عن خيولهم لكى يأكلوا ، ولكنهم يدفئون اللحم المقدد تحت سروجهم ثم يواصلون المسير .

وتوسل القوط الغربيون الى امبراطور الشرق حتى يسمح لهم بعبور نهر الدانوب بحثا عن ملجأ يقيهم شر الهون . وكان القوط الغربيون ممتلئين رعبا لأنهم كانوا أقرب مايمكن من حدود الدانوب وكانوا يتلمسون فى يأس أى سبيل يجنبهم مصير بنى جلدتهم من القوط الشرقيين ، وقد أجابهم الإمبراطور إلى مايطلبون ، وبذلك حدثت أول هجرة واسعة النطاق لشعب جرمانى إلى داخل الأراضى الامبراطورية بطريقة سلمية سنة ٣٧٦ ، وسرعان ماثارت جميع المشكلات التى يمكن أن يسببها استقرار شعب نازح على أرض شعب آخر ، وهى مشاكل مألوفة لدينا فى القرن العشرين . فقد زعم القوط الغربيون أن الحكام والموظفين الرومان يخدعونهم ، ولم يكن السكان فى شمال بلاد اليونان راضين عن دخول المهاجرين البرابرة إلى بلادهم ، وبعد عامين من الشجار والمنازعات بدأ القوط الغربيون اليائسون يثورون ويحاربون الامبراطور ، ودخل الامبراطور المعركة بثقة مفرطة فى قوته ، ولذا فإنه لم يعد لها الإعداد الكافى كما أنه لم يكلف نفسه عناء احضار الفرسان . وكانت النتيجة هزيمة ساحقة لجيشه فى المعركة التى قتل هو فيها ، وهى معركة أدرنه Adrianople سنة ٣٧٨[٦] . ويمكن القول بأن هذه المعركة هى البداية الحقيقية للغزوات الجرمانية ، حقيقة أن الامبراطور ثيودوسيوس الأول قد هادن

---

(٥) يقول تاكيتوس عن القوة العسكرية للجرمان فى القرن الأول للميلاد : "وتعتمد قوتهم على المشاة أكثر من الفرسان ، ولذا فإن جنود المشاة يصاحبون الفرسان فى القتال ، وكانت سرعتهم فى الجرى على أقدامهم تكفى لأن يتمكنوا من أن يظلوا بقرب الفرسان ، وكان أفضل الرجال يختارون من بين صفوف الجيش كله من شباب المقاتلين ، ليكونوا مع الفرسان فى خط القتال " أنظر :

Tacitus, Germania (translated By H. Mattingly) Penguin 1970,p. 100.

(٦) الامبراطور هو فالنز Valenz حاكم القسم الشرقى من الامبراطورية (٣٦٤-٣٧٨) ، وكان هذا الامبراطور يهدف من وراء اسكان القوط الغربيين فى المنطقة التى تشكل شمال دولة بلغاريا الحالية أن يقيم سياجاً بشرياً كثيفاً يقف فى وجه موجة الغزو الهونى إذا مافكر الهون فى عبور نهر الدانوب . (المترجم)

القوط الغربيين عقب ذلك مباشرة [٧] ، وحقيقة أن الضرر المباشر الناتج عن المعركة كان ضعيفا ، إلا أن هذه المعركة أظهرت أن بمقدور أية قبيلة جرمانية أن تهزم جيشا رومانيا ، وكانت هذه الحقيقة المشئومة بمثابة جرس الموت للسلطة الرومانية .

وبعد موت ثيودوسيوس الأول ٣٩٥ ، عاود القوط الغربيون عدم الاستقرار مرة أخرى ، فانهم لم يقنعوا بأراضى بلاد اليونان التى كان ثيودوسيوس قد منحها لهم ، كما أنهم كانوا يشكون فى نوايا ولديه وخليفتيه تجاههم ، فقد تولى عرش الامبراطورية بعد الامبراطور الكبير ولداه اللذان اقتسما حكم الشرق والغرب ، وكانا غير ناضجين ، كما اتصفا بالحماقة والطيش . وأحاطت بكل منهما مجموعة من رجال البلاط المرتشين العاجزين عن معالجة الموقف الوشيك التفجر . وفى الوقت نفسه كان القوط الغربيون قد اختاروا ألاريك الجسور Alaric the Bold وهو واحد من أكثر زعماء الجرمان عدوانية وطموحا ، ولم تكن لدى الاريك أية نية لتدمير الامبراطورية أو حتى لإضعاف السلطة الامبراطورية ؛ بل كان كل ما يبتغيه هو الحصول على أرض جيدة لشعبه . ويمكن القول بأن القوط الغربيين لم يكونوا يريدون تحطيم الامبراطورية ، وإنما كان كل هدفهم أن يستقروا فى موطن ثابت ، وكل ماقدر لهم أن يسببوه من متاعب للامبراطورية فى ربع القرن التالى ، مما ترك أثره على السلطة الامبراطورية المحطمة فى الغرب، كان يمكن تجنبه لو أن الامبراطور قد أجابهم إلى مطلبهم المتواضع فى هدوء . ولكن الامبراطور الساذج أخذ بمشورة حاشيته السيئة ورفض تقديم أية تنازلات ، فلم يبق أمام ألاريك سوى أن يشن الحرب ضد السلطة الامبراطورية التى كان يحترمها كثيرا فى حقيقة الأمر.

وكان الغزو الذى قام به القوط الغربيون لايطاليا فى مطلع القرن الخامس ، أقرب فى طبيعته إلى المناوشات منه إلى الحرب ، فقد كان القوط الغربيون غير ميالين إلى تدمير القوة الرومانية ، ومن ناحية أخرى ، كان قائد الجيش الامبراطورى ستيلكو Stilicho منحازا عاطفيا إلى القوط الغربيين ، فقد منعهم من دخول إيطاليا ، بيد أنه لم يبذل أى جهد لدفعهم

---

(٧) عقد الامبراطور ثيودوسيوس الأول Theodosius I (٣٧٨-٣٩٥) معاهدة مع القوط الغربيين أصبحوا بمقتضاها معاهدين Foederati للامبراطورية كما صاروا بمثابة قوة احتياطية للجيش الرومانى . ومن ناحية أخرى منح ثيودوسيوس للقوط الغربيين موطناً فى إقليم تراقيا الحالى فى بلاد اليونان ، وبذلك هدأ روعهم وسكنوا حتى سنة ٣٩٥ ، عندما تولى الحكم أبناء اركاديوس فى الشرق وهونوريوس فى الغرب فانتهج كل منهما سياسية غير حكمية تجاه الجرمان . (المترجم)

خارج الحدود الامبراطورية ، أو حتى خارج الحدود الشمالية لولاية إيطاليا . وهرب الامبراطور المذعور إلى قلعة رافنا Ravenna المنيعة ، والتى كانت تبعد عن الطريق الرئيسى المؤدى إلى داخل إيطاليا ، ومن ثم فانه لعب دورا ضئيلا للغاية فى الأحداث المدمرة التى جرت فيما بعد وهكذا تعتبر سنة ٤٠٦ واحدة من أهم نقاط التحول فى القرن الأول من الغزوات الجرمانية .

وليس من السهل أن نحدد ماكان يدور بخلد ستيلكو ، ولكنه أغتيل سنة ٤٠٦ على أيدى الأرستقراطيين الحانقين وبموافقة الامبراطور الأحمق ، ومنذ ذلك الحين بات الطريق إلى إيطاليا مفتوحا أمام القوط الغربيين . وفى ٤١٠ استولى جيش ألاريك على روما واحتفظ بها لعدة أيام فى محاولة لإجبار الامبراطور على قبول مطالب القوط الغربيين بخصوص موطن يستقرون فيه ، وقد أشتهر هذا الحادث - الذي أثر على خيال المعاصرين ، ومنهم القديس أوغسطين تأثيراً كبيراً - بحادث نهب روما . والحقيقة كما أشار أوغسطين ، أن القوط الغربيين لم يلحقوا بالمدينة سوى قليل من الأذى وربما يكونوا لم ينالوها بأى أذى على الاطلاق ، لقد كان غرض آلاريك أن يسير بشعبه إلى القدم الايطالى ثم يعبر البحر المتوسط ليستقر فى ولاية شمال أفريقيا الغنية ، ولكنه مات أثناء مسيرة شعبه بعد الخروج من روما ، وخلفه على العرش صهره أتولف Atulf الذى أعلن أن سياسته هى إعادة بناء الامبراطورية تحت قيادة القوط ، وهى السياسة التى نقلها فيما بعد ثيودوريك Theodoric ملك القوط الشرقيين . وكى يجسد أتولف سياسته فى رمز ، خطف ابنة الامبراطور ثيودوسيوس وتزوجها

وهى امرأة ذكية عرفت كيف تستمع بكونها ملكة جرمانية ، كما لعبت دورا بارزا فى الشئون الدبلوماسية والسياسية المضطربة خلال السنوات الثلاثين اللاحقة. وعاد أتولف بشعبه الى شمال ايطاليا ثانية ثم عبر جبال الألب إلى غالة ، وأخيرا وفى سنة ٤١٨ منح الامبراطورية القوط الغربيين مايطلبون ، وسمح لهم أن يستقروا كحلفاء معاهدين للامبراطورية فى غرب بلاد الغال ، ومن هناك تدفقوا عبر جبال البرانس إلى أسبانيا ، وفى القرن السادس هزم الفرنجة مملكة القوط الغربيين وانتزعوا منها أملاكها فى غالة . وقد استمر حكم القوط الغربيين قائما فى أسبانيا حتى الفتح الاسلامى سنة ٧١١ ، وفى قصة غزو القوط الغربيين للامبراطورية يمتزج الهزل بالمأساة . فقد كان من اليسير تفادى الآثار المدمرة التى نتجت عن هذا الغزو ، لأن القوط الغربيين لم يكونوا يريدون فى أى وقت أن يمسوا السلطة الامبراطورية بأذى ، وإذا كانت هجرات القوط الغربيين قد فتحت الباب أمام غزاة آخرين ، فإن هذه كانت غلطة الحكومة. ومن أهم القبائل التى اندفعت عبر حدود الراين سنة ٤٠٦ كان البرجنديون Burgundians والوندال Vandals . فقد استقر البرجنديون فى وادى

نهر الرون وساهموا بأسمهم فى الجغرافية الفرنسية ، وكان البرجنديون شعبا مسالما شغوفا بالشعر بشكل واضح ، وقد استمدت الملحمة الشعرية المعروفة باسم نيبولنج Ni-belungenlied التى ترجع إلى القرن الثالث عشر - من القصص التى تعود فى أصلها إلى برجنديا فى القرن الخامس أو القرن السادس ، وفى مطلع القرن السادس ذاب البرجنديون فى مملكة الفرنجة .

أما الوندال الذين كانوا شعبا أكثر وحشية وبدائية ، فقد ساروا تحت قيادة ملكهم جايزريك الأعرج Gaiseric the Lame عبر فرنسا وأسبانيا إلى شمال أفريقيا . وسيظل عالقا بالأذهان أن الوندال قد حاصروا مدينة القديس أوغسطين التى مات بها . وبحلول العقد الخامس من القرن الرابع كانت ولاية شمال أفريقيا الغنية قد أصبحت مملكة الوندال ، وأساء الوندال معاملة رجال الكنيسة الكاثوليك وفشلوا تماما فى الحصول على تأييد سكان شمال أفريقيا ، ونتيجة لذلك كان من السهل إعادة فتح شمال أفريقيا على يد الامبراطور البيزنطى فى خمسينيات القرن السادس . وكان تأثير الوندال على تطور شمالى أفريقيا تافها لايستحق الذكر ، وعلى الرغم من هذا كان غزوهم لشمال أفريقية نقطة تحول هامة فى مجرى تدهور الامبراطورية فى الغرب ، فقد تحول الوندال إلى بحارة ممتازين . وبمجرد فتحهم لشمال أفريقيا كونوا أساطيل للقرصنة وقطعوا طريق المواصلات البحرية بين ايطاليا وبقية غرب أوربا؛ مما حال دون قيام الحكومة الامبراطورية بتدعيم جيوشها فى غالة واسبانيا ، كما ساعد على سرعة قيام ممالك جرمانية جديدة فوق الأرض الرومانية . وفى سنة ٤٢٠ كانت الفرق الرومانية قد انسحبت من بريطانيا بالفعل تاركة السكان المسيحيين من الكلت الوطنيين عرضة للغزو الذى قامت به قبائل الجرمان المتوحشة الهمجية الوافدة عبر بحر الشمال .

وكان آخر انتصار يحرزه جيش يحمل شارة الامبراطورية فى أوربا الغربية هو الذى حدث فى شالون Chalons فى غالة سنة ٤٥١ ، ففى هذه المعركة تم صد الغزو الهونى الذى قاده ملك الهون العظيم أتيلا Attila ، وسرعان ماتفككت امبراطورية الهون بعد ذلك ، إلا أن هذا النصر الأخير للجيش الرومانى لايحسب للرومان ، ذلك أنه فى الوقت الذى كان قائد الجيش الذى هزم أتيلا رومانيا ، كان أغلب جنوده من القوط الغربيين . وبعد سنة ٤٥١ أخذت الامبراطورية فى الغرب تتدهور باطراد ، ففى سنة ٤٥٥ مات آخر امبراطور من سلالة ثيودوسيوس ، ولم يكن الأباطرة الغربيون طوال السنوات العشرين التالية سوى ألعوبة فى أيدى القادة الجرمان الذين تصارعوا فى سبيل السيطرة على إيطاليا وكان النصر فى هذا الصراع من نصيب قائد جرمانى هو أدوفاكر Odovacar. وفى سنة ٤٧٦ خلع الامبراطور الحاكم ، ولم يختر من يحل محله [٨] ، وحين أدرك آدوفاكر أنه لايستطيع أن يتخذ لنفسه

اللقب الامبراطورى ، حكم الشعب الايطالى بوصفه نائبا عن الامبراطور الشرقى ، ولكنه أطلق على نفسه لقب "ملك الجرمان فى إيطاليا ". وقد أفاد أدوفاكر من القانون الرومانى القديم الخاص بايواء الجند لكى يرغم أصحاب الأراضى الايطاليين على قبول استقرار جيشه على الأرض الايطالية .

فماذا كان موقف الشعب الرومانى تجاه هذه الطفرات الكبيرة التى حدثت فى ميادين الحكم وفى المجتمع خلال هذه السنوات المائة الأولى من تاريخ الغزوات الجرمانية ؟ الحقيقة أن كثيرين من الناس الذين كانوا قد سئموا الاستبداد وضجروا من ثقل وطأة الضرائب فى العصر الامبراطورى المتأخر كانوا إما غير مبالين بالغزوات وأما مرحبين بالغزاة . فقد كان هناك أمل ألا يتمكن الجرمان من الحفاظ على النظام السياسى والنظام الضريبى اللذين عرفهما الرومان، وقد تحققت هذه الآمال مع بعض الاستثناءات . ولدينا خطابات كثيرة كتبها الارستقراطيون الرومان فى غالة أوائل القرن الخامس تكشف أنهم حاولوا دون جدوى أن يتجاهلوا التغيرات التى كانت تجرى خارج أسوار ضياعهم . ولكن من ناحية أخرى ، كانت للغزوات جوانب سرعان ما زرعت الخوف فى نفوس أبناء الطبقة الحاكمة فى الامبراطورية ، وثمة تقارير معاصرة عن الفظائع التى ارتكبت فى حق السكان الرومان ، لاسيما على أيدى الوندال الآريوسيين فى شمال أفريقيا . وعلاوة على ذلك ، فانه حين تحققت التوقعات بانهيار الامبراطورية مرت بالأرستقراطية بعض المواقف التى أحيت مشاعرهم الوطنية ، فقد كانت طبقة النبلاء الغال الرومان (الغالورومان) تنظر إلى المرحلة الأولى من الغزوات دون مبالاة ، وفجأة وفى حوالى منتصف القرن الخامس كونوا جيوشا خاصة لمقاومة الغزو وحافظوا على بعض جيوب المقاومة حتى سحقهم الفرنجة أخيرا قرب نهاية القرن الخامس .

وكان لاعتناق القوط والوندال المسيحية الآريوسية أثره فى جعل الغزوات مشكلة صعبة فى مواجهة الكنيسة ، فبينما فسر أوغسطين وأوروسيوس الغزوات على أنها نتيجة لخطة العناية الالهية تمهيدا لتحول الجرمان الوشيك الى الكنيسة الكاثوليكية ، نظر القديس أمبروز والقديس جيروم إلى الغزوات بعين ملؤها الرعب، على حين وصف أسقف كاثوليكى آخر الجرمان بالديدان التى يجب القضاء عليها .

---

(٨) كان آخر سلسلة الاباطرة الضعاف فى الغرب هو الامبراطور الصبى الذى عرف لذلك بروميولوس الامبراطور الصغير (أوغسطولوس) Romulus Augustulus الذى كان فى الثانية عشرة من عمره حين خلعه ادوفاكر .

(المترجم)

وما أن حل النصف الثانى من القرن الخامس ، حتى كانت وجهة نظر أوغسطين قد بدأت فى الانتشار ، وأخذت النظرة المتشائمة ، والنواح على الكارثة التى حلت بالعالم من جراء الغزوات الجرمانية تنحسر أمام تيار الأمل المتزايد بين زعماء الكنيسة . وأظهر الموقف الذى وقفه البابا ليو الكبير الفرصة التى باتت سانحة أمام الكنيسة لزعامة العالم الغربى ، كنتيجة من نتائج تفكك الامبراطورية ، وبات واضحا أن نهاية الامبراطورية لاتعنى نهاية العالم ولاحتى الكنيسة اللاتينية .

وهكذا بات السكان الرومان فى الممالك الجرمانية سنة ٤٨٠ على حال من الترقب والانتظار، ترى ماهو الموقف الذى سيتخذه ملوك الجرمان تجاه الكنيسة فى النهاية ؟ هل يمكن تحويلهم إلى المسيحية الكاثوليكية ؟ لقد كان هناك احتمال بأن يقوم الامبراطور الشرقى بغزو الغرب لاسترداده ، وكان امبراطور الشرق مايزال منتظرا وأعلن أن مسألة استعادة الغرب مسألة وقت فحسب . وقد تدارس رجال الكنيسة اللاتين هذا الاحتمال بمشاعر مختلفة ، إذ أن الامبراطور سيكون أفضل من الاضطهاد الآريوسى الجرمانى ؛ بيد أنهم كانوا يعرفون أن الامبراطور سيحاول إخضاع البابا لسلطته ويملى رأيه على الكنيسة الغربية فى المسائل الدينية كما كان يفعل فى الامبراطورية الشرقية ، ألا يمكن أن يكون أى ملك جرمانى عنيف وفظ ولكنه يدين بالولاء للكنيسة الكاثوليكية ، حاكما أفضل من الامبراطور للمدينة العلمانية ؟ ومن هنا كانت صياغة النظرية الجيلازية كما رأيناها من قبل . كانت هذه هى الأسئلة الحيوية التى طرحت نفسها عند نهاية المرحلة الأولى من الغزوات الجرمانية حوالى سنة ٤٨٠ ولم تظهر إجابات هذه الأسئلة إلا فى القرن التالى إبان المرحلة الثانية من الغزوات الجرمانية ، وكان لها أن تحسم مصير غرب أوربا .

٣- المرحلة الثانية من الغزوات

مملكة القوط الشرقيين - مملكة الفرنجة

بحلول عام ٤٨٠ كانت ثلاث ممالك جرمانية قد قامت فى غرب القارة الأوربية على أنقاض الامبراطورية الرومانية ، إلا أنه لم يقدر لأى من هذه الممالك الثلاث أن تعمر إلى مابعد أوائل القرن الثامن أو أن يكون لها أى تأثير هام على الحضارات الوسيطة ، فقد كانت مملكة أودوفاكر فى إيطاليا بناء هزيلا تهاوى تحت وطأة غزو القوط الشرقيين سنة ٤٨٩م . وفى وادى الرون ذابت مملكة البرجنديين فى مملكة الفرنجة ودخلت تحت سيادتهم فى عشرينيات القرن السادس . وكانت مملكة القوط الغربيين تمتد خلال غرب فرنسا واسبانيا كلها ، ثم طرد الفرنجة القوط الغربيين أيضا من فرنسا فى أوائل القرن السادس .

وكان تأثير مملكة القوط الغربيين فى أسبانيا فى تاريخ وحضارة أيبيريا ضئيلا ؛ فقد كان القوط الغربيون آريوسيين أصلا ، ولكنهم تحولوا إلى الكاثوليكية فى أواخر القرن السادس ، وحاول أساقفة القرن السابع الكاثوليك تقوية وتدعيم الملكية القوطية الغربية فى أسبانيا عن طريق ما للدين من سلطان ، وهى السياسة التى تبنتها الكنيسة مع الفرنجة فى القرن الثامن وآتت نتائج بالغة الأثر ، ولكن ملوك القوط الغربيين كانوا ضعافا وغير طموحين بدرجة لم يجد معها تأييد الكنيسة فى إنقاذهم ، وعلى الرغم من الجهود التى بذلتها الكنيسة ؛ استسلم القوط الغربيون بسرعة أمام الفاتحين المسلمين سنة ٧١١م وحتى القرن الحادى عشر كان الأمراء الأسبان يعيشون فى جبال البرانس فقط . أما التراث الثقافى الوحيد الذى تركه القوط الغربيون فيمكن أن نجده فى مؤلفات إسيدور Isidore أسقف أشبيلية الذى لم يكن من القوط الغربيين بل كان من طبقة الارستقراطية فى أسبانيا .

وبعد الاخفاقات المتوالية لجميع الممالك الجرمانية الأولى ثار السؤال عما إذا كان من الممكن تأسيس مملكة جرمانية دائمة فى أوربا الغربية. وفى السنوات العشرين الأخيرة من القرن الخامس برزت إلى الوجود مملكتان جديدتان ، وبدا واضحا أن مصير أوربا السياسى سوف يتحدد من خلال شكل ومصير هاتين المملكتين الجديدتين ، فقد أقام القوط الشرقيون مملكتهم فى إيطاليا ، كما أصبح الفرنجة الساليون سادة غاليا ، وبات من المؤكد أمام الناس فى أوربا سنة ٥٠٠م أن المستقبل مع القوط الشرقيين . فقد أراد ثيودوريك ملك القوط الشرقيين إحياء الحضارة والإدارة الرومانية تحت صولجانه ، وبدا فى أوائل القرن السادس أن ثيودوريك سوف يحقق سياسته القوطية التقليدية فى التوفيق بين النظم القوطية والنظم الرومانية ، ولم يكن واضحا أن لدى مملكة الفرنجة فرصة مماثلة للنجاح ، إذ ظهر حاكمها كلوفيس الأول Clovis I فى صورة البربرى الذى لايكن أى تقدير للثقافة اللاتينية أو الحكومة الرومانية ، ومع ذلك عمرت مملكة الفرنجة بينما انهارت مملكة القوط الشرقيين بسرعة بعد موت ثيودوريك سنة ٥٢٦م . فبذهاب ثيودوريك استرد الامبراطور البيزنطى جستنيان إيطاليا ، واختفت مملكة القوط الشرقيين من التاريخ ، وهكذا انحصرت زعامة أوربا الغربية فى الفرنجة ؛ ومن ثم فإن فشل القوط الشرقيين ونجاح الفرنجة كان له أثره الحاسم فى تطور أوربا فى أوائل العصور الوسطى ، وتستحق أسباب هذه الحوادث الحاسمة أن نتوقف أمامها مليا .

وفد القوط الشرقيون إلى داخل الامبراطورية من حوض نهر الدانوب وقهرهم الهون واستعبدوهم فى سبعينيات القرن الرابع ، ولكن بعد موت أتيلا زعيم الهون سنة ٤٥٣ استعاد

القوط الشرقيون حريتهم وكان زعيمهم هو ثيودوريك الذى يعنى اسمه "قائد الشعب" والذى كان فردا فى الأسرة الملكية ، وقد أرسل فى صغره ليكون رهينة فى القسطنطينية ؛ حيث تعلم أن يقدر الثقافة ، والقانون وأساليب الحكم الرومانية . فى ثمانينيات القرن الخامس انتخب القوط الشرقيون ثيودوريك ملكا عليهم ، فلم يكن من تقاليد الجرمان أن يتولى ملكهم العرش عن طريق الوراثة ، فقد كان العرش بمثابة أملاك العائلة الملكية بأسرها ؛ ولكن الشعب كان يختار الملك من بين أفراد هذه العائلة على أساس مدى جدراته واستحقاقه للعرش.

وبنهاية العقد الثامن من القرن الخامس وجدت سياسة ثيودوريك فى توحيد المصالح القوطية والرومانية تشجيعا من جانب امبراطور القسطنطينية . فقد كان القوط الشرقيون قد بدأوا يهددون بغزو الامبراطورية البيزنطية ، ولكن الامبراطور اقنع ثيودوريك أن يقود شعبه إلى داخل إيطاليا حيث كان أودوفاكر قد بدأ يوطد استقلاله عن الامبراطورية الشرقية . وهكذا تمكن الامبراطور من إنقاذ بيزنطة من خطر القوط الشرقيين ، واستطاع فى الوقت نفسه أن يؤكد سلطة الامبراطورية الرسمية على إيطاليا أكثر مما كان عليه الأمر تحت حكم اودوفاكر؛ وذلك لأن ثيودوريك ذهب إلى ايطاليا وفى ذهنه أن حقوق الامبراطور فى إيطاليا يجب الحفاظ عليها . واعتبر الامبراطور ملك القوط الشرقيين بمثابة مساعد له ، وكان يتوقع ألا تنتقص الغزوات الجرمانية من السيادة الامبراطورية .

وفى غضون أربع سنوات مابين سنة ٤٨٩ وسنة ٤٩٣ حطم ثيودوريك والقوط الشرقيون مملكة أودوفاكر وقهروا إيطاليا ، واتخذ ثيودوريك رافنا فى شمال شرق إيطاليا - حيث كان عدد من أباطرة القرن الخامس قد أقاموا مقر حكمهم فيها فعلا - عاصمة له . فماذا كان وضع ثيودوريك القانونى فى إيطاليا ؟ لقد كان ذلك استمراراً لنفس النظام الذى كان أودوفاكر يحكم تحت مظلته . فقد كانت سلطة ثيودوريك بتفويض من امبراطور الشرق لكى يقوم بتوجيه شئون الحكم العامة ، وفى الوقت نفسه حمل ثيودوريك لقبا ملكيا لكى يحتفظ له بهيبته وسطوته على شعبه . وكان من المعتاد أن يقوم القادة البرابرة بقيادة الجيش الامبراطورى فى الغرب على مدى قرنين من الزمان ، وإذ لم يعد هناك امبراطور فى الغرب آنذاك ، انتقلت سلطات الحكومة المدنية أيضا إلى يدى قائد الجيش ، وكان السكان الرومان معتادين على أن يحكمهم حاكم ينوب عن الامبراطور القابع بعيدا فى القسطنطينية ، يكون فى الوقت ذاته زعيم الشعب الجرمانى الذى حل بأرضهم ، وهكذا كانوا مستعدين لتقبل فكرة قيام مملكة بربرية تمارس سلطات الحكم العامة .

أوربا سنة ٥٢٦م

ظل ثيودوريك مدة تزيد على عشر سنوات قانعا بدوره كممثل للامبراطور ، وكقائد للجرمان المعاهدين ، ثم بدأ ينتهج سياسة جديدة أزعجت الامبراطور البيزنطى . فقد بدأ يفكر فى تأسيس مملكة جرمانية تحت قيادة القوط تشمل كلا من إيطاليا وغاليا وربما أسبانيا . واتبع سياسة المصاهرة الدبلوماسية التى كان من الممكن أن تؤدى إلى قيام مثل هذه المملكة العظيمة ؛ فقد تزوج سنة ٤٩٣ ، من أخت كلوفيس ، ثم زوج إبنته إلى ملك البرجنديين ، كما أصبح وصيا على ملك القوط الغربيين الذى كان قاصرا ، وبات واضحا أن ثيودوريك قد أخذ ينسلخ رويدا رويدا عن الامبراطور البعيد فى الشرق .

ولم يكن البيزنطيون ليتخلون عن إيطاليا أبدا ، لأن الامبراطورية الرومانية بدون روما كانت أمرا لايصدق ، وإذ أدرك الامبراطور أن ثيودوريك قد يصبح على درجة كبيرة من القوة فإنه عمل على موازنة قوة ثيودوريك بقوة مضادة ، فاعترف بسيادة كلوفيس على غالة ، وتحالف مع مملكة الفرنجة . وكان هذا واحدا من أفدح أخطاء ثيودوريك ؛ على الرغم من أنه كان من الصعب على أى فرد أن يتنبأ بالنتائج فى ذلك الوقت ، فقد جلبت محاولته لجعل القوط الشرقيين قوة بحر متوسطية ، تتمتع بالنفوذ فى فرنسا وأسبانيا وبالسيادة فى إيطاليا ، عداء الامبراطورية البيزنطية ، وسببت اعترافها بسيادة الفرنجة الشرعية على غالة ، وقد أدى الموقف إلى وقوع كارثة حلت بالقوط الشرقيين وذلك حين استطاعت الامبراطورية البيزنطية تحت حكم جستنيان استعادة قواها العسكرية لمهاجمة إيطاليا .

وإذا تساءلنا عن السبب فى إقدام ثيودوريك على انتهاج مثل هذه السياسة الخارجية العدائية ، التى وحدت الفرنجة والدولة البيزنطية ضد مملكة القوط الشرقيين وتسببت فى تدميرها ، لظهر لنا سبب هذه المخاطرة الجسيمة واضحا جليا ، إذ كان ثيودوريك يعتقد فى عشرينيات القرن السادس ، نتيجة لسياسته الداخلية ، أنه استحوذ على ولاء الشعب الايطالى ، أو ضمن حياده على الأقل ، وربما استحوذ على تأييد البابا زعيم الكنيسة الكاثوليكية .

لقد أعلن ثيودوريك منذ بداية حكمه أن قصده أن يعيد بناء سلطة الحكومة الرومانية وأن يجلب الخير للشعب الايطالى . ولم تكن مثل هذه السياسة جديدة على القوط ، إذ أن أتولف ثانى ملوك القوط الغربيين كان قد أعلن عن مثل هذه الأهداف. أما الجديد فى الأمر ، فهو أن ثيودوريك كانت لدية الفرصة لأن يحقق هذا الهدف وبذل كل ماوسعه فى هذا السبيل . وتمثلت أذكى تحركاته فى احتفاظه بالجهاز البيروقراطى للامبراطورية المتأخرة ، وهو الذى استمر

موجودا ، شكلا على الأقل ، أثناء معظم القرن الخامس حين كان آخر الأباطرة الرومان التافهين قابعين فى رافنا. واتخذ ثيودوريك رافنا عاصمة له آنذاك ، وأعاد بناء الحكومة البيروقراطية من جديد ، كما اختار الموظفين من بين صفوف الارستقراطية الرومانية ، وبحلول عام ٥٠٠ وجد ثيودوريك الرجل الذى رسم له سياسته الداخلية - وهو كاسيودوروس Cassiodorus الذى كان سليل عائلة ارستقراطية رومانية قديمة ، وكان بليغ اللسان ، واداريا قديرا ، كما كان "مندوبا صحفيا" عظيما لمملكة القوط الشرقيين . وقد أشار كاسيودوروس على ثيودوريك بالوسيلة التى تمكنه من كسب الشعب الايطالى ، وانكب على كتابة عدد من المؤلفات الدعائية كان من بينها الكتاب الرسمى "تاريخ القوط" الذى أظهر ثيودوريك أمام الشعب الايطالى فى أفضل الصور تألقا .

كان كاسيودوروس هو الذى صاغ شعار النظام الجديد وهو نظام المؤاخاة Civilitas الذى صك على العملة الملكية ، وأذيع فى خطابات ملكية عديدة كتبها كاسيودوروس ، فقد زعم أن القوط ليسوا أعداء للحضارة والثقافة بل على العكس ؛ قال إن هدف الحكومة الجديدة هو الحفاظ على الثقافة الرومانية وتدعيمها ، كما أن كاسيودوروس لم يشر فى كتاباته إلى القوط الشرقيين بوصفهم برابرة . والحقيقة أن كاسيودوروس فى كتابه "تاريخ القوط" يقرن القوط بالاسكيثيين Scythians، وهم شعب جاء ذكره فى الأساطير اليونانية القديمة ، ويرسم لنا كتاب "تاريخ القوط" الذى وصلنا من خلال مختصر وضعه جوردان Jordanes، صورة للقوط يبدون فيها وقد تساووا مع اليونانيين فى مستواهم الحضارى . ولم يكن هذا التفسير التاريخى المضلل ناتجا عن جهل كاسيودوروس ، وإنما كان نابعا من أيديولوجية خاصة ، كذلك كان الأسلوب البلاغى لخطاباته نتيجة لمحاولة واعية من جانبه للدعوة بأن الحاكم القوطى الشرقى كان حاميا التراث الكلاسيكى .

واكتسب برنامج المؤاخاة مسحة لا بأس بها من الحقيقة بفضل سياسة ثيودوريك الداخلية . فقد تم تنفيذ برنامج واسع للأعمال العامة ، كما فرضت عقوبات صارمة على اللصوصية وقطع الطرق ، وشجع الأمن الناتج عن ذلك على عودة الرخاء إلى إيطاليا ، ربما إلى المستوى الذى كان عليه أواخر القرن الرابع ، (أو هذا هو ما أخبرنا به المعاصرون على الأقل) ، وواصل السكان الرومان حياتهم فى ظل القانون الرومانى ، على حين استخدم القوط الشرقيون القانون الجرمانى . واستدعى ثيودوريك إلى بلاطه أبرز علماء عصره وشملهم برعايته - ليس كاسيودورس فقط ، ولكن أيضا بوئثيوس Boethius ، الذى كان أرستقراطيا رومانيا آخر ثم صار موظفا حكوميا عظيم القدر ، وبدأ فى ترجمة مؤلفات أفلاطون وأرسطو إلى اللغة

اللاتينية ، بل إن مؤرخا من مؤرخى البلاط البيزنطى اعترف بأن ثيودوريك كان يعامل السكان الرومان بتسامح وكرم محمود .

وأيا كان الأمر ، فقد كان هناك جانبان فى سياسة ثيودوريك لم يكن من الممكن أن يرضى عنهما الايطاليون ، وقد اضطر للإبقاء عليهما بحكم منصبه كقائد للجيش القوطى الشرقى : وهما انتزاع الأرض الايطالية من أجل الجيش القوطى الشرقى من ناحية والآريوسية من ناحية أخرى . فمن الناحية القانونية كان القوط الشرقيون معاهدين Feodorati وكان لهم حق الايواء على أرض السكان الايطاليين المحليين وفقاً لقانون الضيافة الرومانى . وهكذا نجد أودواكر يأمر أصحاب الأراضى الايطاليين بتسليم ثلث مساحة أراضيهم إلى جنوده ، وهى نفس السياسة التى سار عليها ثيودوريك ، فما الذى كان يمكنه أن يقدمه لجنوده غير ذلك ؟ والمعلومات المتوفرة لدينا قليلة جدا بحيث لاتسمح لنا بتحديد الكيفية التى نظر بها أصحاب الأرض الايطاليون إلى هذه السياسة . وفى رأى بعض المؤرخين أنه كانت توجد ضياع كثيرة خالية فى ذلك الحين نتيجة الفوضى التى سادت القرن السابق ، وقد بلغت هذه الضياع الخالية حدا من الكثرة جعل الأراضى التى انتزع ثيودوريك ملكيتها قليلة للغاية . بيد أن الحقيقة القائلة بأن كاسيودوروس بذل الكثير لتبرير هذا التصرف على أساس أن القوط هم الجيش الرومانى ، توضح أنه كان هناك بالضرورة بعض الاستياء من جانب أصحاب الأراضى التى انتزعت ملكيتها .

أما فيما يتعلق بمسألة استمرار ثيودوريك على ولائه للآريوسية فإن المؤرخ يرتبك بسبب تفاهة المصادر فما الذى كانت الآريوسية تعنيه حقا بالنسبة لثيودوريك ؟ لقد بنى الكنائس الآريوسية ، ولكن من كان هؤلاء الأساقفة الآريوسيون ؟ المفروض أنهم كانوا من القوط الشرقيين ، ونحن لانعلم شيئا عن الموضوع . كل مانستطيع قوله إن الآريوسية صارت عقيدة الشعب القوطى ولم يكن بمقدورهم أن يتخلوا عن عقيدتهم كما لم يتخلوا عن قانونهم الذى ألفوه . وبذل ثيودوريك أفضل مافى وسعه ، فإذا كان قد بقى على آريوسيته ؛ فإنه بذل مافى طاقته ليهدىء من روع الكنيسة الكاثوليكية بشأن عقيدته ، إذ اطلق حرية العقيدة ، كما شارك فى احتفال يوضح اعترافه بسلطة البابا ، لا على الكنيسة الكاثوليكية فقط ، بل على مدينة روما أيضا ، وفى سنة ٥٢٠م كان واضحا أن البابا هدأ وأن الكنيسة سوف تستمر فى تأييد سلطة ملك القوط الشرقيين حتى بعد موت ثيودوريك ، ومن ثم كان من الممكن لسياسته الخارجية المحفوفة بالمخاطر أن تنجح بفضل سياسته الداخلية الماهرة .

ولكن السنوات الأخيرة من حكم ثيودوريك شهدت اختلال توازن القوى الدقيق الذى أقامه فى غير صالحه ، وكان من الواضح تماما قبل موته سنة ٦٢٦م أن انهيار مملكة القوط الشرقيين لايمكن أن يتأخر كثيرا. ولسوء الحظ ، فإن مصادرنا هنا هزيلة جدا ، إلا أننا نستطيع أن نميز الخطوط العريضة المعتمة لما حدث من تغيرات ، ويبدو أن مفتاح الموقف كان هو سياسة الامبراطور ، فخلال معظم عهد ثيودوريك كان الامبراطور فى نزاع مع البابا ، وهو ما انتقص من السلطة الامبراطورية بفضل النظرية التى صاغها جلاسيوس الأول Ċelasius I فى العقد الأخير من القرن الخامس ، وأحس البابا أن الامبراطور قد وقع فى شباك الهرطقة وأنه يحاول فرض أخطائه على الكنيسة ، ومن ثم فإن البابوية والكنيسة تريان أن حاكما آريوسيا يبيح حرية العقيدة سيكون حاكما أفضل من الامبراطور البيزنطى . وفى سنة ٥١٨م تغيرت الأسرة البيزنطية الحاكمة بالقسطنطينية ، وكان الهدف العظيم للبيت الحاكم الجديد الطموح هو إعادة فتح الغرب ، [٩] وفى سبيل هذه الغاية يجب التضحية بكل شىء ، وأعلن الأمبراطور جستين الأول تبوله للفكرة اللاهوتية التى يعتنقها البابا (رغم أنه كان ينفر بذلك الكثيرين من رعاياه) ، وبدا واضحا أن الامبراطور والبابا قد توصلا إلى تفاهم سرى فى الوقت الذى كان البابا يقوم بدور سفير ثيودوريك لدى القسطنطينية . وألقى كثيرون من أبناء الارستقراطية الرومانية بثقلهم فى جانب البابا والامبراطورية البيزنطية ومنهم بوثيوس ، ويحتمل أنهم كانوا قلقين من أن القوط الغربيين أقارب ثيودوريك والذين كانوا مايزالون على عدواتهم الشديدة للكاثوليكية قد أصبحوا رجالا بارزين فى بلاط رافنا عاصمة مملكة القوط الشرقيين فى إيطاليا .

وحين اكتشف ثيودوريك هذه المؤامرة كان رد فعله عنيفا ، فقد كان قلقا بشأن من سيخلفه على العرش ، ذلك أن الموت المفاجىء لم يبق من عائلته سوى إمرأة وطفل لخلافته ، إذا لم يكن هناك من يتطلع إلى العرش من زعماء القوط الشرقيين البارزين . وفى العامين الأخيرين من حكمه تخلى ثيودوريك عن سياسة التعايش وسجن البابا ، وأعدم بوثيوس وعددا من أبناء الارستقراطية الرومانية البارزين ، ولكن نجم مملكته كان قد أفل . وبدأ البيزنطيون فى استرداد إيطاليا فى السنوات العشر التى أعقبت موته .

---

(٩) هى الأسرة التى أسسها جستين الأول قائد الحرس الامبراطورى ، والتى برز من اعضائها الامبراطور جستنيان ابن أخت جستين الذى قام بآخر محاولات فرض السيادة الرومانية من جديد على الغرب .

(المترجم)

كان ثيودوريك ، من حيث سجاياه الشخصية ، أفضل ملوك الجرمان قبل شارلمان ، فقد كانت سياسته فى التعايش متماثلة مع أهداف الملكية الفرنجية سنة ٨٠٠ م من عدة جوانب . ومن ثم كان لفشل ثيودوريك فى تأسيس مملكة دائمة أعظم النتائج والآثار على أوربا فى العصور الوسطى ، فقد كان بوسع ثيودوريك أن يقيم فى عهدة سلطة عليا فى إيطاليا بيد أنه، فى حقيقة الأمر ، لم تكن لديه النية لفعل ذلك ، فقد كان هو نفسه يكن أعظم احترام لمجد روما ، وكان يريد أن يعيد بناء الامبراطورية فى الغرب ولكن تحت حكم ملك قوطى .

لقد انحرفت سياسة ثيودوريك نحو طريق الخطأ ، فأثار خوف الأباطرة البيزنطيين من أن تصبح مملكة القوط الشرقيين قوة عظمى بدرجة قد يستحيل معها أن تثبت بيزنطة سلطاتها فى ايطاليا . وخوفا من أن تنهض مملكة القوط الشرقيين كقوة بحر متوسطية تنافس بيزنطة ذاتها على سيادة عالم البحر المتوسط . وفى الوقت نفسه ، ونظرا لاحترام ثيودوريك للنظم والأفكار الرومانية فى إيطاليا فقد جعل القوط الشرقيين جماعة محايدة من الجنود الجرمان الذين لايتدخلون فى حياة البلاد الدينية والسياسية ، ولأن الملكية ظهرت على هذا القدر من القوة فى أيامه ، فقد ترك خلفاءه فى وضع مستحيل . إذ تركهم عرضه للهجوم المضاد الذى شنته عليهم القوة العسكرية البيزنطية فى عهد جستنيان . إلا أن ثيودوريك لم يكن قد اكتسب ولاء الشعب الايطالى بالدرجة التى تكفى لأن يتصدوا لحرب الاسترداد التى قام بها البيزنطيون .

وتظهر فى الصفحات الأولى من تاريخ الفرنجة مواقف كثيرة مناقضة لتطور القوط الشرقيين ؛ إذ كان الفرنجة أقل تأثرا بالثقافة الرومانية – وكان من الواضح أن ملوكهم أقل من أن يضارعوا ثيودوريك – ومع ذلك خرجت مملكة الفرنجة سالمة من غمار الفوضى والاضطراب اللذين سادا طوال القرنين الخامس والسادس ، وأصبحت أكبر وأهم مملكة قامت على التراب اللاتينى ، ومن ثم ارتبط تطور أوربا الغربية السياسى وتاريخها الثقافى والكنسى بمصير الملكية الفرنجية .

كان هناك فرعان على الأقل للشعب الفرنجى ، وقدر لأحدهما أن يلعب دورا هاما فى التاريخ ، وهم الفرنجة الساليون Salian Franks الذين كان موطنهم الأصلى غرب وسط المانيا الحالية ، وكانوا يعيشون فى منطقة بعيدة وراء حدود الراين كما كان اتصالهم بالرومان قليلا ، سواء من الناحية الاقتصادية أو من الناحية الثقافية . وبعكس القوط الشرقيين ، لم يعتنق الفرنجة المسيحية على أيدى المبشرين الآريوسيين ، وحين دخلوا الامبراطورية كانوا أجلافا

وثنيين يتسمون بالعنف . وفى المجتمع الفرنجى كانت الغالبية من المزارعين الأحرار ، وإذا كانت ثمة طبقة من النبلاء قد وجدت فى نسيج هذا المجتمع ، فإنها لم تكن قوية ، وحتى فى أوائل القرن السادس كان جيش الفرنجة يتألف أساسا من الجنود الفلاحين المشاة ، وعدد محدود جدا من الخيالة . وكان المظهر الحضارى الوحيد فى المجتمع الفرنجى الباكر متمثلا فى اهتمامهم بالزراعة ، وبسبب هذا الاهتمام بالزراعة ، ولأنهم - شأن كل الجرمان - كانوا يريدون الاقتراب من ثروة الامبراطورية ، حصل الفرنجة من الامبراطور جوليان المرتد فى منتصف القرن الرابع على حق الاستقرار على طول الحدود الشمالية فى إقليم الفلاندر Fland-ers وهنا تصبح المميزات الفريدة لحركة الهجرة الفرنجية واضحة تمام الوضوح ، فسرعان ماعمر الفرنجة موطنهم الجديد بعكس غيرهم من الغزاة الجرمان ، وكرسوا أنفسهم للزراعة وتركوا بصمات ديموجرافية واقتصادية ولغوية قوية على المنطقة .

ومصدرنا الأدبى الوحيد الهام عن تاريخ الفرنجة الباكر هو الكتاب الشامل الذى كتبه جويجورى أسقف تور (جريجورى التورى Gregory of Tours) أواخر القرن السادس. وبطبيعة الحال كانت المعلومات التى كتبها جريجورى أكمل ماتكون فى الفترة القريبة من عصره ، إلا أنه استطاع أن يمدنا ببعض المعلومات المتناثرة عن تاريخ الفرنجة فى القرن الخامس اعتماداً على التراث الشفوى الفرنجى ، ويعتبر كتاب جريجورى المسمى "تاريخ الفرنجة" - برغم مافيه من بعض مظاهر الضعف التى تشوب أسلوبه ، وأحكام المؤلف المسبقة القاسية - أكمل تقرير لدينا عن أى من الشعوب الجرمانية ، كما أن من مزايا هذا الكتاب أنه يمدنا بدليل لأسماء الأمكنة فى تاريخ الفرنجة المبكر ، ونستطيع من خلال دراسة الجذور اللغوية لأسماء الأماكن فى إقليم الفلاندر وشمال فرنسا أن نتخيل كيف تمت الهجرة الفرنجية صوب الجنوب من إقليم الفلاندر إلى داخل غالة .

وبينما كانت القوة الرومانية آخذه فى التحلل والإنهيار فى القرن الخامس ، بدأ الفرنجة يتحركون فى بطء باتجاه الجنوب إلى داخل الامبراطورية ، وهناك لم يشكل استقرارهم احتلالا عسكريا فحسب ، كما كان حال الشعوب الجرمانية الأخرى ، ولكنه كان استعمارا حقيقيا شاملا . ومن المحتمل أن تكون إحدى العائلات فى ذلك الوقت قد تولت زمام قيادة الشعب الفرنجى ثم ارتفعت إلى مكانة الأسرة الملكية الحاكمة . وحتى منتصف القرن الثامن كان العرش الملكى الفرنجى بمثابة الأملاك الخاصة لهذه الأسرة ، دون أدنى اعتبار لعدم الكفاية الشخصية التى اتصف بها كثيرون من سلالتها. وزعمت الأسرة الملكية الفرنجية أنها تنحدر

من صلب الآلهة ، وهو ما كان مألوفا بين الجرمان ، ونسبوا تأسيس الأسرة الملكية إلى بطل أسطورى يدعى ميروفيش Merovech وقد اختلف الميروفنجيون فيما بينهم فى القرن الخامس من حيث صفاتهم ، وظهر أن بعضهم يفتقر إلى الكفاية الحربية وصفات الزعامة ، بيد أن الشىء الذى ميز جميع الحكام الفرنجة الأوائل حتى سنة ٥٠٠ هو عداؤهم شديد للثقافة الرومانية . وربما يكون الفرنجة قد خضعوا لسيادة القادة الرومان الأواخر فى غالة لمدة عشر سنوات أو نحو ذلك فى منتصف القرن الخامس . ويفسر لنا "هذا النير الرومانى الشديد الوطأة" على حد تعبير الوصف الذى جاء فى مقدمة القانون السالى ، حين نربطه بوحشية الفرنجة وبربريتهم الوطنية ، سبب كراهية الفرنجة للرومان ، وليس هناك مثيل لهذا الموقف السلبى من جانب أى من الغزاة الجرمان السابقين .

وبحلول العقد الثامن من القرن الخامس كان الفرنجة قد استقروا بأعداد كثيفة فى الأجزاء الشمالية من غالة ، وانسابوا نحو شمال مدينة باريس الرومانية القديمة ، وبينما كانوا يتحركون فى الأقاليم الوسطى والجنوبية جوبهوا بكثافة سكانية نسبية من الغالورمان ؛ وبالتالى كان تأثير الفرنجة على اللغة والنظم فى هذا الجزء من البلاد قليلا . ولأن السكان الغالورمان فاقوا الغزاة الفرنجة كثيرا فى عددهم فقد ظلت العامية اللاتينية لغة البلاد بأسرها ، بل إن الفرنجة أنفسهم مالبثوا أن تكلموا باللسان اللاتينى .

وفى ظل ظروف الفوضى وعدم التنظيم التى تفشت فى غالة فى القرن الخامس لم ينقص الفرنجة سوى قائد قوى يتقدم بهم من معقلهم الشمالى لفتح البلاد كلها ، وقد وجدوا ضالتهم فى كلوفيس الأول Clovis (٤٧١-٥١١) أفضل الملوك الميروفنجيين ، والذى وطد حكمه الطويل دعائم السيطرة الفرنجية غرب الراين .

وتبدو صفات كلوفيس الهمجية واضحة تماما فى صفحات كتاب جريجورى التورى ، كما يظهر كلوفيس فى الوقت نفسه فى صورة القائد الحربى الشديد المراس والداهية فى الشئون الاستراتيجية . وبعد سحق الجيوش الغالورمانية نهائيا أخضع كلوفيس شعوبا جرمانية أخرى كانت تعيش على طول الضفة الغربية لنهر الراين ثم مهد كلوفيس لخطواته التالية بتعميده وجيشه كله على يد كبير أساقفة رينس Rheims وعلى الرغم من الهالة الأسطورية التى أحيطت بها قصة إعتناق كلوفيس للمسيحية فيما بعد ، فإن سبب اعتناقه للمسيحية سنة ٤٩٦ كان بسيطا ، ذلك أنه رأى أن اعتناقة المسيحية على المذهب الكاثوليكى سيجعل منه الملك الجرمانى الوحيد الذى يتمتع بإيمان صحيح فى غالة - بل فى الغرب بأكمله ، ومن ثم

فسيكون من الأسهل بالنسبة له ، وبوصفه البطل الكاثوليكى ، أن يستحوذ على ولاء السكان الغالو - رومان كلما مضى فى توسعاته . وعلاوة على ذلك ، فإن اعتناقه للمسيحية الكاثوليكية سوف يكسبه تأييد رجال الكنيسة الذين كانوا بمثابة القوة السياسية والاقتصادية والمعنوية الوحيدة الموجودة فى جميع أنحاء غاله . ولاتبين لنا حماسة جريجورى التورى ، المتحدث باسم الكنيسة الفرنجية فى القرن السادس ، أن اعتقاد كلوفيس كان فى محله فحسب بل تبين أيضا أنه نجح فى أن يحيط نفسه بهالة مقدسة ، وفى رواية جريجورى التورى نجد الزعيم البدائى المتوحش الذى يقود عصبة الحرب الفرنجية يتحول بعد اعتناقه المسيحية الى قسطنطين جديد .

وإذ توطدت سلطة كلوفيس بفضل تأييد الكنيسة ، واصل فتوحاته ، فتحرك أولا نحو الشمال الغربى ، أى فى الأراضى الواقعة مابين نهر السين ، ونهر اللوار ، ونجح فى اخضاعها رغم أن هذه المنطقة ظلت منفصلة خلال الشطر الأعظم من التاريخ الفرنسى الوسيط، وأخيرا ، أصبح كلوفيس مستعدا لتنفيذ مشروعه العظيم ، وهو فتح المنطقة الواقعة تحت حكم القوط الغربيين من بلاد الغال ، أى إقليم أقطانيا Aquitainc . وتمكن فى بداية الأمر من تحييد البرجنديين سنة ٥٠٠م بأن عقد معهم معاهدة تحالف ، وترك لأبنائه مهمة إخضاع البرجنديين ، وتم له ذلك فى العقد الثالث من القرن السادس . وعلى الرغم من أن القوط الغربيين كانوا قد شادوا مملكة شاسعة تمتد من أسبانيا حتى أقليم بريتانى Britany كانت عاصمتها تولوز Toulouse؛ فقد تعرضت مملكتهم لكثير من العوامل التى أدت إلى سقوط مملكة القوط الشرقيين ، إذ أنهم كانوا مجرد محتلين عسكريين ولم يكونوا مستعمرين، كما أنهم كانوا آريوسيين ، وكان انتصار كلوفيس على القوط الغربيين سريعا وحاسما ، وقد منحته الكنيسة تأييدها التام فى هذا الغزو . وفى رواية جريجورى التورى يبدو الفتح الفرنجى لتولوز فى صورة الحرب المقدسة . وفى الوقت نفسه ، تقريبا ، عقد كلوفيس معاهدة تحالف مع الامبراطور البيزنطى ضد القوط الشرقيين ، وفى سنة ٥٠٧م أعلن الامبراطور مباركته للغزو الفرنجى لغالة ، وذلك بأن خلع على كلوفيس لقبى قنصل Consul وأغسطس augustus كلقبين شرفيين ، وقصد بهما إضفاء صفة القدسية فى صيغة رزينة على تحالف الامبراطور وملك الفرنجة ضد القوط الشرقيين ، والاعتراف بسيادة كلوفيس فى غالة ، وهكذا استطاع كلوفيس رغم عدم احترامه للنظم والأفكار الرومانية ، أن يحوز موافقة الامبراطورية على فتوحاته .

وبقيت خطوة واحدة فى طريق تأسيس مملكة الفرنجة ، وهى اتخاذ باريس عاصمة لهذه المملكة . فقد كانت باريس تقع داخل المنطقة التى كان الاستعمار السالى فيها كثيفا ، ولكن الكنيسة الفرنجية - الغالورمانية الجديدة كانت قادرة على أن تجد فى باريس مجدا كبيرا فالحقيقة أن الرواية التى شاعت عن القديس دونى St. Denis تلميذ القديس بولس ، بأنه كان أول أساقفة باريس واستشهد فى هذه المدينة ، هذه الرواية اكتسبت أهمية كبيرة فى مطلع القرن السادس من جديد ، وشجع كلوفيس والكنيسة هذه الأسطورة وصارت باريس إحدى المدن المقدسة فى العالم المسيحى ، كما صارت مونمارتر Montmartre موضعا لاحدى المزارات الشعبية . وعن طريق ربط باريس بالقديس دونى ، أكد كلوفيس مكانته كبطل جرمانى للمسيحية الكاثوليكية ، فقد كان يعلم تمام العلم أن هذا الدور الذى قام به هو الذى سهل الغزو الفرنجى لغالة تماما .

وكان قهر غالة شيئا ، وكان حكمها شيئا آخر ، فقد كان تأثير الميروفنجيين كحكام أقل كثيرا من تأثيرهم كقادة لعصبة الحرب الفرنجية . وفى كل الظروف كانت الأسرة الميروفنجية غارقة فى الصعاب والمتاعب الناتجة عن المفاهيم السياسية القاصرة للشعب الجرمانى ، وفوق ذلك لم تكن المملكة الفرنجية تقتصر فقط على مايعرف اليوم باسم فرنسا بل شملت أيضا شطرا كبيرا من النصف الجنوبى من ألمانيا الغربية ، وامتدت هذه المملكة لتغطى مساحة شاسعة من الأراضى ، بحيث عجزت عن إدارتها نظم ومؤسسات القرن السادس المحدودة . ولكن أخطاء كلوفيس وخلفائه ، وعدم الكفاية السياسية التى اتصف بها معظم الحكام الميروفنجيين ، جعلت الموقف يزداد سوءا ، وكانت النتيجة أن صارت السلطة السياسية فى فرنسا فى مطلع القرن السابع بأيدى الطبقة الارستقراطية المحلية فى المقاطعات ، بينما تبقى للأسرة الملكية التاج الملكى ولاشىء سواه .

ومن المؤكد أن الحاكم الميروفينجى فى عهد كلوفيس كان يحكم من مركز ظاهر القوة بل من موقع الحكم المطلق - مع موارد ضخمة ، واعتبر كلوفيس وخلفاؤه أن البلاد أملاك خاصة بهم، ومن ثم فإنه حين يكون لاحد الملوك أكثر من ابن كان يأمر بتقسيم الأملاك الملكية بين ورثته كما كان يقسم التاج أيضا فيما بينهم . ولأن الحكام الميروفنجيين قبضوا على التاج وموارده على أساس أنها ممتلكاتهم الخاصة ، فقد مارسوا الحكم دون استشارة أحد : وتمثلت النتيجة فى خليط مذهل فى غرابته من الفوضى والأوتوقراطية البدائية ، ولم يقدم الحكام الميروفنجيون للشعب شيئا سوى قيامهم بالحملات العسكرية بين الحين والحين ، كما كانوا يقضون أوقاتهم فى أرضاء نزواتهم وإثراء أقاربهم ومواليهم .

وحين يكون هناك أكثر من ملك - وهو ما كان شائعا أثناء القرن التالى لموت كلوفيس - كان اهتمامهم الرئيسى يتركز فى محاربة كل منهم للآخر وقتله ؛ ولذا فإن تاريخ الأسرة الميروفنجية فى القرن السادس وأوائل السابع عبارة عن رواية غاصة بالخيانات والمذابح .

ولم يبذل هؤلاء الرؤساء البدائيون أية محاولة للحفاظ على النظام الإدارى الرومانى ، ولم يتبق لنا من وثائق فرنسا الميروفنجية سوى بعض المواثيق السيئة الصياغة .

ومن الواضح أن أعمال الملكية كانت تتم دون أية إمكانيات ، وكان المظهر الوحيد من مظاهر الحكومة الرومانية الذى حاول الميروفنجيون أن يحافظوا عليه هو النظام الضريبى . بيد أنهم فى هذا الصدد كانوا يفتقرون إلى الموظفين الأكفاء المخلصين ، كما لم يكن ثمة شعور عام بأن هناك ماتدفع الضرائب من أجله ، وبحلوا عام ٦٠٠ أندثرت كل آثار النظام الضريبى الرومانى . فقد كان الملك الميروفنجى الذى يريد التخلص من أحد موظفيه يرسله لجباية الضرائب ؛ حيث لايسمع عنه أبدا بعد ذلك . وكان النبلاء الفرنجة الغالورومان الذين تجمعوا وتآلفوا بسرعة متفقين فى عدوائهم لهذه الملكية التى لم تساهم بشىء لصالحهم ؛ بل جلبت عليهم نظاما بائسا يتسم بالطمع والعجز .

وحاول الميروفنجيون أن يكسبوا فى خدمتهم بعض النبلاء عن طريق منحهم الوظائف المصحوبة بالإقطاعات ، أى الأملاك المرتبطة بالوظيفة لكى تضمن إخلاص صاحب الوظيفة فى خدمته للملك . وفى النهاية حول النبلاء المقربون هذه الوظائف والإقطاعات إلى ممتلكات خاصة، وكونوا من أنفسهم أسرات حاكمة فى المقاطعات ، وهكذا تحولت ألقاب مثل دوق Duke الذى كان فى الأصل لقبا دالا على الممثل العسكرى المحلى للملك ، ولقب كونت Count الذى كان يطلق فى الأصل على المندوب القانونى الملكى ، إلى ألقاب أرستقراطية يتوارثها جيل بعد جيل مع مايحلق بها من إقطاعات فى العائلات الأرستقراطية الكبيرة .

ومع بواكير القرن السابع كانت الملكية قد جردت تقريبا من كل سلطتها على أيدى أرستقراطية الولايات ، فلم يترك للملوك الميروفنجيين سوى ظل من سلطانهم الأصلى ، وجزءا ضئيلا جدا من الممتلكات الملكية لمملكة تسودها الفوضى التامة من الناحية السياسية ، إذ كان الولاء كله مكرسا للحاكم المحلى ، بينما لم يكن للملك نصيب فى هذا الولاء . وقد مكن ملوك القرن السادس - الذين كرسوا جهودهم للإقتتال ضد بعضهم البعض - للارستقراطية من عملية اغتصاب النفوذ الحكومى ، والاستيلاء على ثروة الأسرة الميروفنجية ، وكان كل الحكام الميروفنجيين فى القرن السابع أما نساء أو أطفالا تقريبا ، هؤلاء الحكام الذين لايستحقون

عروشهم هم الذين كانوا يحددون دائما علامة البداية فى طريق نهاية السلطة الملكية طوال العصور الوسطى المبكرة .

أما الكنيسة ، أو بالأحرى أساقفة غالة الذين قدموا للكنيسة كل قياداتها ، فقد خاب أملهم إلى حد بعيد فى الأسرة الميروفنجية بسبب ما أصابها من تدهور ، إذ بنى رجال الكنيسة تحالفهم مع كوفيس الأول ، وعقدت الآمال العظيمة على الفوائد المتبادلة التى كان يمكن جنيها من وراء هذا الاتحاد بين الأسرة الملكية والأساقفة الكاثوليك . ولكن خلفاء كلوفيس بلغوا درجة من العجز والبدائية جعلت الأساقفة ينحازون إلى النبلاء ضد الملكية فى أواخر القرن السادس . ويكشف لنا أحد الأساقفة فى زمن لاحق ، وهو جريجورى التورى ، عن نظرة رجال الكنيسة فى أواخر القرن السادس . فبالرغم من أن جريجورى التورى كان أفضل تعليما من أى من زملائه القساوسة فإن رؤيته كانت محدودة وذاتية فقد انصرف عن خلفاء كلوفيس بسبب ضجره من جرائمهم وحماقتهم ، وأخذ يندب انهيار التحالف الذى كان قائما فى بداية القرن السادس بين الملكية والكنيسة ، وإذا كان هناك من يتباهى بقسطنطين الثانى الفرنجى ؛ فهم أحفاد كلوفيس فقط ولكن جريجورى (مبتدع هذا اللقب) أخذ منذ فقد الأمل فى إعادة بناء التحالف القديم بين الأسرة الملكية والكنيسة يكرس نفسه بصفة أساسية لتشييد ثروة ومكانة كنيسة تور ، على نحو ما كان أى دوق أو كونت يكرس نفسه لخدمة مصالح أسرته .

وهكذا ، دفع الوضع السياسى لملكة الفرنجة - بما كان له من تأثير على النزعات المحلية والإقليمية - برجال الكنيسة إلى أن يرموا بثقلهم فى جانب الأرستقراطية ، كما أن الكنيسة بتخليها وانفصالها عن الملكية الفرنجية فى القرنين السادس والسابع سببت ضعفا متزايدا باستمرار فى كيان الأسرة الميروفنجية . وكانت الكنيسة هى فقط القادرة على تقديم القيادة الكفء والموظفين المطلوبين لبناء حكومة قادرة فى فرنسا . ولكن الأساقفة باتباعهم سياسة الانفصال عن الملكية ، أضروا الكنيسة فى ذاتها بهذه الخطوة أيا كان المبرر الذى يمكن أن يوضح موقفهم فى ضوء انعدام الكفاية الشخصية لأفراد الأسرة الميروفنجية . لقد كانت الكنيسة الغالية الرومانية القديمة ، التى تألقت سنة ٤٠٠ بفضل ثقافتها وإخلاصها . قد صارت سيئة السمعة سنة ٧٠٠ بسبب جهلها وافتقارها إلى النشاط، وكان السبب الرئيسى فى هذا كامنا فى اتجاه جريجورى التورى وزملائه إلى ربط مصالحهم بمصالح النبلاء الذين صارت أنانيتهم ونزعتهم الاقليمية من خصائص رجال الكنيسة فى فرنسا فى القرن السابع ، ولو كان قد ظهر من بين الميروفنجيين عدد قليل من الحكام من طراز ثيودوريك ملك القوط الشرقيين ، لكان من الممكن بالتأكيد تجنب تدهور الكنيسة الفرنسية والملكية الفرنسية معا فى أواخر القرن السادس والقرن السابع .

وقد لعبت الملكية الميروفنجية دورا صغيرا فى التأثير على مجرى التغيرات الاجتماعية العظيمة التى طرأت على فرنسا فى القرنين السادس والسابع ، وبينما لم تبذل القيادات الملكية والكنسية فيما بين سنة ٥٠٠ وسنة ٧٠٠ سوى القليل من أجل إقامة نظم دائمة ، تم اندماج العناصر الفرنجية بالعناصر الغالورومانية على النحو الذى خلق البناء الاجتماعى الذى كان على الزعامة أن تتجه نحوه وأن تناضل من أجله فيما بعد . إذ كان المجتمع الفرنجى أوائل القرن الخامس منظما على أسس بسيطة نوعا ما ؛ فلم تكن الأسرة الملكية والنبلاء يشكلون أكثر من عشر الشعب الفرنجى ، وفى أسفل السلم الاجتماعى فى مجتمع الفرنجة الساليين كانت تقبع جماعة تكون حوالى ٧٠٪ من الشعب وتتألف من الفلاحين الأحرار والجنود . وقد استقطبت هذه المجموعة الكبيرة تحت ضغط الغزوات والحروب التى شهدها القرن الخامس ، إذ برز من صفوفها عدد قليل فى مجال القيادة العسكرية ولحقوا بطبقة النبلاء بينما فقد الكثير حريتهم وهبطوا فى السلم الاجتماعى درجة أدنى أو أكثر .

وزاد اندماج السكان الوطنيين من الغالورومان بالمجتمع الفرنجى من سرعة التدهور ، وذلك لأن كثيرين من الفرنجة الأحرار فقدوا حريتهم ، ولما كان النبلاء الفرنجة قد ربطوا أنفسهم بالارستقراطية ، فإنهم حاولوا بطبيعة الحال إجبار الجندى الفلاح الفرنجى على حال من العبودية معادلة لما كانت عليه أحوال الطبقة الدنيا فى المجتمع الغالورومانى . فقد كان مايقرب من نصف سكان غالة سنة ٤٠٠ أناسا غير أحرار ، وكان ٣٠٪ منهم على الأقل عبيدا لاحقوق لهم ، أما الباقون فكانوا مزارعين شبه معدمين Coloni وعلى قمة السلم الاجتماعى فى غالة تربع ملاك الأراضى الأثرياء الذين كان منهم دائما الأساقفة وغيرهم من زعماء الكنيسة وشكلت طبقة الملاك هذه حوالى ١٥٪ من مجموع السكان ، بينما تألفت نسبة الخمسة عشر بالمائة الباقية من الفلاحين الأحرار وصغار الكنسيين . وأخيرا سنة ٤٠٠ ، لاسيما فى جنوب فرنسا حيث كان السكان أكثر كثافة ، عاش الكثيرون من سكان المدن الذين لاينتمون إلى ملاك الأراضى أو إلى طبقات الفلاحين المختلفة ، وهؤلاء البورجوازيون الذين عملوا بالتجارة والصناعة كانوا يشكلون حوالى ٢٠٪ من مجموع سكان غالة .

وما أن بزغت سنة ٦٠٠م حتى كان المجتمعان الغالورومانى والفرنجى قد امتزجا تماما ، وظهر بناء اجتماعى فرنسى جديد ، فقد كان التزاوج بين العائلات الفرنجية والعائلات الغالو - رومانية سريعا وشاملا . ويعتبر جريجورى التورى آخر أساقفة غالة الذين يمكنهم أن يزعموا أنهم انحدروا من صلب الارستقراطية الغالورومانية تماما ، وقد تميز المجتمع الفرنسى الجديد بمجموعة كبيرة من الأقنان الذين كانوا يمثلون أدنى فئة فى المجتمع . وربما تكون نسبتهم قد

بلغت نحو ٦٠٪ من مجموع السكان ، وتكونت طبقة الأقنان من غير الأحرار فى المجتمع الغالو - رومانى والمجتمع الفرنجى المبكر ، بالإضافة الى العديد من الرجال الأحرار من الفلاحين الفرنجة المطحونين . ولم يكن القن عبدا شخصيا لسيده ، بل كان مرتبطا بالأرض وكانت له حقوق قانونية واقتصادية معينة ، وكان المفروض أن يقوم السيد بحمايته وأن يمده بوسائل العون الاقتصادى رغم أنه كان من المألوف أن يتجاهل السيد كلا الأمرين معا ، إذ كان كا مايبغيه من القن هو العمل فى أرضه وضياعه أو جزءا من محصوله ، وربما كان يطلب الأمرين معا . وكان ثمة تدرج كبير داخل طبقة الأقنان ، فقد كان بعض الأقنان ميسورى الحال تماما ، على حين كان البعض الآخر على حافة الموت جوعا ، ومع ذلك ، فإذا كان هناك اختلاف فى منشأ هذه الطبقة المستعبدة من الناحية الاقتصادية فإنه كان هناك وضع قانونى واحد يجمع أفرادها ، إذ لم يكن باستطاعة القن أو أحد أفراد أسرته أن يترك ضيعة السيد - أو الدائرة Manor كما عرفت فيما بعد - وكان القن ملتزما بأن يقدم جهده وواجبات التبعية لسيده ، كما كان واقعا تحت طائلة اختصاص المحكمة الواقعة فى دائرة السيد والتابعة له .

وربما كان القن أسعد حالا من عبيد الضيعة الرومانية Latifundia وربما كانت كمية طعامه أقل ، ولكنه تمتع بقدر أكبر من الحرية الشخصية ، وهو ما دعا بعض المؤرخين إلى الكلام عن "الاصلاح الاجتماعى " فى فرنسا القرن السادس حين أخلى نظام العبودية الرومانى مكانه لنظام القنية الذى عرفته العصور الوسطى . ومن الممكن تبرير هذا الحكم بالقول بأن البؤس الكلى قد استبدل ببؤس جزئى ، بيد أن التحول فى وضعية الفلاحين الاقتصادية والقانونية لم يستطع أن يرتفع بأكبر طبقات المجتمع وأدناها مرتبة عن مستوى الوجود الحيوانى ، وحتى القرن الثانى عشر على الأقل لم تكن حياة فلاح العصور الوسطى تختلف عن حياة حيوانات الحقل ، كانوا يكدون ، ويربون ، ثم يموتون ، كما كانوا يفتقرون فى القرن السادس حتى إلى مايمكن أن يقدمه لهم القسيس المحلى من الراحة والطمأنينة . إذ لم تكن هناك أبرشيات حتى ذلك الحين وكان الذى يقوم بتلبية مطالب الفلاحين الدينية هو القسيس الذين كان يزورهم بين الحين والآخر ترسله كاتدرائية أقرب مركز أسقفى ، وإذا كان فلاح القرن السادس أو القرن السابع يرى القسيس ويتلقى الأسرار المقدسة مرة فى العام فإنه كان يعد محظوظا للغاية . وفى مثل هذه الظروف لن يدهشنا أن نعرف أن مسيحية طبقة الأقنان كانت مسيحية إسمية تماما ، فسواء تم تعميد الفلاح أم لم يتم ، فإنه كان يستمر فى عبادة قوى الطبيعة كما كان يفعل من قبل وحتى عندما كان يفكر فى كونه مسيحيا ، وكانت رؤيته الدينية محكومة بعبادات الاخصاب والخرافات ، لقد كان عالم المسيحية بالنسبة لفلاح العصور الوسطى الباكرة خليطا من القديسين ، والآثار المقدسة والعفاريت .

وفى سنة ٦٠٠ كانت أعداد الطبقة الوسطى فى كل من المجتمع الفرنجى المبكر والمجتمع الغالو - رومانى قد تناقصت إلى حد بعيد . ومن المحتمل أنه لم يكن هناك أكثر من ١٠٪ من جمهور الفلاحين يحتفظون بحريتهم ، وقد تضمن هذا العدد صغار رجال الكنيسة . ومع تدهور فرنسا الاقتصادى ، والتناقص السريع فى عدد المدن الذى حدث فى أعقاب الغزوات الفرنجية اختفت الطبقة البورجوازية تماما ، ومن المؤكد أنه لم يكن هناك أكثر من ٣٪ بين الفرنسيين سنة ٦٠٠ يسكنون المدن .

وعلى قمة الهرم الاجتماعى تربعت أقلية من الناس تمتلك ثروات خاصة طائلة ، كما تتمتع بالنفوذ والسلطان . وتكونت هذه الفئة من العائلة المالكة وأرستقراطية الولايات الكبار - أى الدوقات والكونتات بضياعهم الشاسعة وسلطانهم الاقليمى . ولم تكن هذه الطبقة المكونة من كبار الملاك - والتى يحتمل أنها ضمت الأساقفة وبعض القساوسة الهامين - تشكل أكثر من ٢٪ من مجموع السكان . وبالاضافة إلى هذه الطبقة الارستقراطية الكبيرة ، وجدت مجموعة كبيرة للغاية من الملاك المتواضعين والجنود الأحرار العاديين ، وكان بعض هؤلاء من ملاك الأراضى الأثرياء ولكن البعض الآخر لم يكونوا أكثر من جنود مأجورين وهم الذين كانوا يشكلون جيوش الملك والارستقراطيين . وربما كانت نسبة طبقة الملاك العاديين والجنود هذه قد بلغت حوالى ٢٥٪ من سكان فرنسا سنة ٦٠٠ .

أما البناء الاجتماعى فى فرنسا التى كانت أهم مملكة قامت على أنقاض الامبراطورية الرومانية الغربية فقد كان محكوما بالسادة والأقنان ، لقد اختفت الحياة الحضرية تماما ، وانحصرت الزعامات كلها فى طائفة صغيرة من الأمراء الملكيين وكبار الأرستقراطيين ، وكان اهتمام أولئك الرجال الأساسى منصبا على تكوين ثروات عائلاتهم ونفوذها ، وكانوا ينفقون معظم سنى حياتهم فى الحرب ، كما أنهم جهلوا فنون الحكم وعميت أبصارهم عن روية مثل العدالة والسلام . ولم يكن لديهم أى فهم للمشكلات الاقتصادية ، وكانت المسيحية بالنسبة لهم عالما من السحر ، والمعجزات وسير القديسين . ومن المحتم أن تؤدى بنا المقارنة بين هؤلاء القادة وبين رجال من أمثال ثيودوسيوس الأول وأوغسطين وسيماخوس ، إلى استنتاج أن انهيار الامبراطورية الرومانية الغربية كان كارثة سياسية واقتصادية وثقافية من أفدح ما يمكن .

الفصل الخامس

بيزنطة والاسلام (١)

١- لعنة السلطة البيزنطية

خضعت نظم الحكم ، والمجتمع والاقتصاد فى الغرب لعوامل التغير والتحول بفعل الغزوات الجرمانية ، بيد أن أوربا لم تترك لكى تتمتع وحدها بثمار هذه التغيرات الكبيرة فى القرنين السادس والسابع ، فقد تعرض عالم البحر المتوسط للغزو مرة أخرى من جانب البيزنطيين والمسلمين ، ولم يكن تأثير بيزنطة والإسلام على نفس درجة التأثير الجرمانى على أوربا الغربية ، إلا أن أهداف جستيان الأول ، ومحمد صلى الله عليه وسلم لعبت دورا هاما فى تشكيل الحضارة الأوربية الحديثة .

ولقد كانت حدود الإمبراطورية الرومانية الشرقية على الدانوب ، والتى كانت حمايتها من مسئولية حاكم القسطنطينية ، هى أول ما اخترق الجرمان من حدود العالم الرومانى ، كما كانت أول هزيمة كبرى لحقت بالجيوش الرومانية على أيدى الجرمان هى تلك التى لحقت بالامبراطور الشرقى فى معركة أدرنة (أدريانوبل Adrianople) . وعلى الرغم من ذلك ، فإن الإمبراطورية الغربية هى التى إنهارت فى القرن الخامس ، فلماذا إذن نجت الامبراطورية البيزنطية من الغزوات الجرمانية وعاشت بعدها ؟ من الممكن أن نقدم بعض الإجابات على السؤال . فأولا : كان سكان الامبراطورية الشرقية يتفوقون كثيرا من حيث العدد على سكان الجزء الغربى اللاتينى من حوض البحر المتوسط ، كما كانوا يتفوقون عليهم فى مستواهم الحضارى . ولم يكن الجرمان على درجة من الجهل بحيث لايدركون أنهم سوف يواجهون مهمة أكثر صعوبة إذا ما اتجهوا صوب الشرق بعد عبورهم لنهر الدانوب . ثانيا : أن الامبراطورية الرومانية الشرقية ، وجدت فى القسطنطينية المنيعة بؤرة ومركزاً للحكم والثقافة والاقتصاد ، ولقد احتاج الأمر من المسلمين الذين كانوا يتفوقون على الجرمان عسكريا ، إلى سبعة قرون من الزمان حتى نجحوا فى الاستيلاء على القسطنطينية ، ومن الواضح أن الجرمان كانوا سيواجهون بالفشل أمام القسطنطينية ؛ وهو الأمر الذى أدركه الجرمان تماما . ومع ذلك فانه لم يكن هناك طريق آخر يمكن أن يدخل منه الجرمان إلى الشطر الغنى من الامبراطورية البيزنطية،

---

(١) عنوان الفصل كما كتبه المؤلف هو "جستنيان ومحمد" Justinian and Mohammed .

سوى طريق القسطنطينية ذاتها ، وقد كان لأباطرة الغرب فى القرن الخامس قلعة حصينة أيضا هى رافنا ، ولكن الجرمان كانوا يمرون فى بجوارها فى يسر دون أن يتعرضوا لأية مخاطرة ثم ينسابون إلى داخل ايطاليا .

أما السبب الثالث فى بقاء الامبراطورية الشرقية فهو قدرة الحكام البيزنطيين وكفاءتهم أثناء القرن الخامس ، فقد قاموا بالإصلاحات الحكومية مثل تخفيض الضرائب الباهظة التى كان أباطرة القرن الرابع قد فرضوها لكى يضمنوا تأييد الشعب لهم . وقد شجعوا التعليم كما وضعوا مجموعة قانونية شاملة . فقد وضع المشرعون البيزنطيون أول مجموعة قوانين شاملة حوالى سنة ٤٢٥ ، اقتداء بمشرعى القرن الثالث ، وسميت هذه المجموعة باسم الامبراطور ثيودوسيس الثانى Theodosius II ، وكان الحكام البيزنطيون على درجة من الحكمة جعلتهم لايتركون زمام السلطة العسكرية إلى القادة الجرمان على نحو مافعل حكام الغرب ، وأخيرا ينبغى علينا أن ندرك أنه كان للغزوات الجرمانية تأثير متراكم على قوة الامبراطورية وثروتها فى الغرب ، وهو الأمر الذى أمكن للشرق أن يتجنبه . فبسبب ضياع أراضى الامبراطورية الغربية ضاعت منها أيضا موارد الضرائب ؛ وهو الأمر الذى أدى إلى تزايد الصعوبات التى واجهتها الحكومة فى سبيل الاحتفاظ بجيش قوى . كما أن نضوب مصادر القوة العسكرية من ناحية أخرى ، تسبب فى ضياع المزيد من أقاليم الامبراطورية مما زاد فى تدهور دخل الامبراطورية . أما الامبراطورية البيزنطية ؛ فقد استطاعت أن تتجنب مثل هذا الانهيار ، ومن ثم أمكنها أن تحافظ على منابع ضريبية ثابتة طوال القرن الخامس ، فضلا عن أن موقع القسطنطينية كمركز تجارى عظيم بين الشرق والغرب ساهم فى زيادة موارد الامبراطورية .

وقد بذل الامبراطور جستنيان الكثير من الجهد لتدبير الموارد ، لأنه كان مستعدا لاسترداد الغرب ، وإذ لم يكن هناك أمبراطور فى الغرب بعد سنة ٤٧٦ فقد أدعى الامبراطور الشرقى أن له السيادة على بلاد الغرب اللاتينى ، كما التزم بالمبدأ القائل بأن السلطة الإمبراطورية Imperium سلطة لاتقبل التحول وكان يتطلع إلى الوقت الذى سوف يتمكن فيه من إعادة بناء سلطته فى روما على نحو فعال . وفى مطلع القرن السادس بدا واضحا أن محاولات القوط الشرقيين لخلق إمبراطورية جرمانية فى حوض البحر المتوسط تشكل خطرا يحول دون تحقيق أهداف بيزنطة ، ونتيجة لذلك نفذ الامبراطور جستنيان فى سنة ٥٣٠ مشروعه لاسترداد الغرب ، وهو المشروع الذى كان أسلافه يعدون له على مدى قرن من الزمان .

لقد كان جستنيان الأول (٥٢٧-٥٦٥) صاحب أثر على تطور بيزنطة يفوق تأثير أى امبراطور آخر منذ زمن قسطنطين حتى القرن العاشر . وكان خال جستنيان قائدا مقدونيا وتمكن من الاستيلاء على عرش الامبراطورية ، ذلك الرجل هو الامبراطور جستين الأول Justin I (٥١٨-٥٢٧) الذى درب ابن شقيقته على مهام الحكم لكى يخلفه على عرش الامبراطورية ، ولاشك أن جستنيان كان أفضل حكام العصور الوسطى من حيث درجة تعليمه وما حباه الله به من ذكاء فائق ولو لم يكن القدر قد أتاح له فرصة الجلوس على عرش بيزنطة لكان من المحتم أن يصبح محاميا كبيرا ، أو عالما فى اللاهوت . وقد كان رجلا صارما متزمتا ، كما كان من أكثر الرجال كدا فى العلم من أجل الامبراطورية التى كرس لها نفسه ، أما زوجته ثيودورا Theodora التى كانت فيما مضى راقصة فى سيرك ، فقد تحولت إلى امرأة نابهة مرموقة ساعدت زوجها كثيرا ، فقد كانت الجماهير التى تحتشد فى المضمار البيزنطى قد نظمت نفسها فى فئات غريبة تشكل منتديات رياضية متعصبة وجمعيات سياسية . وفى أوائل حكم جستنيان - وأثناء حوادث الشغب التى ثارت بين هذه الفئات المتصارعة ، والتى لم يكن باستطاعة الامبراطور أن يسيطر عليها - أحس جستنيان أنه مرغم على التنازل عن العرش ، ولكن ثيودورا التى تحولت من مجرد عاهرة إلى امبراطورة لم تكن لتترك زوجها يتخلى عن عظمته الامبراطورية . وبالفعل استطاع جستنيان أن يستعيد السيطرة على الموقف[٢]، ومالبث أن تحول حكمه الذى كان على وشك السقوط إلى حكم ظل خالدا فى ذاكرة الأجيال لأسباب عديدة .

---

(٢) كانت أحزاب الملعب مما ورثته الامبراطورية البيزنطية عن الامبراطورية الرومانية القديمة ، وكانت فى البداية أربعة ثم اقتصرت فى نهاية الأمر على حزبين فقط هما : الخضر والزرق ، وكانت أحزاب الملعب (السيرك) تتمتع بقوة سياسية ضخمة مما حدا بالدولة إلى تعيين عدد كبير من الموظفين على رأس كل حزب يتولى انتخابهم عدد من الأثرياء الذين ينفقون على مؤسسات التدريب والسباق ، فضلاً عن ألعاب الدببة والكلاب والالعاب البهلونية التى كانت تجرى أثناء الاستراحة ، وكان الحزبان يشكلان خليطاً عجيباً من الانتماءات السياسية والاجتماعية والدينية فضلا عن الرياضة . وقد أثار النزاع بينهما كثيراً من الاضطرابات وفى بداية عهد جستنيان حاول أن يسيطر على زمام الأمور بإخماد الاضطرابات التى يسببها الزرق والخضر ، وحين حاول والى بيزنطة إعدام سبعة من الحزبين لاشتراكهم فى بعض الحوادث ثارت ثائرة الحزبين فاتحدا سويا وتحديا الامبراطور ، وسرعان ما اشتعلت نيران الثورة التى اتخذ المشاركون فيها كلمة Nika اليونانية (ومعناها إنتصر) لتكون كلمة السر ، وقد عرفت هذه الحركة باسم ثورة نيقا نتيجة لذلك . =

ولايزال هناك أثران باقيان من عهد جستنيان هما كاتدرائية أيا صوفيا St. Sophia (الحكمة المقدسة) فى القسطنطينية ، ومجموعة القانون المدنى Corpus Juris Civilis المعروفة بمجموعة جستنيان ، وتعتبر كنيسة أيا صوفيا أعظم منجزات فن العمارة البيزنطى لأن طرازها يخلد الطراز المعمارى للكنائس التى صممت فى أواخر العصر الامبراطورى على طراز البازيليكا Basilica الرومانية . ولكن حجم كاتدرائية أيا صوفيا وخصائصها الكلية جعلت منها واحدة من أبرز إنجازات الفن والهندسة المعمارية فى العصور الوسطى ، إذ أن داخل هذا البناء الفخم مزين بفسيفساء يصور الإمبراطور فى صورة ممثل الرب على الأرض ، بشكل يجعل منها دعاية لعقيدة الحكم الامبراطورى . وفى السنوات الأخيرة فقط أزيلت الطبقة التى كانت تغطى الفسيفساء والتى كان الأتراك قد وضعوها ؛ وهو الأمر الذى أدى إلى تسهيل تقدير المهارة والموارد التى سخرت لبناء الكنيسة الكبيرة التى افتتحها جستنيان ، كذلك شيد جستنيان كنيسة سان فيتالى St. Vitale فى رافنا ، وهى أيضا كنيسة لافتة للنظر بسبب فسيفسائها الفخم .

ومن بين جميع أعمال الأباطرة تعتبر مجموعة القانون المدنى أفضل وأهم الأعمال المعروفة من حيث تأثيرها على الحضارة ، وربما تكون مجموعة جستنيان هذه هى الإنجاز الرائد فى تاريخ التشريع ، وهى ليست أكثر من عملية لصياغة التاريخ القانونى لامبراطورية كبرى على مدى قرون عديدة فى مجلدات قليلة . ولم يكن من المستطاع أن يتم انجازها سوى برعاية أمبراطور يؤمن إيمانا راسخا بأنه "ليس هناك ماهو أجدر بالاهتمام من سيادة القانون" ويرحب بتكريس كل الموارد المتاحة فى دولته من أجل بدء هذا العمل الضخم وإنجازه . وكلف جستنيان أعظم مشرعى الامبراطورية لعمل مجموعته ، ووضع أمامهم برنامجا لإعداد مجموعة تضم جميع القوانين الرومانية على أساس من المنطق والترابط ومبادىء العدل وكل مايدعم السلطة

= وكاد الأمر يفلت من جستنيان وحاول الهرب ولكن شجاعة ثيودورا التى رفضت الهرب جعلت زوجها يتدارك الموقف فأمر جنوده بالقضاء على الفتنة ، كما قدمت رشوة للزرق لكى يتخلوا عن الخضر ، وانتهت المذبحة التى استمرت حتى منتصف الليل بقتل حوالى ثلاثين ألفا من الحزبين وكانت ضربة لم يفق منها الزرق والخضر أبداً.

لمزيد من التفاصيل أنظر موس : ميلاد العصور الوسطى (ترجمة عبد العزيز جاويد ، الألف كتاب ٦٢٣) ص ١٤٩-١٥٣، أومان : الامبراطورية البيزنطية (ترجمة د. مصطفى طه بدر ، القاهرة ١٩٥٣) ص ٥٩ ومابعدها .

(المترجم)

الامبراطورية ، ومجموعة جستنيان تحبذ الحكم المطلق إلى حد بعيد فالامبراطور يعتبر بمثابة القانون الحى ، كما أن لإرادته قوة القانون التى لاتقبل التحدى "فالامبراطور وحده هو الذى يستطيع أن يضع القوانين ولايجب أن يفسرها سواه" وتتناقض مجموعة جستنيان القانونية تناقضا جذريا مع قانون الشعب الجرمانى من حيث أن هذه المجموعة تكرس السلطة الاوتوقراطية ، ومن حيث ماتتسم به من عقلانية وتنظيم ، ومن حيث مبادئها السامية عن العدالة والمساواة ، ومن حيث التزامها نظام الاجراءات القانونية التى تبرز سلطة القاضى فى المحكمة باعتباره ممثلا للامبراطور .

ولم تكن مجموعة جستنيان تدرس فى الغرب فى العصور الوسطى الباكرة ، ولكنها صارت أساسا لجميع النظم التشريعية فى البلاد الأوربية باستثناء أنجلترا ، بعد منتصف القرن الحادى عشر . حقيقة أن قبول الغرب للقانون الرومانى على هذا النحو قد جلب نتائج سياسية سيئة - لأنه وضع الأساس القانونى للحكم المطلق الذى عرفته العصور الوسطى المتأخرة ، وأوائل العصر الحديث - إلا أن خصائص مجموعة جستنيان الأخرى تتفق كثيرا مع الاتجاهات التحررية والعقلانية ، وهو ماجعل من هذه المجموعة نظاما قانونيا لايبارى . فضلا عن أنه ينبغى علينا أن نتذكر أنه إذا كانت مجموعة جستنيان قد روجت لمبادىء الحكم الأوتوقراطى الامبراطورى الرومانى - البيزنطى ، فمن غير المحتمل أن يكون هناك أحد غير الحاكم المطلق يمكن أن تتوفر لديه الموارد والسلطة الكافية لانجاز مثل هذا العمل القانونى الهام . ومن خلال النظام القانونى العظيم الآخر فى تاريخ الثقافة الغربية ، وهو القانون الانجليزى العام ، تتجلى الحقيقة التى تؤيد هذا القول ، بل إننا فى العصر الحاضر لانعتد بدرجة تجميع القانون العام إذا ما قارناها بما بذله جستنيان فى سبيل إنجاز هذه المجموعة القانونية ، وإضفاء الصفة العقلانية عليها منذ ثلاثة عشر قرنا مضت .

ومن الممكن أن تكون كنيسة أيا صوفيا ، ومجموعة القانون المدنى آثارا كافية لأغلب الحكام ؛ ولكنها لم تكن كذلك بالنسبة لجستنيان ، ذلك أن جستنيان لم يهدأ حتى صار حاكما على المدينة الخالدة (روما) لعدة أسباب أولا : تقاليد الحكم الاوتوقراطى الامبراطورى. ثانيا : أن جو البلاط المحموم الذى كان يقدس الامبراطور قد رفعه إلى مرتبة نائب الجلالة السماوية. ثالثا : طموح جستنيان اللا محدود ، ولم يرد على بال الإمبراطور على الإطلاق أى تساؤل عما إذا كانت مثل هذه الحرب المرهقة لاسترداد الغرب فى صالح شعبه ورفاهيته أم لا ، وذلك لأن هذه لم تكن طريقة الأباطرة البيزنطيين فى التفكير . بل إن جستنيان لم يفكر حتى فيما

إذا كانت بيزنطة تملك من المواد ما يكفى لشن هذه الحرب الباهظة التكاليف لاستعادة الغرب ، وتجاهل تهديد الجرمان والسلاف والمغول على جبهة البلقان والامبراطورية الفارسية فى الشرق لأمن الامبراطورية . ولما كانت أطماع وتهديد القوط الشرقيين قد أثارت حفيظته فقد صمم جستنيان عند اعتلاء العرش على إعادة فرض سلطته " على البلاد التى كان الرومان القدامى يملكونها ، حتى حدود المحيطين ، والتى ضاعت بسبب " الاهمال المتوالى" . وإن إمبراطورا يزعم فى مجموعته القانونية الكبيرة أنه " التقى المحظوظ ذو السمعة الحسنة ، الفاتح ، المنتصر والمقدس إلى الأبد " ليس بالرجل الذى يحسب للفشل حسابا ، لقد أرسل جيشه وأسطوله لغزو شمال أفريقيا بعد سنوات ثلاث فقط من توليه العرش "معتمداً على عناية الثالوث المقدس".

وحتى قبل أن يرهق جستنيان موارد امبراطوريته العسكرية والاقتصادية فى ميادين المعارك بايطاليا ، فإنه كان قد حفر بسياسته الدينية مقبرة النفوذ البيزنطى . فمنذ القرن الرابع أخذ أباطرة بيزنطة يتعرضون للمتاعب بسبب المشكلات الدينية واستطاع ثيودوسيوس الكبير أن يقضى على المذهب الآريوسى ، ولكن مذاهب لاهوتية مخالفة جديدة استطاعت أن تستحوذ على تأييد كبير فى مصر وسوريا خلال القرنين الخامس والسادس ، وكانت هذه المذاهب مستوحاة من الفلسفة الافلاطونية من جهة ، ومن الشعور الوطنى الذى وجد متنفسا فى العقيدة من جهة أخرى ، فقد تخلت جموع كبيرة من أبناء مصر وسوريا عن المذهب التقليدى فى التجسد ، وأخذوا بالمذهب المونوفيزيتى Monophisite (مذهب الطبيعة الواحدة) ، الذى يزعم أن للمسيح طبيعة روحية واحدة ، وكان هذا الرأى ملعونا فى نظر الكنيسة اللاتينية فى الغرب لأنها كانت تؤمن بأن فى شخص المسيح طبيعتين ، احداهما إنسانية ، والثانية إلهية . هذا النزاع الدينى بين الكنيسة اللاتينية من جهة ، ومسيحيى مصر وسوريا من جهة أخرى ، وضع الامبراطور فى موقف صعب للغاية ، فاذا كان يريد أن يحوز رضاء وولاء البابا – الذى بدونه يتضاءل أمله فى استعادة سلطانه على ايطاليا – فانه لايستطيع موافقة المونوفيزيتيين على رأيهم : ومن ثم أرغم الامبراطور اساقفة الشرق فى مجمع خلقدنية Chalcedon ، الذى انعقد سنة ٤٥١ ، على قبول مذهب الكنيسة اللاتينية فى طبيعة المسيح بالصورة التى طرحها البابا ليو الأول ، بيد أن هذا لم يحل المسألة موضع الخلاف على أية حال . وفى أواخر القرن الخامس انحاز الإمبراطور إلى جانب المونوفيزيتيين ، مما جلب عليه سخط البابا جيلازيوس الأول . وأثناء الأعداد لغزو ايطاليا فى عشرينيات القرن السادس ، عاد الامبراطور جستين الأول إلى تأييد وجهة نظر الكنيسة الغربية حتى يضمن تأييد البابا له ضد القوط الشرقيين .

وواصل جستنيان سياسة خالد ، ولكن ذلك لم يكن إنطلاقا من الأسباب السياسية ذاتها ، ذلك أنه اعتقد ، بوصفه واحدا من رجال اللاهوت المتمرسين ، أن المونوفيزيتيين على خطأ ، وكان قراره هذا مبنيا على أسس مذهبية . وقد شن حملة إضطهادات قاسية ضدهم استمرت طوال حكمه وحكم خلفائه . وكانت النتيجة أن ساد السخط فى المدن الكبرى فى مصر وسوريا اللتين كانتا أهم أجزاء الامبراطورية وأكثرها قيمة بعد القسطنطينية . وبنهاية عهد جستنيان كان أتباع مذهب الطبيعة الواحدة المضطهدون قد تخلوا عن ولائهم للإمبراطورية البيزنطية . وأمست مصر وسوريا غنيمة سهلة لأى فاتح يبدى تسامحه تجاه المعتقدات الدينية لكنائس شرق البحر المتوسط المخالفة . وأيا ما كان يمكن أن يقال عن آراء جستنيان المذهبية من وجهة النظر اللاهوتية الخالصة فإن هذه الآراء قد جرت المصائب على وحدة الامبراطورية وأمنها ، على حد قول المؤرخ الكبير بيورى J.B.Bury الذى كتب عن تاريخ بيزنطة ، فقد علق على سياسة جستنيان الدينية بقوله : "إن وجود رجل لاهوت على العرش يمثل خطراً عاماً"[٦].

وهكذا كانت الآثار البعيدة المدى لمنازعات جستنيان مع المونوفيزيتيين فى غير صالح السلطة البيزنطية والنفوذ البيزنطى . فقد سهلت هذه المنازعات من إمكانية فتح ايطاليا بسبب المساعدات التى قدمتها البابوية للجيش الامبراطورى . والحقيقة أن جستنيان ، فى بداية حكمه ، مضى شوطا بعيدا فى سبيل كسب البابا إلى جانبه ؛ فقد أصدر مرسوما يعترف بفصل الاختصاصات التشريعية للكهنوت Sacredatium عن الاختصاصات الامبراطورية Imperium وكان من الطبيعى أن يتخلى جستنيان عن قبوله للنظرية الجيلازية على هذا النحو وأن يرجع كلية إلى سياسة القيصرية - البابوية التى كانت سياسة بيزنطية تقليدية ، ولكن سنة ٥٣٠ كان جستنيان على استعداد لأن يخاطر بكل شىء فى سبيل نجاح مغامرته الكبرى، وكان على استعداد لأن يخاطر بكل موارده العسكرية والاقتصادية فى سبيل استعادة روما . وكان مستعدا لأن يعادى جموعا كبيرة من السكان فى أكبر مدن الأمبراطورية ؛ بل وأن يتغاضى عن عقائد البابوية السياسية ، وهكذا تعلق مصير كل من بيزنطة والغرب الأوروبى على نجاح هذه المقامرة الكبرى .

كانت المرحلة الأولية من الغزو البيزنطى للغرب اللاتينى سهلة أمام الجيوش البيزنطية ، فقد هزمت قوات جستنيان ، تحت قيادة القائد العبقرى بلزاريوس Belisarius ، مملكة الوندال فى شمال أفريقيا فى سهولة ، وفى سنة ٥٣٣ كان بلزاريوس مستعدا لعبور البحر المتوسط إلى ايطاليا ، ورحب أسقف روما بالغزاة البيزنطيين ، وتخلى السكان الايطاليون والبابا عن

حكامهم من القوط الشرقيين الآريوسيين ، وكان القوط الشرقيون قد فقدوا ملكهم ثيودوريك ، ولم يكن هناك زعيم مثله يقودهم من بعده ؛ بيد أنهم على عكس الوندال ، لم ينسوا كيف يكون القتال . كان من شأن أى انتصار عسكرى سريع فى ايطاليا أن يجعل من خطة جستنيان حقيقة واقعة ، وأن يعيد عقارب الزمن إلى القرن الرابع (٣).

وبدلا من أن يحدث ذلك انقضت حوالى ثلاثين عاما حتى تمكن البيزنطيون من القضاء على مقاومة القوط الشرقيين . وقد عرفت هذه الحرب التى دمرت اقتصاد ايطاليا بالحرب القوطية ، إذ عانت ايطاليا من ضربة قاصمة لم تفق منها حتى القرن العاشر ، وبمنتصف القرن السادس حدث انهيار ملحوظ فى الحياة الحضرية ؛ فقد كانت كبريات المدن الايطالية مثل روما ونابولى وميلانو تعانى من نقص مخيف فى السكان ، وتحولت مدن البحر المتوسط الكبرى إلى مدن خاملة . وفى سنة ٥٠٠ كتب أحد المعاصرين يقول: "لم يبق لسكان ايطاليا شىء سوى الموت" وتعتبر الحرب القوطية بمثابة نقطة التحول الحاسمة فى تاريخ إيطاليا الاقتصادى والاجتماعى فى العصور الوسطى الباكرة ، ذلك أن هذه الحرب كانت تدهورا وانهيارا يفوق فى نتائجه الغزوات الجرمانية التى حدثت فى القرن الخامس كثيرا ، لقد تدهورت إيطاليا بسرعة ، وفقدت مكانتها كزعيمة لأوربا على الصعيد الثقافى والاقتصادى ، ولم تبدأ فى استرداد هذه المكانة إلا فى أواخر القرن الحادى عشر .

ولقد كانت الحرب القوطية الطويلة كارثة كبرى بالنسبة لكل من الدولة البيزنطية وإيطاليا ، إذ أن جستنيان قد اضطر ، فى سبيل تنفيذ سياسته الاستردادية إلى إعادة فرض الضرائب التى كانت تفرضها الامبراطورية الرومانية ، ولكن فى صورة أسوا ، مما أدى إلى إرهاق موارد

---

(٣) الحقيقة أن مسألة اعادة الزمن فى العملية التاريخية أمر مستحيل ، وذلك أن الزمن فى صيرورة دائمة ، ومن ثم فإن اللحظة التاريخية التى تنقضى إنما تمضى إلى الأبد . وهذا هو السبب فى عدم إمكانية أن يصبح التاريخ علما تجريبياً على نحو ما أراد العلماء الذين تأثروا بأورجانون فرنسيس بيكون فى العلوم الطبيعية ، الذى حل محل أورجانون أرسطو ، ومن ناحية أخرى فان الزمن فى صيرورته يضيف جديداً إلى الخبرة الانسانية والتراث الانسانى ، ومن ثم يصبح الانسان فى عصر ما مختلفاً عنه فى عصر آخر . فانسان القرن الرابع وظروف القرن الرابع تختلف بالضرورة عن انسان القرن السادس وظروف القرن السادس ، ولذا فان ما يقوله كانتور من أن انتصار بيزنطه السريع فى ايطاليا ، لو حدث كان سيعيد عقارب الزمن إلى الرابع قول مردود. وفى تصورنا أنه ربما يريد القول بأن القضاء على مملكة القوط الشرقيين فى إيطاليا كان سيجعلها جزءاً هاماً فى الامبراطورية كما كانت فى القرن الرابع . (المترجم)

دولته . وحين انتهى حكمه سنة ٥٦٥ كان أعضاء البلاط الامبراطورى - الذين كانوا يعتبرونه أعظم الأباطرة فى بداية عهده - يكرهونه مثل المونوفيزيتيين المضطهدين فى مصر وسوريا ، وقد عبر بروكوبيوس Procopius ، الذى كان سكرتير بلزاريوس فى كتاب "التاريخ السرى" عن هذا السخط الواسع الذى عم كل أرجاء الامبراطورية ، فى هذا الكتاب تبدو صورة الامبراطور الذى شيد كنيسة آيا صوفيا ، وأنجز مجموعة القانون المدنى ، فى صورة رجل ".. غشاش منحرف ، مزيف ، مولع بسفك الدماء والسلب والنهب ، مخادع ، جبار ، لاأمان له ، وعدو متآمر يرتج عقله بالقتل ولتخريب" وتعكس افتراءات بروكوبيوس رد الفعل الحتمى من قبل شعب مرهق مدمر ، تجاه القائد الذى تسببت سياسته البالغة الطموح فى جر هذا الشعب إلى الكارثة .

وفى الوقت الذى كان جستنيان ينفذ حملاته الكبرى فى أفريقيا ، فانه لم يفعل شيئا لكى يقلل من قوة الأعداء المتاخمين لحدوده ، وترك لخلفائه مهمة النضال اليائس ضد الفرس على الحدود الشرقية ، وضد هجمات قبائل المغول والسلاف والجرمان التى كانت تضغط على دفاعات الحدود الامبراطورية فى البلقان . وأخيرا ، قرر الأمبراطور هرقل الأول Heracius I (٦١٠-٦٤١) انتهاج سياسة جديدة لانقاذ الامبراطورية . فسمح للبلغار - إحدى قبائل الهون- ولمختلف الشعوب السلافية أن تستوطن البلقان مقابل إتاوة رمزية ، واحتفظ الامبراطور بحافة شبه الجزيرة فيما حول القسطنطينية فقط تحت سلطانه ، ونتج عن ذلك أن تغير التركيب البشرى لعناصر السكان فى البلقان بصورة كانت كافية لانقاذ القسطنطينية وآسيا الصغرى من الفرس . وقد نجح فى ذلك ، إذ أنه الحق بالامبراطورية الفارسية ، التى ظلت مصدر تهديد لروما على مدى عدة قرون ، هزيمة ساحقة نتج عنها أن تدهورت أحوال الدولة الفارسية (٤).

---

(٤) تمكن هرقل الأول ، بعد عدة حملات قام بها ضد الفرس فى آسيا الصغرى وبلاد النهرين ، أن يحطم القوة العسكرية الفارسية ، بل وأن ينهى حكم الأسرة المالكة القائمة فى فارس ، فقد تمكن من استرداد مدينة بيت المقدس سنة ٦٢٩ من أيدى الفرس ، كما استعاد منهم صليب الصلبوت أو الصليب الأعظم ، وطارد الامبراطور الفارسى المهزوم حتى نينوى مما سبب ثورة الجيوش الفارسية على كسرى وخلعه ثم قتله بعد تعذيب طويل .

أنظر موس ، ميلاد العصور الوسطى ، ص ٢٣١ وص ٢٢٦؛ ج.م هسى ، العالم البيزنطى (ترجمة د. رأفت عبد الحميد - القاهرة ١٩٧٧) ص ١٢١-١٢٢ . (المترجم)



أوربا والبحر المتوسط عند موت جستنيان الأول سنة ٥٦٥ ميلادية

كان هرقل الأول واحدا من أعظم أباطرة بيزنطة وأسوأهم حظا فى الوقت نفسه ، فقد أنقذ الامبراطورية من الدمار ؛ بل وبدأ يرتب لاعادة تنظيم الدولة وإحيائها . ويمكن القول أيضا بأنه أنقذ أوربا من الفرس ، ذلك أنه لو كانت القسطنطينية قد سقطت فى يدى عدوها الشرقى، لم يكن هناك ما يحول دون تقدم الفرس داخل ايطاليا ، ولكن حين مات هرقل سنة ٦٤١ كانت هناك قوة جديدة آخذة فى الظهور : هى قوة المسلمين الذين انطلقوا من شبه الجزيرة العربية . وبنهاية العقد الرابع من القرن السابع كان العرب قد فتحوا بلاد الشام ، ومضوا فى سبيلهم إلى فتح فارس ومصر ، وبعد ذلك بثلاثين عاما اكتسحوا سواحل البحر المتوسط وفتحوا الشمال الافريقى بأسره .

وهكذا سقطت أغنى أجزاء الامبراطورية وأكثرها سكانا ، خلال قرن بعد جستنيان فى أيدى سادة البحر المتوسط الجدد . ومن الضرورى أن نوافق بيورى فى حكمه القاسى بأنه "اذا كان هناك رجل يمكن اعتباره مسئولاً عن تفكك الامبراطورية الشرقية على هذا النحو، فإن هذا الرجل هو الامبراطور العظيم جستنيان" فقد تفرق الشرق بسبب المسائل المذهبية نتيجة لسياسته الدينية ، وأشاحت كل من مصر وسوريا بوجهها بعيدا عن القسطنطينية ، ولم تهتما بمقاومة الفاتحين المسلمين الذين تسامحوا معهما عملا بحرية العقيدة ، فضلا عن أن جستنيان كان قد أودى بموارد الدولة البيزنطية ؛ لدرجة أن خلفاءه لم يجدوا مايكفى من الرجال أو المال للحفاظ على الحدود الشرقية ، ففى بداية الأمر تخلى الامبراطور عن البلقان للبلغار والسلاف، ثم مالبث المسلمون أن استولوا على جميع أملاك بيزنطة عدا القسطنطينية وآسيا الصغرى .

وفى إيطاليا ، لم يكن رد الفعل الناتج عن أعمال جستنيان شاملا ومدمرا مثلما كان فى الشرق ، ولكن رد الفعل جاء فى إيطاليا أسرع منه فى الشرق . إذ لم تكد تدخل تحت حكم الإدارة البيزنطية حتى اندفع شعب جرمانى جديد عبر الدانوب ليغزو شمال إيطاليا فى سنة ٥٦٨م ؛ وهو شعب اللونجباردين Logobardi أو للمباردين Lombardi الذين كانوا من أكثر الغزاة الجرمان بدائية وهمجية . والحقيقة أنه لم يكن قد مضى على موت جستنيان أكثر من سنوات ثلاث ، حتى أقام هؤلاء الغزاة دولة تختلف تمام الاختلاف عن مملكة ثيودوريك ملك القوط الشرقيين .

غير أن اللمبادرين لم يحكموا كل مناطق ايطاليا ، إذ أنهم بسطوا سيادتهم على البلاد الواقعة شمال روما ، باستثناء قلعة رافنا التى بقيت فى أيدى البيزنطيين حتى منتصف القرن

الثامن . وظلت معظم الأراضى الواقعة جنوب روما تحت حكم القسطنطينية ، على الرغم من أن اللمباردين احتفظوا ببعض المراكز الخلفية فى الجنوب أيضا ، كما استولى المسلمون على جزيرة صقلية فى القرن السابع ، وهكذا قدر لإيطاليا أن تقسم بين حكام أربعة هم : البيزنطيين والبابا والمسلمين ، واللمبارديين ، ولم تتوحد مرة أخرى سوى فى فترة متأخرة من القرن التاسع عشر .

ونظم اللبمارديون أنفسهم فى دوقيتين أو ثلاث دوقيات كبيرة ، وعدد قليل من الإمارات الأصغر حجما .. ولم يهتم اللمبارديون بالثقافة الرومانية والنظام القضائى الرومانى ، ولم يكن لدى البيزنطيين الوقت الكافى لنشر مجموعة جستنيان القانونية فى إيطاليا ، كما فعل الفرنجة الأوائل ؛ مما أدى إلى أن يبقى القانون الرومانى فى موطنه كمجرد قانون عرفى توارثته أجيال الايطاليين ، كما اختلط بالقواعد العرفية التى جاء بها قانون الشعب اللمباردى. وفضلا عن انحطاط اللمبارديين فى مجال السياسة والقانون ، فإنهم بقوا (فى أغلبهم) على المذهب الآريوسى على مدى قرن من الزمان بعد غزوهم شمال ايطاليا . ومن ثم فإنه لم تكن هناك أية علاقة بينهم وبين الكنيسة والبابوية ، والواقع أن البابا كان يعتبر الدوقات اللمبارديين أعداء الألداء حتى القرن الثامن . وربما لم يكن هناك شعب من الشعوب الجرمانية يضارع الشعب اللمباردى المتخلف فى ضآلة ما قدمه للحضارة الغربية ، ذلك أنهم لم يسهموا فى الحياة الايطالية سوى بإسمهم ودمائهم فحسب ؛ فقد ترك إسمهم أثره على جغرافية شمال ايطاليا السياسية بينما أختلطت دماؤهم بدماء أهل شمال ايطاليا مما جعل البنية الجسدية للايطاليين الشماليين مختلفة عن سيماء البحر المتوسط التى تميز أهل الجنوب . ولم يكن لدى اللمبارديين سوى حسنات ضئيلة يمكن أن تعوض سياسة التعايش Civilitas التى كان ثيودوريك ينتهجها. ولم يكن جستنيان يقصد طبعا ، أن يحل الحاكم اللمباردى محل حكم القوط الشرقيين فى إيطاليا ، ولكن المخاطرة التى أخذها جستنيان على عاتقه ، فى سياق سياسته إزاء الجزء الغربى من امبراطوريته ، كانت جسيمة لدرجة أن الفشل الناتج عنها تحقق فعلا فى ظل ظروف أسوأ من تلك التى كانت سائدة فى بداية حكمه .

وبعد جستنيان لم تتوفر أبداً للأباطرة البيزنطيين القوة اللازمة لإعادة بناء الامبراطورية الرومانية ، فقد جعل المسلمون بيزنطة تلتزم موقفا دفاعيا بسبب هجماتهم المتكررة ؛ مما جعلها تبتعد رويدا رويدا عن أوربا لتدخل فى نطاق حضارة خاصة بها . وتعتبر مجموعة قوانين جستنيان آخر أثر بيزنطى كبير يكتب باللغة اللاتينية ، ومنذ ذلك الحين فصاعدا ، أخذت حضارة الامبراطورية الرومانية الشرقية تصبح مزيجا عن عناصر يونانية وبلقانية وشرقية متمايزة .

لقد أوضح فشل جستنيان أمام أهل الغرب أن إعادة توحيد الامبراطورية الرومانية بشكل فعال أمر غير ممكن بسبب الغزوات الجرمانية . وكان جستنيان - أعظم الاباطرة الرومان منذ قسطنطين - هو اللعنة التى أنزلتها الأقدار بالسلطة البيزنطية ، فقد انصرفت أوربا عن القسطنطينية منذ أواخر القرن السادس ، وخلال القرن السابع ، ولم تعد شعوب أوربا تتطلع إلى أباطرة بيزنطة وإلى الحضارة البيزنطية ، الغريبة عنهم ، إلتماسا للقيادة والتوجيه . وهكذا تمثلت نتائج أعمال جستنيان بالنسبة لأوربا القرنين السادس والسابع فى ظهور رجال الغرب ونظمه من خلال أحداث تلك المرحلة . لقد عاد الغرب إلى الاعتماد على موارده ، وكان عليه أن يكتشف قيادته من بين صفوفه نفسها ، فقد تولت الكنيسة والبابوية زمام القيادة وبجانبها المؤسسات الديرية ، والملكية الفرنجية ، وتسبب التحالف القصير الأجل بين البابوية والامبراطورية فى الكارثة التى حلت بإيطاليا فى نهاية المطاف . ويقى أن نرى ما إذا كان باستطاعة التحالف بين البابوية والملكية الفرنجية أن يؤتى ثمارا أفضل .

٢- تأثير الاسلام على أوربا فى العصور الوسطى الباكرة

كان انتشار الاسلام عاملا حاسما فى تشكيل تاريخ العصور الوسطى . ذلك أنه أدى إلى تقسيم عالم البحر المتوسط إلى حضارات ثلاث هى : البيزنطية ، والأوربية والاسلامية ، وكان اللقاء والتفاعل بين هذه التجمعات الثقافية ، والاقتصادية ، واللغوية ، والدينية الثلاث واحدا من أهم موضوعات تاريخ العصور الوسطى . فقد كانت كل من هذه الحضارات الثلاث وريثة للامبراطورية الرومانية المتأخرة بدرجة أو بأخرى ، إذ كانت بيزنطة تمثل الاستمرارية المباشرة للقانون والادارة والفكر الرومانى ، كما ورثت أوربا الغربية جوانب كثيرة من التراث الرومانى ، على حين استوعب العالم الاسلامى بعض جوانب التنظيم الرومانى وأفضل جوانب الفلسفة والعلوم اليونانية والرومانية . وعلى الرغم من هذا ؛ فإن الحضارة الاسلامية تدين بالكثير للتراث الشرقى ، لاسيما تراث مصر وفارس ، وقد أثرت الحضارة الشرقية فى الامبراطورية الرومانية المتأخرة أيضا ، ولكن الحضارة الاسلامية كانت أكثر حضارات العصور الوسطى احتكاكا بالتراث الشرقى .

وكان انتصار الاسلام على السواحل الشرقية والجنوبية للبحر المتوسط فى القرن السابع الميلادى نتيجة لآخر وأنجح محاولات القبائل العربية للتوغل فى عالم البحر المتوسط . فقد كانت جماعات البدو القاطنين فى صحراء بلاد العرب يقومون بغزوات دورية للهلال الخصيب منذ الألف الثانى قبل الميلاد ، ولم يكن ظهور العبرانيين فى فلسطين سوى نتيجة لواحدة من

أمثال هذه الاندفاعات صوب الشمال . وقد حال التنظيم الذى فرضه الحكم الرومانى على عالم البحر المتوسط دون أى غزو واسع النطاق من جانب العرب ، كما أن الامبراطورية البيزنطية قد نجحت حتى مطلع القرن السابع فى صد هجرات قبائل الصحراء صوب الشمال (٥).

إذن ماهو الفرق الذى يمكن أن نتبينه فى هذا الغزو العربى الجديد الذى حقق نجاحا كبيرا ؟ أولا ، أن الهجوم الاسلامى على عالم البحر المتوسط جاء فى وقت كانت فيه الامبراطوريتان اللتان يمكنهما سد طريق الهجرة والفتح إما ميتة ، وإما منهكة . فقد كان هرقل الأول قد فرغ لتوه من تدمير الامبراطورية الفارسية ؛ بيد أن الموارد العسكرية البيزنطية كانت قد استنفدت تماما. ولم تستطع الجيوش الامبراطورية أن تصمد طويلا أمام العرب ، فضلا عن أن أكثرية جماهير المصريين والسوريين كانت قد تخلت عن ولائها للامبراطورية بسبب السياسة الدينية التى انتهجها الامبراطور الارثوذكسى . وهذه الكراهية أغضبت هرقل فشن حملة اضطهادات واسعة ضد اليهود الذى كانوا يؤلفون قسما هاما من سكان الاسكندرية وانطاكية وغيرها من المدن الشرقية الكبرى ، وفى ظل هذه الظروف ، لم يكن أمام العرب إلا أن ينجحوا بشرط أن يتوفر لهم الحد الأدنى من الوحدة والتنظيم .

---

(٥) قامت فى منطقة جنوب فلسطين ، أو بادية الشام ، عدة دويلات عربية على مر الأزمنة ، وقد لعبت هذه الدويلات دوراً هاماً فى حماية حدود الشام الجنوبية من غارات بدو شبه الجزيرة الذين دأبوا على مهاجمة هذه المناطق ، فقد قامت دولة الأنباط التى بلغت أوج ازدهارها فى القرن الرابع قبل الميلاد ، ثم خضعت للحكم الرومانى حين فتحها كورينيوس بالما حاكم ولاية سوريا فى عصر الامبراطور تراجان ، وصارت ولاية رومانية عرفت باسم الولاية العربية Provincia. Arabia كما قامت فى هذه الانحاء مملكة تدمر اتى تحولت إلى مستعمرة رومانية أيضاً فى أواخر القرن الثانى الميلادى ، وأهم حكامها هى الملكة "زنوبيا" أو "الزباء" التى نسجت حولها قصص خيالية كثيرة ، وقد تمكنت هذه الملكة من أن تهزم الجيوش الرومانية وأن تستولى على مصر فى النصف الثانى من القرن الثالث ، ولكن الفرق الرومانية تمكنت من القضاء على جيش تدمر سنة ٢٧١ واحتلت المملكة ، وكانت امارة الغساسنة فى منطقة شرق الأردن الحالية آخر هذه الدويلات العربية على حدود الشام الجنوبية ، وقد ظلت هذه الامارة قائمة حتى الفتح الاسلامى ، وكانت هناك معاهدة دفاع مشترك- بتعبيرنا المعاصر - بين هذه الامارة وبين الامبراطورية الرومانية ، بيد أن العلاقات بين الجانبين أخذت تتدهور منذ عهد الامبراطور موريس (٥٨٢-٦٠٢) وظلت امارة الغساسنة تتدهور بشكل مطرد حتى طرقتها جيوش المسلمين .

عن هذه الدويلات العربية ، انظر : السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ العرب قبل الاسلام (الاسكندرية ١٩٧٤) ، أحمد أمين ، فجر الاسلام (القاهرة ١٩٢٨) . (المترجم)

ولأول مرة تتجمع قبائل الصحراء المتقاتلة تحت لواء دين واحد وزعامة دينية واحدة . ومن هنا وفر الإسلام العامل الأساسى الذى جعل من الممكن للعرب أن يفتحوا ، بسرعة ، أغنى ولايات الامبراطورية الرومانية الشرقية . ومنذ زمن بعيد تم دحض وتفنيد الأسطورة التى تزعم بأن العرب اندفعوا بالسيف فى يد والقرآن فى اليد الأخرى ؛ يخيرون شعوب البحر المتوسط بين اعتناق الاسلام أو الموت ، فالحقيقة أن المسلمين تسامحوا مع من قهروهم من المسيحيين واليهود ، ولم يفرضوا سوى ضريبة الجزية وبعض القيود على الحقوق السياسية لأولئك الذين لم يعترفوا بأن محمدا عليه الصلاة والسلام نبى الله [٦]، وهكذا لم يحاول المسلمون إجبار رعاياهم على اعتناق الاسلام .

وقد اقترح بعض العلماء سببا آخر للتوسع العربى ، هو الضغط الاقتصادى الناجم عن الجفاف المطرد ، وتدهور خصوبة التربة فى شبه الجزيرة العربية . إلا أن معلوماتنا عن أحوال

---

(٦) حدّد الاسلام موقفه بشكل واضح من اليهود والمسيحيين ، أو أهل الكتاب ، وغيرهم من أهل الذمة فى آيات القرآن الكريم (أنظر على سبيل المثال سورة آل عمران : آية ٦٤ ، والبقرة : آية ٢٥٦ ، والشورى:آية ١٥ وآية ١٣٧ ، والعنكبوت : آية ٤٦) إذ يتضح من نصوص الآيات القرآنية ، وهى المصدر الأول للتشريع الاسلامى ، أن موقف الاسلام محدد بشكل حاسم فيما يتعلق بالدعوة إلى الاسلام ، إذ يجب أن تكون الدعوة طيبة تخاطب الناس فى رفق لمحاولة اقناعهم لا إكراه فيها ولاتهديد ولاتجب مجادلة أهل الكتاب " إلا بالتى هى أحسن" فان آمنوا فقد اهتدوا ، وإن تولوا فإن الامر متروك لله سبحانه وتعالى .

أما الجزية التى أشار إليها كانتور على أنها ضريبة رأس فليست فى حقيقة الأمر سوى ضريبة دفاع ، على حد تعبيرنا المعاصر . ذلك أنها مقابل مادى لما ينعم به أهل الذمة من حماية فى دار الاسلام ، وليست ضريبة رأس مثل تلك التى تفرضها الجيوش الغازية على الشعوب المغلوبة فثمة اختلافات هامة وجوهرية بين "الجزية" و " ضريبة الرأس " صحيح أن كلا منهما قد فرضت على الفرد - وهو سبب الخلط بينهما - ولكن شروط الجزية واختلاف تقديراتها حسب الظروف الاقتصادية لدافعيها تميزت بطابع انسانى ، إذ راعت اعفاء النساء والأطفال والشيوخ فضلا عن غير القادرين على الكسب ، كما اعفى منها الرهبان بشرط انقطاعهم فى اديرتهم ، كذلك كان من الممكن تأجيل تحصيلها من المعسر حتى تتحسن أحواله . زد على ذلك أن الجزية جزء من اتفاق عقد الذمة الذى هو التزام متبادل بين طرفين ففى مقابل هذه الضريبة يجب على المسلمين حماية أهل الذمة وحماية أموالهم ، وتعويضهم عما يتلف من ممتلكاتهم كما تكفل لهم حرى العقيدة والعلم والتنظيم الداخلى لطوائفهم . وقد نهى الاسلام عن تكليف أهل الذمة مالا قدرة لهم عليه ، كما نهى عن ضربهم أو تعذيبهم أو حبسهم بسبب الجزية .

أنظر قاسم عبده قاسم ، أهل الذمة فى مصر العصور الوسطى (دار المعارف ١٩٧٧ ، ص٢٣- ص٣١).

(المترجم)

شبه جزيرة العرب فى حياة محمد عليه الصلاة والسلام قليلة للغاية . فقد كانت هناك مدن تجارية هامة قليلة من بينها مكة التى كانت أكبر هذه المدن وأكثرها رخاءً . إذ كانت التجارة العالمية تحمل بطريق البر إلى الشرق وتمر بهذه المدن كما أن طرق القوافل الكبرى امتدت عبر شبه الجزيرة . وكانت هناك بعض المناطق التى ازدهرت فيها الحياة الحضرية والزراعية فى شبه جزيرة العرب ، وعلى أية حال ، تبقى الحقيقة القائلة بأن الجزء الأعظم من شبه الجزيرة كان صحراويا ، وأن غالبية السكان كانوا من القبائل البدوية .

وقد انعكس هذا الوضع الاقتصادى والاجتماعى على حياة النبى محمد وعلى تعاليمه ، فقد كان النبى نفسه من سكان المدن ، إذ كان عليه الصلاة والسلام فردا فقيرا فى واحدة من أشهر عائلات مكة وأرقاها ، واشتغل رئيسا لقافلة تملكها أرملة ثرية تكبره بعدة سنوات ، وهى السيدة خديجة بنت خويلد الأسدية التى كانت سيدة تاجر ذات شرف ومال (٧). وعلى أية حال ، فإن عقيدة محمد صلى الله عليه وسلم ، تعكس الثورة التطهرية لبدوى بسيط ضد الفساد الذى تسببه أخلاقيات المدن ، وذلك على نحو مشابه لديانة الأنبياء العبرانيين التى قامت على أساس ثورة العناصر الريفية ضد حياة المدن العبرانية المرفهة (٨) . ولسنا نعرف الكثير غير عن ذلك عن محمد عليه الصلاة والسلام مما يمكن أن يساعدنا على شرح تعاليمه ؛

---

(٧) أعدنا صياغة الجملة على هذا النحو حتى لاتبدو غريبة على القارىء العربى . (المترجم)

(٨) ينبغى أن نضع فى اعتبارنا أن المؤلف ليس مسلماً ومن ثم فهو ليس مطالباً بأن يؤمن بالرسالة التى جاء بها النبى عليه الصلاة والسلام ، بيد أن هذا لايمنعنا من أن نتعرض لآرائه بالنقد : ولنبدأ بكلماته نفسها ، فبينما يذكر أن النبى كان من سكان المدن – وهى حقيقة – يحاول تفسير العقيدة الاسلامية على أنها مجرد ثورة تطهرية لرجل بدوى بسيط ، وإذا وضعنا فى اعتبارنا أن سكان الجزيرة كانوا ، آنذاك ، ينقسمون إلى بدو وحضر لكل منهم أسلوب حياة يختلف عن الآخر لأتضح لنا مدى التناقض فى كلمات كانتور . كما أن الأفكار والمثل والمفاهيم الجديدة التى جاء بها الاسلام كانت جديدة تماما عن واقع شبه الجزيرة بشكل يجعل من القول بأنها ثورة تطهرية لبدوى بسيط مجرد صياغة فضفاضة خالية من المعانى ، إذ كيف يتسنى لهذا البدوى البسيط ، وهو ابن بيئته ، أن يأتى بمثل هذه الأفكار والمفاهيم التى قامت على أساسها حضارة من أرقى حضارات الانسان ، ومن ناحية أخرى ، تحمل كلمات المؤلف ايحاء بأن هناك تأثيرات يهودية على العقيدة الاسلامية ، وهو أمر مردود تماماً نظراً للاختلافات الجذرية بين الاسلام واليهودية على المستوى النظرى ، والتصادم بين المسلمين الأوائل ويهود شبه الجزيرة على مستوى الواقع ومن ناحية أخرى فإن المؤلف يحاول اختلاق وجود تاريخى متمايز لليهود بشكل متعسف فى ثنايا كتابه ، وعلى الرغم من هذا ، فإن المؤلف يتحلى بقدر كبير من الموضوعية تتضح فى السطور القادمة . (المترجم)

فقد كانت معرفته باليهودية والمسيحية معرفة عابرة من خلال علاقات العمل ، وكان جبريل يأتيه بكلمات الله التى ينتظمها القرآن . وعلى عكس المسيح عليه السلام ، كان النبى محمد يتمتع بكفاية نادرة كمنظم سياسى وقائد عسكرى . وعلى الرغم من أن الأدب العربى قد حفظ لنا معلومات كثيرة عن النبى العظيم ، فإن معلوماتنا عن شخصيته مستمدة أساسا من الحقائق الواردة فى سيرته وفى القرآن الكريم ، وتكشف هذه الحقائق عن أنه كان رجلا صارما قويا ورعا .

ولم يتمكن أى زعيم روحانى آخر أن يدعو إلى دين يعتنقه مثل هذا العدد الهائل من الناس بمثل هذه السرعة . فالإسلام ، من بين كل ديانات البشر الكبرى ، هو الوحيد الذى يصلح لأن يكون دينا للعالمين . فما يقدمه القرآن سهل وبسيط لايستعصى على الفهم . إذ يصوِّر لنا رب العالمين الذى يفرض على البشر فروضا أخلاقية صارمة ، ولكنه يعدهم فى الوقت نفسه بالثواب فى الحياة الآخرة الخالدة اذا ما أطاعوا فروض الله . فهو سبحانه القوى العليم ، إله واحد صمد ، لاشريك له . وتبدو فكرة الثالوث المسيحى عند المسلمين إثما ولعنة وكفرا ، كما هى عند اليهود أيضا ، وكذلك فإن محمدا عليه الصلاة والسلام رسول يبلغ الناس رسالة ربه . ولكنه ليس الا آخر الأنبياء وأعظمهم " خاتم النبيين" . وهو ليس شريكا لله فى قدسيته بأية حال ، وفى رأى القرآن أن المسيح مثل إبراهيم ، عليهما السلام ، أحد الأنبياء العظام الذين مهدوا لمحمد عليه الصلاة والسلام ، ولكن محمداً أبعد اللاهوت المسيحى القائل بالثالوث ، بما يحمله من تأثيرات قوية للفلسفة الأفلاطونية ، من الصحراء العربية تحبيذا للوحدانية الخالصة .

"والاسلام" يعنى الخضوع لمشيئة الله عز وجل ، أى أن تسلم وجهك لله حنيفا ، ويفرض الله على البشر مجموعة من الفروض التطهيرية الصارمة ، لكى ينالوا الثواب العظيم الذى وعدهم به . فعلى المسلم أن يقيم الصلاة خمس مرات يوميا ، وأن يحاول الحج إلى منبع الدين الحق فى مكة مرة واحدة على الأقل فى حياته ، اذا استطاع لذلك سبيلا ، ويفرض القرآن سلسلة من التنظيمات والترتيبات لحياة المسلم اليومية : فعلى المسلم أن يقلع عن شرب الخمر ولعب الميسر ، ولايسمح للمسلم أن يتعامل بالربا ، وعموما فإنه يتعين على المسلم أن يتعامل مع رفاقه من بنى الإنسان وفقا لاسمى مبادىء الرحمة والعدالة . ويجب على المسلم أن يحسن إلى رفاقه وأن يكون كريما للغاية فى مساعدة البائسين والمعوزين من الناس . كما يؤكد القرآن على قيمة الحياة الأسرية ، وبينما يسمح للمسلم ، إذا استطاع أن يتزوج بأربع زوجات تحت شروط قاسية تكاد تجعل ذلك مستحيلا ، فإن أكثر المبادىء صرامة فى الاخلاقيات الجنسية

هى تلك التى يفرضها الاسلام ، وأخيرا ، فإن على المسلم أن يضحى بروحه وحياته إذ دعا الداعى للذود عن العقيدة ، ويكون ثواب المسلمين الذين يستشهدون فى سبيل الله حياة خالدة فى جنات النعيم . ذلك أن الجهاد ركن من أركان العقيدة الاسلامية .

والإسلام هو الدين الوحيد بين ديانات البشر العظمى الذى يطرح أشد النظريات وضوحا عن الثواب . فإن أولئك الذين يتبعون ما أمر الله به ويتقونه سبحانه وتعالى لهم ثواب الحياة الخالدة والسعادة الباقية . وقد تجنب الاسلام تماما التيارات المعذبة المضنية التى أثارها تيار بولس - أوغسطين فى الفكر المسيحى عن الثواب ؛ بل إنه خلا من الشكوك التى عكرت الفكر العبرانى أحيانا حول الثواب ، كما يتضح فى "سفر أيوب". وفضلا عن ذلك فإنه فى الوقت الذى يتسم المفهوم العبرانى عن السماء حيث الحياة الآخرة ، بالغموض والإبهام ، ويبدو فيه المفهوم المسيحى عن السماء روحانيا أثيريا ، تبدو الصورة القرآنية عن السماء محددة فى تفاصيلها من ناحية ، وجذابة للغاية بالنسبة لرغبات البشر من ناحية أخرى . فالواقع أن المسلم موعود بجنة سماوية يستطيع فيها أن ينال نصيبه من الملذات التى حرم منها فى الحياة الدنيا ، فقد يستطيع أن يشرب من خمر الجنة ، وأن يتمتع بصحبة الحور الحسان . فالديانة الاسلامية إذن متفائلة تعتقد فى إله عليم قدير يفرض مستوى ساميا كريما من التصرفات والسلوك ، ويعد من يلتزمون بهذه المبادىء بالثواب الأكيد فى السموات ، وهو الأمر الذى أصبح بمثابة واحة جذابة للغاية . وليس هناك سر حول السبب الذى جعل هذا الدين ينتشر بين بدو الصحراء العربية المحاربين ، ولكن تعاليم هذا الدين وأخلاقياته صارمة بشكل يجعله ملائما أيضا لمن نالوا أكبر قدر من التعليم والمران العقلى سواء فى العصور الوسطى أو اليوم.

وفى القرنين السابع والثامن إعتنقت الغالبية العظمى من سكان السواحل الشرقية والجنوبية للبحر المتوسط هذا الدين الجديد الذى نادى به محمد عليه الصلاة والسلام ، وكانت ضربة قاصمة ضد المسيحية حين سقطت أقدم وأغنى مراكزها فى أيدى المسلمين. بيد أنه من وجهة نظر تاريخ القيم الانسانية ، لايمكن أن نوافق على القول بأن ذلك كان مصيبة أو كارثة ، لاسيما إذا ما أخذنا فى اعتبارنا مايتميز به الفكر الدينى الاسلامى والأخلاقيات الاسلامية من سمو ورقى . ولايزال السر فى تحول المسيحيين إلى الاسلام بهذه السرعة غامضا ، خاصة وأنه لم يوجد مؤرخ استطاع أن يكشف تفاصيل هذا التحول حتى الأن . ومن الواضح أن المسيحيين كانوا يتوقون إلى اعتناق ديانة الفاتحين لكى يتحرروا من القيود التى فرضت على أولئك الذين لم يعتنقوا الاسلام ، بيد أن هذه القيود لم تكن قيودا قاسية . ومن المحزن والغريب فى الوقت نفسه أن الكنائس الكبرى فى سوريا وفلسطين ومصر وشمال أفريقيا انهارت بمثل هذه السرعة أمام جاذبية إعتناق الاسلام ، حقيقة أن الكنائس المسيحية لم تختف

تماما ، ولاتزال هناك جماعات مسيحية موجودة فى البلاد الاسلامية حتى يومنا هذا ، ولكن بعد مرور مائتى سنة على وفاة النبى صلى الله عليه وسلم لم تعد لنفوذ الكنائس أو أتباعها ، على سواحل البحر المتوسط الشرقية والجنوبية ، قيمة تذكر . ولم تكن الكنيسة الأرثوذكسية الشرقية والكنائس المخالفة اليونانية هى فقط التى فقدت غالبية أتباعها باعتناقهم الإسلام ؛ فإن الكنيسة اللاتينية فى شمال أفريقيا قد قد اختفت تماما بحلول سنة ٩٠٠ ، كما أن الكنيسة الاسبانية المسيحية عانت هى الأخرى من خسائر جسيمة . ويروى لنا كاتب مسيحى عاش فى القرن العاشر أن كثيرين من معاصريه الشبان كانوا يعتنقون الإسلام ، لابدافع من طموحهم السياسى فحسب ، ولكن أيضا بسبب جاذبيه الأدب العربى والثقافة العربية .

يمكن قياس آثار التوسع الاسلامى على شواطىء البحر المتوسط الشرقية والجنوبية من خلال الحقيقة القائلة بأن هذه الأقاليم تعتبر اليوم بمثابة قلب الحضارة الاسلامية ؛ بمالها من مميزات سياسية واقتصادية وثقافية متمايزة . والواقع أن العرب ينكرون حق الشعوب الأوربية فى حكم هذه المناطق ، وأولئك الذين أفادوا من الدراسة التاريخية هم فقط الذين يعرفون أن هذه البلاد كانت المهد الأول للمسيحية والتراث الأفلاطونى - المسيحى الذى كان بمثابة المجرى الاساسى للحضارة الغربية حتى القرن الثانى عشر . فقبل أن ينزل الوحى على محمد عليه الصلاة والسلام بزمن طويل كانت الحياة الثقافية على شواطى البحر المتوسط الشرقية والجنوبية خاضعة لتأثير كل من القديس بولس ، وأفلوطين ، وأيوزيبيوس ، وأوغسطين ، بيد أن السيطرة الاسلامية كانت كاملة ونهائية لدرجة أن تونس ، التى كانت منبع المذاهب التى لازمت تطور الحضارة الغربية - لأنها كانت وطن القديس أوغسطين - تعد اليوم من البلاد الاسلامية الخالصة .

لقد استغرقت عملية الفتوح الاسلامية حوالى مائة سنة ، منذ وفاة النبى سنة ٦٣٥ حتى معركة تور Tours سنة ٧٣٢ حين هزم حاكم الفرنجة (شارل مارتل) جيوش المسلمين المتوغلة فى فرنسا . فبعد وفاة محمد عليه الصلاة والسلام أثارت عدة قبائل موجة من الاضطرابات وأعمال العنف ، فيما عرف بحروب الردة التى تمكن الخليفة أبو بكر الصديق من التغلب عليها ، ووجه القبائل إلى استئناف غاراتها العسكرية ضد الامبراطورية البيزنطية .

وما أن أهل عام ٦٣٨ حتى كانت مدينة بيت المقدس فى أيدى الجيوش الاسلامية التى اكتسحت بلاد الشام وفارس ، بل وصلت إلى شمال الهند خلال الاعوام الثلاثين التالية. كما دخلت جيوش عربية أخرى مصر وفتحت الاسكندرية ، ثم تحركت بسرعة عبر الصحراء إلى شمال أفريقيا واستولت عليها بسهولة وانتزعتها من الحكم البيزنطى(٩) وفى سنة ٧١١

استطاعت الجيوش الاسلامية بمساعدة بربر شمال أفريقيا الذين اعتنقوا الإسلام ، أن تلحق بملك القوط الغربيين هزيمة فادحة ، أصبح العرب من بعدها سادة على أسبانيا ، واحتمى الأمراء المسيحيون بجبال البرانس حتى القرن العاشر حين بدأوا حرب الاسترداد البطيئة لاستعادة شبه شبه الجزيرة من المسلمين ، وهى الحرب التى لم تنته سوى فى القرن الخامس عشر .

وكان وضع المسلمين آمنا فى أسبانيا حتى القرن الثانى عشر ، فقد كانوا يسيطرون على معظم أنحاء شبه الجزيرة ، والواقع أنه حتى القرن العاشر لم يكن هناك خبر عن أولئك الأمراء المسيحيين الذين كانوا يعيشون فى الجبال طوال هذه الفترة .

وربما كان العرب قد استنفدوا مواردهم أنذاك . وعلى أية حال ، فإنه لم يكن باستطاعتهم أن يفتحوا فرنسا ، بيد أن هزيمتهم فى معركة تور ، أو بلاط الشهداء سنة ٧٣٢ أوقفت تقدم المسلمين صوب الشمال فظلوا قانعين بأسبانيا . وفى سنة ٧١٧ شن العرب آخر حملاتهم الكبرى ضد القسطنطينية فيما قبل القرن الخامس عشر ، ولكنهم لم يتمكنوا من الاستيلاء على القلعة العظيمة الرابضة على ضفاف البسفور . وسرعان ما صار العرب سادة على عالم البحر المتوسط ففتحوا صقلية وكريت ، مما مكنهم من أن يهاجموا القسطنطينية عن طريق البحر . ولكن القلعة المنيعة استطاعت صد الهجوم الاسلامى بفضل سلاح جديد ابتكره البيزنطيون ، هو النار الإغريقية ؛ التى هى عبارة عن نوع من القنابل الحارقة استخدمه البيزنطيون وأحدث دمارا جسيما بالأساطيل الاسلامية ، وهكذا استطاعت القسطنطينية أن تنجو من الهجوم العربى ، ومن ثم أنقذت الغرب الأوروبى من الغزو الاسلامى عن طريق شبه الجزيرة (البلقان) المهد. ومع ذلك فإن بيزنطة لم تحتفظ سوى بآسيا الصغرى من بين جميع ولاياتها الشرقية الغنية ، وعندئذ أضطر الامبراطور البيزنطى ، الذى نفدت موارده ، إلى التزام موقف الدفاع ولم يكن هناك أدنى احتمال بأن تقوم الدولة البيزنطية المرهقة بشن حرب استرداد ضد العرب قبل مرور مائتى سنة أخرى .

---

(٩) الحقيقة أن فتح أفريقيا لم يتم بسهولة كما يقرر كانتور ، بل إن فتح هذه البلاد اتسم بالصعوبة الشديدة على عكس الفتوحات الاسلامية الأخرى . وقد لقى المسلمون مقاومة عنيدة من جانب البربر ، ولم يتم فتح البلاد إلا بعد حوالى اثنتين وسبعين سنة .. ولعل مايقوله المؤرخ عبد الرحمن بن خلدون من أن البربر ارتدوا عن الاسلام اثنتى عشرة مرة يجسد هذه الحقيقة إذ لم تثبت أقدام المسلمين فى هذه البلاد الا على يد موسى بن نصير .

لمزيد من التفاصيل حول فتح شمال أفريقيا انظر :

سعد زغلول عبد الحميد ، تاريخ المغرب العربى ، ص ٧٨ - ص ٣٢١ . (المترجم)

وحتى منتصف القرن الثامن كانت الأراضى الشاسعة التى فتحها العرب خاضعة لحاكم واحد هو الخليفة الأموى الذى اتخذ من دمشق عاصمة له يحكم منها هذه الأراضى الشاسعة والشعوب الكثيرة وفقا لنظام فردى على نمط الملكية الشرقية فى فارس . وفى القرن الثامن لم تعد الشعوب غير العربية التى اعتنقت الاسلام راضية عن وضعها الأدنى ، وبدأت تطالب بنصيب فى حكم الدولة العربية الواسعة الارجاء ، كما طالبت هذه الشعوب بحقوق متساوية مع المحاربين القادمين من شبه جزيرة العرب ، وأخيرا ، وفى منتصف القرن الثامن الميلادى ثارت الشعوب الخاضعة ضد الخليفة الأموى القابع فى دمشق ، وانتقل لقب الخلافة إلى أسرة حاكمة جديدة هى الأسرة العباسية ، التى بنت عاصمة جديدة فى بغداد ، واستندت إلى تأييد الفرس .

لقد كان سقوط الأمويين على أيدى العباسيين بمثابة إشارة البدء لحركات التمرد واللامركزية السياسية فى جميع أنحاء العالم الاسلامى ، وما أن غربت شمس القرن التاسع حتى كان العالم الاسلامى قد انقسم الى عدة دول ، بدلا من دولة عربية عظمى واحدة ، واستمر حكام تلك الدول على احترامهم للخليفة باعتباره خليفة رسول الله . بيد أن السلطة السياسية فى العالم الإسلامى آنذاك قد انتقلت إلى بعض الأمراء المستبدين ، بما فى ذلك حاكم اسبانيا حيث ظلت الأسرة الأموية قائمة . وفى ذلك الحين توحد عالم البحر المتوسط فى ظل الدين الاسلامى واللغة العربية ، كما قام نظام اقتصادى عالمى كبير ، إلا أن الحضارة العربية لم تعد مجرد وحدة سياسية فحسب ، فمنذ القرن الثامن بات لفظ "عربى" يعنى حضارة عظيمة ترمى بظلالها الوارفة على سواحل البحر المتوسط فى الشرق والجنوب ، وتلك هى الحضارة التى ساهمت فيها شعوب كثيرة (اليونان ، الفرس ، السوريون ، اليهود ، البربر إلى جانب العرب).

وكان مركز الخليفة ، بوصفة زعيما روحيا ، مركزا إسميا تماما ، وبنهاية القرن الثامن ظهرت فى الجماعة الاسلامية مذاهب ثلاثة كان ، ولايزال ، لها أتباع كثيرون[١٠] وكان أسبق هذه المذاهب هو مذهب السنة الذى كان أتباعه يفوقون الآخرين بدرجة ساحقة وتعتمد

---

(١٠) يقصد المؤلف بهذه المذاهب الثلاثة ، السنة ، والشيعة ، والخوارج . وعن الفرق الأحزاب السياسية الاسلامية وبداية نشأتها وتكوينها أنظر : د. محمد ضياء الدين الريس ، النظريات السياسية الاسلامية ، الطبعة الثالثة ، مكتبة الانجلو المصرية ، سنة ١٩٦٠. (المترجم)

تعاليم السنة على القرآن الكريم والسنة النبوية كما اعتمد السنة على الشريعة المستمدة من التعاليم الدينية والأخلاقية الواردة فى القرآن الكريم والسنة النبوية . وكان المفروض أن يحمى الخليفة السنة ؛ ولكن الواقع أنه لم تكن هناك سلطة دينية عليا فى الجماعة الاسلامية مثل البابوية ، فإن الاسلام لم يعرف مثل هذه الواسطة بين الفرد المسلم وربه ، وكان الأئمة السنيون فى شتى أرجاء العالم الاسلامى يتجمعون للدعوة إلى الحق الذى نزل به الوحى وإلى طاعة الله، وقد اعتمد نفوذهم وقوتهم على مدى تأييد الدولة لهم إلى حد بعيد . ذلك أنه حتى القرن الحادى عشر كان الحكام المسلمون أكثر تحررا وعلمانية من زعماء السنة ، وعلى الرغم من النفوذ الواسع الذى كان السنة يتمتعون به فى العالم الاسلامى ؛ فإنهم كانوا يفتقرون الى القوة اللازمة لمحاربة مخالفيهم فى المذاهب والمبادىء الشرعية .

أما المذهبان الإسلاميان الاخران اللذان ظهرا فى العصور الوسطى ، فكان أحدهما يؤمن بأئمة زعموا أنهم ينحدرون من نسل فاطمة بنت الرسول ، وعرف مؤيدو أولئك الأئمة باسم الشيعة ، وكان طبيعيا أن تنشأ عداوة مريرة بينهم وبين جماعة السنة الذين آموا بأن محمدا صلى الله عليه وسلم ، هو آخر الأنبياء (١١) ولكن زعماء الشيعة فى الشرق الأوسط وشمال الهند نجحوا فى أن يحولوا دعاواهم الثيوقراطية إلى سلطان سياسى حقيقى ، فقدموا إلى

---

(١١) يبدو من كلام المؤلف أنه وقع فى خطأ التعميم من ناحية ، وعدم وضوح معلوماته التاريخية عن نشأة الشيعة ، وتطورهم من ناحية أخرى ، والحقيقة أن بداية ظهور هذا الحزب الاسلامى منذ مصرع الخليفة الثالث عثمان بن عفان ، وما نتج عن ذلك من إنقسام العالم الإسلامى إلى معسكرين كبيرين : أحدهما شايع "عليا" والثانى أيد "معاية" وإلى ذلك الحين كان الحزب الذى ناصر عليا بن أبى طالب يضم فى صفوفه من سيصيرون خوارج بعد حادثة التحكيم الشهيرة ، إلى جانب من سيطلق عليهم فى المستقبل اسم الشيعة ، فقد كانت نتيجة حادثة التحكيم ، التى انتهت كما تنتهى المسرحيات الهزلية ، أن تكون حزبان اسلاميان : أحدهما الخوارج الذى بدأ كحزب له شخصية واضحة على مسرح الأحداث ، وعقائد جلية متمايزة ، ونظام كفل له الوجود والتطور المستمر طوال عصور التاريخ الاسلامى ، وثانيهما ، الشيعة الذى بدأ على أساس عاطفى هو حب آل بيت الرسول عليه الصلاة والسلام ، واعجاب بشخصية على بن أبى طالب نفسه ، وصفاته النادرة المثال .

وقد تطور هذا الحزب من هذا الشكل العاطفى البسيط ، حتى أخذ صورة غامضة حافلة بالأحاجى والألغاز بفعل التأثير الفارسى على عقائد هذا الحزب ونتيجة لتوالى الأحداث المحزنة على الشيعة ، بعد مقتل على نفسه ، بطعنة خنجر مسموم ، ثم تخلى ابنه الحسن عن حقه وموته فى ظروف مريبة ، ثم الوحشية والقسوة التى اتسم بها اضطهاد الدولة الأموية للشيعة فمقتل الحسين فى كربلاء ، مما ترك آثارا من الحزن واللوعة=

عالم البحر المتوسط سنة ٨٠٠ ميلادية

بعض المناطق المعزولة حيث يجد أتباعم الملجأ المأمون ، والأغاخان هو سليل أولئك الأئمة الذين يزعمون أنهم ينحدرون من نسل النبى عليه الصلاة والسلام. أما التصوف فى الاسلام فقد جاء كرد فعل للقيود الصارمة التى فرضها السنة ، إذ تطلع المتصوفة المسلمون إلى علاقة مباشرة بالله ، وكانوا يتوقعون إلى تجربة دينية عنيفة كمهرب من التشريع السنى الصارم ، وبعد الانتصار النهائى للمذهب السنى فى القرن الثانى عشر كان الصوفية يقدمون الإسهام الفكرى الوحيد إلى جانب التراث القرآنى فى الثقافة الاسلامية . وقبل نهاية القرن الثانى عشر ظهر تيار علمانى قوى وثرى فى العالم الإسلامى جعل من العلماء العرب فى القرنين العاشر والحادى عشر أعظم علماء عصرهم وفلاسفته ، ومنهم استمد الأوربيون فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر شطرا هاما للغاية من معارفهم فى هذه المجالات ؛ فقد تمت ترجمة الكتابات اليونانية فى الفلسفة والعلوم إلى اللغة العربية ، بما فى ذلك مؤلفات ارسطو الكاملة التى لم تعرفها أوربا سوى فى القرن الثانى عشر، وكانت هذه المؤلفات قد ترجمت فى سوريا فى القرن الثامن بمساعدة العلماء اليونانيين من الطوائف المسيحية الشرقية . وقد انتقلت كتابات أرسطو وغيرها إلى الغرب الأوربى عبر العالم الاسلامى كما وصلت إلى أسبانيا قرب نهاية القرن التاسع ، وكانت قرطبة فى القرن العاشر تشتهر بأنها مركز للأبحاث الناجحة والعلوم ، ووصلت شهرتها هذه إلى أعدائها من المسيحيين اللاتين . وفى القرن العاشر كتبت راهبة ألمانية تقول إن قرطبة "زخرفة جميلة" للحضارة ذاع صيتها بسبب جداول المعرفة السبعة الموجودة فيها . وحتى القرن الثانى عشر، كان الطب العربى أرقى من المعلومات الطبية التافهة فى غرب أوربا بدرجة كبيرة ، ولم يمنع الأطباء العرب من التوصل إلى الاكتشافات الطبية التى

= لايمكن أن يمحوها الزمن ، ومن خلال هذه المآسى المتتالية برزت الشيعة وقد صاغت آراءها السياسية ، وأصبحت قوة كبرى فى الصراع السياسى ، ولايزال حزب الشيعة على قوته حتى اليوم .

والجدير بالذكر أن الشيعة ليسوا فرقة واحدة ، وإنما هم عدة فرق ، أولاها هى الكيسانية التى كانت تدعو الشيعة إلى مبايعة "محمد بن على" المعروف بابن الحنفية ، ومنذ ذلك الحين بدأت تتجسد فكرة "الأمامية" "المهدية" و"الرجعة" وغيرها من أركان مذهب هذه الفرقة التى أخذتها عنها الفرق الشيعية الأخرى . ثم تظهر فى فترة لاحقة فرقة "الرافضة" وفرقة "الزيدية" ثم تظهر فرقة رابعة هى" الاسماعيلية" فخامسة هى "الغلاة" الذين يغالون فى مذهبهم بشكل يخرجهم عن دائرة الاسلام .

أنظر : الشهرستانى ، الملل والنحل (طبعة الازهر ، ٣ج ، ص ٢٨٠ ومابعدها ؛ محمد ضياء الدين الريس ، النظريات السياسية الاسلامية (الطبعة الثالثة الانجلو المصرية ١٩٦٠) ، ص ٤٣ – ص ٦١ .

تحققت فى القرنين السادس عشر والسابع عشر فى أوربا سوى معارضة زعماء السنة للتشريح. وفى القرنين العاشر والحادى عشر كانت الرياضيات علماء عربيا خالصا ، وهو مايتضح من انتشار استخدام مصطلحات الرياضيات مثل الجبر والأرقام العربية فى اللغات الأوربية الغربية، صحيح أن الرياضيات العربية تدين بالكثير للدراسات والبحوث الصينية ؛ ولكن العرب ساهموا بعدة اسهامات أصلية فى هذا المجال . وفى العالم العربى قبل القرن الثانى عشر كانت الفلسفة والعلوم وقفا على مجموعة من العلماء الذين يعملون فى أعمال مدنية مثل الطب ، والتعليم ، والجهاز الحكومى . لقد كانت الزعامة الدينية منفصلة عن الزعامة الفكرية، فقد سيطر على الحياة الفكرية عدد من العلماء الذين تربطهم بالمذهب السنى وشائج قوية ، وقد أدى هذا الوضع إلى تلك الحيوية والشجاعة التى اتصفت بها العلوم العربية ؛ على الرغم من أنه - على المدى الطويل - جعل من التأمل العقلى هدفا للهجوم والتحقير من جانب أنصار المذهب السنى أثناء رد الفعل السنى الذى استمر طوال القرنين الثانى عشر والثالث عشر .

وقد اشتهر العالم العربى فى العصور الوسطى ، لابسبب الانجازات الفكرية فحسب ، وإنما بسبب ثروته الزراعية وتجارته المزدهرة أيضا ، وكانت أوربا الغربية تبدو ، بالمقارنة مع البلاد الاسلامية ، منطقة متخلفة . وقد تمتع العرب بإدراك قوى جعلهم يبقون على نظم الرى التى كان معمولا بها فى عالم البحر المتوسط فى العصور الوسطى الباكرة ، وهى النظم التى كانت قائمة منذ العصر الرومانى ، وقبله بكثير فى أماكن عديدة . كما أن حسن إدراكهم هذا جعلهم يحافظون على التجارة العالمية فى حوض البحر المتوسط ، وهى التجارة التى كان البيزنطيون يسيطرون عليها . ولم يكن لدى العرب مايسهمون به فى الحياة الاقتصادية لعالم البحر المتوسط ، ولكنهم سرعان ماتعلموا الاساليب الفنية فى التجارة من الشعوب التى قهروها.[١٢] ثم تحولوا إلى بحارة مهرة بشكل لافت للنظر ، كما بنوا الأساطيل الكبيرة

---

(١٢) عرف العرب فى كل العصور بأنهم أصحاب تجارة ، ومن البديهى أن العرب المقصودين بهذا هم أولئك الذين سكنوا على طول الطرق التجارية بين الشرق والغرب . وقد بلغت شهرة العرب فى التجارة حدا جعل استرابون يقول أن كل عربى تاجر أو سمسار ، فقد اشتغل اليمنيون بالتجارة منذ وقت مبكر فى التاريخ الانسانى . وكانت موارد التجارة تمثل ركنا هاما من أركان البناء الاقتصادى للدول التى قامت فى اليمن قبل الاسلام منذ القرن الرابع عشر قبل الميلاد (دولة معين ١٣٠٠-٦٣٠ق.م ودولة سبأ ٨٠٠-١٥٥ ق.م ثم الدولة الحميرية ١١٥ق.م إلى ٥٢٥ ميلادية) . كما أن بلاد الحجاز - التى كانت بمثابة الجسر الذى يربط بين بلاد الشام وحوض المتوسط من ناحية ، ودول شرق أفريقيا والمحيط الهندى من ناحية أخرى - قد شهدت نمو عدد=

وفرضوا سيطرتهم التامة على البحر المتوسط فى القرنين الثامن والتاسع ، وسك الحكام المسلمون عملة قوية للغاية صارت أساسا فى عمليات التبادل التجارية الهامة ، لا فى عالم البحر المتوسط فقط ، وإنما فى العديد من أنحاء غرب أوربا أيضا . وقد ظلت شعوب غرب أوربا تستخدم العملات الذهبية العربية فى عمليات التجارة العالمية بعد أن توقفت هذه الشعوب عن سك عملات ذهبية خاصة بها فى القرن الثامن ، وقد اكتشف الأثريون هذه العملات الذهبية العربية فى شتى أنحاء أوربا الغربية . وينبغى أن نتذكر أيضا ، أثناء تقييمنا للتجارة العربية ، أن الصورة الشائعة للتاجر العربى فى عالم العصور الوسطى الباكرة، كانت غالبا ، صورة رجل لايتحدث سوى اللغة العربية ، وربما كان مصريا أو سوريا ، يهوديا أو من البربر ، أو من أى شعب آخر من الشعوب الاسلامية .

كان انتشار الاسلام وتأثيره على اقتصاد أوربا الغربية موضوعا للجدل والخلاف الشديد بين المؤرخين . وربما تحوم بعض شكوك قليلة حول تأثير الاسلام على تطور أوربا الغربية فى المجال السياسى والفكرى فى العصور الوسطى الباكرة ، إذ أن تأثير الاسلام فى هذين المجالين كان ضئيلا ، وليس السبب فى ذلك راجعا إلى أن أوربا الغربية لم تجد ماتتعلمه من الحضارة الاسلامية ، بل على العكس من ذلك ، استطاع الأوربيون أن يتعلموا الكثير من العرب فى مجال الحكم ، الذى استوعب فيه العرب تقاليد الحكومة البيروقراطية التى خلفتها الحضارة الرومانية - البيزنطية ، كما أنهم استفادوا كثيرا من التعاليم العربية فى مجالى الفلسفة والعلوم ، ولكن لأنه لم يكن هناك مسلمون خاضعون لأى من الحكام المسيحيين الغربيين فى العصور الوسطى الباكرة ، ولأن الشعوب الغربية كانت ترى فى المسلمين مجرد هراطقة جامحين وأعداء ضارين ، فقد أغمضت هذه الشعوب عيونها عن المكاسب التى كانت يمكن لها أن تحصل عليها من خلال الاتصال بالشعوب العربية الاسلامية . وكان لابد أن تدفع أوربا العصور الوسطى الباكرة ثمن الستار الحديدى الذى فرضته على شعوبها وأن تدفع ثمن الحرب

= من المدن التجارية ومن بينها مكة ويثرب ، وقامت على ساحل البحر الأحمر موانىء هامة مثل الشعيبة (ميناء مكة القديم قبل جدة) وينبع ميناء مدينة يثرب ، ومنذ نهاية القرن السادس الميلادى احتكرت قريش التجارة التى نظمها (هاشم بن عبد مناف) فى رحلتى الشتاء والصيف ، وهكذا نصل إلى أنه إذا كان العرب قد أبقوا على نظم الرى وأساليب الزراعة التى وجدوها فى البلاد المفتوحة ، فإن مساهمتهم فى مجال التجارة لم تكن ضئيلة بالقدر الذى يجعلنا نقول إنهم تعلموا أساليب التجارة من الشعوب المغلوبة .

حول هذا الموضوع أنظر : السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ العرب قبل الاسلام (الاسكندرية ١٩٧٤ ؛ محمد كرد على ، الاسلام والحضارة العربية (القاهرة ١٩٣٤) ، الجزء الأول . (المترجم)

الباردة التى شنتها ضد الإسلام ، فكان أن حرمت الشعوب اللاتينية نفسها من ثمار الحضارة الاسلامية بسبب سياستها الانغلاقية ، وعزلتها الحضارية . وقرب نهاية القرن العاشر فقط بدأت كراهية المسيحيين للتعاليم التى جاء بها محمد صلى الله عليه وسلم ، تتقهقر وتتراجع لتأتى فى المرتبة الثانية بعد إدراك المسيحيين الغربيين لما يمكنهم أن يحققوه من مكاسب من خلال الدراسة فى قرطبة . فقد ذهب جربردى أوريلاس Gerber d' Aurillace الذى كان أعظم علماء عصره والذى تولى بالبابوية فيما بعد ، إلى الأندلس لكى يدرس الفلسفة والرياضيات، وكان للتعليم الذى تلقاه على أيدى أساتذته المسلمين الفضل فى تفوقه على أقرانه من المسيحيين ، ونظرا لأن الفارق بين جربر ورفاقه من العلماء المسيحيين كان شاسعا : فقد ساد الاعتقاد على مدى عدة قرون ، فى أنه كان يعتمد على قوى خفية تساعده على العرافة والتنجيم وآعمال السحر الأسود . ولم يرفع الستار الحديدى بين أوربا الغربية وأسبانيا الاسلامية إلا بعد سنة ١١٠٠م ، وكانت نتيجة ذلك أن دخلت كتابات أرسطو إلى غرب أوربا عن طريق أسبانيا إيذانا ببدء الثورة الفكرية .

أما الآثار الاقتصادية الناجمة عن انتشار الاسلام ، فهى غير واضحة ، وهو ماجعل المؤرخين يتنازعون طيلة الأعوام الستة والعشرين الماضية حول مسألة ظهور هذه القوة الجديدة فى حوض البحر المتوسط فى القرنين السابع والثامن ، وتأثير هذه القوة على العلاقات الاقتصادية بين الشرق والغرب . واندلع هذا الجدل نتيجة لآخر مؤلفات المؤرخ الاقتصادى البلجيكى الذائع الصيت هنرى بيرين Henry Pirenne وهو كتابه المعنون "محمد وشارلمان" الذى نشر سنة ١٩٣٩م . وكان بيرين رجلا نادر المثال ، فهو باحث قدير غزير العلم ، ومفكر أصيل صاحب أسلوب حىّ مقنع . وبينما يميل معظم المؤرخين الى الحذر كلما تقدمت بهم السن، فإن بيرين على عكس ذلك ، صار أكثر ميلا إلى التعميمات المتسرعة ، وأخذ رفاق بيرين يدافعون عن آرائه دفاعا حارا فى كل مكان ، مما أدى إلى إعتناق الكثيرين لهذه الآراء . والواقع أن كتاب "محمد وشارلمان" قد أثر تأثيرا كبيرا على التفسير العام لتاريخ العصور الوسطى ، لدرجة أن الكثيرين من مؤرخى الجيل القديم كانوا يجدون صعوبة كبيرة فى التخلى عن كتاب بيرين ، أو حتى تعديله ؛ على الرغم من النقد البالغ القسوة الذى وجهه لهذا الكتاب علماء من أمثال لوبز ، ولاتوش وغيرهما فى السنوات الأخيرة .

فما هو الرأى الذى طرحه بيرين ؟ يمكن ايجاز هذا الرأى فى أن التوسع الاسلامى قد سبب الانهيار الاقتصادى لعالم البحر المتوسط ، كما أن التوسع الإسلامى كان السبب فى الانفصال

النهائى بين الشرق والغرب ، ونهاية وحدة عالم البحر المتوسط التى زعم بيرين أنها استمرت قائمة إبان فترة الغزوات الجرمانية . إذ أن أفريقية ، وأسبانيا اللتين كانتا على الدوام جزءا من العالم اللاتينى ، قد صارتا من منذ ذلك الحين تابعتين لحضارة أخرى مركزها بغداد وصار الجزء الغربى من حوض البحر المتوسط بحيرة إسلامية ، وهكذا وجد الغرب نفسه محاصرا مما أجبره على الاعتماد على موارده الخالصة . وللمرة الأولى فى التاريخ يتحول محور الحياة إلى الشمال بدلا من البحر المتوسط ، وبانقطاع أوربا الغربية عن البحر المتوسط كان عليها أن تعود إلى إنتهاج نمط الاقتصاد الطبيعى (أى الاقتصاد الريفى) ، وظهرت نظم جديدة تلائم الدولة الاقطاعية ومجتمع الضيعة الاقطاعية . وفى هذا البحث الواضح الحاسم الذى قام به بيرين تبدو عوامل الجذب واضحة تماما ، فقد استطاع أن يقدم آراء مدعمة بالبراهين الجديرة بالاعتبار ، ولكن العديد من العلماء الذين كتبوا فى السنوات العشرين الأخيرة ، يميلون إلى القول بأن كتاب "محمد وشارلمان" مجرد مبالغة كبيرة ، وتبسيط شديد للأمور التى تتعلق بحضارة العصور الوسطى الباكرة .

وسوف نرى أن ثمة جانبين فى البحث الذى قام به بيرين فى حاجة إلى تدعيم لكى يكون تفسيره مقبولا ، وأولهما قوله إن الغزوات الجرمانية لم تكن نقطة تحول فى تاريخ غرب أوربا الاقتصادى ، وثانيهما قوله إن انتشار الاسلام كان هو نقطة التحول الحاسمة ، وفى رأينا أنه يجب تناول كل من هذين الموضوعين بحرص .

ففى رأى بيرين أنه على الرغم من الغزوات الجرمانية فإن وحدة عالم البحر المتوسط ظلت قائمة أثناء القرنين الخامس والسادس ، كما ظلت فرنسا الميروفينى جزءا من حضارة البحر المتوسط . وقد انبنى هذا الرأى على أساس القراءة الخاطئة ، سواء عن قصد أو غير قصد ، للصورة التى رسمها جريجورى التورى للمجتمع الميروفنجى . إذ لم تكن ثمة قطيعة كاملة مع تجارة البحر المتوسط وحضارته ، ولكن كان هناك تدهور واضح فى تأثير حوض البحر المتوسط على المجتمع الفرنجى ، ولم يكن اقتصاد غاله فى القرن السادس من ذلك النمط الذى تمثل التجارة وعمليات التبادل النقدى ركنا هاما من أركانه ، لأن فرنسا الميروفنجية كانت تعتمد إلى حد بعيد على الأرض فقط كمصدر أساسى للثروة . فلم تكن المدن التى يصورها جريجورى التورى فى تاريخه سوى مراكز سياسية وأسقفية ، ولم تكن مراكز تجارية ، فقد كانت طبقة التجار الرومانية قد اختفت ، وتحمل الشرقيون من السوريين واليهود عبء تجارة أوربا الغربية مع البلاد الشرقية . وبالمقارنة مع بيزنطة تعتبر فرنسا الميروفنجية منطقة متخلفة

تماما ، يقوم اقتصادها على الزراعة ، وليست للتجارة فى هذا الاقتصاد سوى أهمية ضئيلة ، ويبدو من المستحيل أن ننكر صحة هذه الصورة التى كان عليها العالم الميروفنجي ، لاسيما وأنها صورة يدعمها الدليل الأثرى . ومن الواضح إذن ، أن تدهور فرنسا الاقتصادى وتفكك وحدة عالم البحر المتوسط قد حدثا بالفعل قبل البعثة النبوية .

وليس معنى هذا أن الغزوات الجرمانية كانت بمثابة الكارثة المفاجئة التى سببت هذا التدهور الاقتصادى ، ذلك أن وحدة البحر المتوسط الاقتصادية ، وحجم التجارة العالمية ، أخذتا فى التدهور منذ القرن الثانى . وفى الوقت الذى لانزال فيه غير واثقين تماما إلى أى حد كانت الغزوات الجرمانية نقطة تحول حاسمة فى التاريخ الاقتصادى لغرب أوربا ، فإنه يبدو من المؤكد أن "تفاعل بدائية الجرمان مع الإنحلال الرومانى" على حد تعبير لويبز ، قد زاد من سرعة التفكك الاقتصادى فى عالم البحر المتوسط ، وهو التفكك الذى أخذت أعراضه تبدو واضحة من النصف الثانى للقرن الثانى .

وتكشف الأبحاث التى قام بها أخيرا المؤرخون الاقتصاديون ، أنه حدث إحياء جزئى للتجارة العالمية فى حوض البحر المتوسط قرب نهاية القرن السادس برعاية البيزنطيين . ويعتبر وجود التجار السوريين فى غرب أوربا أيام جريجورى التورى دليلا على ذلك . كما أن هناك دليلا على أنه كان هناك إحياء جزئى لتجارة التصدير فيما بين انجلترا والشاطىء الشرقى للبحر المتوسط فى منتصف القرن السابع ، فضلا عن أن هناك أدلة متفرقة على أن ايرلندا وبلاد البلطيق ، التى لم تكن تربطها صلة بالحضارة الرومانية ، قد شاركت فى النشاط التجارى فى عالم البحر المتوسط آنذاك .

ويبقى علينا الآن تمحيص الجزء الثانى من كتاب بيرين . ترى الى أى مدى كان انتشار الاسلام سببا فى القضاء على هذا الاحياء الجزئى للتجارة بين الشرق ؟ فى رأى بيرين أن كلا من المسلمين والمسيحيين يكرهون بعضهم بعضا ، ومنذ أن تحكمت القوة البحرية الاسلامية فى البحر المتوسط خلال القرنين الثامن والتاسع أصبح استمرار العلاقات بين أوربا الغربية وحوض المتوسط أمرا مستحيلا ، ثم يسوق لنا مناقشة تخلط بين الأسباب والنتائج ، وربما كانت هذه المناقشة مضللة فى صياغتها التى تبدو منطقية ، إلا أن المؤرخين يرونها صحيحة فى أغلب الأحيان نظرا لعدم وجود البراهين الواضحة على خطئها . فقد أشار بيرين إلى انتقال مراكز الحياة الأوربية إلى الشمال الفرنسى ووادى نهر الراين وإلى تدهور موانىء فرنسا على البحر المتوسط . كما أشار إلى الاتجاه المطرد نحو الاقتصاد الريفى الخالص فى فرنسا خلال القرن

الثامن ، وخلص من هذا باستنتاج مؤداه أن السبب فى ذلك هو انقطاع التجارة بين الشرق والغرب نتيجة التوسع الاسلامى ، وقد استطاع بيرين أيضا أن يقدم فى بحثه بعض الأدلة التطبيقية الواضحة . ففى أواخر القرن السابع توقفت الكنيسة الغربية عن استخدام النبيذ المستورد من فلسطين فى طقس الأفخار ستيا ، أي العشاء الربانى ، كما أنها بدأت تنشر وثائقها على الرق بدلا من ورق البردى المستورد من مصر . والاستنتاج الأكثر صحة هو أن الأوربيين لم يعودوا قادرين على شراء النبيذ الفلسطينى وورق البردى المصرى ، لأن استيرادهما كان يتكلف نفقات باهظة ، نتيجة الظروف التى ترتبت على الفتح الاسلامى لهذه البلاد .

وكان من الصعب على ناقدى بيرين أن يفسروا هذا الدليل التطبيقى ، وهناك رأى يقول بأن الطلب على مثل هذه البضائع الشرقية قد انخفض نتيجة للتغيرات التى طرأت على طعمها وطرق انتاجها ، بيد أن هذا الرأى غير مقنع على الاطلاق . وعلى أية حال ، فإن هناك دليلا يكفى لأن يفند رأى بيرين بشكل خطير ، فربما كانت التجارة بين الشرق والغرب قد توقفت تماما على مدى نصف قرن من الزمان أو أكثر قليلا ، بيد أنه من المؤكد أنه كانت هناك علاقات تجارية مستمرة بين أوربا الغربية والبلاد الاسلامية منذ منتصف القرن التاسع فصاعدا. وكانت سلع الصادرات الغربية إلى الشرق هى : العبيد ، والفراء ، والمنتجات المعدنية ، والأخشاب . وفى مقابل ذلك كان التجار المسلمون يفدون ببضائع الترف والرفاهية الشرقية التى كانت تجعل من حياة النبلاء الأوربيين الخشنة حياة أكثر راحة . ويبدو غريبا أن بيرين ، الذى كان حجة وعلماء من أعلام تاريخ تجارة العصور الوسطى ، قد تغافل تماما عن تجارة العبيد التى كانت تجارة رائجة بين أوربا الغربية ، وبلاد البحر المتوسط ، وقد لعب اليهود دورا هاما فى هذا النشاط التجارى فى بداية الأمر . وبحلول سنة ٩٩٠ تخلى البنادقة وغيرهم من التجار الايطاليين عن غيرتهم الدينية حتى يتمكنوا من القيام بدور هام فى النشاط التجارى بين الشرق والغرب . ومن المؤكد أن التجارة فى البحر المتوسط كانت تتعرض لخطر القراصنة طوال العصور الوسطى الباكرة ؛ مما جعل من التجارة العالمية عملا محفوفا بالمخاطر ، كما رفع تكاليف النقل إلى درجة كبيرة للغاية ، بيد أن التجار الأوربيين كانوا يحصلون على مكاسب طائلة جدا من البضائع التى كانت تسلم من خطر القراصنة أو الغرق ، فقد كانت هذه البضائع عبارة عن مستلزمات الرفاهية والمواد الخام التى كان يقصد بها إشباع حاجات الطبقة الحاكمة ، ولم تكن تستورد بهدف الاستهلاك الشعبى ، ومن ثم فإن التكلفة المتزايدة بالضرورة لم تكن لتحول دون استيراد هذه البضائع .

ومن الممكن أن نسلم بأن إنتشار الإسلام قد تسبب فى تدهور النشاط التجارى فى عالم البحر المتوسط ، وأنه كان عاملا من عوامل تحول الاتجاه الاقتصاد الأوربى نحو الشكل الريفى Ruralization وانتقال مراكز الحياة الأوربية إلى فرنسا ووادى نهر الراين . ولكن انقطاع أوربا الغربية حقا عن تجارة البحر المتوسط لم يحدث إلا بشكل مؤقت ، هذا إن كان حدث مثل هذا الانقطاع على الاطلاق . ولايمثل إنتشار الاسلام سوى مرحلة واحدة من مراحل العملية الاقتصادية التى اتسمت بالاكتفاء الذاتى وتدهور الحياة الحضرية de - urbanization التى كانت تجرى منذ نهاية القرن الثانى بعد الميلاد . فإن الحروب الأهلية التى شهدها القرن الثالث، ثم الغزوات الجرمانية ، ثم الانتصار العسكرى العربى فى نهاية الأمر ، كانت أحداثا ساعدت على تكريس الاقتصاد الطبيعى فى غرب أوربا ، كما ساعدت على قيام النظام الأقطاعى فى القرن التاسع . وقد لعب بيرين دورا هاما فى فهمنا وإدراكنا لتاريخ العصور الوسطى ، وذلك لأنه لفت الانتباه إلى النتائج الاقتصادية للاسلام - على الرغم من أنه كان يبالغ فى أهميتها- إلى جانب نتائج الغزوات الجرمانية . إن محمدا عليه الصلاة والسلام لم يحدد مصير عالم شارلمان ، على نحو ما اعتقد بيرين ، لأن نظم أوربا القرنين الثامن والتاسع لم تكن لتختلف جذريا لو لم يحدث التوسع الاسلامى . والحقيقة الأساسية فى تاريخ العصور الوسطى هى أن أوربا الغربية قد اتجهت إلى الاكتفاء الذاتى بعد أن فشل جستنيان فى إعادة بناء الامبراطورية الرومانية ، وأن أوربا هى التى حسمت مصير الحضارة الغربية بما تتميز به من نظم ومؤسسات، كما أن زعماءها كانوا من أبنائها .

الفصل السادس

نمو الزعامة الكنيسة

١- المؤسسات الديرية فى حضارة العصور الوسطى

لم يكن ممكنا أن تأتى القيادات التى أمست حاجة المجتمع الغربى - بما اتسم به من الفوضى والاضطراب فى القرن السادس - ملحة إليها إلا من داخل الكنيسة . فقد كانت الكنيسة تضم بين صفوفها جميع الرجال المتعلمين فى أوربا آنذاك ، كما كانت هى أقوى مؤسسات العصر ، بيد أن الكنيسة كانت قد عانت كثيرا من الغزوات الجرمانية : إذ أن الاساقفة ربطوا مصالحهم بمصالح النبلاء . والحقيقة أنهم غالبا ماكانوا من أقرباء الملك أو من أبناء الطبقة الارستقراطية القوية النفوذ . وكان رجال الدين بشكل عام موصومين بالجهل ، والفساد ، كما أنهم عجزوا عن علاج المشكلات التى نجمت عن تنصير مجتمع ظل على وثنيته إلى حد بعيد رغم إعتناق جماهير المحاربين الجرمان للمسيحية بشكل رسمى . فقد تسربت الى رحاب المسيحية اللاتينية أشد ضروب الخرافات والخزعبلات فجاجة وبدائية ، كما علقت بالعقيدة فى القرنين السادس والسابع شوائب الاعتقاد فى الشياطين والسحر ، فضلا عن أحط وأدنى ضروب عبادة الذخائر المقدسة . وتسربت الى المسيحية عبادات القوى الطبيعية المحلية متمثلة فى تبجيل القديسين ، بالإضافة إلى ما أصاب العقيدة من انحطاط وتدهور عام بسبب البداوة الوثنية . ولم يكن هناك من رجال الكنائس الأبرشية من يستطيع أن يذهب إلى الريف لمجابهة مثل هذا الانحطاط ، وغالبا ما كان أحد قساوسة الكاتدرائية يقوم برحلة بين الحين والحين من مقره الأسقفى إلى الريف لإنجاز بعض الأعمال الدينية المتعلقة بالأسرار المقدسة . ولم يكن رجال الاكليروس العلمانيون يهتمون ، أو يرغبون ، فى القيام بالأعمال التبشرية الشاملة ، بل إن احدا لم يهتم بمجرد التنصير الشكلى للقبائل الجرمانية التى كانت تعيش داخل المملكة الميروفنجية ، وهى القبائل التى تسكن شرق نهر الراين . إذ أن أولئك الجرمان بقوا على وثنيتهم حتى القرن الثامن ، ومع بزوغ شمس القرن السابع ، كان النظام الكنسى فى بلاد الغال غارقا فى حال من الفوضى والاضطراب . وتمثلت المشكلة الأساسية فى كيفية الحفاظ على المبادىء الكافية التى يمكن أن تستمر بها الطقوس والتعاليم المسيحية اللاتينية ، وتضمن إستمرار ما كانت تقدمه الكنيسة اللاتينية من إرشادات ، فقد

كان الكثير من القساوسة لايفقهون معنى ما يقولون فى قداس الكنيسة ولكنهم كانوا يتمتعون دون فهم ، بعبارات غامضة من اللغة اللاتينية جعلتها تبدو كما لو كانت رقايا أو "تعازيم" سحرية ، وذلك من أجل التأثير فى البدائيين فى المناطق الأبرشية القريبة .

ويرجع الفضل فى بقاء الكنيسة اللاتينية ، والحضارة الأوربية ، وصونهما من الزوال ، إلى المؤسستين الكبيرتين اللتين تمتعتا - دون غيرهما - بالقوة والكفاية اللازمتين لمجابهة التأثيرات السلبية للعالم البربرى المحيط بأوربا ، وهما الإكليروس النظامى (أى الرهبان) والبابوية . فمن بين جميع مؤسسات أوربا الغربية ، كانت الديرية والبابوية هما فقط القادرتين على إفراز قيادات المجتمع الأوربى ، وسرعان ماتمثلت نتيجة جهودهما المتواصلة فى تطوير الملكية الجرمانية وتحضرها ، وتحويلها إلى قوة خلق إضافية فى مجتمع العصور الوسطى الباكرة . ولكن بينما كانت البابوية والملكية الجرمانية مكرستين تماما لقيادة أهل أوربا الغربية صوب الإتجاه الأكثر فعالية وجدوى ، كان الرهبان يشكلون القوة الاستمرارية فى ميادين التعليم ، والتنظيم والتقدم الاجتماعى فى الفترة مابين القرن السادس والقرن الثانى عشر ، كما كانوا من أكبر قوى الحسم فى تشكيل حضارة العصور الوسطى . فكيف تأتى للاكليروس النظامى - أى رجال الدين عاشوا فى ظل دستور ديرى - أن يلتزموا بهذه الإلتزامات الاجتماعية الضرورية ؟ إن الإجابة على هذا السؤال هى التى حدث شكل بناء الحضارة الجديدة التى قامت فى أوائل العصور الوسطى .

أما الديرية ، فهى شكل من أشكال النسك الدينى ، تضمن تنظيم وتقييد أو إنكار الذات فى الجوانب المادية والجسدية فى الحياة الإنسانية من أجل ضمان علاقة روحانية خالصة مع الرب تكون سبيلا إلى الخلاص ، وهكذا يهدف النسك الى الخلاص ، وهو هدف يمكن تحقيقه إما بانسحاب الناسك من المجتمع بمغرياته ولهوه المفسد ، وإما بالتحكم القاسى فى الحياة الاجتماعية لكى تكون البيئة مناسبة للناسك حتى يواصل حياته فى الدنيا ، وتسمى الوسيلة الأولى بالديرية بينما يمكن أن نطلق على الوسيلة الثانية اصطلاح "التطهيرية Puritanism". ومن الواضح أنه فى ظل الظروف التى كانت سائدة أوائل العصور الوسطى ، حيث المجتمع العنيف الفوضوى ، والذى كان غير مسيحى أساسا ، يصبح التحكم التطهيرى فى المجتمع من أجل ملاءمة العالم لحياة النسك أمرا مستحيلا . ومن ثم كان على الناسك أن يعتزل العالم لكى يؤكد انتصار إرادته الروحانية وخلاص روحه ، بيد أن طبيعة النظام الديرى فى أوربا أوائل العصور الوسطى فى شكله النهائى لم تسمح لمثل هذا الهروب من العالم بان ينجح تماما. وبدلا من ذلك : صار الدير مؤسسة اجتماعية فائقة الأهمية ، فقد قدم الرهبان المبرزون أعظم

الخدمات لكل من الكنيسة والملكية كما قدمت الديرية لكل من المؤسستين الدماء والقيادات الجديدة .

وعلى أية حال ، فإن الديرية كنظام لاترتبط بالغرب كما أنها لم تكن من نتائج العصور الوسطى ، إذ لايزال هناك رهبان بوذيون الى اليوم ، كما كان هناك رهبان يهود فى فلسطين ، قبل العصر المسيحى ، وهم أفراد الطائفة الآسينية الراديكالية ، الذى يعتقد انهم كانوا أصحاب وثائق البحر الميت[1] ، وربما كان القديس يوحنا المعمدان قد تأثر بمذاهب هذه الطائفة من حيث انتظارها المخلص المرتقب واعتقادها فى الحياة الأخرى . وعلى أية حال ، فإن يوحنا المعمدان قد مارس أشد أنماط حياة النسك تزمتا وصرامة ، ويمكن القول بأن المسيح قد حبذ مثل هذه الحياة باعتبارها أكثر أنماط الحياة مثالية ، وذلك حين أخبر حوارييه أنه يجب عليهم التحلل من كل القيود التى تربط الانسان بالحياة المادية بما فى ذلك حبه لأبويه لكى يدخلوا

---

(١) الطائفة الآسينية (الآسين أو الآسينيين) طائفة يهودية رأت أن تهرب من العالم لكى تحافظ على نقاء الجماعة وطهارتها ، وكان افرادها يعتقدون أنهم وحدهم اليهود الحقيقيون ، وقد وجدت هذه الفرقة قبل ميلاد المسيح وعاشت بعده وكانت أهم فرق اليهود وأكثرها احتراما ونشاطا حين ظهر ، ونظرا لقلة المعلومات المتاحة عن هذه الفرقة - بحكم العزلة التى فرضتها على نفسها - فانها تمثل مشكلة أمام الباحثين ، والمصدر القديم الوحيد عنهم تمثل فى الفقرات القليلة التى كتبها المؤرخ اليهودى يوسيفوس فى كتابيه "حرب اليهود" تواريخ اليهود" وفيما كتبه عنه عالم الطبيعة الرومانى بلينيوس الاكبر (٢٣-٧٩) ، وقد حار العلماء فى تفسير اسم هذه الفرقة اليهودية كما حاروا فى تاريخها وعقائدها .

عن هذه الفرقة وعقائدها انظر : حسن ظاظا ، الفكر الدينى الاسرائيلى (معهد البحوث والدراسات العربية ١٩٧١) ص ٢٦٤- ص٢٧٣ . أما وثائق البحر الميت التى عرفت ايضا باسم لفافات البحر الميت The Dead Sea scrolls أو مخطوطات قمران ، نسبة الى المكان الذى اكتشفت به بطريق الصدفة فى المناطق المجاورة للبحر الميت فى الاردن حاليا منذ عام ١٩٤٧ ، وهى عبارة عن كتب فرقة دينية يرجع تاريخها الى الفترة مابين سنة ١٥٠ ق.م وسنة ١٣٥ ميلادية تقريباً ، وبينما يعتقد بعض العلماء أن لفافات البحر الميت تحمل تراث الآسيين فان البعض يقول ان اسم هذه الطائفة لم يرد مرة واحدة فى هذه الوثائق والنصوص ، ومعظم هذه الوثائق عبارة عن مقتطفات من العهد القديم ومن المجموعة المعروفة باسم الابوكريفا (وهى كتب دينية يهودية مشكوك فى صحتها وأصالتها ولذلك فهى غير قانونية) والبعض الآخر خاصة بفرقة يهودية يميل بعض الباحثين إلى القول بانها فرقة الاسينيين . وتمكن اهمية هذه الوثائق فى انها تساعد على فهم الكثير من جوانب الفكر اليهودى آنذاك :

أنظر : H.A.R. Edgell, Dead Sea Scrolls, Oxford 1976

(المترجم)

فى الملكوت ، كما كان التحذير الذى أطلقه المسيح "لاتقدرون أن تخدموا الله والمال" (انجيل متى ، الأصحاح السادس) ، والنموذج الذى قدمته حياة المسيح ، الذى يُطيع أباه حتى الموت على الصليب ، ملهما لكل الأجيال المتعاقبة من النساك والزهاد المسيحيين جعلهم ينفصلون عن الحياة الدنيا ، ويحيون حياة روحانية خالصة بالقدر الذى يستطيعه الانسان . وكان لتغلغل الفلسفة الأفلاطونية العميق فى الفكر المسيحى فى القرون الأولى بعد الميلاد ، بثنائيتها عن الروح والجسد وتحللها من قيود العالم المادى ، أثره فى شيوع الإيمان بأن الروح تضمن خلاصها حين تحل الجوانب الروحانية فى البشر محل الجوانب الجسدية . وفى القرنين الثانى والثالث شعر بعض رجال الكنيسة الأتقياء - ممن فسروا الانجيل على هذا النحو الثنائى المتعسف - بالخطر العظيم الذى يهدد أرواحهم من جراء عيشهم فى المجتمع فهربوا إلى أماكن مقفرة لكى يقوموا بالممارسات الروحانية الخالصة . وكانت الصحراء المصرية هى المكان المفضل الذى يفر اليه أولئك المتدينون الميالون للعزلة والتأمل ، بيد أن آباء الصحراء اكتشفوا أن العالم لم يكن ليدعهم يذهبون بعيدا . فمنذ ذاعت أنباء تدينهم ، أخذ المريدون فى السفر اليهم عبر الصحراء المصرية طلبا لمساعدتهم فى التوسل الى الرب ، وهكذا فمنذ البداية الأولى للديرية المسيحية ، وجد الرهبان أنفسهم محاطين بالعالم الذى كانوا قد تركوه لتوهم احتقارا لشأنه ، كما أن المجتمع التمس منهم الشفاعة لأفراده لدى الرب . لقدكانت بداية حركة الزهد والنسك فى المسيحية دليلا على علاقة الشد والجذب بين الدير والعالم .

كانت صورة القديس - الناسك مألوفة وشائعة فى الكنيسة الشرقية ، ولم تتمكن الديرية الشرقية أبدا من التخلص من النموذج الذى أرسته الأصول الأولى لحركة الرهبنة الانفرادية فى الشرق .

وقدم أثناسيوس فى كتبه المسمى "حياة القديس أنطون" اشهر آباء الصحراء فى القرن الرابع . كانت حركة الرهبنة الشرقية تجنح الى التطرف لأن العامة كانوا يخلطون بين القداسة والمبالغة فى حرمان الجسد ؛ كما فعلوا مع القديس السورى" سمعان العمودى Simeon Sty-lites " الذى عاش فى أوائل القرن الخامس ، واشتهر بانه أمضى الأعوام الثلاثين الأخيرة من حياته جالسا على قمة عمود يرتفع عن الأرض سبعين قدما . إلا أن بعض رجال الكنيسة الشرقية من ذوى العقول المتحضرة الحساسة لم يؤيدوا مثل هذا التعسف المتطرف ، فقد كان من رأى باسيل ST. Basil- وهو أحد كبار آباء الكنيسة الشرقية فى القرن الرابع وكانت ثقافته كلاسيكيه - أن على الرهبان إطاعه الوصية القائلة بأن على المرء أن يحب جاره مثل حبه للرب. لقد كان القديس باسيل رائدا فى تكوين نظام الديرية الجماعى فى الكنيسة

الشرقية ، وهو النظام الذى قدر له أن يتغلب بالتدريخ على نظام الرهبنة الانفرادى القديم ، ولكن نظام الديرية الجماعية الشرقية ظل فضفاضا ، إذ احتفظ للراهب الفرد بالقدر الأكبر من استقلاله فقد اتسم الدير اليونانى بكونه مجتمعا كبيرا عاش فيه الرهبان سويا بقصد التقارب، ولكن سيطرة مقدم الدير abbas عليهم كانت ضئيلة ، فقد كان مجرد رجل دين أعلى قدرا يحظى بتبجيلهم له .

أما الديرية الغربية ، فإن تطورها بدأ أيضا من الرهبنة الفردية . ذلك أن إنهيار عصب المجتمع الغربى ، إبان القرن الأخير من حياة الإمبراطورية الرومانية ، دفع بعض من فقدوا إيمانهم بالحضارة ، دون أن يفقدوا ايمانهم بالله ، الى محاولة ضمان خلاص ارواحهم عن طريق حياة الزهد والتقشف فى الكهوف والأماكن الموحشة . وغالبا ماذاع صيت مثل أولئك الرجال باعتبارهم قديسين صانعى معجزات ، فقد وضعت رفات القديس مارتن St. Martin ، أحد أولئك النساك اللاتين ، فى تور Tours التى صارت مزارا شعبيا شهيرا ، مما كان له اكبر الاثر فى نمو ثروة هذه الأسقفية ، وفقا لرواية جريجورى التورى التى يرويها فى فخر . ولكن النسك والتقشف الإنفرادى المتطرف لم تكن له أبدا تلك الأهمية التى أحرزها فى الشرق ؛ إذ حلت محل ذلك أنماط جديدة من الديرية الجماعية فى القرنين الخامس والسادس ، ويرجع السبب فى ذلك إلى أسباب مناخية من جهة ، وإلى أسباب إجتماعية من جهة أخرى . فقد كانت المحاولة التى يقوم بها المرء لكى يصير ناسكا فى ظل ظروف مناخ شمال أوربا البارد مسألة جد مختلفة عن الحياة المنفردة فى مصر . فضلا عن أن التقشف والنسك الفردى المتطرف لايظهر سوى كرد فعل تجاه المجتمع الحضرى الثرى ، ولم يكن هناك مايبرر التبرؤ الدرامى من مظاهر الترف ، ذلك أنه كان من الشائع فى أوربا أوائل العصور الوسطى ألا يجد كل فرد تقريبا كفايته من الأكل . ولم يصبح النسك الإنفرادى حركة قوية فى الحياة الدينية الغربية إلا بعد وجود المجتمع الحضرى فى القرنين الحادى عشر والثانى عشر . وحتى ذلك الوقت كانت الديرية الغربية تتميز بارتباطها بالنظام الجماعى .

وتماثلت الأنماط الأولى من الديرية فى غرب أوربا تماثلا شديدا مع الكيان الفضفاض للجماعات الدينية الشرقية . والحقيقة ، أن الدير الذى أسسه "حنا كاسيان St. John Cassian" فى مرسيليا فى أوائل القرن الخامس ، كان من هذا النوع من الديرية . ويعتبر كتاب "المقارنات" الذى يحوى ما كتبه كاسيان عن محاوراته مع آباء الصحراء المصرية ، إسهاما فى تطوير النظام الديرى الغربى ، ويوضح كتابه هذا مدى ماتمتع به آباء الصحراء من قدسية ، كما يكشف عن الأخطار الناجمة عن عزلة حياة الزهد ، الأمر الذى جعل الكتاب مطلوبا فى جميع آديرة العصور الوسطى الباكرة .

وكانت أكثر الأديرة نجاحا فى القرنين الخامس والسادس هى تلك التى وجدت فى أيرلندة ؛ إذ تماثلت الأديرة الأيرلندية الى حد بعيد مع الأديرة الشرقية من حيث الشكل وربما كان ذلك نتيجة للتأثيرات المباشرة القادمة من شرق البحر المتوسط . فهناك بعض الأدلة على قدوم رجال الكنيسة الاغريقية الى أيرلنده فى القرن السادس ، والراجح انهم تتبعوا طرق التجارة بين أيرلنده والشرق . وكان الرهبان الأيرلنديون يمثلون استثناء من حيث رقى تعليمهم وغيرتهم الدينية ؛ فقد قاموا بأعمال تبشيرية ممتازة ، كما كانوا روادا فى تحويل الأنجلو - سكسون الوثنيين الى المسيحية ، وفى محاولات إصلاح الكنيسة فى غالة . ولكن لم تكن لمقدم الدير الأيرلندى أية سلطة على الأخوة الرهبان الذين تمتعوا بحرية الذهاب والإياب كيفما تراءى لهم ، وبدلا من هذا الشكل الفضفاض للحياة الديرية ، قدر لنمط آخر من الحياة الديرية ، أكثر احكاما وصرامة - بل إنه كان فى الواقع شكلا من أشكال الديرية الجماعية - أن يصبح عماد النظام الديرى فى أوربا الغربية حتى القرن الحادى عشر .

ما أن غربت شمس القرن التاسع ، حتى كان نظام القديس بندكت النورسى St. Benedict of Nursia هو القاعدة التى تسير عليها جميع الأديرة الغربية باستثناء أديرة أيرلندة . وكان القديس بندكت (ت، سنة ٥٤٣) قد وضع هذا النظام للدير الذى أسسه فى مونت كاسينو Mont Cassino بالقرب من نابلى . وصار النظام البندكتى طابع الديرية الغربية ، ونظرا للمساهمة الهامة التى قدمها الرهبان السود (كما أطلق عليهم بسبب لون مسوحهم) فى الحياة الدينية ، وللتعليم والحكومة الاقتصاد ، عرفت الفترة من سنة ٥٠٠ الى سنة ١١٥٠ غالبا باسم "القرون البندكتية" . ومن المؤكد أن القديس بندكت لم يقصد أن يرسى نظاماً أو يبنى مؤسسة تتصدى لزعامة مجتمع العصور الوسطى ، بل إن هناك خلافا وجدلا حول اذا ما كان قصده أن يطبق نظامه على نطاق عالمى فى جميع الأديرة اللاتينية ، ولكن من الثابت أن القديس بندكت كان يأمل فى أن يقلد الأخرون نمط الحياة الدينية فى مونت كاسينو ، ولم يتوصل الى الصيغة النهائية لدستوره الرهبانى[٢] إلا بعد سنوات عديدة من التدبر والتفكير المتأنى فى الحياة الدينية المثالية ، وبعد أن مرت به بعض التجارب الأليمة . ولما كان بندكت سليل الأرستقراطية الرومانية القديمة فإنه جلب الى الحياة الديرية المفهوم الجماعى الرومانى عن

---

(٢) عن "الدستور البندكتى" انظر:

Robert Brentano : The Early Middle Ages (Macmillan 1994), pp. 81-95.

Norman F. Cantor : The Medieval World (2ed. Macmillan 1968) pp. 99-111.

الجماعة ، والنظام ، والسلطة. وكان قد تمرد على المدرسة التى أرسله أبواه إليها فى روما ، وهرب إلى منطقة موحشة لكى يصير ناسكا ؛ ولكنه اكتشف أن حياة الزهد والنسك الانفرادى ليست حياة مرضية كما أنها خطيرة من الوجهة النفسية . ثم أصبح مقدما فى أحد المجتمعات الديرية الشرقية الحرة التى كانت شائعة آنذاك ، بيد أنه تكدر واغتم بسبب الفوضى والتراخى والتساهل التى قابلها هناك ، ومن هذه التجارب استمد انتقاداته القاسية التى وجهها فى مقدمة دستوره ضد الأشكال الديرية القديمة .

كان هدف الجماعة البندكتية أن تضمن الخلاص لأرواح أعضائها . فقد كانت الجماعة تتمتع بالاكتفاء الذاتى تماما ، اقتصاديا ، وسياسيا ، وروحانيا . ولم يكن لها أن تعتمد على العالم الخارجى فى شىء سوى فى أقصى حالات الفساد وسوء السمعة التى قد تلحق بالجماعة الديرية ، إذ كان التدخل الخارجى فى الدستور البندكتى مشروطا بحالة واحدة فقط هى أن تكون حياة مقدم الدير والرهبان ملطخة بالفضائح ؛ فحينئذ فقط يصبح من المتوقع أن يتدخل الأسقف أو أحد المؤمنين فى الجوار لإعادة بناء الحياة النظامية ، وفيما عدا هذا الاستثناء كان على الدير البندكى أن يحقق الاكتفاء الذاتى التام ، يمون نفسه بنفسه ويحكم نفسه فى عالم خاص به . وكان الرهبان ينتخبون مقدم الدير لمدى الحياة ، حيث تكون له السلطة على حياة وأرواح الأخوة الرهبان الذين تحتم عليهم أن يلتزموا بأعباء شديدة الوطأة ، وبالزهد ، وطاعة مقدم الدير لمدى الحياة ، وكانت سلطة مقدم الدير المطلقة تستند على مبادىء النظام الكنسى ، فإنه سوف يحاسب أمام الله على أفعاله بوصفه وزيرا مقدسا فى الدير . وكان هذا الالتزام السامى بمثابة التصديق على سلطته من جانب الجماعة ، وقد تمتع مقدم الدير بسلطة مطلقة فى تنظيم الحياة اليومية بالدير وتوزيع الأعباء المختلفة على الرهبان ، ومعاقبتهم عند الضرورة ، ولم يكن مسموحا للرهبان أن يتركوا الدير على الاطلاق ، إلا تحت ظروف إستثنائية للغاية ، وبموافقة مقدم الدير ، وكان على الرهبان أن يطيعوا أوامر مقدم الدير أيا كانت ، حتى لو كانت خاطئة فى رأيهم . ذلك أن مسئولية التصرف الخاطىء سوف تقع على عاتق مقدم الدير وليس على الراهب الذى كان يطيع القواعد التى حددها له رئيسه الكنسى .

وتتميز الحياة الديرية ، كما يصورها الدستور البندكتى ، بأنها حياة عامة غاية فى التنظيم، والترتيب الصارم والنظام الثابت . ولم يكن الدستور البندكتى يتضمن اية صورة من صور الرهبانية المتطرفة ، اذ كان بندكت يتمتع بحس رومانى متوازن ، وبنظرة سيكلوجية ثاقبة فيما يتعلق بالقيود التى يمكن أن تلائم طبيعة البشر . فلم يكن دستوره ينكر حق البدن – بل

على العكس من ذلك ، كان مقدم الدير مسئولا عن الحفاظ على صحة الإخوان فى الدير ، كما كان عليه أن يتأكد من أنهم يتناولون وجبتين يوميا . فضلا عن أن المريض ، والصغير والعجوز كانوا يلقون عناية خاصة . والواضح أن بندكت لم يلق بالا إلى أشكال التقشف المتطرفة مثل الجلد بالسياط ، وارتداء قمصان الشعر الخشنة ، والصيام الطويل فقد كان يؤمن بتنظيم حاجات الجسد ، لابتدمير النفس أو الكفر بالذات .

كان النظام اليومى فى الدير ، وفقا لما تصوره الدستور البندكتى ، يعتمد إلى حد ما على الفصل السائد من فصول السنة ، بيد أننا إذا أخذنا متوسطا عن العام كله ، سنجد أن الساعات الأربع والعشرين فى حياة الراهب اليومية ، كانت موزعة على أربعة أقسام فقد كرست أربع ساعات يوميا للقداس Opus Dei ، بينما خصصت أربع ساعات للصلاة الانفرادية والتأمل ، والقراءة الخاصة فى الأدب الدينى ، كما كرست ست ساعات للأعمال اليومية ؛ فقد كان على الدير أن ينتج طعامه بنفسه ، وأن يحقق اكتفاء ذاتيا كاملا ، أما الساعات العشر الباقية فقد تركت للأكل والنوم ، وتحتم على الرهبان السود أن يحيوا فى جو دائم من التقوى والورع يلفه الصمت ، ويميزه التجرد من الدنيا ، ولم يكن الصمت المطبق مطلوبا ، بيد أن الثرثرة الفارغة كانت ممنوعة . وأثناء تناول وجبات الطعام كان على أحد الاخوان أن يقرأ بصوت مرتفع فى أحد الكتب الدينية - المزامير أو مقارنات كاسيان - بينما يتناول الآخرون طعامهم فى صمت .

وكان بندكت موقنا من أنه لن يكون بوسع بعض الناس ، حتى الأتقياء منهم ، أن يحتملوا حياة على هذه الدرجة من القيود والتنظيم ، ومن ثم ، حدد متطلبات صارمة للإنخراط فى الجماعة الديرية ؛ فقد كان على من يتقدم للحياة الديرية أن يخضع لفترة تجريبية على مدى سنة كاملة قبل أن ينهال العهد النهائى . وفى هذه الأثناء يقوم مقدم الدير بمراقبة سلوك الراهب الجديد بحرص ، وكان القديس بندكت يعتبر ديره بمثابة مجتمع مصغر يضم كل الطبقات ؛ الغنى والفقير ، المسن والشاب ، المتعلم والأمى ، والقساوسة والعلمانيين ، وكان الدستور البندكتى يسمح باستقبال الأطفال فى الأديرة كأشخاص منذورين لخدمة الرب .

لم يخطر ببال بندكت قط ، أن يكون الرهبان جميعا من الرجال المتعلمين أو من رجال الدين فقد أراد أن يقوم الرهبان بتعليم الأميين والجهلاء إلا أنه بكل تأكيد لم يكن ينظر الى ديره باعتباره مركزاً تعليمياً ؛ فلم يكن لجماعته ان تقدم شيئاً للمجتمع أو أن تسدى أية خدمات للحضارة ، ولا حتى الكنيسة . وقد وجدت هذه الأنانية الجماعية لنفسها مبرراً على أساس

أنها تقدم المأوى الذى يجد فيه المتدينون مكاناً يسعون فيه إلى تحقيق أسمى غايات الانسان ، ألا وهو الحج الى "مدينة الله".

وفى القرون الثلاثة الأولى التى أعقبت موت بندكت ، تعرض النظام الديرى الذى ابتدعه لتغييرات هامة ، كما اندمج فى المجتمع كمؤسسة لها الأهمية الأولى ، ولم يكن هذا هو ما أراده بندكت أو أحب أن يكون ولكنه كما أوضح نولز جعله تطورا حتمياً بشكل ما ، بسبب فعالية وتأثير النظام الذى ابتدعه . فقد كان مجتمع العصور الوسطى الباكرة ، بافتقاره الشديد الى النظام القادر على العمل ، يفرض على الرهبان التزامات إجتماعية معينة ، ولم يكن المجتمع قادراً على الاستغناء عن خدمات المتعلمين من الرجال والقادة القادرين الذين كانت تضمهم الجماعات الديرية ، بل جذبهم خارج تنظيماتهم الدينية لكى يسدوا إليه أهم الخدمات وأعظمها . كما أن طبيعة الاكتفاء الذاتى فى الدير البندكتى جعلت منه وحدة سرعان ما توافقت مع ظروف العصور الوسطى الباكرة ، وهو الأمر الذى بدأ ظهوره فى العالم الجديد الذى خلفته الغزوات الجرمانية ؛ حيث كانت الحياة السياسية والاقتصادية قد تحللت ، بينما صارت الوحدات المحلية فى المجتمع أكثر فعالية وتأثيراً ، فسرعان ما حلت الضيعة الاقطاعية، والقرية والمقاطعة محل الدولة والمدينة كمراكز للحضارة . وقد تلاءم الدير البندكتى تماماً مع النزعة المحلية كما أنيطت به عدة مهام هامة ، تعليمية ، دينية ، واقتصادية ، وسياسية بفضل كفاءته وقدرته الذاتية على الاستمرار .

وحتى فى أيام بندكت نفسه صور العالم الأرستقراطى الرومانى كاسيودوروس Cassiodorus الأديرة باعتبارها أكثر الأماكن ملاءمة للتعليم ، كما اعتبر أنها المراكز الأدبية فى المجتمع الجديد . ويخبرنا كاسيودورس أنه كان يريد أن ينشيء مدرسة مسيحية للدراسات العليا على غرار المدارس الربانية ، اليهودية[٣] التى علم بوجودها فى الشرق الأوسط ، ولكنه وجد ذلك

---

(٣) الربانون (الربيون) هم غالبية يهود العالم المعروفين أكثر من غيرهم الآن ، كما كانوا فى العصور الوسطى، وتعنى كلمة "ربانيم" العبرية : الامام أو الحبر الفقيه ، وقد عربت هذه الكلمة إلى "ربانى" ووردت فى القرآن الكريم فى قوله تعالى (سورة المائدة آية ٤٣) ، "إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون الأحبار، بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء .. الآية" وبمرور الوقت أصبح هذا اللفظ يطلق على الغالبية العظمى من اليهود ، وقد سمى أتباع هذه الفرقة ربانيين إشارة إلى تفاسير علماء اليهود الربانيين وهم يختلفون فى عدد من المسائل الجوهرية والفرعية مع =

مستحيلاً بسبب ظروف العصر ، وبدلاً من مثل هذا المعهد للدراسات ؛ كرس نفسه لانشاء نوع من المؤسسات التعليمية أقل من ذلك فى المستوى ولذا أسس ديراً لكى يستخدمه كمركز للتعليم والبحث المسيحى . وفى كتابه المسمى "مدخل إلى القراءات الدينية والدنيوية " يحدد كاسيودوروس بدقة برنامجاً للمدرسة الديرية أوضح فيه أنه يجب على الرهبان غرس تقليد دراسة كتابات آباء الكنيسة ؛ بيد أنه يجب عليهم أيضاً أن يحفظوا وأن يدرسوا نصوصاً كلاسيكية معينة ، لكى يتعلموا اللغة اللاتينية الضرورية لهذه الدراسة المسيحية . كان هذا العمل التعليمى يفترض مسبقاً ، كما بين كاسيودوروس ، أنه سيكون لدى الدير مكتبة جيدة من النصوص المسيحية والوثنية ، وأن هذه المكتبة بدورها تضم حجرة للنسخ Scriptorium تقوم بإعداد النسخ المراد دراستها فى المدرسة الديرية .

وفى القرنين التاليين لتأسيس دير كاسيودورس ذى الاتجاه التعليمى قامت الجماعات البندكتية فى شتى أوروبا بتأسيس المدارس والمكتبات وحجرات النسخ المشابهة ، ولم يكن هذا راجعاً إلى تأثير كاسيودورس ورسالته التعليمية فحسب على الرغم من الأهمية العظمى لهذه المؤسسات فيما يتعلق بتلبية الحاجات الاجتماعية ؛ إذ أنه بانهيار الدولة الرومانية ، وتقلص المدن عدداً ، ومساحة ، وسكاناً فى غرب أوروبا ، اختفت مدارس الدولة ومدارس البلديات . ولم تكن المدارس الأسقفية فى العصور الوسطى الباكرة سوى مؤسسات تخضع فعاليتها وتأثيرها للظروف السائدة ، فقد اعتمدت تلك المدارس اعتماداً كاملاً على تعضيد ورعاية الأساقفة الذين نادراً ماكانوا يهتمون بالحياة الفكرية ، بل إنه حتى حين كانت تقام مدرسة أسقفية مزدهرة ، فان الأسقف التالى غالباً مايكون من أنصاف المتعلمين فيسرح هيئة التدريس، ويبيع المكتبة . وكان الدير البندكتى هو المؤسسة الوحيدة القادرة على الاستمرار ، والتى تمتلك الموارد ، والمكتبة فضلاً عن المدد الدائم من المدرسين ؛ مما جعله مؤسسة تعليمية فعالة ، وقد تعين على الرهبان أن يقوموا بهذا العمل التعليمى من أجل الحفاظ على الأدب المسيحى . وما أن أهل عام ٨٠٠ حتى كانت الأديرة البندكتية الهامة فى شتى أنحاء أوروبا تمتلك مدارسها المزدهرة ، وحجرات النسخ التى تنتج المخطوطات ، وبتقدير متحفظ فإن ٩٠٪ من الرجال المتعلمين بين سنة ٦٠٠ وسنة ١١٠٠ تلقوا تعليمهم فى مدارس ديرية .

= غيرهم من الفرق اليهودية مثل القرائين والسامرة . لمزيد من المعلومات عن اليهود الربانيين أنظر: قاسم عبده قاسم ، أهل الذمة فى مصر العصور الوسطى ، ص ١٠٩ - ص ١١٠ ؛ مراد فرج : القراءون والربانون (القاهرة ١٩١٧) أنظر أيضاً على عبد الواحد وافى : اليهودية واليهود ، ص ٨٠ ومابعدها (القاهرة ١٩٧٠) وكذلك :

Universal Jewish Ency :Art Rabbanite.

(المترجم)

وليس بوسعنا أن نقول إن الأديرة البندكتية كانت مؤسسات تعليمية نموذجية ، إذ أن موقفها من التعليم كان موقفاً وظيفياً إلى أبعد الحدود ؛ فقد أولت اهتمامها لتدريس اللغة اللاتينية ، ونشر التراث الذى خلفته دراسات آباء الكنيسة من أجل الحفاظ على الوعى الثقافى للكنيسة . ومع بعض الاستثناءات القليلة ، نجد أن العلماء الديريين فى العصور الوسطى الباكرة قد اتخذوا موقفاً وظيفياً إتباعاً لموقف أوغسطين تجاه التراث الكلاسيكى ، إذ أنهم أهتموا بالأدب اللاتينى كوسيلة لتعليم تلاميذهم الكتابة بلغة لاتينية مقبولة لا أكثر ولا أقل. وقد أدى هذا الموقف إلى حرمان الأديرة من أن تصير مركزاً للفكر الخلاق ، ولكن مجتمع العصور الوسطى الباكرة ، على أية حال ، لم يكن يمتلك وقت الفراغ اللازم للإبداع الفكرى ؛ فقد كان مطلوباً من جميع المتعلمين أن يقوموا بخدمة الكنيسة والملكية . وعلى الرغم من أن الناسخ الديرى فى أوائل العصور الوسطى لم يكن يقدر النصوص الكلاسيكية التى ينسخها تقديراً جمالياً ، فإنه قد حافظ تقريباً على جميع كتابات العالم القديم اللاتينية ذات القيمة ، وأقدم مخطوطات النصوص الكلاسيكية التى وصلتنا هى تلك التى نسخها الرهبان البندكتيون فى العصور الوسطى الباكرة .

وبينما صور القديس بندكت القداس باعتباره جزءا متميزا من اليوم الديرى فحسب ؛ أصبح القداس Opus Dei فى القرن التاسع المهمة الرئيسية فى كثير من الأديرة البندكتية ، وكانت الخدمة فى المذبح تستغرق كل ساعات النهار تقريباً لدى مثل هذه الجماعات . وقد نتج هذا التطور عن الاحترام الدائم والرهبة اللذين استمر المجتمع العلمانى ينظر بهما إلى الرجال الزاهدين ذوى الصفات القدسية . ومثلما كانت جماهير الاسكندرية تتوسل إلى القديس "أنطونى" أن يصلى من أجلهم ، اتخذ الناس الرهبان البندكتيين ، الذين استحوذوا على اعجابهم الشديد ، وسطاءهم وشفعاءهم الرسميين عند الله من أجل مجتمع العصور الوسطى الباكرة ، كما أغدق الملوك والنبلاء الضياع ، بما تدره من مكاسب ، على الأديرة لقاء القداس الذى يقوم به الدير من أجل أرواح أقاربهم . وبحلول القرن التاسع كانت هناك أديرة كثيرة تنعم بالثروات الطائلة من وراء تلك الهبات والعطايا لقاء خدمة القداس . وألفى مقدم الدير نفسه سيداً على ضياع واسعة تعمل فيها جموع المزارعين التابعين . وحتى من هذه الناحية شارك الرهبان الديريون فى حياة مجتمع العصور الوسطى ؛ إذ كانت ضياعهم تدار بكفاية وذكاء أكثر من معظم ضياع النبلاء . فقد كان الرهبان رواداً فى أسس العلم الزراعى فى مطلع العصور الوسطى ، أيا كانت قيمة هذه الأسس . وبحلول القرن العاشر كان الرهبان السود يمتلكون جزءاً كبيراً من أجود الأراضى الزراعية فى أوربا الغربية .

هذا التطور وضع كثيرين من مقدمى الأديرة ضمن القوى المحلية ، وأنيطت بهم سلطات سياسية وقضائية على سكان ضياعهم ، شأنهم فى ذلك شأن النبلاء . وفى أثناء تطور النظام الاقطاعى إبان القرنين التاسع والعاشر ، صار أكبر مقدمى أديرة شمال أوربا أفصالاً إقطاعيين للملوك والدوقات ، بسبب ثروتهم ونفوذهم . وكان عليهم أن يرسلوا الفرسان للعمل فى جيوش سادتهم الإقطاعيين ، وكان مقدم الدير البندكتى فصلا Vassal ملكياً بالغ الأهمية فى معظم الأحيان . وكان أحد أولئك الأفصال الديريين فى انجلترا أواخر القرن الحادى عشر يقدم ستين فارسا للخدمة فى الجيش الملكى ، مما جعله واحداً من أهم ثلاثة أو أربعة من كبار الملاك فى المملكة . وقد كان مقدم دير بيورى – سان أدموندز Bury - St. Edmonds يتحكم فى أكثر من نصف أراضى كونتية نورفولك Norfolk فى القرن الثانى عشر . بل إن هناك أمثلة قليلة فى القرنين العاشر والحادى عشر تدل على أن بعض مقدمى الأديرة الفرنسيين كانوا يرتدون لباس الحرب ، ويتوجهون للقتال على رأس فرسانهم ، كما برز نفوذ مقدمى الأديرة على الصعيد السياسى نتيجة لاحتكار الأديرة للتعليم . إذ كان العلماء البندكتيون البارزون يعملون فى خدمة الكنيسة ، وخرج منهم أساقفة وبابوات ، وأعضاء فى مستشارية الملك أو الدوق ، كما كان منهم وزراء ملكيون ، ومستشارون يثق بهم الحكام ، ومنذ القرن الثانى عشر برزت أمثلة عديدة من رجال الدولة الديريين الذين كانوا يعملون فعلاً كوزراء فى خدمة الملكيات الغربية .

لقد تركت الإلتزامات الفردية والجماعية التى نهضت بأعبائها الأديرة البندكتية تأثيرها على الحياة الداخلية وتكوينات الجماعات الدينية بعد قرنين من وفاة بندكت . وما أن أهلت سنة ٨٠٠ حتى تخلت الأديرة عن سياسة الاكتفاء الذاتى ، ولم يعد الرهبان السود يقومون بالأعمال البدنية ، فقد كان الأقنان يعملون فى ضياع الرهبان فيوفرون لهم المؤن والأغذية ، على حين كرس الرهبان أنفسهم للعمل التعليمى وخدمة القداس ، كما أن عضوية الجماعة البندكتية فى القرن التاسع لم تعد انعكاساً لكل طبقات المجتمع إذ صار الرهبان من طبقة النبلاء دون سواها . وكان مقدمو الأديرة البدنكتية فى القرن العاشر من أعلى الطبقات الأرستقراطية فى العادة ، وفى كثير من الاحوال كانوا من الامراء . أما أديرة النساء البندكتية، التى بدأ تأسيسها عقب موت بندكت مباشرة ، فكانت تتسم بتجانس تكوينها الاجتماعى على نحو خاص ، فقد كانت راهبات القرنين التاسع والعاشر جميعاً من سيدات الطبقة الراقية ، وكان يستحيل تماماً قبول إحدى السيدات فى الأديرة البندكتية مالم تكن أرملة أو سيدة تنتمى بصلة القربى لأحد أصحاب النفوذ . وبينما ظل معظم الرهبان فى

أديرتهم مقيمين على عهودهم ، كان أكثرهم مقدرة غالباً ما يتركون جماعاتهم منذ القرن الثامن فصاعدا ليعملوا فى ميدان التبشير ، وفى الكنيسة ، أو فى السكرتارية الملكية . ولم يكن هذا هو الدير كما أنشأه القديس بندكت ، ولكنه كان مؤسسة لعبت دور القوة الاصلاحية الفعالة فى مجتمع العصور الوسطى الباكرة ، فقد أمست الديرية ، التى بدأت كمهرب إلى الصحراء بعيداً عن العالم المتمدن ، جزءاً مندمجاً فى المجتمع وقوة إنقاذية هامة فى خضم الفوضى الى أعقبت الغزوات الجرمانية لأوربا فى العصور الوسطى الباكرة .

٢- جريجورى الكبير والبابوية أوائل العصور الوسطى

من الممكن أن نقيس مدى المساهمة البندكتية فى قيادة كنيسة العصور الوسطى الباكرة من خلال الحقيقة القائلة بأن كثيرين من البارزين فى الفترة مابين القرن السادس والقرن الثانى عشر كانوا من الرهبان السود . ففى سنة ٩٥٠ اعتلى أول أولئك البابوات الديريين ، وهو جريجورى الأول الكبير Gregory I The Great (ت سنة ٦٠٤) ، عرش القديس بطرس . وعلى الرغم من أن فترة بابويته لم تكن طويلة ، فانها تعتبر من أهم نقاط التحول فى تاريخ كنيسة العصور الوسطى ، وليس السبب فى هذا راجعا إلى أنه استطاع أن يتغلب مرة واحدة على الآثار المدمرة التى تركتها الغزوات الجرمانية على نظام وثقافة الكنيسة اللاتينية ؛ فإن تحقيق هذا الهدف استغرق خمسة قرون أصبحت أوربا بعدها قارة مسيحية بمعنى الكلمة ، ولكن أهمية جريجورى الأول تتمثل فى أنه صاغ بشكل واضح المنهج الذى كان على البابوية أن تنتهجه على مدى القرنين التاليين ، فقد أدرك تماماً أن مصير البابوية التاريخى يجب أن يتحدد فى غرب أوربا ، كما أدرك أن السبل إلى تأكيد زعامة البابوية للمجتمع الأوربى هو التحالف مع النظم الديرية ، والملكية الفرنجية .

وعقب انتخاب جريجورى لمنصب البابوية أرسل خطابات يعلن فيها أنه لم يكن يسعى إلى عرش بطرس ، وأنه كان يفضل حياة الرهبان بما فيها من عبادة وتأمل . وكان جريجورى صادقاً فى تصريحه ، على الرغم من أن مثل هذه العبارات المتواضعة صارت تقليداً عند البابوات اللاحقين ؛ حتى أولئك الذين سعوا منهم عدة سنوات من أجل الفوز بالكرسى البابوى . وكان جريجورى يعلم حينما اعتلى كرسى البابوية أن الكنيسة تسير فى طريق محفوف بالأخطار وأن مشاكل تأكيد زعامة البابوية فى غرب أوربا مشاكل مستعصية تماما ؛ فقد كانت الكنيسة اللاتينية فى عصره أشبه بسفينة يصدر عنها صرير الغرق . والواقع أن البابوية لم تمارس أى دور قيادى فعال منذ بابوية جيلازيوس الأول ، قبل قرن تقريباً ، ولم يبذل بابوات القرن

السادس أى جهد لعلاج التغير الذى طرأ على الحكومة والمجتمع الأوربى فى أعقاب الغزوات الجرمانية ، إذ أن أساقفة بلاد الغال وضعوا مصالحهم فى سلة واحدة مع مصالح الأسرة الميروفنجية . وحين تدهورت هذه الأسرة ربط هؤلاء الأساقفة مصالحهم بمصالح الأرستقراطية المحلية فى المقاطعات . بل أن نظرة جريجورى التورى ، الذى يعد أفضل أساقفة غاليا آنذاك، تتسم بالقصور الشديد بالقياس إلى نظرة أمبروز وأوغسطين العالمية ؛ فإن رؤيته القاصرة لم تتعد حدود الأبرشية الضيقة . وقد قال مؤرخ ألمانى لامع من المتخصصين فى تاريخ كنيسة العصور الوسطى الباكرة ، إن تاريخ الكنيسة الفرنجية قبل القرن الثامن ، يمكن كتابته دون ذكر روما على الإطلاق ، وهذا القول صحيح إلى حد كبير ، ولم يكن ينتظر من الكنيسة الأسبانية فى ظل الحكم القوطى الغربى أن تقدم ماهو أفضل من ذلك ، إذ كان القوط الغربيون قد تحولوا من الآريوسية إلى الكاثوليكية . وارتبط الأساقفة الأسبان ارتباطاً وطيداً بالملكية القوطية ، وبتصرفهم هذا ربطوا مصير الكنيسة الاسبانية ، بمؤسسة عاجزة هى مملكة القوط الغربيين التى كانت تستمد قوتها من التأييد المعنوى الذى أسبغته عليها الكنيسة ، وهو مالم يكن كافياً لانقاذ مملكة القوط الغربيين فى اسبانيا من الغزو الاسلامى فى مطلع القرن الثامن.

وعندما ارتقى جريجورى الكرسى البابوى ، كان موقف الكنيسة الرومانية نفسها مزعزعاً للغاية[٤] فقد كان البابا محاطاً بالأعداء من كل جانب، فالى الشمال كان اللمبارديون البدائيون سادرين فى تأييدهم للآريوسية على حين كانت قوات الامبراطورية البيزنطية فى رافنا وجنوب إيطاليا تشكل تهديداً دائماً لأمن البابا . وكان التحالف بين روما وبيزنطة قد إنهار منذ زمن بعيد ؛ وهو التحالف الذى تمخض عن القضاء على مملكة القوط الشرقيين فى إيطاليا فى النصف الأول من القرن السادس، ولأن كلا من الامبراطور والبابا كان يزعم أنه نائب الله فى الأرض، فقد كانت العلاقات بينهما غير مستقرة ، وكانت بمثابة الهدنة فى أفضل الأحوال . وكانت أيرلندة هى النقطة الوحيدة المضيئة فى صورة كنيسة أواخر القرن السادس ، ولم يكن بوسع جريجورى أن يطرب للمستوى الراقى الذى تميز به الرهبان الكلتيون. ذلك أن الكنيسة الأيرلندية لم تنشأ بفضل توجيهات روما؛ مما أدى إلى أن تكون لرجال

---

(٤) حول هذا الموضوع أنظر :

Margaret Deanesly : A History of The medieval church (Methuen and co., London 9th ed.pp 15 - 28'; Geoffrey Barraclough : The Medieval Papacy, (Thomas and Hudson London 1968), pp. 27 - 34.

الكنيسة الكلتية أساليبهم الخاصة التى كانت تختلف عن أساليب الكنيسة اللاتينية ، كما أنهم كانوا يختلفون مع البابوية أيضاً حول المذهب البطرسى . كان هذا ، على الأقل ، هو الاستنتاج الذى كان على جريجورى أن يصل إليه حين تلقى خطابات القديس كولمبان St. Co-lumban المبشر الكبير الذى كان يعمل فى بلاد الغال ، والتى كانت تخاطب البابا بشأن الادارة العادية فى شئون الكنيسة ، بلهجة قاسية تخلو من الاحترام . فحين اعتلى جريجورى كرسى البابوية كانت البعثات التبشيرية الأيرلندية تتوغل فعلا فى شمال انجلترا ؛ محرزة بذلك قصب السبق فى تحويل الانجليز الوثنيين إلى المسيحية ، وهو ما كان جريجورى يعتبره خطراً يهدد بحدوث انقسام بين الكنيسة اللاتينية والكنيسة الكلتية .

ولم يتغلب جريجورى على أى من تلك المشكلات التى جابهت الكنيسة وقت أن اعتلى العرش ، ولكنه أرسى دعائم السياسة التى سار عليها خفاؤه فى نضالهم لحل تلك المشكلات ، كما أنه حرك سلسلة الأحداث التى بدأت فى تحسين حال الكنيسة اللاتينية والمجتمع الأوربى . وجريجورى هو البابا الوحيد فى الفترة مابين القرن الخامس والقرن الحادى عشر الذى حفظت لنا الأيام مراسلاته وكتاباته الأخرى كاملة ، ولدينا الوثائق الكافية لكتابة سيرته وتوضيح جوانب شخصيته ، وذلك أن ملامحه ليست مجهولة لنا مثل رجال الكنيسة الآخرين فى العصور الوسطى الباكرة ، ولكن شخصيته تصدمنا كشخصية غامضة مبهمة . فمن ناحية كان جريجورى إدارياً قديراً حاسماً ، ودبلوماسياً ماهراً حاذقاً ، كما كان زعيما على قدر كبير من الوضوح الفكرى ، ولكنه من ناحية أخرى يبدو من خلال كتاباته راهباً ساذجاً يؤمن بالخرافات والخزعبلات ويعادى التعليم ، كما يبدو فى صورة رجل اللاهوت المحدود الأفق الذى يؤمن بالقديسين ، والمعجزات والذخائر المقدسة . وليس من الممكن أن نفسر هذا الغموض الظاهر سوى على ضوء خلفية جريجورى والوسط الذى عاش فيه ، فقد كانت ايطاليا أواخر القرن السادس تعانى من آثار الحرب القوطية الطويلة وآثار الغزو اللمباردى المدمرة ، إذ تدهورت الحياة الحضرية واضمحلت الثقافة ، كما أخذ الأتجاه نحو الاقتصاد الريفى يتزايد ، وانتشر الجهل وتفشت الخرافات . وكان جريجورى سليل عائلة رومانية قديمة ، وتعلم تعليماً كلاسيكياً طيباً ، ولكن اهتمامه الأول كان موجهاً ، وهو فى طور الرجولة ، الى خلاص روحه عن طريق الهرب من العالم وأنشأ ديراً عاش هو نفسه به راهباً متواضعاً ، وعلى الرغم من إعجابه الشديد بالقديس بندكت ، الذى كتب سيرته ، فان موقفه الشخصى من الحياة الديرية كان يفتقر إلى اعتدال بندكت واحترامه للطبيعة البشرية . فقد فرض جريجورى على نفسه قيوداً صارمة تركت آثارها الوبيلة على صحته بشكل دائم . وحتى حين تولى البابوية كانت نظرته

للامور تعكس آثار التعصب وغياب الحس الانسانى مع الكفاية والمقدرة التقليدية فى الحكم التى تميزت بها الارستقراطية الرومانية . لقد سمع جريجورى ذات مرة أن أحد الأساقفة فى بلاد الغال قد اعتزم انشاء مدرسة لدراسة الفنون الحرة ، وبدلاً من أن يهنىء رجل الكنيسة على جهوده لتطوير التعليم وتحسينه ، عاقبه على انشغاله فى هذا المشروع الذى كان البابا يراه مشروعاً سخيفاً . وثمة عيب آخر واضح فى شخصية جريجورى هو عدم اهتمامه بدراسة اللغة اليونانية ، حين كان قاصدا رسوليا (سفيرا بابويا) على مدى عدة سنوات فى القسطنطينية ، وتكشف لنا ثقافة جريجورى الشخصية عن النتائج المدمرة للتقلبات التى مرت بها إيطاليا إبان القرن السادس ، إذ تضمنت كتاباته آثارا تدل على ضيق الأفق والتفاهة والعناد المدمر الذى تتسم به كتابات معاصره جريجورى التورى . ومن حسن الطالع أن جريجورى الكبير لم تتسن له متابعة اتجاهه العنيد ، وإلا بقى مجرد راهب مغمور جاهل ، فقد كانت الكنيسة فى حاجة إلى رجل على هذا القدر من التعليم والذكاء والاخلاص والتجربة السياسية . وترك جريجورى ديره ليلتحق بخدمة البابوية ؛ وعلى نهجه سار كثيرون من الرهبان البندكتيين فى القرون التالية ، وجلس على عرش القديس بطرس مكرها ، وتنقسم أعماله كبابا إلى أقسام ثلاثة هى : مساهمته وإضافاته إلى المنصب البابوى ، وموقفه من البابوية ، وتسخيره للبعثات التبشرية فى خدمة الكنيسة .

وفيما يتعلق بالقسم الأول كان جريجورى مدركاً لحقيقة أنه عضو فى حكومة الكنيسة ، وفى "كتاب العناية بالرعية " حدد لرفاقه من رجال الكنيسة واجباتهم كرعاة لكنائس الشعب المسيحى ، مقارنا هذه الواجبات بالمزايا التى يتمتعون بها بوصفهم أمراء الكنيسة ، وهى المزايا التى كانت تحتل المركز الأول بين اهتماماتهم . ولايمكن القول بأن الرسالة التى كتبها جريجورى عن المنصب الكنسى قد أقنعت زملاءه باتخاذ مواقف أكثر غيرة وحماسة تجاه مناصبهم ولكنها ، على الأقل ، استخدمت فى القرون التالية كبيان تعريفى بطبيعة الوظيفة الكنسية ، وعلى أية حال ، كان جريجورى واعياً بالحقيقة القائلة بأنه كان أكثر من مجرد أسقف ؛ وإنما هو نائب المسيح على الأرض لأنه أسقف روما ، ولم يقدم أى جديد لتطوير إيديولوجية البابوية ، ولكنه لخص المذهب الجيلازى ، ونظرية ليو الأول فى المذهب البطرسى تلخيصاً حاذقاً . وتلخصت نظرته إلى المنصب البابوى فى مصطلح "خادم خدام الرب Servus Servorum Dei" الذى استخدمه لقباً رسمياً له ، وهو اللقب الذى لايزال يظهر كلقب ثانوى فى الوثائق البابوية . وهكذا عبر جريجورى عن السلطة البابوية فى ضوء مبدأ الحكومة الكنسية الذى كان القديس بندكت قد استخدمه بالفعل لتبرير سلطة مقدم الدير المطلقة على

أرواح الرهبان فى ديره . ووجد مبدأ الحكومة الكنسية سندا له فى الكتاب المقدس فى عبارة المسيح فى إنجيل مرقص[٥] "ومن أراد أن يصير فيكم أولا يكون للجميع عبداً "؛ وهو مايعنى أن صاحب المسئولية الأكبر تكون له السلطة الأعلى ، ولما كان البابا مسئولا أمام الرب كزعيم للكنيسة المسيحية كان ينبغى ألا تكون سلطته مقيدة حتى يتسنى له القيام بأعباء العمل المقدس الموكل اليه .

بيد أن اقرار أيديولوجية البابوية كان شيئاً ، على حين كان تأكيد الزعامة الفعلية للبابوية فى غرب أوربا شيئاً آخر مختلفاً تمام الاختلاف ، فقد كان من رأى جريجورى أن الضرورة الملحة تدعو إلى تأمين مركز البابا فى ايطاليا نفسها ، والعمل على توسيع رقعة الأراضى الخاضعة للحكم البابوى فيما وراء روما ، وبناء الدولة البابوية ، كما كان على وعى تام بالحاجة إلى دخل ثابت لكى يضفى على أعماله الادارية فى الكنيسة الفعالية اللازمة . وقد كرست خطابات كثيرة من خطابات جريجورى لارشاد وكلائه كيف يديرون الضياع البابوية فى جنوب إيطاليا بكفاءة .

وحتى إذا أحرز البابا وضعا مستقلاً آمنا فى ايطاليا ، كان علية أن يقيم العلاقة مع الكنائس الأقليمية فى البلاد الجرمانية ، إذا ما كان يريد حقاً أن يؤكد وضعه كزعيم للعالم المسيحى . وكان جريجورى أكثر ادراكاً لهذه الحقيقة من أى بابا سبقه ، وهو ما يدعم المزاعم التى تجعل منه مؤسس البابوية فى العصور الوسطى ، فقد أيقن أن أوربا ليست مسألة جغرافية فقط ؛ ولكنها حضارة متمايزة وروح ترتبط بالمسيحية اللاتينية التى ربطت البابوية نفسها بمصيرها ربطا مطلقاً . وكان جريجورى يحترم امبراطور القسطنطينية ، لا لأنه كان يعتقد بأن هناك ما يمكن أن يقدمه الإمبراطور الرومانى ، وإنما فقط لأنه كان يهتم بالحفاظ على حالة السلام القلق مع القسطنطينية حتى يضمن للبابوية حرية متابعة أهدافها فى أوربا الغربية ، كما كان جريجورى يدرك تماماً أنه يجب على البابوية أن ترتبط بالتحالف مع الملكية الفرنجية على نحو ما ، لكى يتحقق وجود حضارة أوربية ، ولم تكن الملكية الفرنجية فى زمن جريجورى نظاما واعداً ، إلا أنها سيطرت على مستقبل أوربا السياسى نتيجة للتطورات التى عاشتها أوربا آنذاك .

---

(٥) مرقص ١٠ : ٤٣-٤٤ "بلى من أراد أن يصير فيكم عظيما ، يكون لكم خادما ، ومن أراد أن يصير فيكم أولا يكون للجميع عبداً" . (المترجم)

وإذ كان ملوك الفرنجة يتحكمون فى أراضى وسط أوربا من الناحية الرسمية على الأقل، ولأن مملكتهم كانت أكبر وأغنى ملكيات العالم المسيحى اللاتينى ؛ فقد كان من الضرورى أن تتصدى الملكية الفرنجية لقيادة المجتمع الأوربى ، بتوجيه من الكنيسة . وبفضل حيوية المملكة الفرنجية لم يستطع جريجورى أن يجد طريقاً آخر غير هذا يمكن أن يحقق هدفه ، ولأن جريجورى كان يعى هذه الحقيقة الأساسية فى الحياة الأوربية ، فقد كتب إلى الملك الميروفنجى شلديرت الثانى Chidebert II خطابات تفيض احتراماً ، ولم يكن جريجورى غافلاً عن عجز ملوك الفرنجة الشديد ، ولكنه كان يتصور أن التحالف بين البابوية والأسرة الميروفنجية يمكن أن يحول الملكية الفرنجية الى ملكية إصلاحية قوية .

ولم تؤت خطابات جريجورى إلى الملك الفرنجى ثمارها فى عصره . فلم يحدث قبل القرن الثامن أن تولى حكم الفرنجة ملوك أذكياء بالقدر الذى يجعلهم يفهمون نمو قوتهم الذاتية من خلال التحالف بين البابوية والفرنجة فى القرن الثامن . وهو التحالف الذى قامت على أساسه الحضارة الأوربية الجديدة ، وبعد تولى جريجورى البابوية بزمن قصير ، ونتيجة لتحدى الكنيسة الكلتية ، شعر جريجورى بضرورة تحويل إنجلترا إلى المسيحية ، وكان طبيعياً بالنسبة له كراهب مجند فى خدمة الكنيسة أن يستخدم الرهبان البندكتيين فى الأعمال التبشيرية فى انجلترا . وأصدر تعليماته إلى أوغسطين ، رئيس البعثة التبشيرية ، بأن يبدأ نشاطه فى مملكة كنت Kent جنوب شرق انجلترا ، لأن حاكمها كان معروفاً بزواجه من أميرة مسيحية فرنجية . وعند موت جريجورى كانت بعثة أوغسطين قد أحرزت نجاحها الأولى حين نصّرت ملك كنت ونبلاءه وأقامت الكنيسة اللاتينية الأولى فى كانتربورى Cantrbury (ومعناها الحرفى مدينة كنت) . وفى منتصف القرن التالى لموت جريجورى كان الرهبان الكلتيون العاملون فى الشمال على اكتساب الشعب الانجليزى ، وفى النهاية فى سنة ٦٦٤ ، قرر مجمع دينى ضم رجال الكنيسة الانجليزية إخضاع البلاد بأسرها تحت إشراف الكنيسة الرومانية ، وكانت نتيجة هذا القرار أكبر من مجرد منع الإنقسام فى الكنيسة الغربية ، وهو ما كان جريجورى يناضل لتجنبه ، وإنما كانت المدارس البندكتية الانجليزية أكثر مدارس أوربا أزدهاراً فى أواخر القرن السابع ، كما أن البندكتيين الانجليز أرسلوا بعثاتهم التبشرية إلى القارة فى القرن الثامن ، وبذلك بدأت عملية تطور الكنيسة الفرنجية والملكية الفرنجية ، وكان مقدرا لأحد البندكتيين الانجليز فى منتصف القرن الثامن أن يلعب دوراً قيادياً فى بناء التحالف البابوى - الفرنجى الذى كان جريجورى يعتبره أساساً ضرورياً لبناء حضارة أوربية جديدة .

الجزء الثالث
أوربا الأولى
القرنان الثامن والتاسع

"ياشارل الفائق الحلاوة ، يامجد الشعب المسيحى . يامن تدافع عن كنائس المسيح ، ياسلوى حياتنا الحاضرة!..

من الضرورى على جميع الرجال أن يثنوا على بركتك فى صلواتهم وأن يساعدوك بشفاعاتهم ، طالما أن حماية الامبراطورية المسيحية تتأتى من خلال رفاهيتك ، وتجد العقيدة الكاثوليكية مدافعا عنها في شخصك ، ويصبح حكم العدل سائداً بين الجميع .

- ألكوين

الفصل السابع
بناء الملكية الكارولنجية

١- الثقافة الأنجلو - أيرلندية والظاهرة الاستعمارية

توصل المؤرخون إلى كشف الكثير من أسباب تدهور واضمحلال الحضارات ، ولكنهم لم يبذلوا جهدا كبيراً لتفسير العوامل الرئيسية التى تؤدى الى صعود وتألق حضارة من الحضارات ، وكل مالدينا فى هذا الصدد مجرد صياغات فارغة مكررة عن التحدى والاستجابة. ومن المؤكد أن تفسير الفشل أيسر بكثير من محاولة فهم النجاح ، ذلك أن توضيح أسباب الترهل والإنهيار العصبى ، فى إطار الانهيار الثقافى ، أسهل من تبيان الطاقات الجديدة ، والقدرة العقلية ، والزعامة التى تعتبر من علامات البداية فى أية حضارة جديدة . فبعد قرون من التدهور والفوضى بدأت أوربا الأولى تتشكل فى القرنين الثامن والتاسع ، وكانت الحضارة التى حاول الأوربيون أن يخلقوها ، فى شكل بناء سياسى هو الامبراطورية الكارولنجية - متعدين بذلك حدود طاقتهم - حضارة أولية ناقصة ، فقد كانت الامبراطورية الكارولنجية أكبر من مواردهم ، ولقد عانوا من خيبة الأمل وسقطوا فريسة لصدمة عميقة ، بيد أن كثيراً من النظم والقيم والمبادىء التى تميزت بها حضارة العصور الوسطى تحددت خلال هذين القرنين وكانت بمثابة الأساس الذى قامت عليه تجارب سياسية أكثر نجاحاً فى القرنين التاليين .

ومن الممكن أن نستبعد الحسم الاقتصادى فى سياق توضيح كيفية تكوين أوربا الأولى . ذلك أن التحسن الذى طرأ على الحياة السياسية والكنسية والفكرية كان فى الحقيقة معاصرا للتدهور التجارى والاتجاه نحو الإقتصاد الريفى . ومن الكنيسة خرجت القوة الديناميكية فى عملية صعود الحضارة الأوربية فى القرن الثامن . فقد رحب الرهبان الأنجلو - سكسون والبابوية بتكوين أوربا الأولى ، وتمكنوا بالعمل سويا أن يغيروا من طبيعة الملكية الفرنجية كما أيقظوا الكفاءات السياسية بين شعوب القارة ؛ وهو الأمر الذى أدى إلى قيام الامبراطورية الكارولنجية وإلى تحسن ظروف الحياة التعليمية والثقافية فى القرنين الثامن والتاسع .

ويمكن الكشف عن أصول هذا التغير الكبير فى ثقافة أيرلنده فى القرنين السادس والسابع وفى ثقافة انجلترا فى القرنين السابع والثامن . وقد يبدو غريباً أن الأيرلنديين الذين لم يكونوا أبداً من العالم الرومانى والانجليز الذين كانوا سنة ٥٩٠ قوماً وثنيين ولا تربطهم بعالم البحر المتوسط صلة ، هم الذين قاموا بهذا الدور الكبير فى تكوين أوربا الأولى ، ويمكن تفسير هذا الأمر باعتباره تجسيداً لما يمكن أن نطلق عليه اسم "الظاهرة الاستعمارية" فى تاريخ العالم . فالناس الذين يعيشون على هامش امبراطورية ما ، أو حضارة ما ، أى رجال الحدود أو المستعمرون ، غالبا ما يكونون أكبر المساهمين فى بناء الدولة أو الحضارة التى اختاروا الإنتماء اليها . وبفضل حماستهم المتوقدة وجهودهم الواعية من أجل الحضارة التى يبعد مركزها عنهم ، يحق لهم أن يطالبوا بحقوق مواطنة مساوية لتلك التى يتمتع بها من يعيشون فى قلب الحضارة ، ذلك أن الآخرين يعيشون دنياهم كما هى فى الغالب ، ولايبذلون إلا القليل فى سبيل رقيها ودوامها. وقد أظهر الرهبان الأيرلنديون والانجليز ذلك النمط من حماسة المستعمرين الراغبين فى ربط أنفسهم بمراكز الحضارة ، فقد تحمل الأيرلنديون ، الذين لم ينعموا قط بثمار الحضارة الرومانية ، الكثير فى سبيل تأسيس العديد من المكتبات الكبرى التى كانت تضم النصوص الكلاسيكية وبرعوا فى اللغة اليونانية ، كما صار العلماء الانجليز فى القرن السابع وأوائل القرن الثامن – وبينهم وبين ماضيهم الوثنى جيلان أو ثلاثة أجيال على الاكثر – اتباعا متعصبين للكنيسة الرومانية . وكان مؤرخهم الكبير بيديه Bede متعصباً للرومان لدرجة أنه أراد أن يتنكر لجهود البعثات التبشيرية الأيرلندية لتحويل انجلترا إلى المسيحية .

وتختفى البداية الأولى للثقافة اللاتينية – المسيحية فى أيرلندا خلف ضبابية الغموض ويبدو أنها سوف تبقى غامضة . وربما حدث فى القرن السادس ومطلع القرن السابع أن وفدت مجموعات ثلاث من رجال الكنيسة إلى أيرلندة وفى ركابها دخلت المسيحية والتعليم المسيحى، وكانت أولى هذه الجموعات مكونة من القساوسة البريطانيين الهاربين من الغزوات الأنجلو – سكسونية ، وربما كان القديس باتريك St. Patrick ضمن هذه المجموعة . أما المجموعة الثانية ، فقد تكونت من رجال الكنيسة الذين هربوا من غالة أثناء الغزوات الجرمانية فى القرنين الخامس والسادس بحثا عن الملجأ والمأوى فى أيرلندا . وربما تكون المجموعة الثالثة قد تشكلت من رجال الكنيسة الشرقية القادمين من شرق المتوسط على طول الطرق التجارية فى أواخر القرن السادس وأثناء القرن السابع ، وجلبوا معهم لغتهم ونصوصاً لم يكن ممكنا أن توجد فى أى مكان آخر بأوربا فى العصور الوسطى الباكرة . ولعل هذا

يساعدنا على فهم سبب معرفة العلماء الأيرلنديين باللغة اليونانية ، وإذا كان هناك من يعرف هذه اللغة فى القرن السابع والثامن والتاسع فلابد وأن يكون من أصل أيرلندى .

وقدأولت المسيحية الأيرلندية اهتماما بالغا بالتعليم كما تجلت حماستها للتبشير ، وقد تطورت بعيدا عن كنيسة روما بسبب بعض الخصائص التى فصلت بين الكنيسة الكلتية والكنيسة الرومانية ؛ فقد كانت الكنيسة الكلتية تحتفل بعيد الفصح فى تاريخ غير تاريخ احتفال الكنيسة الرومانية به ، كما كان الاكليروس كله من الديريين ، ولم يكن تنظيم الكنيسة الأيرلندية قائما على جزء من الإمبراطورية الرومانية فى يوم من الأيام ؛ فإنه لم يكن ثمة سبب يدعو الأيرلنديين لإنشاء الاكليروس الأسقفى ، ولم يكن زعماء الكنيسة الكلتية من الأساقفة، بل كانوا من مقدمى الأديرة الكبرى المزدهرة ، كما أن المدارس الديرية الأيرلندية أنشأت مكتبات عظيمة استمرت فيها دراسات الفنون الثلاثة الحرة trivium (النحو والبلاغة والمنطق) والفنون الأربعة quadrivium (الرياضة . الهندسة الفلك والموسيقى) وفى أوائل القرن السابع كان لدى الرهبان الأيرلنديين أفضل مراكز التعليم فى أوربا الغربية ، إلا أنهم توقفوا بعد سنة ٨٠٠ عن القيام بأى دور هام فى الحياة الثقافية الأوربية ، وانتهى أمر الكنيسة الكلتية الى الذبول . وحين قام البارونات الأنجلو - نورمان بغزو أيرلندا وجدوا الشعب الذى قهروة شعبا همجيا وجاهلا تماما ، وكان على أيرلندا أن تنتظر حتى أواخر القرن التاسع عشر حتى تنهض مرة أخرى ، ولم تكن هذه غلطة الأيرلنديين بطبيعة الحال ، لأنهم ظلوا عبيدا للانجليز على مدى سبعة قرون .

ويبقى السؤال على أية حال : لماذا تدهورت الكنيسة الكلتية المزدهرة المستنيرة على هذا النحو السريع بعد عام ٨٠٠ ؟ من الممكن اقتراح أسباب ثلاثة : أولها أن الايرلنديين عزلوا أنفسهم عن العالم المسيحى الغربى وقت كان هذا العالم يدخل إلى مرحلته الابداعية وذلك بترددهم فى الأخذ بطقوس الكنيسة الرومانية ؛ وبذلك فرضوا على أنفسهم عزلة ثقافية . والأمر الثانى هو أن هذا القرار قد برهن على كونه قرارا هداما لاسيما حين دمر الغزاة الاسكندنافيون كثيرا من الأديرة الايرلندية فى القرن التاسع . وأخيرا كان لاستمرار تفكك أيرلندا السياسى بسبب القبلية البدائية تأثيره السلبى ، على المدى الطويل ، على الحياة الثقافية والكنسية فى الجزيرة .

وخلال الشطر الأخير من القرن السادس وجد الرهبان الكلتيون متنفسا لحماسهم التبشيرى على الشاطىء المقابل للقنال الايرلندى حيث ظل الانجلو - سكسون على وثنيتهم ، وذلك قبل

بعثة أوغسطين التبشرية ودون أي اتصال بالمسيحية اللاتينية . فقد تتبعت عصابات الحرب الجرمانية الفرق الرومانية المنسحبة من بريطانيا حوالى سنة ٤٢٥ حتى عبروا بحر الشمال آتين من الآراضى الواطئة وتوغلوا فى مصاب النهر شرق بريطانيا ، وهزموا الأمراء البريطانيين المسيحيين بما فيهم آرثر Arthur كما استعبدوا الكثير من الوطنيين ودفعوا من بقى من الكلت نحو جبال ويلز وكورنوول والشاطىء المقابل على القنال الانجليزى حتى ذلك الجزء من جنوب فرنسا المعروف باسم بريتانى Britany . وتجسد الغزو الانجليزى البطىء لبريطانيا فى شكل كيانات سياسية مبعثرة فى انجلترا القرن السادس ، وأسس زعماء عصابات الحرب ممالك صغيرة - كان عددها التقليدى سبعة . ولكن العدد الحقيقى كان متذبذبا . وانغمسوا فى نزاعات وحروب ضد بعضهم البعض طوال القرون الثلاثة التالية ، وفى أواخر القرن السادس كان ملك كنت Kent سيدا مهابا في جنوب انجلترا ، وعلى مدى فترة طويلة من القرن السابع تمتع حكام نورثمبريا Northumbria بالسيادة ، وفى القرن الثامن كان ملك مرسيا Mercia فى بلاد الوسط الزراعية الغنية قد أكد تفوقه على كثير من الحكام الآخرين بيد أن البناء الاجتماعى والسياسى فى انجلترا الأنجلو - سكسونية لم يكن متقدما كثيرا عن المؤسسات التى وصفها تاكيتوس والتى عرفناها من ملحمة Beowulf ، وكانت قوة الملك تعتمد على كفاءته كقائد عسكرى ومدى قدرته على مكافأة رفقة الحرب ، أما البناء الاجتماعى فقد تميز بوجود أعداد غفيرة من الفلاحين الأحرار .

أما البعثات التبشيرية الكلتية التى بدأت نشر المسيحية شمال انجلترا فى أوائل القرن السادس وأوائل السابع فقد جلبت معها نظامها التعليمى الشامل ، فقد كانت المدارس الانجلو- سكسونية فى القرنين السابع والثامن مدينة بالفضل إلى مساهمة الدراسات الأيرلندية إلى حد كبير، ولكن إزدهار الثقافة الانجلو سكسونية كان راجعا فى الأساس إلى المؤثرات الوافدة من القارة الأوربية . ونتيجة لقرار رجال الكنيسة الانجليز بالانضمام الى الكنيسة الرومانية فى الستينيات من القرن السابع، أرسل البابا إلى انجلترا باحثا متعلما هو تيودور الطرسوسى Teodor of Tarsus الذى يرجع أصله إلى آسيا الصغرى، ليكون كبير أساقفة كانتربورى. وقد أسس تيودور فى كانتربورى مدرسة عظيمة قدر لتلاميذها أن يصبحوا مقدمى الأديرة البندكتية فى جنوب انجلترا. وفى الوقت نفسه تقريبا ، قام بندكت بيسكوب Benedict Biscop، وهو قسيس أنجلو-سكسونى من طبقة النبلاء ببناء ديرجارو Jarro الكبير فى

نورثمبريا (يوركشاير). وكان بندكت قد جاب القارة طولا وعرضا فى أسفاره ، ويقال إنه أحضر معه إلى انجلترا نواة مكتبة المدرسة الديرية فى "جارو"، بل وبعض الأعمال الفنية من القارة .

وصار "جارو" بمثابة مركز للتعليم فى شمال انجلترا ، على حين كانت كانتربورى وأديرتها المزدهرة تقدم القيادة فى الجنوب ، ومنه تخرج بيديه Bede (ت سنة٧٣٥) وهو أعظم الباحثين الأنجلو - سكسون ، وقد أمضى بيديه ، الذى يعد أفضل الباحثين تعليما فى أوائل القرن الثامن ، حياته راهبا فى جارو ولم يبرح موطنه المجدب القليل السكان اطلاقا ، وهو مايعتبر من أفضال المدرسة النورثمبرية ، كما يعيد تأكيد مجرى الظاهرة الاستعمارية ، إذ أن وجود أكثر الرهبان تعليما فى مجتمع الحدود فى شمال انجلترا ، أمر يمكن مقارنته مع وجود أعظم باحث فى أمريكا فى منتصف القرن التاسع عشر فى غابات الميسورى الخلفية ، وهو أمر يبدو مستحيلا وإن كان مدهشا .

كان بيديه نفسه مدرساً أولا وقبل كل شيء ، ورئيسا للمدرسة الديرية فى جارو ، ورجلا يحافظ على التراث الذى خلفته كتابات الآباء وطبق ماتعلمه لخدمة حاجات الكنيسة ، ولم يكن مهتما بالتأمل الفلسفى كما كان يطبق معلوماته فى الرياضيات والفلك فى علاج مشكلة حساب عيد الفصح ، وكتب موجزا لمعلوماته العلمية التى استقاها أساسا من كتاب التاريخ الطبيعى لبلينى Pliny . وقد تركزت دراساته الأساسية فى التاريخ ، وكان بيديه هو الذى نفذ اقتراح ايسيدور الأشبيلى Isidor of Sevile بعمل تقويم مسيحى إبتداء من تجسد السيد المسيح ، وقد جعل بيديه من هذا التقويم الطريقة الأوربية الشائعة فى حساب الزمن التاريخى. وتمثلت أعظم جهود بيديه فى مجال كتاب "التاريخ الكنسى للشعب الانجليزى " وهو أحد الأعمال القليلة جدا فى أوائل العصور الوسطى التى لاتزال تحتفظ بجاذبيتها بين أوساط عامة المتعلمين ، فهو كتاب مرتب فى حذق ، ويعرض مناقشاته بدهاء بحيث يجعل للكنيسة الرومانية الدور الحاسم فى صياغة الحضارة الانجليزية . وكان دور بيديه فى الكتابة التاريخية أكثر علمية من دور أى كاتب آخر فى العصور الوسطى فى الفترة مابين جريجورى التورى والقرن الحادى عشر ، فبينما تبدو كتاباته عن سير القديسين فجة غير ناضجة مثل سائر كتاب سير القديسين فى العصور الوسطى ، نجده يتحرر فى كتابة التاريخ بشكل ملحوظ من أوهام المعجزات ؛ إذ يحمل تاريخه رنة واقعية منضبطة صارمة ، فقد تجشم العناء فى سبيل جمع أية معلومات حفظتها الذاكرة الشعبية عن الغزو الانجلو - سكسونى . وفى سبيل ماكتبه عن بعثة

أوغسطين التبشيرية ، أرسل راهبا إلى روما لكي يبحث فى المحفوظات البابوية عن خطابات جريجورى الكبير الخاصة بانجلترا ، وهى الخطابات التى نشرها كاملة فى تاريخه ، وتختلف خاصية فكر بيديه فى وضوح عن خاصية فكر باحث انجلو - سكسونى آخر عاش فى القرن الثامن هو ألكوين Alcuin الذى انتقل فى الثمانينيات من القرن الثامن من منصبه كرئيس لمدرسة يورك ليصبح مساعدا بارزا لشارلمان فى إصلاح الكنيسة الفرنجية ، فبينما كان ألكوين خياليا ، عاطفيا ، ومنغمسا بشخصه فى مشاكل عصره السياسية ، كان بيديه صارما ، حذرا ، محدود الاهتمام للغاية بالملكية وبمشاكل المجتمع العامة .

وفى نهاية كتابه "التاريخ الكنسى" يبدى بيديه بعض الملاحظات الكئيبة عن ذبول وتدهور حيوية الثقافة الانجلو - سكسونية . وبينما يحتمل أن يكون هذا مجرد ترديد للنغمة التقليدية فى تعليقات الكبار على الأجيال الجديدة ، يؤكد تاريخ الكنيسة الأنجلو سكسونية اللاحق أن بيديه كان مهتما بالتقدم المستمر للكنيسة التى كرس نفسه لها ، فضلا عن أن التطور اللاحق فى انجلترا الانجلو - سكسونية بعد القرن الثامن عبارة عن قصة طويلة من الإخفاق وخيبة الأمل ؛ خصوصا إذا نظرنا إلى تفوق البندكتيين الإنجليز فى مجالات الثقافة الأوربية فى عصر بيديه وألكوين . فبعد سنة ٨٠٠ فقد رجال الكنيسة الانجلو - سكسونية مكانتهم كزعماء ثقافيين لأوربا إلى الأبد ، وخلال القرنين العاشر والحادى عشر كانت الكنيسة الانجليزية تنتظر من القارة الإرشاد والتوجيه ، وفى سنة ١٠٠٠ لم يعد هناك شك فى أن انجلترا منطقة متخلفة ثقافيا فى أوربا . ومن الأمور التقليدية أن يوجه اللوم الى الاسكندنافيين ، الذين كانوا ينتشرون فى جميع الأرجاء ، على هذا التدهور الذى لحق بالثقافة الانجلو سكسونية ، فقد دمر الغزاة الفيكنج Viking "جارو" فى نهاية القرن الثامن . وعلى مدى المائتى وخمسين عاما التالية لم ينل الشعب الانجليزى سوى مهلة يلتقط فيها أنفاسه بين كل موجة وأخرى من الموجات المتتالية من الغزاة الاسكندنافيين الذين استنفدوا طاقة الشعب الانجليزى فى نضاله ضدهم .

وثمة سببان آخران وراء تدهور انجلترا فى العصور الباكرة . فقد صار الملوك الأنجلو سكسون أشخاصا غير ملائمين . إذ ظلوا محاربين فى المحل الأول ، بينما فشلوا فى خلق وتطوير أية مؤسسات ملكية فعالة . ونتيجة الغزو الدانمركى لم يبق من بين جميع أمراء الانجلو- سكسون سوى ألفرد Alfred ملك وسكس Wessex. ورغم أن ألفرد - الذى كان يراد له فى الأصل أن ينضم إلى الكنيسة - كان عالما جيدا ، ورغم أنه حارب الاسكندنافيين حتى اقتسم انجلترا معهم ؛ فإنه لم يسهم بأى قدر فى تقدم الزعامة الملكية للمجتمع الانجلو - سكسونى ، وقد بسط خلفاؤه فى القرن العاشر سيطرتهم على أراضى الدينلو Danlaut ، وهو

الاسم الذى كان يطلق على المنطقة التى غزاها الاسكندنافيون ، ولكنهم لم يتمكنوا من وقف تقدم نفوذ السادة المحليين . وكان أكثر الملوك تأثيرا فى التاريخ الأنجلو سكسونى هو كانيوت Kanute قاهر الدانيمرك فى بواكير القرن الحادى عشر ، وحاول الكنسيون الإنجليز فى القرن التاسع تدعيم الملكية الأنجلو – سكسونية العاجزة عن طريق الصفات الأخلاقية والصفات التى أسبغوها عليها ؛ بيد أن نجاحهم فى هذا المضمار لم يزد كثيرا عن نجاح أساقفة القوط الغربيين فى أسبانيا . فقدكان ضعف الملكية الأنجلو – سكسونية ، وانتقال زعامة المجتمع إلى النبلاء المحليين عاملين من العوامل التى أدت إلى تدهور الكنيسة الأنجلو – سكسونية وانحدارها من مكانها المزدهر الذى كانت تتمتع به فى عصر بيديه ، أما السبب الأخير الذى يمكن أن يرتبط بهذا التطور ، فهو سبب بسيط نسبيا ، ذلك أن الكنيسة الانجليزية التى كانت تفيض حماسة وغيرة فى القرن الثامن أرسلت عددا كبيرا للغاية من مبشريها وباحثيها المبرزين العمل فى القارة ؛ مما جعلها تفقد خيرة زعمائها وأكثرهم كفاءة وتستنفد مواردها . فقد كان تكريس الكنيسة الانجلو – سكسونية لصالح أسقف روما أمرا خدم البابوية أكثر مما خدم مصالح الكنيسة الانجليزية .

بدأت البعثات التبشيرية الانجلو – سكسونية إلى القارة فى العقد الأخير من القرن السابع، وبدأ المبشرون الديريون عملهم بين الوثنيين فى البلاد الواطئة التى كانت الموطن الأصلى لمعظم القبائل الانجليزية ، وأراد المبشرون الانجليز أن يجلبوا معهم مكاسب الخلاص من أجل الوثنيين الذين اعتبروهم بنى جلدتهم ، وسرعان ما اتصل المبشرون الانجلو – سكسون بالكارولنجيين – العائلة الحاكمة الجديدة فى فرنسا آنذاك – وعملوا تحت توجيه بيبن الثانى Pepin II رأس العائلة الكارولنجية الذى كان يرغب فى بسط نفوذه على الأراضى الواطئة ، والذى اعتبر المبشرون الأنجلو – سكسون بمثابة الطليعة للغزو الفرنجى . فقد عمل قائد البعثة الانجليزية فى الأراضى الواطئة تحت سلطة البابوية أيضا وذهب الى روما ، بإذن من بيبن لكى يرسم أسقفا على فريزيا . كان هذا هو المثال الأول من نوعه على العلاقة المحددة بيْن البابوية والحكام الفرنجة ، مما أرسى نمط ارتباطهما الثابت فى النصف الأول من القرن الثامن بسبب تأييدها المتواصل لجهود المبشرين الانجلو – سكسون[١].

---

(١) يرجع الفضل إلى حد كبير ، فى تنصير "ألمانيا" إلى جهود المبشرين الانجليز ، وقد بدأت هذه الجهود على يد ويلفريد Wilfrid أسقف يورك الذى كان مبحرا فى طريقه إلى روما ، ولكن سفينته غرقت أمام شاطىء فريزيا (هولندا) فظل يبشر بالمسيحية هناك على مدى شتاء كامل ونجح فى تعميد عدد كبير من الرؤساء الوثنيين واتباعهم . بيد أن تحويل الأراضى الواقعة حول منصب نهر الراين إلى المسيحية بشكل حقيقى كان ثمرة جهود راهب آخر من نورثمبريا هوويلبرود Wilibroad الذى بدأ أعماله التبشيرية بمعاونة أحد عشر راهباً ولقى تشجيعاً من بيبن هرستال Pepin of Heristal دوق الفرنجة الذى سمح له بالعمل=

وكان صعود الأسرة الكارولنجية إلى مراكز السيادة فى فرنسا هو الدرجة القصوى التى وصلت إليها عملية اغتصاب الطبقة الارستقراطية للسلطة الملكية فى القرن السابع. فقد كان جميع الحكام الميروفنجيون بعد الثلاثينيات من القرن السابع إما نساء أو أطفالا ، أو معتوهين؛ وهو مايعنى أنهم كانوا فى جميع الأحوال عاجزين عن منع أرستقراطيى الأقاليم من الاستحواذ على السلطة والممتلكات الملكية . ووصل التدهور إلى حد أن الملوك الميروفنجيين لم تكن لهم أية سلطة فعالة خارج ضياعهم الخاصة ، وبمنتصف القرن فقدوا هذه السلطة على ضياعهم ؛ إذ انتقلت إلى "عمد القصر" وهم الموظفون المسئولون عن إدارة القصر . وعلى الرغم من هذا فإن العوامل الأصلية فى إحياء السلطة الملكية فى فرنسا كانت كامنة فى هذا الموقف الشاذ ؛ ذلك أن عمد القصر ، وقد اغتصبوا مابقى من السلطة والممتلكات الملكية ، وجدوا أنه من صالحهم أن يحصلوا على مايمكنهم الحصول عليه من الخزانة الملكية التى كان أرستقراطيو الاقاليم قد اغتصبوها . وبحلول العقد الثامن من القرن السابع أفادت أسرة نمساوية أو شرقية، عرفت فيما بعد باسم الكارولنجيين ، من سيطرتها على وظيفة عمدة القصر فى إرساء دعائم سيادتها ؛ لاعلى الطبقة الارستقراطية فى الجزء الألمانى الشرقى من المملكة الميروفنجية فحسب ، ولكن أيضا على دوقات وكونتات الغرب الأكثر رومانية .

وكان الكارولنجيون يتلمسون السبل لإعادة بناء السلطة الملكية فى فرنسا التى كانت بأيديهم وقد رحبوا بنشاط المبشرين الأنجلو - سكسون على طول حدود المملكة الفرنجية فى أواخر القرن السابع وفى النصف الأول من القرن الثامن . وكان موقف التعاطف الذى اتخذه

= على الحدود الشمالية لأملاكه ، ورحل إلى روما حيث رسم أسقفا سنة ٦٩٥ ، وأعطاه بيبن فيليتابرج Wiletaburg بالقرب من أوترخت Utrecht لتكون مركزاً لكرسيه الأسقفى . ولكن أعماله التبشيرية لقيت بعض المتاعب من قبل الأمير الفريزى رادبود Radbod؛ فاضطر إلى العمل فى الأراضى الفريزية الخاضعة للفرنجة ، حيث بنى عدة كنائس وأديرة وحاول أن ينشر المسيحية بين الدانمركيين ولكنه لم يحقق سوى نجاح ضئيل ، وقد هاجمه الفريزيون فعاد إلى فريزيا الفرنجية بعد ذبح أحد رفاقه . على أن مركز الكنيسة فى هذه الأنحاء لم يكن آمناً على الدوام ، وحين مات بيبن ثار رادبود وهزم شارل مارتل فى معركة بالقرب من كلونى Cologne وأستعاد الأراضى الفريزية من الفرنجة فحرق الكنائس وطارد القساوسة حتى أجبر ويليبرورد على ترك كرسيه الأسقفى (ليصبح مقدما لأحد الأديرة) وفى السنوات الثلاث الأخيرة من عمره عمل معه مبشر انجليزى شاب هو بونيفاس Boniface الذى لعبه دورا هاما فى مجال التبشير كما يتضح من كلام المؤلف فى الصفحات التالية

انظر : Margeret Deansely : A hist of the Medieval Church pp. 19 - 51.

(المترجم)

الكارولنجيون حيال البعثات التبشيرية الانجلو - سكسونية نابعا من رغبتهم فى الظهور بمظهر أصدقاء الكنيسة التى يمكن أن يكون تأييدها المعنوى مفيدا بصفة خاصة فيما يتعلق بحقهم فى العرش الفرنسى ، وهو ما كان محل شك ، ولأنهم كانوا يعتقدون أن تحويل قبائل الحدود الجرمانية إلى المسيحية سيجعل ذوبانهم داخل أملاك الملكية الفرنجية أكثر سهولة .

وكان بين المبشرين الانجلو - سكسون العاملين فى فريزيا فى أواخر القرن السابع شاب بندكتى يدعى وينفريد Wynfrid - وهو أكثر شهرة باسمه اللاتينى الذى سمى به فيما بعد وهو القديس بونيفاس - كان ينحدر من صلب عائلة نبيلة مرموقة فى جنوب انجلترا ، وقد لاقت أهمية أعمال بونيفاس تجاهلا من جانب المؤرخين ، ولكن الأبحاث التى تمت فى الربع الأخير من القرن العشرين وضعته فى مكانه الصحيح كواحد من المبدعين المبرزين حقا فى أوربا الأولى ، وبوصفه رسول ألمانيا ومصلح الكنيسة الفرنجية والمحرك الرئيسى للتحالف بين الكنيسة والأسرة الكارولنجية .فبعد أن عمل عدة سنوات مبشراً فى البلاد الواطئة ، قرر أن يبدأ فى تنصير القبائل الألمانية التى كانت تعيش داخل المملكة الميروفنجية ، فى المنطقة التى أصبحت جنوب غرب ألمانيا الحالية ، وعاد بونيفاس إلى انجلترا حيث جند عدة رفاق من الأديرة البندكتية ، وفى سنة ٧١٨ رحل إلى القارة حيث عمل كمبشر وأسقف ومبعوث بابوى حتى موته سنة ٧٥٤ .

وقد تمت أعمال بونيفاس بتأييد كل من الأسرة الكارولنجية والبابوية ، كما حدث بالنسبة لأعمال المبشرين الانجلو - سكسون فى الأرض الواطئة ، ولكن لأن اهتمام بونيفاس كان موجها لضم منطقة كبيرة فى نطاق المملكة الميروفنجية إلى حظيرة الحضارة المسيحية اللاتينية، فإن أهمية هذا الاتجاه (التبشيرى) المستمر كانت أكبر فى حالته . فقد تمت غالبية أعمال بونيفاس التبشرية فى عهد شارل مارتل ، وهو محارب خشن الطبع أصبح بطل أوربا المسيحية بفضل انتصاره على المسلمين سنة ٧٢٣.[٢] وكان شارل حريصا فى موقفه تجاه روما ، ولم يكن على استعداد للدخول فى تحالف قوى مع البابوية ؛ ولكنه حين سمح لبونيفاس بالعمل

---

(٢) هذه إشارة إلى معركة تور - بواتييه أو معركة بلاط الشهداء كما اسماها المؤرخون المسلمون ، وفى هذه المعركة انتصر شارل مرتل (أى شارل المطرقة) على الجيش الاسلامى الكبير بقيادة عبد الرحمن الغافقى والى أسبانيا ، والواقع أن هذا الانتصار قد أنقذ دولة الفرنجة من الغزو الاسلامى ، وقد أعاد المسلمون محاولتهم حيث استولوا على ارل وآفينيون ، وظلوا بها سنوات ثلاث حتى اخرجهم عنها شارل مارتل .

(المترجم)

تحت سلطة البابوية مباشرة ، فتح الطريق لدخول النفوذ البابوى فى المملكة الفرنجية ، كما فتح الطريق أمام المعاهدة التى عقدها ابنه بيبن الثالث مع البابوية فى الخمسينيات من القرن الثامن وأوضح بونيفاس فى خطاباته مدى اعتماده على مساعدة شارل مارتل "بدون حماية أمير الفرنجة ، لا استطيع أن أحكم شعب الكنيسة ، ولا أن أدافع عن القساوسة والشماسة والراهبات ، كما لا أستطيع منع ممارسة الطقوس الوثنية وعبادة الأصنام دون تكليف منه بذلك، ودون المهابة والرهبة التى يوحى بها اسمه".

وقام بونيفاس بثلاث رحلات إلى روما فى سياق أعماله التبشيرية فى المانيا وهى الأعمال التى استمرت حتى سنة ٧٣٩ ، وأثناء زيارته لروما تلقى تكليفا بابويا بتحويل الشعب الألمانى إلى المسيحية ، كما منحه البابا اسمه اللاتينى رمزا لوضعه الجديد كممثل للكنيسة الرومانية فى ألمانيا . وفى زيارته الثانية لروما رسم بونيفاس أسقفا ، وتمثلت نتيجة مقابلته الأخيرة مع البابا فى تنظيم الكنيسة الالمانية بالتعاون بين البابوية وهذا الراهب الانجليزى الذى أصبح كبير أساقفة مينز Mainz [٣].

كان تحويل بونيفاس لألمانيا إلى المسيحية انجازا ضخما ، إذ أنه ضم منطقة جديدة بأكملها إلى حظيرة المسيحية اللاتينية ، وانتهى إلى تأسيس الكنيسة الألمانية التى لفتت الأنظار اليها

---

(٣) تم تنظيم الكنيسة الالمانية سنة ٧٤١م ، وبذلك صار لبونيفاس الاشراف على الجماعات المسيحية التى تكونت بفضل جهوده فى الاقاليم الوسطى والاقاليم الجنوبية من المانيا ؛ وبذلك أصبح بوسع بونيفاس أن يحول اهتمامه إلى اصلاح الكنيسة الفرنجية التى كان نظامها قد انهار فى غمار الفوضى التى تردت فيها فى القرن السابع ، ولهذا الغرض تم عقد عدة مجامع دينية Synods كبيرة ، ففى سنتى ٧٤٢ ، ٧٤٣ عقد مجمعان لدراسة أحوال القسم الشرقى من مملكة الفرنجة ، وفى سنة ٧٤٤ عقد مجمع خاص بالغرب وأخيراً عقد مجمعان فى عامى ٧٤٥ ، ٧٤٧ لبحث شئون المملكة بأسرها .

عن هذا الموضوع أنظر : Geoffrey Barraclough : The medieval Papacy :pp. 47.50

وأنظر كــذلك : Margaret Deansaly :A hist. of The Medieval Church :pp: 50-51.

حيث يتناول بالتفصيل حياة بونيفاس (وينفريث Winfrith) وأعماله التبشيرية - أنظر أيضاً :

هـ. موس : ميلاد العصور الوسطى ، ص ٢٣٠/ص٢٣١ (ترجمة عبد العزيز جاويد - سلسلة الألف كتاب) وكذلك. هـ. ا.ل فيشر تاريخ أوربا العصور الوسطى ، ص٧٦ .

(المترجم)

فى القرن العاشر لما تميزت به من التدين الشديد ، وقد أنجز بونيفاس عملية تأسيس المسيحية الألمانية عن طريق بناء الأديرة العظيمة ، مثل الدير الذى بناه بنفسه فى فولدا Fulda وقد أصبحت هذه الأديرة مراكز تعليمية قدمت الأشخاص الذين كانت الكنيسة الألمانية ، التى ظهرت فى مطلع القرن الثامن ، بحاجة إليهم . بل انه حتى القرنين العاشر والحادى عشر ، كانت الأديرة الكبيرة التى أسسها بونيفاس ومساعدوه هى المراكز الحيوية للحياة الكنسية الألمانية ، ومنذ أيام بندكت بيسكوب فى القرن السابق كان الرهبان الانجلو - سكسون جميعا من البندكتيين . فقد كانت القاعدة البندكتية هى القاعدة التى فرضها بونيفاس على الأديرة الكبيرة التى أنشأها فى ألمانيا ، كما كان للصيغة القانونية لديره فى فولدا مغزى خاص . فقد حصل له بونيفاس على امتياز Privilegium الاعفاء من السيطرة الأسقفية وبذلك جعله خاضعا البابوية ، باعتبارها رأس العالم المسيحى ، مباشرة . وقد ظهر فى هذا النوع من الاشراف الخاص على يد جريجورى الكبير الذى أخضع أديرة بندكتية معينة للارتباط المباشر مع البابوية ؛ بيد أن ذلك لم يحدث إلا فى حالات نادرة . وذاع صيت فولدا وغيره من الأديرة الألمانية بسبب ما كانت تحويه من مكتبات كبيرة وحجرات النسخ ، وقد انتجت مدرسة فولدا الديرية بعض الأعمال الكبيرة فى الفن الكارولنجى ، وهى المخطوطات المزودة بالرسوم والصور التوضيحية .

ولكى يتم هذا الانجاز التبشيرى على نحو فعال كان لابد من تسخير كل موارد الكنيسة الانجلو - سكسونية فى القرن الثامن فى هذا السبيل . ولدينا خطاب موجه من بونيفاس إلى جميع قساوسة وشمامسة الكنيسة الانجليزية طالبا مساعدتهم فى أعماله التبشرية **"نحن نرجوكم فى تواضع .. إن كلمة الرب قد تمضى قدما إلى الأمام وتحظى بالمجد" إننا نتوسل إليكم أن تبدأوا الصلاة بأن الرب .. قد يحول قلوب السكسون الوثنيين الى العقيدة الكاثوليكية .. ويجمعهم مع أطفال الكنيسة الام ، كونوا بهم رحماء لأنهم يقولون الآن : "نحن واياكم من دم واحد وعظام واحدة " .. وفضلا عن ذلك ليكن معلوماً لديكم ، أنه فى حالة انجاز هذا فإن لدى موافقة وقبول ومباركة اثنين من أحبار الكرسى الرسولى "**. ويوضح هذا الخطاب مدى وعى رجال الكنيسة الانجلو - سكسون بخلفياتهم الجرمانية ، كما يوضح فى الوقت نفسه الولاء الحار الذى كانوا يحملونه للبابوية فى القرنين السابع والثامن . وقد أدت النداءات التى وجهها بونيفاس إلى مواطنيه إلى هجرة كثيرين من انجلترا إلى القارة ؛ وهو الأمر الذى تمثلت نتائجه فى قيام مستعمرة دينية أنجلو - سكسونية فى ألمانيا .

وبتعيين بونيفاس رئيسا لأساقفة مينز صار هو الرجل الأول فى الكنيسة فى الشطر الشرقى من الامبراطورية الفرنجية . وبعد سنة ٧٣٩ تحول من حوارى أو رسولٌ للألمان ليبدأ فى اصلاح الكنيسة الفرنجية ، وساعده فى هذا العمل التأبيد الذى أسبغه عليه ولدا شارل مارتل ، بيبن الثالث ، وكارلومان Carloman اللذان تقاسما حكم المناطق الشرقية والغربية من المملكة الفرنجية . أما كارلومان ، فهو أول ملك من طراز الملوك القديسين الذين يهتمون بالتكريس الدينى أكثر من اهتمامهم بالسلطة الملكية ، وهو الأمر الذى سوف يظهر كثيرا فى القرون الثلاثة التالية والذى يعتبر مؤشرا على التأثير المتنامى للدين على المجتمع الجرمانى . ففى سنة ٧٤٧ تنازل عن العرش ليصير راهبا فى مونت كاسينو ، وكان قد بدأ مع بونيفاس فى إصلاح الكنيسة الفرنجية خلال السنوات الثمانى السابقة . وقد أعلن مجمع دينى ضم رجال الدين الفرنجة الولاء للبابا ، ولكن هذا لايوضح أنه كانت للبابوية سيطرة حقيقية على الاساقفة الفرنسيين ؛ بل إنه يعتبر مؤشرا دالا على روح جديدة وموقف جديد من جانب رجال الكنيسة الذين لم يعترفوا بمثل هذا الولاء للبابوية من قبل على الاطلاق . وبدأ بونيفاس عملية إعادة إحياء الأديرة الفرنسية ، وقبول هذه الأديرة الفرنسية للقاعدة البندكية فضلا عن تأسيس أول المدارس الديرية الهامة فى المملكة الميروفنجية . وكان تكوين أكليروس علمانى على مستوى الأبرشية المحلية خارج المدن الاسقفية واحدا من أهم حاجات الكنيسة الفرنجية ، فقد كان على الاساقفة المتعلمين أن ينشروا تعاليم العقيدة فى كل قرية "حتى يصبح اعتناق أوربا للمسيحية حقيقة أبدية " . ومن الممكن أن نرجع البدايات الغامضة للنظام الأبرشى فى العصور الوسطى- وهو النظام الذى يمكننا أن نقول إنه كان نظاما حقيقيا فى بعض أجزاء فرنسا القرن التاسع - إلى أعمال بونيفاس .

وبعد أن صار بيبن الثالث حاكما على المملكة الفرنجية بأسرها سنة ٧٤٧ امتد الاصلاح الذى كان بونيفاس قد بدأ فى أسقفيته إلى غرب فرنسا بمساعدة بيبن ، ولم تكن علاقة بيبن بالكنيسة تتسم بذلك التدين الشخصى العميق الذى كان أخوه يتميز به ؛ فقد كان يرى فى أعمال بونيفاس الفرصة والوسيلة لنقل المملكة والاستيلاء على العرش من الميروفنجيين عن طريق التحالف مع البابوية ، وهو الأمر الذى هيأ بيبن نفسه له بقبول خطة بونيفاس لإصلاح الكنيسة فى مملكته ، وفى الوقت نفسه كان الاعتقاد السائد فى روما أن نتائج أعمال بونيفاس سوف تفتح الطريق لتحقيق أيديولوجية البابوية التى كانت قد بدأت تتطور منذ زمن جريجورى الكبير . وفى أواسط القرن الثامن ، كانت نتائج التطور الذى ظل مضطربا طوال

عدة قرون تتجمع فى بؤرة حادة . وأخيرا بدأت الخطوط والملامح العريضة لأوربا الأولى تكتسب شكلها المميز . وتشكل هذه الفترة (منتصف القرن الثامن) واحدة من أهم نقاط التحول فى التاريخ الوسيط ، فقد تميزت هذه السنوات العشر باستقلال البابوية النهائى عن الامبراطورية الرومانية الشرقية ، وحلول الأسرة الكارولنجية محل الأسرة الميروفنجية فضلا عن سيادة فكرة الملكية الثيوقراطية فى أوربا الغربية ، والوجود القانونى للدول البابوية . وبعد ذلك بنصف قرن فقط تم إحياء اللقب الامبراطورى فى الغرب كنتيجة مباشرة للحوادث التى جرت فى منتصف القرن الثامن ، وترتكز جميع هذه الانجازات الحاسمة على خلفية ضرورية تمثلها أعمال القديس بونيفاس ومساعديه الذين ساهموا فى تحويل أوربا إلى المسيحية.

وفى سنة ٧٥٤ عاد بونيفاس إلى العمل التبشيرى فى الأراضى الواطئة ، ممارسا نفس العمل الذى كان قد تركه قبل أربعين سنة ، حيث استشهد على يد الفريزيين البدائيين ناكرى الجميل . وبالنظر إلى سير القديسين فى العصور الوسطى تكون حياته فى خدمة الكنيسة قد انتهت على هذا النحو نهاية كاملة مضبوطة . وقد وصفه كاتبو سيرته بأنه " الحوارى المرسل إلى الألمان" وإذا كانت الكنيسة الألمانية المتحمسة ، والتى كان البندكتيون يسيطرون عليها فى العصور الوسطى الباكرة ، هى الأثر الجدير بتخليد الخدمة التى أسداها للمسيحية اللاتينية، فإن الملكية الكارولنجية فى القرنين الثامن والتاسع ، كانت هى الأخرى من نتائج أعماله إلى حد كبير . وعلى أية حال فقد كانت الملكية الكارولنجية أثرا لم يكن هو نفسه ليقدره أو يريد أن يفتخر به ؛ ذلك أن نضال البندكتيين الانجليز البطولى من أجل نشر المسيحية فى الغرب ، قد حرك مجموعة معقدة متشابكة من الأفكار والنظم التى شكلت حضارة وثقافة أوربا الأولى التى كانت عالما تجاوزت توتراته ، وطموحاته ، وانجازاته ، واخفاقاته ، المثل العليا والتوقعات البسيطة النقية للمبشرين الإنجليز .

٢- اللغز الكارولنجى

يتسم مجرى التاريخ الكارولنجى بالغموض المحير ، وكلما زاد البحث فى هذه الفترة كلما بدت أكثر غموضا وأكثر صعوبة من حيث فهم النموذج العام للتاريخ الأوربى فى القرنين الثامن والتاسع . واللغز الكارولنجى لغز مزدوج سواء فى طبيعة أحداث الفترة نفسها ، أو فى التفسيرات العامة المتضاربة للباحثين المحدثين . والتاريخ الكارولنجى مفعم بالتضارب والتناقضات الحادة ، والتطرف مابين المثالية والبربرية ، والذكاء والعنف الجاهل ، والانجاز

وبتعيين بونيفاس رئيسا لأساقفة مينز صار هو الرجل الأول فى الكنيسة فى الشطر الشرقى من الامبراطورية الفرنجية . وبعد سنة ٧٣٩ تحول من حوارى أو رسولٌ للألمان ليبدأ فى اصلاح الكنيسة الفرنجية ، وساعده فى هذا العمل التأييد الذى أسبغه عليه ولدا شارل مارتل ، بيبن الثالث ، وكارلومان Carloman اللذان تقاسما حكم المناطق الشرقية والغربية من المملكة الفرنجية . أما كارلومان ، فهو أول ملك من طراز الملوك القديسين الذين يهتمون بالتكريس الدينى أكثر من اهتمامهم بالسلطة الملكية ، وهو الأمر الذى سوف يظهر كثيرا فى القرون الثلاثة التالية والذى يعتبر مؤشرا على التأثير المتنامى للدين على المجتمع الجرمانى . ففى سنة ٧٤٧ تنازل عن العرش ليصير راهبا فى مونت كاسينو ، وكان قد بدأ مع بونيفاس فى إصلاح الكنيسة الفرنجية خلال السنوات الثمانى السابقة . وقد أعلن مجمع دينى ضم رجال الدين الفرنجة الولاء للبابا ، ولكن هذا لايوضح أنه كانت للبابوية سيطرة حقيقية على الاساقفة الفرنسيين ؛ بل إنه يعتبر مؤشرا دالا على روح جديدة وموقف جديد من جانب رجال الكنيسة الذين لم يعترفوا بمثل هذا الولاء للبابوية من قبل على الاطلاق . وبدأ بونيفاس عملية إعادة إحياء الأديرة الفرنسية ، وقبول هذه الأديرة الفرنسية للقاعدة البندكية فضلا عن تأسيس أول المدارس الديرية الهامة فى المملكة الميروفنجية . وكان تكوين أكليروس علمانى على مستوى الأبرشية المحلية خارج المدن الاسقفية واحدا من أهم حاجات الكنيسة الفرنجية ، فقد كان على الاساقفة المتعلمين أن ينشروا تعاليم العقيدة فى كل قرية "حتى يصبح اعتناق أوربا للمسيحية حقيقة أبدية " . ومن الممكن أن نرجع البدايات الغامضة للنظام الأبرشى فى العصور الوسطى- وهو النظام الذى يمكننا أن نقول إنه كان نظاما حقيقيا فى بعض أجزاء فرنسا القرن التاسع - إلى أعمال بونيفاس .

وبعد أن صار بيبن الثالث حاكما على المملكة الفرنجية بأسرها سنة ٧٤٧ امتد الاصلاح الذى كان بونيفاس قد بدأ فى أسقفيته إلى غرب فرنسا بمساعدة بيبن ، ولم تكن علاقة بيبن بالكنيسة تتسم بذلك التدين الشخصى العميق الذى كان أخوه يتميز به ؛ فقد كان يرى فى أعمال بونيفاس الفرصة والوسيلة لنقل المملكة والاستيلاء على العرش من الميروفنجيين عن طريق التحالف مع البابوية ، وهو الأمر الذى هيأ بيبن نفسه له بقبول خطة بونيفاس لإصلاح الكنيسة فى مملكته ، وفى الوقت نفسه كان الاعتقاد السائد فى روما أن نتائج أعمال بونيفاس سوف تفتح الطريق لتحقيق أيديولوجية البابوية التى كانت قد بدأت تتطور منذ زمن جريجورى الكبير . وفى أواسط القرن الثامن ، كانت نتائج التطور الذى ظل مضطربا طوال

عدة قرون تتجمع فى بؤرة حادة . وأخيرا بدأت الخطوط والملامح العريضة لأوربا الأولى تكتسب شكلها المميز . وتشكل هذه الفترة (منتصف القرن الثامن) واحدة من أهم نقاط التحول فى التاريخ الوسيط ، فقد تميزت هذه السنوات العشر باستقلال البابوية النهائى عن الامبراطورية الرومانية الشرقية ، وحلول الأسرة الكارولنجية محل الأسرة الميروفنجية فضلا عن سيادة فكرة الملكية الثيوقراطية فى أوربا الغربية ، والوجود القانونى للدول البابوية . وبعد ذلك بنصف قرن فقط تم إحياء اللقب الامبراطورى فى الغرب كنتيجة مباشرة للحوادث التى جرت فى منتصف القرن الثامن ، وترتكز جميع هذه الانجازات الحاسمة على خلفية ضرورية تمثلها أعمال القديس بونيفاس ومساعديه الذين ساهموا فى تحويل أوربا إلى المسيحية.

وفى سنة ٧٥٤ عاد بونيفاس إلى العمل التبشيرى فى الأراضى الواطئة ، ممارسا نفس العمل الذى كان قد تركه قبل أربعين سنة ، حيث استشهد على يد الفريزيين البدائيين ناكرى الجميل . وبالنظر إلى سير القديسين فى العصور الوسطى تكون حياته فى خدمة الكنيسة قد انتهت على هذا النحو نهاية كاملة مضبوطة . وقد وصفه كاتبو سيرته بأنه " الحوارى المرسل إلى الألمان" وإذا كانت الكنيسة الألمانية المتحمسة ، والتى كان البندكتيون يسيطرون عليها فى العصور الوسطى الباكرة ، هى الأثر الجدير بتخليد الخدمة التى أسداها للمسيحية اللاتينية، فإن الملكية الكارولنجية فى القرنين الثامن والتاسع ، كانت هى الأخرى من نتائج أعماله إلى حد كبير . وعلى أية حال فقد كانت الملكية الكارولنجية أثرا لم يكن هو نفسه ليقدره أو يريد أن يفتخر به ؛ ذلك أن نضال البندكتيين الانجليز البطولى من أجل نشر المسيحية فى الغرب ، قد حرك مجموعة معقدة متشابكة من الأفكار والنظم التى شكلت حضارة وثقافة أوربا الأولى التى كانت عالما تجاوزت توتراته ، وطموحاته ، وانجازاته ، واخفاقاته ، المثل العليا والتوقعات البسيطة النقية للمبشرين الإنجليز .

٢- اللغز الكارولنجى

يتسم مجرى التاريخ الكارولنجى بالغموض المحير ، وكلما زاد البحث فى هذه الفترة كلما بدت أكثر غموضا وأكثر صعوبة من حيث فهم النموذج العام للتاريخ الأوربى فى القرنين الثامن والتاسع . واللغز الكارولنجى لغز مزدوج سواء فى طبيعة أحداث الفترة نفسها ، أو فى التفسيرات العامة المتضاربة للباحثين المحدثين . والتاريخ الكارولنجى مفعم بالتضارب والتناقضات الحادة ، والتطرف مابين المثالية والبربرية ، والذكاء والعنف الجاهل ، والانجاز

السريع الواضح ، والانهيار المتماثل السرعة . وقد وجد كثير من المؤرخين ، لاسيما من أتباع المدرسة القديمة ، أن النغمة الرئيسية لتلك الفترة إنما تتمثل فى صراعاتها الايديولوجية ، وفى استخلاص الأفكار العقلانية المعقدة التى تبدو واضحة للعيان فى المصادر الوثائقية للتاريخ الكارولنجى . بينما استبعد فريق آخر من المؤرخين هذه الآراء الأيديولوجية باعتبارها التفكير الذى كان الرهبان ، الذين انتجوا كل أعمال هذا العصر الأدبية ، يرغبون فيه ؛ وبدلا من ذلك أكد هؤلاء الباحثون على ما بدا لهم أنه حقائق الحياة الاجتماعية والسياسية : أى السيادة ، والاقتصاد الريفى ، والفوضى المألوفة فى المجتمع الجرمانى . ومن هذا التفسير تبرز صورة شارلمان Charlemagne ، لا باعتباره الامبراطور المسيحى الكبير فى أوربا المتحدة ، وإنما باعتباره ملكا - محاربا King- Warrior من النمط الجرمانى المدمر ، العنيف ، مما جعل التمييز الحاد بين العالم الميروفنجى والعالم الكارولنجى يختفى ليحل محله النموذج العام "للغرب البربرى " قبل القرن العاشر .

ويكمن حل اللغز الكارولنجى فى إدراك أن أوربا فى القرنين الثامن والتاسع تندرج تحت الشكل العام للمجتمع النامى فى مرحلة ما قبل التصنيع ، والذى بدأ لتوه فى الإفادة من الزعامة الذكية ، ولأن السلطة فى هذه المجتمعات تتركز فى صفوة ضئيلة - كانت هذه الصفوة فى العالم الكارولنجى ممثلة فى الملك ، وقادة الكنيسة ، وعدد قليل من كبار الارستقراطيين - فإنه يكون واضحا أن التطورات الهامة يمكن انجازها بسرعة كبيرة . وفى مثل هذا الموقف تكون ايديولوجية الصفوة بالضرورة عاملا هاما فى بدء التغيير الاجتماعى ، فإذا كان عدد قليل من زعماء القمة يقفون إلى جانب التقدم والتنوير ، فإن المحلية والفوضى قد تتخلى عن مكانها فى الحال للمركزية والنظام ، وبينما لايتوافق هذا الاصلاح الاجتماعى مع مثل مجموعة الصفوة إلا نادرا ، فإن التقدم الحقيقى يمكن أن يتم فى وقت قصير نسبيا حيث يسيطر القادة على الأذكياء والمتعلمين الموجودين فى مجتمعهم . وعلى أية حال ، فإن الموقف يظل مزعزعا بسبب ما يسود المجتمع من تراث الفوضى والمحلية والعنف .

إذ أن مجرد موت عدد قليل من القادة المستنيرين ، أو حتى اختفاء أحد الشخصيات الكبيرة فجأة ، يمكن أن يتسبب فى إنهيار النظام بأسره ، ويفتح الطريق أمام ردة سريعة إلى الفوضى والبربرية . ذلك أن المجموعة المستنيرة فى هذا المجتمع ، الذى يمر بمرحلة ما قبل التصنيع ، محاطة بجماهير المحاربين المتوحشين والفلاحين الخاملين الذين لايفهمون على الاطلاق ما يحاول القادة عمله ، ومن ثم فحين يضطرب التوجيه المركزى ، يحدث الإنزلاق السريع المتقهقر تجاه البربرية . وفى المجتمعات الصناعية الحضرية ، والكثيفة السكان ،

المتعلمة ، الحديثة ، يكون من الصعب على مجموعة صغيرة من الرجال أن تفعل ماهو أكثر من إعطاء إنطباع ما . ولكن من ناحية أخرى ، لاتنهار هذا المجتمعات حضاريا ولاتتعرض للفوضى السياسية على هذا النحو نتيجة اختفاء واحد أو اثنين من زعمائها المهمين .

وهكذا تصبح تقلبات أحوال العالم الكارولنجى مفهومة فى ضوء نموذج المجتمعات النامية. فقد كانت للمثل التى اعتنقتها مجموعة الصفوة المركزة فى البلاط الملكى والكنيسة أهمية قصوى باعتبارها من عوامل الحسم فى التغير الاجتماعى والسياسى . وفى الوقت نفسه يجب أن نتذكر أن هذه المجموعة كانت تعمل فى مجتمع يتسم بالطابع الريفى والمحلى إلى حد كبير، بل إن الغالبية العظمى من السادة الفرنجة لم يفهموا إطلاقا الشطر الأكبر من الايديولوجية العقلانية التى قدمها المنظرون الكنسيون ، كما كرهوا التورط فى معظم الأمور التى تعذر عليهم فهمها ، ولم تكن ثمة وحدة تجمع مجموعة الصفوة [٤] التى كانت تضم الملوك والأساقفة ومقدمى الأديرة والبابوات والدوقات من حيث تصورهم للمجتمع المسيحى المثالى . بيد أنه كان هناك صراع خفى لايقبل المصالحة بين موقف قادة المجتمع المسيحى وتوقعاتهم العامة من جهة ، وحقائق الحياة السياسية والاقتصادية البشعة من جهة أخرى ، وهذا هو السبب فى تميز التاريخ الكارولنجى بوجود الايديولوجية العقلانية المعقدة من ناحية ، والحيوية المتزايدة للسيادة وعلاقات الضيعة الاقطاعية Manorialism من ناحية أخرى ، الأمر الذى يفسر لنا سبب ظهور شارلمان بمظهر الامبراطور المسيحى وصورة السيد البربرى فى آن واحد ، كما يفسر أهداف قادة أوربا البعيدة المنال ، وما أحرزوه من انتصارات قصيرة المدى فضلا عما لاقوه من خيبة آمالهم . إلا أن استمرار وجود النظم الجرمانية ، بما تحمله من تأثيرات سلبية أعاقت تحقيق مثل رجال الكنيسة العليا فى تلك الفترة ، لايمثل أكثر جوانب التاريخ الكارولنجى أهمية ، وإنما يتمثل هذا الجانب ، إلى حد ما ، فى التعبير عن هذه المثل ، وفيما بذل من جهود عظيمة لبناء المجتمع المسيحى . هذه العوامل الجديدة هى التى تميز أوربا الأولى عن العالم الذى وجد عقب الغزوات الجرمانية مباشرة ، ورغم أن التوقعات العظيمة للملوك الكارولنجيين ، ورجال الكنيسة لم تتحقق فى زمنها ؛ فإن الشطر الأكبر من إيديولوجيتهم ونظمهم ظلت موجودة حتى بعد انهيار الامبراطورية الكارولنجية ، كما كانت ركنا هاما من أركان النظام الاجتماعى الأكثر نجاحا الذى وجد فى القرنين العاشر والحادى عشر [٤].

---

(٤) عن الصفوة وأعمالها فى العصر الكارولنجى أنظر :

Phillppe Wolf :The awakening of Europe (Penguın Book 1967)p. 36 - 56.

٣- الملكية والبابوية

يتركز جزء من تاريخ أوربا القرن الثامن والقرن التاسع حول ثلاث إيديولوجيات ، وطرق تعبير هذه الإيديولوجيات عن نفسها ومواجهاتها وتفاعلها فيما بينما ، هذه الإيديولوجيات الثلاث هى : مفهوم السلطة البابوية ومذاهب الملكية الثيوقراطية ، ثم المثال الامبراطورى أو المثل الامبراطورية بتعبير أدق . وكان زعماء العالم الكارولنجى يتحركون فى قوة بدافع من واحدة أو أكثر من هذه الايديولوجيات ، كما كان تطور سياسة الملكية والبابوية محكوما إلى حد بعيد بالمحاولات الرامية إلى تحويل هذه الإيديولوجيات إلى خطط عملية .

كان مذهب السلطة البابوية قد تشكل مابين عام ٧٣٠ وعام ٧٦٠ ، وإلى حد ما ، كان التعبير عن هذا المذهب من نتائج النزاع الأيقونى مع بيزنطة . ففى أواخر العشرينيات من القرن الثامن حرم الامبراطور(٥) استخدام الصور وغيرها من المواد الفنية الممثلة للأشخاص (الأيقونات) باعتبارها مظاهر وثنية وعبادة أصنام ، كما أمر بأن تزال من الكنائس الخاضعة

= وعن حياة شارلمان أنظر :

Two Lives of Charlemgne : The Vita Caroli of Einhard, and The De Carlo Magna of Notker The Stammerer, Monk of Saint Gall.

وقد ترجمها وقدم لها لويس ثورب. (Penguin Books 1974) Lewis Thorpe

وكذلك أنظر عن حياة شارلمان الترجمة الواردة لجزء من حياة شارلمان التى كتبها اينهارد فى:

The Early Middle Ages, pp. 251- 61.

أنظر أيضاً المختارات التى أوردها نورمان كانتور فى كتاب : The Medieval World 300 - 1300

عن حياة شارلمان كما كتبها اينهارد ، وخطابات الكوين ، والمراسيم الدورية الملكية فى الصفحات من : 139 - 153 وعن العصر الكارولنجى بصفة عامة أنظر : هـ. موس: ميلاد العصور الوسطى ، ص ٣٣٦-٣٧٣ وسعيد عاشور : أوربا العصور الوسطى ، جـ١ ص ١٨٦/٢٠٥ ، ج٢ : ص٣٥/ص٨٧ .

(٥) هو الامبراطور ليو الثالث الأسيوى الذى بدأ سنة ٧٢٦ حملة ضد الأيقونات وعبادتها . وقد حكم هذا الامبراطور من سنة ٧١٧ إلى سنة ٧٤٧ .

(المترجم)

لحكمه . وكانت النتيجة نزاعا انشقاقيا عنيفا امتص طاقات الدولة البيزنطية والكنيسة البيزنطية على مدى قرنين من الزمان حتى انتصر الأيقونيون المدافعون عن الصور الدينية فى نهاية الأمر . وقد فسرت دوافع الامبراطور الذى أثار النزاع الأيقونى عدة تفسيرات ؛ فقد كان الأباطرة الذين حرموا الصور الدينية من آسيا الصغرى حيث يوجد الإمداد البشرى اللازم للجيش البيزنطى فى ذلك الحين ، وقد فسر موقفهم اللاأيقونى على أنه نتيجة لتأثر الرجال الذين ارتقوا سلم السلطة فى الامبراطورية الرومانية بالتراث الدينى لدى شعوب الشرق الأوسط مثل المسلمين واليهود الذين كانوا يحرمون الصور فى بيوت العبادة الخاصة بهم [٦]. وفى رأى أصحاب هذا التفسير أن النزاع اللاأيقونى قد نشب نتيجة الاستشراق المتزايد للحضارة البيزنطية ، وثمة رأى آخر يعود بأصل الحركة اللاأيقونية إلى محاولات أباطرة القرن الثامن لزيادة سلطة الدولة البيزنطية ، وحيث وجدوا أن الشعبية التى يتمتع بها الرهبان البيزنطيون سوف تكون عقبة فى طريقهم . واعتقد الأباطرة أن هذه الشعبية جاءت نتيجة للاعتقاد الشائع بأن الأيقونات المحفوظة فى المؤسسات الديرية قادرة على صنع المعجزات ؛ ومن ثم اعتقد الأباطرة أن سياستهم اللاأيقونية كانت أساسا ضروريا لإعادة إحياء السلطة الامبراطورية .

وأيا كانت دوافع الامبراطور لإصدار مراسيمه اللاأيقونية ، فإنه لم يكن بوسع البابا الإذعان لها ، فقد كان الامبراطور قد أمره بالالتزام بسياسته الجديدة . وفى المحل الأول ، لم يستطع البابا أن يسلم بحق الامبراطور فى التشريع لمثل هذه المسائل المذهبية الهامة . وثانيا ، كانت الكنيسة الغربية تعارض الموقف اللاأيقونى معارضة شديدة ، وقد جسد جريجورى الكبير موقف الكنيسة الغربية من مسألة وضع الصور فى الكنيسة ، فبينما كان جريجورى يرفض ، بطبيعة الحال ، فكرة أن تكون للصورة الكنسية أية قوى إعجازية ، فإنه مع ذلك كان يدافع عن استخدامها كوسيلة تثقيف وتعليم فى الارشاد الدينى ، وفى سنة ٧٤٠ كان البابا هو جريجورى الثانى ، الذى كان لإسمه أهمية ومغزى ؛ ذلك أنه كان من عادة البابوات عند ولايتهم أن يتخذ الواحد منهم اسم أحد البابوات السابقين يكون محل إعجابه أكثر من غيره ،

---

(٦) الحقيقة أن الخليفة الأموى يزيد بن عبد الملك أمر فى سنة ١٠٤هـ (٧٣٢)م بكسر الصلبان فى كل مكان ويمحو الصور من الكنائس فى جميع أنحاء الدولة العربية الاسلامية مما قد يشير إلى تأثر ليو الثالث بما فعله جيرانه المسلمون. ولسنا نفهم السبب وراء إقحام المؤلف لليهود ، الذين كانوا أقلية ضئيلة لاقيمة لها ، فى هذا الموضوع . (المترجم)

وكان جريجورى الثانى يرغب فى منافسة جريجورى الكبير ، كما كان يريد أن يضع برنامجه الخاص بزعامة البابوية لأوربا موضع التنفيذ العملى ولم تكن البابوية قادرة على ذلك خلال القرن السابع بسبب ضعف الملكية الفرنجية من جهة ، وبسبب وقوع البابوية فى متناول الامبراطور وجيشه الرابض فى إيطاليا من جهة أخرى .

وقد وصل النزاع اللاأيقونى بالأمور الى غايتها كما منح جريجورى الثانى فرصة تنفيذ سياسة سَمِيِّهِ فأرسل خطابا غاضبا الى القسطنطينية ينكر فيه حق الإمبراطور فى التدخل فى المسائل المذهبية ، مؤكدا أنه إذا عاود الإمبراطور محاولة استخدام القوة ضد اسقف روما ، فإن العالم الغربى بأسره سوف يقف على قدم الاستعداد لمساعدة البابا . والحقيقة أنه لم تكن هناك وسيلة يعرف جريجورى بها مدى صدق هذا الزعم .

فقد رفض شارل مارتل المجىء الى ايطاليا بناء على طلب البابوية لحمايتها فى مواجهة الامبراطور واللمبارديين سنة ٧٥٩ ، ولاشك فى أن شارل كان يشعر أن لديه من المشاغل فى وطنه ما يكفيه . وكان ملك الفرنجة ، على أية حال قد صار على علاقة طيبة بالقسطنطينية منذ عهد كلوفيس ، ولكن جريجورى الثانى ، لسبب لاندريه ، كان يعتقد أن الوقت قد حان لكى تعلن البابوية استقلالها عن الإمبراطور الرومانى لكى تربط نفسها بالعالم الغربى ومن ثم بالأسرة الكارولنجية التى كانت تحكم معظم أراضى أوربا .

وفى سنة ٧٥١ آتت سياسة جريجورى الكبير ، وسميه جريجورى الثانى ثمارها وذلك حين لجأ بيبن الثالث الى روما فى طلب المساعدة فى الحصول على التاج الفرنجى . فقد كان الملك الميروفنجى فى القرن الثامن مجرد شخص لا أهمية له على الإطلاق ، فلم تكن لديه السلطة ولا الممتلكات ، كما كان يركب عربة تجرها الثيران مثل أى فلاح ؛ بيد أنه كان مايزال يملك اللقب الملكى . ووفقا للقانون الفرنجى لم يكن هناك من سبيل يمكن عمدة القصر الكارولنجى من انتزاع اللقب لنفسه ، فكان بحاجة إلى تأييد الكنيسة ، والسلطة البابوية على وجه الخصوص ، لكى يغتصب العرش الفرنسى . وكان بيبن الثالث يملك من المهارة ما يكفى لأن يفعل ذلك حين تواتيه الفرصة ؛ ذلك أنه من المحتمل أن يخرج من بين الملوك الميروفنجيين ، الذين ظلوا على مدى قرن من الزمان أشخاصا من ذوى العاهات الجسدية أو العقلية ، كلوفيس آخر . واتضح أمام بيبن السبيل الذى يجب أن يتبعه بفضل أعمال بونيفاس فى المملكة الفرنجية ، وازدياد نفوذ الكنيسة فى المجتمع الفرنجى ، والنظرة الجديدة المفعمة بالاحترام التى نظر بها رجال الكنيسة الفرنجية الى البابوية .

فقد كان متوقعا أن يعلو قانون الكنيسة ، وماتفرضه البابويه من عقوبات فوق التقاليد الفرنجية . ومن ثم فإنه طلب من بونيفاس أن يحمل إلى روما سؤالا عما إذا كان يجب للرجل

الذى يمارس السلطة الفعلية أن يكون ملكا أم لا . وكانت البابوية قد انتظرت قرنا من الزمان من أجل هذه اللحظة ، ولم يكن بمقدور البابا الا أن يعطى بيبن الإجابة التى كان يريدها [٧]. ولكن الحقيقة أن القرار البابوى بحق بيبن فى خلع الملك الميروفنجى الحاكم وأخذ التاج الفرنسى كان متوافقا مع تقاليد النظرية السياسية لكنيسة العصور الوسطى الباكرة . ذلك أن المنظرين الكنسيين لم يتأثروا قط بمزاعم الوراثة ، وكانوا ينادون على الدوام بأن ولاية العرش تتوقف على ملاءمة الشخص للمنصب ، وهو مايعنى أن يتمتع المرشح للعرش بمؤهلات تجعل منه حاكما كفؤا عادلا ، ولم يكن بيبن قادرا على الإفادة من هذا الرأى ؛ ذلك أن مبدأ استحقاق العرش عن جدارة كان قد اختفى من فرنسا فى القرن الخامس ، وحلت محله تقاليد الحق المطلق للأسرة الميروفنجية فى العرش . وربما يكون هذا التحول الذى طرأ على أسس الملكية الفرنجية راجعا فى الأصل الى مزاعيم الميروفينجيين ، فى عصور ماقبل المسيحية ، بأنهم من سلالة الآلهة . وقد تدعم هذا التحول فى مطلع القرن السادس حين غزا كلوفيس غالة وزعم أن المملكة بأسرها ملك خاص لأسرته . وكان من الواضح أن قرار نائب الله فى الأرض (البابا) فقط هو الذى يمكنه كسر الارتباط الفرنجى بالبيت الميروفنجى ؛ هذا الارتباط الذى أكده تساهل الفرنجة على مدى أكثر من قرن مع سلسلة من المعتوهين الملكيين .

وقد ارتقى بيبن عرش الفرنجة وفقا للقانون الكنسى والبابوى خلال احتفال دينى رمزى متقن، فقد مسح القديس بونيفاس ، بوصفه ممثل البابوية فى فرنسا ، بيبن بالزيت المقدس بنفس الطريقة التى يتم بها ترسيم الأساقفة ، ثم توجه ملكا على الفرنجة . وكان لهذا التتويج المقدس للحاكم الكارولنجى أثره المرجو من حيث إيجاد الإنطباع بحق بيبن فى العرش لدى رجال الكنيسة الفرنجية والسادة العلمانيين على حد سواء . وأرسل آخر الميروفنجيين إلى أحد الأديرة، وبذلك اختفت أسرة كلوفيس . وكان مسح بونيفاس لبيبن بالزيت المقدس علامة على نقطة تحول هامة فى تطور الملكية فى أوائل العصور الوسطى لأنها كانت تتضمن فى طياتها فكرة الملكية الثيوقراطية التى عرفتها أوربا الغربية . وثمة دليل على أن اساقفة القرن السابع الأسبان قد جربوا أيديولوجية واحتفالا مشابهين فى محاولة لمنح بعض التأييد المعنوى والدينى للملكية القوطية الغربية الضعيفة ، ولكن هذه المحاولة انتهت بالفتح الإسلامى لشبه جزيرة أيبيريا ، ولايبدو انها كانت مفيدة كسابقة فى التتويج المقدس للحاكم الكارولنجى .

---

(٧) البابا المقصود زكريا (٧٤١ - ٧٥٤) .

فلماذ إذن قدمت البابوية التتويج المقدس للملكية فى غرب أوربا ، وقدمت معه أيديولوجية الملكية الثيوقراطية التى ناضلت البابوية ضدها فى صيغتها البيزنطية نضالا مريرا منذ القرن الخامس ؟ يجب أن نؤكد أن البابوية اخطأت فى استحداث هذه البدعة من حيث نتجائها البعيدة المدى ؛ فقد صارت الملكية الثيوقراطية مذهبا سبب من المتاعب للكنيسة فى صيغته الغربية أكثر مما عانت منه فى صيغته البيزنطية ، ولم يكن هذا شيئا يمكن رؤيته فى منتصف القرن الثامن . وكانت غلطة الملكية الجرمانية ، فى نظر الكنيسة أنها كانت غاية فى الضعف بحيث تعجز عن قيادة المجتمع أو حماية الكنيسة ؛ وليس كونها أداة للاستبداد وتهديدا مسلطا على زعامة الكنيسة المعنوية للمجتمع . وأخيرا سنحت الفرصة للبابوية سنة ٧٥١ لكى تضع برنامج جريجورى الكبير موضع التنفيذ الفعلى ، وأن تضع الملك الفرنجى فى موقف المدين بعرشه لروما ، بيد أنه كان عليها ، لكى تفعل هذا ، أن تتحكم فى التقاليد الفرنجية الراسخة ، وأن تحصل على التاج لحلفائها الكارولنجيين. وكان التطبيق الكامل للعقوبات الدينية هو أضمن وسيلة لتحقيق هذه الأهداف ، وهو ما يؤدى إلى رفع الأسرة الكارلونجية إلى منصب مقدس . وبدا الأمر وكأنه احتفال درامى رمزى أخاذ يمكن أن يحقق هدف الحصول على العرش الفرنجى لبيبن ؛ ولكنه لايشكل أى تهديد لزعامة البابوية للمجتمع الغربى . وكان المنظرون الكنسيون يعرفون مضامين الملكية الثيوقراطية والتتويج الملكى المقدس ، ولكن البابوية فى منتصف القرن الثامن لم تكن تتوقع أن الملوك الجرمان الأميين سوف يفيدون من هذا التتويج على نحو يتعارض مع مصالح روما ، أو إنهم سوف يدركون كل ما تضمنته المذاهب العقلانية المعقدة .

فضلا عن أن البابوية لم تكن مهتمة بتقديم الملكية الثيوقراطية فى غرب أوربا ؛ لأنها كانت قد شكلت أيديولوجيتها الخاصة عن سيادة البابوية على ملوك أوربا الغربية ، وقد حصلت من بيبن على الاعتراف الواضح بسلامة هذا المذهب .

وقد صيغت فكرة السلطة البابوية على العالم الغربى فى أشهر وثائق العصور الوسطى وهى هبة قسطنطين التى كانت أشهر علمية تزييف فى التاريخ ، وهناك بعض الشك حول تاريخ كتابة هبة قسطنطين فى الشكل الذى وصلتنا به ، وربما يكون النص الموجود قد كتب فى منتصف القرن التاسع ؛ إلا أن هناك دليلا قويا على أن هبة قسطنطين الأصلية وهى تماثل فى جوهرها نفس الوثيقة التى وصلتنا ، قد كتبت فى المقر البابوى فى منتصف القرن الثامن ، وقدمها البابا شخصيا إلى بيبن فى باريس سنة ٧٥٤ وتقبلها الملك الفرنجى على أنها إقرار حقيقى بصلاحية السلطة البابوية .

لقد شعرت البابوية أن من الضرورى لها أن تعبر عن أيديولوجيتها من خلال وثيقة مزورة ترتبط بالامبراطور قسطنطين ؛ وذلك بسبب المفاهيم القانونية التى كانت سائدة فى العصور الوسطى الباكرة ؛ إذ كان القانون الجيد هو القانون القديم ، فقد كان القانون مساوياً للعادة ، وكان لابد للدعاوى الجديدة من بعض الأسس التاريخية أو المرتبطة بالعادات والتقاليد . وإذا ما اخذنا فى اعتبارنا أيضا ما كان الناس فى مجتمع أغلبه جاهل يكنونه من الاحترام تجاه الوثائق المكتوبة ؛ يصبح من السهل علينا أن نفهم دوافع رجال الكنيسة فى العصور الوسطى الباكرة الى تزوير الوثائق من أجل إيجاد أساس قانونى لدعاويهم . ولاتدمغ هبة قسطنطين المزورة بابوات القرن الثامن بالدناءة الأخلاقية ؛ لأن الوثيقة كانت مجرد وسيلة قانونية للتعبير عن إيديولوجية البابوية ، فضلا عن أنه من المحتمل أن تكون البابوية قد اعتبرت التفسير الخاص لعهد قسطنطين تفسيرا حقيقيا ، وهو التفسير الذى استندت اليه الهبة والذى اوجز فى ديباجة الوثيقة التى اعتقدوا أن قسطنطين قد أصدرها حقا ، ولذا فإنهم زوروا وثيقتهم الخاصة بنفس الطريقة التى زورت بها كثير من أديرة العصور الوسطى نسخا جديدة من الوثائق الأصلية التى فقدت .

ويعتمد كاتب هبة قسطنطين على أسطورة القديس سيلفستر St. Sylvester التى أشار إليها جريجورى التورى فى كتابه "تاريخ الفرنجة" والتى ربما يكن أصلها راجعا إلى ايطاليا أواخر القرن الخامس فى وقت معاصر لتكوين المذهب الجيلازى . إذ تقدم الأسطورة ، فى شكل تاريخى - قانونى ، الجانب الراديكالى فى مفهوم جيلازيوس الأول عن العلاقة بين البابوية Auctoritas والملكية Potestas وتحكى الأسطورة التى بنيت هبة قسطنطين على أساسها ، أن البابا سيلفستر الأول عالج الامبراطورَ الرومانى من مرض الجذام ؛ واعترافا بالجميل عينه قسطنطين أسقفا للعالم الرومانى وتنازل أيضا عن تاجه الامبراطورى وعن جميع سلطاته للبابا ، وكرمز لخضوعه للبابا سيلفستر ؛ قام الامبراطور بوظيفة سائس الخيول البابوية ، وفى مقابل ذلك رد البابا الكريم على قسطنطين تاجه الامبراطورى . وعلى أية حال فقد هجر الامبراطور روما وايطاليا والعالم الغربى وتركه للبابا وذهب ليقيم فى القسطنطينية . والمذهب الكامن خلف هذه القصة مذهب راديكالى للغاية ، إذ يعنى أن البابا فوق جميع الحكام ؛ بما فى ذلك الامبراطور الرومانى الذى يدين بتاجه البابا ؛ ومن ثم يمكن عزله بمرسوم بابوى ، كما أن للبابا الحق المطلق ، لا على روما وكنيسة القديس بطرس فقط ؛ ولكن أيضا على إيطاليا والعالم الغربى بأسره اذا ما اختار أن يمارس ما زعمه لنفسه من سلطات .

وربما يمكن تفسير جسارة وراديكالية هبة القسطنطينية من خلال نجاح البابوية فى تحقيق سياسة جريجورى الكبير . إذ أن بابوات النصف الأول من القرن الثامن حصلوا على استقلالهم عن القسطنطينية وعقدوا حلفا مع المملكة الفرنجية . ثم كانت لهم الزعامة الأخلاقية على أوربا الغربية بشكل واضح ، وفى أواسط القرن الثامن بدا أن مطامح البابوية فى تحقيق السلطة لاتنتهى عند حد ، فضلا عن أن البابوية تشجعت للتعبير عن ايديولوجيتها حين قام الملك الفرنجى بوظيفة سائس الخيول البابوية بشكل رسمى ، إذ أنه قام بقيادة حصان البابا مسافة قصيرة بشكل يتوافق مع دور الامبراطور الرومانى كما حددته هبة قسطنطين ، ثم أقيم احتفال كبيرا آنذاك بكنيسة سان دونى St. Denis التى هى بمثابة الدير الملكى فى فرنسا- وهى الكنيسة التى كانت ترمز الى الارتباط بين روما وباريس بسبب تكريسها لتلميذ القديس بولس الرسول . ولم يقتصر البابا على مسح بيبن فقط بالزيت المقدس بل مسح زوجته وأطفاله أيضا كما منح الملك الفرنجى لقب حامى الرومان Patricius Romanorum (والرمان هنا تعنى الكنيسة الرومانية). ولتحقيق هذه الوظيفة الجديدة تعهد بيبن بأن يعيد للبابوية حكم إقليم رافنا ، الذى كان قد سقط بأيدى اللمبارديين سنة ٧٥١ ، ولكن بين أقسم أن يعيده : لا إلى البيزنطيين الذين كان الأقليم تابعا لهم ، إلى وقت قريب ، وإنما إلى أوقاف القديس بطرس تمشيا مع ماجاء فى هبة قسطنطين من أن ايطاليا بأكملها منحة القديس سيلفستر وخلفائه . وفى العام التالى بر الملك الكارولنجى بوعده للبابا ، فقد غزا إيطاليا ، وانتزع رافنا من اللمبارديين ، وسلمها الى البابوية رغم احتجاجات البيزنطيين التى ضاعت هباء . وقبل رجوعه الى فرنسا سنة ٧٥٦ أودع على مقبرة القديس بطرس فى روما وثيقة عرفت باسم "هبة بيبن" تؤكد على استقلال أوقاف القديس بطرس . وهكذا كان لدى البابوية فى نهاية خمسينيات القرن الثامن سبب قوى يجعلها تعتقد أنها أحرزت زعامة أوربا الأولى ، وأن الملكية الفرنجية المتجددة الحيوية يمكن أن تكون مؤيدا يدافع عن البابوية ويفيد فى خلق نظام مسيحى عالمى .

إلا أنه أصبح واضحا ، خلال ثلاثين عاما بعد هذه الأحداث الخطيرة التى شهدها منتصف القرن الثامن ، أن أوربا الأولى كانت تتشكل بطريقة لاتتوافق مع الايديولوجية البابوية التى تعبر عنها هبة قسطنطين ، فلم تكن زعامة أوربا الغربية بأيدى أساقفة روما ، وإنما كانت بيد شارلمان ابن بيبن (٧٦٨-٨١٤) ، ووجد البابا نفسه فى تراجع مستمر ليصبح فى المحل الثانى بعد الملك الكارولنجى . كما أن شارلمان لم يحافظ بشكل حقيقى على هبة قسطنطين ، فقد التزم بهبة أبيه فى البداية ، ولكنه فى سبعينيات القرن الثامن دمر المملكة اللمباردية واتخذ نفسه لقب ملك اللمبارديين ، وهكذا عارض شارلمان ، بما ادعاه من حقوق فى شمال ايطاليا ،

كلا من هبة قسطنطين وهبة بيبن ، وعلاوة على ذلك اتخذ البابا سبيل الحذر حين وجد شارلمان يأخذ مابعنيه تتويجه على يد البابوية مأخذ الجد . فقد كان علماء بلاط شارلمان يسمونه الملك داوود الذى كان النموذج الأصيل للملك المقدس وكان واضحا أن أيديولوجية الملكية الثيوقراطية قد برزت فى المملكة الكارولنجية لنفس الغرض الذى تطورت من أجله فى بيزنطة، وقد اخطأت البابوية فى القرن الثامن فى حساباتها حيث أنها لم تفهم أن الكنيسة الفرنجية التى تم إصلاح احوالها ، لم تكن لتخضع للبابوية رغم اعترافها الرسمى بالولاء لروما. فضلا عن أن الأساقفة ومقدمى الأديرة ربطوا انفسهم بالتحالف الوطيد مع الحاكم الكارولنجى الذى كان بإمكانه ان يقدم لهم مناصب هامة فى حكومته وفى البلاط ، أو يظلهم بالحماية والأمان على الأقل . وإذا كان الملك الفرنجى ، آنذاك ، يشغل منصبا مقدسا ، وإذا كان ملكا وقسيسا Rex et Sacerdos . فقد كان لرجال الكنيسة الفرنجية عذرهم فى الارتباط بالملكية ، لقد افترضت البابوية أن وجود كنيسة فرنجية مستنيرة ناجحة يعنى أن تولى هذه الكنيسة وجهها شطر روما ، وكان هذا خطأ قاتلا .

وأخطأ البابا حساباته أيضا من حيث عدم سماحه ببروز شخصية قوية فى الأسرة الكارولنجية ، فلم يظهر فى العصور الوسطى الباكرة شخص أكثر تأثيرا من شارل العظيم ، فقد كان محاربا عظيما أنفق سنوات حكمه فى محاوله مد مملكته فى جميع الاتجاهات ، وضم شمال غرب المانيا إلى المملكة الفرنجية ، كما ذبح فى غزواته الآلاف من السكسون الوثنيين دون تردد . إذ كان من طبيعة الملكية الجرمانية ، أن تكون مقدرة الملك كمحارب عظيم محل إعجاب السادة الشديد وولائهم ، مهما كانت مزاياه الأخرى التى تدعو الى الاعجاب . فلم يكن أولئك السادة يحترمون أية صفات عدا الكفاءة فى ميدان المعركة ، بيد أن شارلمان كان بالفعل يتمتع بميزات أخرى عدا الكفاءة فى ميدان المعركة ، ضمنت له ولاء اقدر رجال الكنيسة ، واخلاصهم ، فضلا عن خدماتهم ، لافى ممتلكاته الشاسعة فحسب ، بل أيضا فى انجلترا وشمال ايطاليا . وشارلمان ككل ، على حد وصف كاتب سيرته وسكرتيره رجل الكنيسة اينهارد Eindard ، يبدو شخصية مؤثرة للغاية ، وإذا كان اينهارد يحبس نفسه من حين لآخر فى اطار كتاب سويتونيوس Suetonius "قصة حياة القياصرة الاثنى عشر" أثناء وصفه لسيده وبطله ، فمن الممكن تبرير ذلك من ناحية بعينها . ذلك أن شارلمان يستحق أن يحتل مكانه بعد أعظم الأباطرة الرومان مباشرة ، وعلى الرغم من كونه نصف متعلم - إذ لم يكن يقرأ اللاتينية جيدا ولم يكن يستطيع رسم اسمه الا بصعوبة - فقد كان يتمتع بذكاء حاد استخدمه فى حل جميع المشاكل التى واجهت حكمه ، كان محارب عصره العظيم ؛ إلا أنه فى

الوقت نفسه تكفل باستمرار أعمال بونيفاس لتطوير وتحسين نظام الكنيسة ، وتطوير التعليم فى المدارس الديرية داخل مملكته ، وقد جند أشهر عالم فى عصره ، وهو الانجليزى الكوين Al-cuin ؛ لكى يطور ويرقى المدارس الديرية الفرنجية ، كما أحاط نفسه فى البلاد برجال الكنيسة المتعلمين المتحمسين سائلا إياهم النصيحة ومتبعا لها . وبين الآونة والأخرى كان الرئيس الجرمانى البدائى يخترق هذه الواجهة الحضارية (مظهرا الوجه الآخر لشارلمان) . فقد كان لشارلمان عدد كبير من الأبناء غير الشرعيين ، وكان يسىء معاملة بناته بالإضافة الى أنه خطط لتقسيم مملكته بين من يخلفه من أبنائه كما لو كانت قطعة من ضيعة إقطاعية ومثلما كان يفعل أقل الميروفنجيين نضجا . بيد أن هناك قدرا كافيا من أعمال شارلمان يتسم بالذكاء والمثالية التى استخدمت فى الحكم لتكون علامة التحول الشامل الذى طرأ على الملكية الجرمانية ، فقد كان أول ملك جرمانى منذ ثيودوريك ملك القوط الشرقيين يتجه بوعى وبإستمرار نحو الاصلاح الاجتماعى . وإذ أدرك رجال الكنيسة المعاصرون هذا ، رفعوه الى مرتبة بطل المسيحية اللاتينية ، واحتفظوا للبابا بمكانة محترمة ولكنها أدنى من مرتبة شارلمان. كما أن شارلمان لم يزعم مثل الامبراطور البيزنطى انه الممثل الأول لله على الأرض ، ولم يشرع فى المسائل المذهبية ؛ وإن تمتع ببصيرة نافذة ووعى بقدره ، الأمر الذى وافق هوى رجال الكنيسة العاملين فى بلاطه تماما ، فجعلوا منه زعيما للمجتمع الأوربى .

ولم يتبق للبابوية فى ترسانتها الروحية سوى سلاح وحيد كانت تستطيع بمقتضاه تأكيد سلطتها على الملك الكارولنجى ، فإن الامبراطور ، وفقا لما تقوله هبة قسطنطين ، تنازل عن لقبه الامبراطورى ثم تلقاه ثانيه من سيلفستر ، وتستمر المناقشة البابوية فى القول بأنه منذ ذلك الوقت فصاعدا صار اللقب الامبراطورى من حق البابا الذى يمنحه أو يمنعه . ويدأ الأمر منذ ثمانينيات القرن الثامن حيث يوجد دليل على أن البابوية كانت تعد العدة لكى "تترجم" (تنقل) اللقب الامبراطورى من القسطنطينية الى المملكة الكارولنجية ، وأوقف البابا تأريخ الوثائق البابوية بسنة تولى الامبراطور الرومانى العرش واستبدلها بسنة تولى شارلمان . وفى تسعينيات القرن الثامن أرسل البابا الاعلان الرسمى باختيار الملك الفرنجى عوضا عن الحاكم البيزنطى كما كانت العادة . وكان منح اللقب الامبراطورى لشارلمان ، كوسيلة لاعادة تأكيد السلطة البابوية فى غرب أوربا ، اجراء يائسا ولكنه كان المخرج الوحيد المتاح امام البابوية ، وأضفى التتويج الإمبراطورى لشارلمان فعالية جديدة على هبة قسطنطين ، ولما كان للبابا الحق فى أن ينزع اللقب الامبراطورى ؛ فقد كان معنى ذلك أن تتمتع البابوية بصلاحيات قوية فى مواجهة الملك الكارولنجى . وفهم شارلمان بطبيعة الحال ، مغزى التتويج الامبراطورى على يد

البابا ، مما وضع عقبة فى سبيل تحقيق خطط البابا . وعند نهاية القرن الثامن بالضبط وجدت البابوية نفسها مجبرة على الاسراع فى تنفيذ برنامجها الخاص بنقل اللقب الامبراطورى الى الغرب .

فقد تجدد تهديد أمن وسلامة أسقف روما ، من جانب طبقة النبلاء الرومان ، الذين ناضلوا لانتخاب واحد منهم لولايةٍ عرش القديس بطرس . ونتيجة لهذا النزاع الداخلى تعرض ليو للضرب من قبل عامة الرومان ، كما اتهمه اعداؤه من النبلاء الرومان بالخسة الأخلاقية ، ففر صوب الشمال طلبا لمساعدة "حامى الرمان" الرسمى الذى كان مشغولا فى ذلك الوقت بحربه الطويلة ضد السكسون . وعملا بنصيحة ألكوين ، تصرف شارلمان فى روية وبطء شديدين فى استجابته لتوسلات البابا ، وأعيد البابا إلى روما تحت الحراسة وبقى تحت الحراسة لحمايته حتى تمكن شارلمان من عبور جبال الآلب قرب نهاية ٨٠٠ ، وفى الثالث والعشرين من ديسمبر بدأ ليو نفسه يواجه التهم الموجهة ضده فى محاكمة على الطريقة الجرمانية رأسها شارلمان ، وكان لمجرى الحوادث على هذا النحو مغزاه فقد حطت من قدر البابا بشكل مريع ، كما تضاءلت شخصيته أمام الحاكم الكارولنجى ، فصمم على استعادة هيبة منصبه وسلطته من خلال التتويج الامبراطورى لشارلمان . وفى يوم عيد الميلاد ، وبينما كان شارلمان ينهض من الصلاة أمام مقبرة القديس بطرس ، وضع البابا ليو التاج فجأة على رأس الملك ، وصاح رجال الكنيسة أفراد الشعب الرومانى - الذين كانوا قد تدربوا على هذه الصيحة جيدا - قائلين : "شارل اغسطس امبراطور الرومان العظيم مانح السلام ، له الحياة والنصر" وكان شارلمان حانقا ومتكدرا للغاية فى هذا اليوم حتى انه قال ، وفقا لرواية اينهارد ، "انه لم يكن ليدخل الكنيسة إطلاقاً فى ذلك اليوم ، رغم انه كان يوم عيد هام جدا ، لو كان يعلم بنية البابا". وبذل شارلمان مافى وسعه ليهدىء من ثائرة البيزنطيين الغاضبين ، الذين زعموا أن لقبهم الامبراطورى سرق منهم ، ولم يستخدم شارلمان أبدا لقب امبراطور الرومان الذى منحه البابا اياه ، وكان راضيا بلقب "امبراطور وملك الفرنجة واللمبارديين" الذى يوضح الأسس الحقيقية الفعالة التى قامت عليها سلطته .

وأثار التتويج الامبراطورى لشارلمان نزاعا شديدا بين المؤرخين ، فاستبعد كثيرون منهم عبارة اينهارد على انها تواضع زائد من جانب شارلمان ، والحقيقة ان شارلمان لم يكن يريد أن يتوج إمبراطوراً على الرومان لأن كلمة "رومان" كانت تعنى عنده "بيزنطيون" فى المحل الأول ، كما لم تكن لديه أية رغبة فى إثارة غضب حاكم القسطنطينية ، وثانيا لأنه فهم المغزى

الدستورى للتتويج البابوى . ولم يكن عنده أدنى نية لوضع نفسه فى موضع المدين أو موضع الضعف بالنسبة لأسقف روما . وعلى أية حال ، فإنه مما زاد فى تعقيد الموقف ، وتسبب فى حيرة كثير من المؤرخين أنه كان ثمة مثال امبراطورى يحتل مكان الصدارة بين "المثل" المنتشرة بين رجال الكنيسة فى المملكة الكارولنجية ، الا أن هذا المثال لم يكن نفس مفهوم مثال الامبراطورية السائد فى روما أو القسطنطينية ، إذ تحفل خطابات ألكوين ، على نحو خاص ، بالاشارات الى "الامبراطورية المسيحية" وإلى "اوربا" ؛ أى المنطقة المرتبطة بالمسيحية اللاتينية والتى كان شارلمان زعيمها . وبالنظر الى مابذله شارلمان لصالح أوربا ، ووضعه كأعظم ملك فى أوربا ، كان ألكوين وغيره من الكنسيين فى البلاد قد بدأوا يفكرون فى انه يجب أن يأخذ شارلمان لقب الامبراطور . وعلى أية حال ؛ فقد كان لهذا اثره الضئيل من حيث إثارة غضب الامبراطور الرومانى القديم أو حاكم القسطنطينية ، وكان المقصود بهذا أن يكون مركز شارلمان، كزعيم العالم المسيحى ، مقدسا وربما كان التتويج الامبراطورى لشارلمان سيحدث لو لم يسبق البابا الملك الفرنجى ومستشاريه فى يوم عيد الميلاد سنة ٨٠٠ . ومن المؤكد ان شارلمان لم يكن ليسمح للبابا أن يقوم بتتويجه ، بل كان احتفال التتويج الذى يفضله هو ذلك الذى تم سنة ٨١٣ حين قام هو بنفسه بتتويج ابنه ووريثه - لويس - امبراطورا ، وبما انه قد توج على يد البابا ، فقد اختار شارلمان ان يفسر لقبه الامبراطورى بالطريقة التى حددها ألكوين . فقد رفض اعتبار نفسه امبراطور الرومان وتجاهل الحقوق التى يضمنها تتويجه بواسطة البابا ، واستمر يسمى نفسه ملك الفرنجة واللمبارديين : واعتبر اللقب بمثابة تعبير عن مكانته كبطل مسيحى عسكرى وملك ثيوقراطى ، وزعيم للكنيسة الفرنجية .

ولعبت الفكرة الامبراطورية دورا أكثر أهمية فى سياسة ابن شارلمان وحفيده ، لويس التقى، وشارل الأصلع ، كما اصبحت مفهوما تأثرت صياغته كثيرا بالايديولوجية الأصلية وابتعد رجال الكنيسة الكارولنجية فى القرن التاسع عن امبراطورية شارلمان المسيحية واتجهوا نحو السلفية السياسية Political antiquarianism الهادفة الى الاحياء الكامل للأفكار الرومانية الامبراطورية عن طريق تقليد احتفالات البلاط المزخرفة المزينة التى يستخدمها الأباطرة البيزنطيون ، واستخدام اللقب الكامل : امبراطور الرومان . وفى سنة ٨١٦ حدث بالفعل أن سمح لويس التقى للبابا أن يتوجه بهذا اللقب . وحتى القرن التاسع كان تأكيد الحكام الكارولنجيين ومؤيديهم من رجال الكنيسة على اللقب الامبراطورى وربط الحاكم

الكارولنجى بالأباطرة الرومان هو الدعامة التى يستندون اليها فى مواجهة تدهور السلطة الملكية المطرد بعد موت شارلمان ، ذلك أن الأيديولوجية صارت بديلا عن شهرته كقائد عسكرى جرمانى ، ولكن الايديولوجية لم تستطع أن تفعل شيئا حيال مد المحلية المرتفع ، ونمو السيادة الاقطاعية . لقد دبج أساقفة القرن التاسع الرسائل حول أبحاث الامبراطورية والملكية كما زخرف الأباطرة الكارولنجيون احتفالات بلاطهم ؛ ولكنهم لم يكونوا قادرين على الاحتفاظ بزعامة حقيقية فعالة فى مملكتهم .

وعلى المدى الطويل ، لم تربح البابوية أكثر مما ربحه الكارولنجيون من إحياء اللقب الامبراطورى فى الغرب وتقبل الكارولنجين للايديولوجية الرومانية . وفى منتصف القرن التاسع اكد البابا نيوكولاس الأول Nicholas I المذهب الراديكالى لهبة قسطنطين بشكل عدوانى ، وبرع البابوات فى استخدام سيطرتهم على اللقب الامبراطورى لمضايقة الكارولنجيين المتأخرين ، ولكن ذلك لم ينقذ البابوية من الكارثة التى ألمت بها فى نهاية القرن التاسع ، ذلك أن البابوات كانوا فى حاجة لحاكم كارولنجى يحميهم من لصوصية طبقة النبلاء الرومان . ومع ذبول القوة الكارولنجية دخلت البابوية واحدة من أظلم فتراتها فى أواخر القرن التاسع والنصف الأول من القرن العاشر ؛ حين صارت دمية فى أيدى النبلاء الحاكمين ، وفقدت مكانتها كزعيمة للعالم الأوربى تماما .

وإذا كان تاريخ امبراطورية القرن التاسع هو تاريخ الفشل فى كل الاتجاهات فلا يجب أن نعمى أبصارنا عن حقيقة أن عنصرا جديدا ظهر فى الحياة السياسية فى أوربا الغربية . وفى الشطر الأخير من القرن العاشر اخذت الملكية الألمانية التى قامت على انقاض المملكة الكارولنجية الشرقية ، اللقب الامبراطورى لنفسها ، وكان على الملوك الألمان حتى منتصف القرن الثالث عشر أن يجعلوا اللقب الامبراطورى جزءا هاما للغاية من سياستهم ، وكان على خلفائهم أن يحتفظوا باللقب حتى سنة ١٨٠٦ .

الفصل الثامن

الثقافة والمجتمع فى أوربا الأولى

١- العالم الكارولنجى

تتميز المصادر الأدبية والأدلة الوثائقية التى خلفتها لنا الفترة الكارولنجية بأنها أكثر بكثير منها فى أية فترة زمنية أخرى بعد القرن الرابع الميلادى . فبينما تعتمد معلوماتنا عن فرنسا القرن السادس ، بشكل أساسى ، على ما أمدنا به جريجورى التورى ، وبينما تتسم مصادر تاريخ الملكية الفرنجية الميروفنجية فى القرن السابع بكونها مجرد شذارت متناثرة إلى حد بعيد ؛ حفظت لنا الأيام مئات الصفحات من المدونات التاريخية ، والخطابات ، والوثائق الحكومية ، والمعاهدات التى تغطى الفترة فيما بين سنة ٧٥٠ وسنة ٩٠٠ بعد الميلاد . ويعتبر ارتقاء مستوى التعليم فى ظل الدولة الكارولنجية ، مؤشرا على تقدم الحضارة وآية على تخطى آثار الغزوات الجرمانية ، وحركة الفتوح الاسلامية ، كما يعتبر دليلا على ظهور ثقافة متمايزة ومجتمع متمايز فى غرب أوربا . ففى سنة ٤٠٠ بعد ميلاد المسيح لم تكن أوربا تعنى ماهو أكثر من تعبير جغرافى ، فقد كانت الحضارة الرومانية ترتكز على البحر المتوسط ، كما كانت فرنسا وانجلترا ، ووادى نهر الراين مجرد مناطق متاخمة للعالم الرومانى . أما فى سنة ٨٠٠ ، فكانت أوربا تعنى حضارة جديدة آخذة فى التواجد فى المنطقة المسيحية اللاتينية خلقها التفاعل بين التراث الجرمانى والثقافة المسيحية - اللاتينية ، وإذا ماقورنت أوربا ، آنذاك ببيزنطة أو بالعالم الاسلامى لبدت فقيرة ومتخلفة ؛ ولكنها كانت مع ذلك قد طورت أفكارا ونظما خاصة بها ، كما وجدت لنفسها قياداتها من بين صفوف أبنائها ، فضلا عن أنها باتت واعية ومدركة لوجودها ومصيرها فى المستقبل .

كانت أوربا الأولى تضم فرنسا وانجلترا وألمانيا الغربية وايرلندا ووسط وشمال إيطاليا إلى جانب الأقاليم الجبلية فى شمال أسبانيا ، ولم تكن المراكز الحيوية للحضارة واقعة على البحر المتوسط وإنما فى وديان الأنهار فى شمال فرنسا وأراضى الراين . أما ثقافة أوربا الأولى فقد توحدت تحت راية اللغة اللاتينية التى كان رجال الكنيسة ، والملوك وأبناء الطبقة الارستقراطية يستخدمونها جميعا . فقد كانت هى اللغة التى تستخدمها الحكومة الكنسية والحكومة العلمانية على حد سواء كما كانت هى اللسان الذى تتم به مناقشة جميع الأمور الثقافية والعقلية، وبها كان يتم تدوين مثل هذه الأمور . وفى جميع الأحوال كان الدراسون الكنسيون-

الذين كانوا كلهم تقريبا من نتاج المدارس الديرية المزدهرة فى شتى أنحاء العالم الكارولنجى - هم الذين يتولون القيام بالكتابة باللغة اللاتينية ؛ سواء كان ذلك لصالح الملكية أو لصالح الكنيسة أو لصالح الدوق (الحاكم المحلى). أما لغة الحياة اليومية التى كان عامة الناس ، بما فى ذلك غالبية النبلاء يستخدمونها ، فقد اختلفت من اقليم لاقليم . ففى انجلترا كانوا يتحدثون اللغة الأنجلو - سكسونية ، وقد صارت هذه اللغة لغة قومية فى القرنين الثامن والتاسع . وفى أيرلندا صار اللسان الكلتى هو لغة الناس ، على حين كانت المناطق الشمالية فى القارة تتكلم اللغة الالمانية ، أما الجنوب والغرب فقد انتشر فى ربوعهما خليط من اللهجات المشتقة من اللاتينية الدارجة ، وهى اللغة التى كانت عامة الناس يتحدثون بها فعلا فى رحاب الامبراطورية الرومانية من قبل . هذه اللهجات المشتقة من اللاتينية الدارجة كانت بمثابة البشائر التى خرجت منها اللغات الرومانسية ، وبحلول منتصف القرن التاسع كانت كل من اللغة الألمانية واللغة الفرنسية قد برزت كلغة قائمة بذاتها ، ففى عهد ستراسبورج Oath of Stasbourg سنة ٨٤٢ جاءت توقيعات ملوك الأجزاء الشرقية والغربية من الامبراطورية الكارولنجية باللهجات الفرنسية الألمانية المتعارف عليها آنذاك . وهكذا ، فإنه بحلول منتصف القرن التاسع كان هناك إنفصال بين اللغات الشعبية أو المحلية فى كل من الاجزاء الشرقية والأجزاء الغربية من الامبراطورية الكارولنجية ، وقد ساهم ظهور اللغة الفرنسية واللغة الألمانية فى تفكك وانحلال الامبراطورية الكارولنجية . بقدر ما كانت اللغة اللاتينية ، من ناحية أخرى ، عاملا فى توحيد مختلف أقاليم أوربا الأولى تحت راية ثقافة عليا مشتركة.

كانت الكنيسة فى سنة ٤٠٠ ميلادية تحت سيادة الامبراطورية الرومانى ، وما أن جاءت سنة ٨٠٠ حتى كانت الكنيسة قد تحررت من آخر قيود السيطرة البيزنطية ، بيد أن رجال الكنيسة كانوا خاضعين لنفوذ الحكام الكارولنجيين ، كما كانوا يضعون مصالحهم ومصالح الملكية الفرنجية فى سلة واحدة . ولم يكن الحكام الكارولنجيين يتدخلون فى شئون العقيدة ، ولكنهم اهتموا بتحسين نظام الكنيسة ، كما كانوا يهدفون إلى تسخير موارد الكنيسة العقلية، بل وحتى مواردها المالية ، فى خدمة الملكية . وقد اعترف الكارولنجيون بالنظرية البطرسية ، وبأكثر جوانب المذهب الجيلاسى محافظة ، كما انهم سلموا بأن الكنيسة ملك للأساقفة ، غير أنهم كانوا يعتقدون بأن الأساقفة ملك الكارولنجيين . وقد تعين على رجال الكنيسة فى المملكة الفرنجية أن يوافقوا على هذا الموقف من منظور يرى الحاكم الكارولنجى فى مكانة ملك باركته الكنيسة ، وامبراطور مسيحى ، فضلا عن كونه حاميا للكنيسة .

ويعتبر كبير الأساقفة هنكمار الريمسى Hincmar of Rheims (ت ٨٧٦) نموذجا نمطيا لكبار رجال الإكليروس فى القرن التاسع ، فقد كان صديقا ومستشارا وداعية لشارل الأصلع ، كما كان خبيرا فى الاحتفالات الحكومية واحتفالات البلاط ، وفى الوقت نفسه كان داعية ونصيرا نشطا لامتيازات أسقفيته ولامتيازات الوظيفة الأسقفية بصفة عامة ، وكانت التزامات رجال الاكليروس الكارولنجى ومصالحهم الدنيوية من ناحية ، ودعاوى ملوك القرنين الثامن والتاسع الروحية من ناحية أخرى ، هى العلامة الدالة على مدى تداخل كل من الكنيسة والعالم فى الآخر . وهو الأمر الذى قدر له أن يكون السمة المميزة لحضارة العصور الوسطى على مدى القرون الثلاثة التالية ، ففى أوربا الأولى كان قد بات واضحا بالفعل ذلك التوتر بين السلطة والروح ، وبين المثال والمادة ، وهو التوتر الذى صار أكبر قوة من قوى التغيير فى التاريخ الأوربى .

وفى سنة ٦٠٠ كانت الحياة الحضرية ماتزال على قدر من الأهمية ، ولكنها لم تكن ذات أهمية تذكر فى أوربا الأولى ، كانت المواصلات والاتصالات سيئة بدرجة يصعب تصديقها ؛ إذ باتت أسوأ بكثير مما كانت عليه زمن الامبراطورية الرومانية . فثمانون بالمائة ، على الأقل، من جمهرة السكان لم يكونوا يتحركون أبدا مسافة تزيد عن عشرة أميال من مواطنهم الأصلية، كما كان خطر المجاعة شبحا يتهدد الناس بشكل دائم ، والعنف هو الحقيقة التى تفرض نفسها على الحياة اليومية ، ولم يكن متوسط عمر الفرد ليزيد عن ثلاثين سنة . أما فى مجال العلوم فكانت معلومات الناس فى الأراضى الكارولنجية ضئيلة للغاية ، على حين كانت معلوماتهم شبه منعدمة فى مجال الطب . وفى ظل هذه الظروف لم يكن من المثير للدهشة أن تتفشى الخرافة بين الناس ، وأن تكون القوى الاعجازية المنسوبة إلى القديسين المحليين هى الملاذ الوحيد أمام بلايا الطبيعة والأمراض . وكان رجال الدين المتعلمون يناضلون ضد الخرافة، كما كانوا يحاولون الحد من الظهور المتوالى والمستمر للقديسين المحليين ، وذلك بطلب وضع القوانين المنظمة للكنيسة ؛ بيد أن ذلك لم يأت سوى بنتائج محدودة .

كانت مراكز الحياة الكارولنجية هى القلعة ، والدير ، والكاتدرائية ، بل إن ما كان يسمى بالمدن فى المملكة الفرنجية مثل آخن Aachen عاصمة شارلمان ، أو مدينة ريمس Rheims الكاتدرائية ، كانت لا تتألف سوى من مبنى الحكومة تحيط به عدة منازل يضمها جميعا سور. وكانت ماتزال توجد بقية من المدن الرومانية الكبرى فى شمال إيطاليا ، مثل المدينة الخالدة (روما) نفسها ، غير أن كثيرا من الشوارع فى المدن الايطالية كانت مهجورة ولم يبق من

المنازل غير أطلالها . كذلك توقف نظام المياه ونظام الصرف الصحى الجيد الذى كان الرومان قد شادوه فى هذه المدن عن العمل ، بل إن المبانى الحكومية والعسكرية والكنسية فى العالم الكارولنجى كانت متواضعة للغاية ؛ فعادة ما كانت القلعة الكارولنجية عبارة عن مبنى خشبى، أما الكنائس وغيرها من المبانى المشيدة بالأحجار فكانت منخفضة واطئة ومبنية على غرار الحمامات الرومانية .

وفى سنة ٨٠٠ كانت الغابات الكثيفة أو الأراضى التى تملؤها المستنقعات والتى لاتصلح للزراعة تغطى نصف مساحة أوربا تقريبا ، وكانت طبوغرافية المناطق الزراعية وكذلك شكل الاقتصاد الريفى قد تحدد بتأثير المحراث الثقيل ذى العجلات والذى تجره الثيران ، وهو المحراث الذى كان مستخدما فى العالم الرومانى . وكان نتاج عمل يوم كامل للفلاح عبارة عن شريط طويل ضيق يشقه المحراث ، ومن ثم حدث أن غلبت على المناطق الريفية الحقول الكبيرة المفتوحة التى كانت تقسمها تلك الشرائط التى شقها المحراث الثقيل ، ولأن المخصبات والأسمدة لم تكن موجودة كان لابد أن يترك كل حقل دون زراعة كل سنتين أو كل ثلاث سنوات لراحته . ولم يكن جميع الفلاحين فى أوربا ؛ بل ولا حتى الغالبية الكبرى منهم ، أقنانا مربوطين بالأرض يخضعون لسيد الضيعة . وفى ألمانيا وشرق انجلترا على وجه الخصوص كانت قرى الفلاحين الأحرار الذين يشتركون فى ملكية الحقول المفتوحة ، ويتقاسمون الشرائط الحقلية،تمثل القاعدة فى الحياة الريفية . ففى هذه الأماكن ظل البناء الاجتماعى الجرمانى يتسم بوجود أعداد ضخمة من الفلاحين الأحرار فى ثناياه . وفى المملكة الفرنجية غرب الراين ، وكذلك فى الأراضى الزراعية الغنية فى وسط انجلترا ، كانت ضيعة العصور الوسطى manor هى بالفعل الوحدة الأساسية فى النظام الاقتصادى ، فقد كان السيد lord يحتفظ بجزء من الأرض الصالحة للزراعة فى القرية تحت تصرفه الخاص ، وكان تقسيم هذه الأراضى أيضا يأخذ شكل الشرائط الحقلية . أما الفلاحون - الأقنان فكانوا يحصلون على شرائط فى الحقول المفتوحة لقاء قيامهم بالعمل فى أرض السيد وكان أولئك الأقنان مربوطين بالأرض كما كانوا خاضعين لسلطة السيد وسلطانه القضائى ، فضلا عن التزامهم بأداء بعض الالتزامات تجاهه ، مثل ضريبة الوراثة التى كانت تعرف باسم heriot، وقدر للحقول المفتوحة المقسمة إلى شرائط أن تظل أساس النظام الاقتصادى فى شطر كبير من ريف أوربا حتى القرن الرابع عشر ، وكان هذا نظاما زراعيا عقيما لايساعد على التقدم كما كانت انتاجيته ضئيلة ، بيد أنه كان النظم الوحيد المتاح فى ظل ظروف التكنولوجيا المتيسرة آنذاك .

كانت الضيعة وحدة اقتصادية مكتفية ذاتيا ، وكان هذا ضروريا بالنظر إلى صعوبات النقل فى تلك الفترة ، ولم تكن التجارة العالمية تخدم غير مطالب الأثرياء ، وغالبا ما كانت هذه التجارة بأيدى التجار الأجانب من البيزنطيين واليهود والمسلمين . ولم تكن المجتمعات المحلية تحتاج إلى استخدام النقود تقريبا ، أما التبادل التجارى المحلى ، فكان يتم عن طريق المقايضة. فقد اقتربت أوربا الأولى جدا مما أطلق عليه كتاب القرن التاسع عشر مصطلح "الاقتصاد الطبيعى" إذ أن حجم التجارة العالمية البالغ الضآلة قد حال دون وجود الحاجة إلى سك العملات الذهبية ، واكتفى الكارولنجيون بسك العملات الفضية فقط ، وعادة لم تكن تبرز الحاجة إلى غير هذه العملات لأن الظروف كانت تتيح شراء بقرة بأصغر قطعة فضية ، وحين كانت تظهر الحاجة إلى استخدام العملات الذهبية كان الناس يستخدمون العملات البيزنطية والعملات الإسلامية .

كان الفقر والسمة المحلية التى غلبت على أوربا الأولى يجعلانها تبدو منطقة غير هامة إذا ماقيست بالامبراطورية الرومانية التى وجدت من قبل ، أو بحضارة كل من بيزنطة والاسلام المعاصرتين ، ولكن العالم الكارولنجى كان يتميز بأنه كان قد بدأ فى استخدام ملكة الفهم والاستنتاج فى حل مشكلات المجتمع . وبينما قد لاتبدو الانجازات فى هذا المجال كبيرة نسبيا ؛ فإن هذا التطور على قدر كبير من الأهمية فى حضارة العصور الوسطى . ذلك أنه يعتبر علامة على نقطة البداية والانطلاق صوب النمو السياسى والثقافى الذى شهدته القرون التالية . وفى المحل الأول ، كانت أعمال الكارولنجين قد حققت وجود طبقة متعلمة فى المجتمع الجرمانى كان عليها النهوض بأعباء العمل فى خدمة الكنيسة الملكية ، وكان قائد هذه الحركة التعليمية الكبرى هو ألكوين Alcuin الانجليزى (٨٠٤م) الذى كان شارلمان قد استقدمه من انجلترا لكى يطور المدارس الديرية ويحسنها فى رحاب مملكته ، ولكى يواصل العمل الذى كان بونيفاس Boniface قد بدأه . وقد أحرز ألكوين نجاحا رائعا فى إنجاز المهام التى عهد بها شارلمان إليه ، إذ أنه قام بتأسيس وتوسيع المدارس والمكتبات وحجرات النسخ Scriptoria فى الأديرة المنتشرة فى شتى أنحاء فرنسا ، كما أنه ألف الكتب المدرسية، وأعد قوائم الكلمات وجعل المجموعة الثلاثية trivium والمجموعة الرباعية quadrivium جزءا ثانيا من المنهج التعليمى فى المدارس الكارولنجية . ويمكن رصد أثر هذا العمل من خلال الزيادة الكبيرة فى المواد الأدبية والوثائقية التى خلفها لنا العصر الكارولنجى ، كما يمكن رصده من خلال النصوص الكلاسيكية التى كتبت مخطوطاتها بأيد كارولنجية . فضلا عن أنه يمكن رصد هذا الأثر من خلال انتشار طقوس الخدمة الكنسية الرومانية فى الكنائس الفرنسية،

وفى بعض الإسهامات الأصلية التى قدمها رجال الكنيسة أنفسهم فى هذا المجال ، ويمكن رصد أثر هذا العمل أيضا من خلال حقيقة أن أول مجموعات القوانين الكنسية الكبرى يرجع تاريخها الى منتصف القرن التاسع ؛ وذلك على الرغم من عدم منهجيتها وتضمنها للكثير من المراسيم المزورة .

كان العمل الذى قام به ألكوين فى مجال التعليم حاسما للقرنين التاسع والعاشر ، فلم تعد هناك على الاطلاق إمكانية لأن تواجه أوربا مخاطر البربرية والأمية ، أو احتمال اندثار الثقافة اللاتينية ، وهى المخاطر التى كانت قائمة فى القرن السابع . لقد أتم الكوين العمل الذى كان بونيفاس قد بدأه : وباتت المسيحية اللاتينية ترتبط بأوربا الغربية ليس على المستوى النظرى فحسب ؛ وإنما على مستوى الواقع أيضا . وثمة اختبار هام لمدى تغلغل المسيحية اللاتينية فى حياة العالم الكارولنجى يتمثل فى التأثير الذى أحدثه تحلل الامبراطورية وغزوات الفيكنج على التعليم . لقد كانت هناك بعض التأثيرات - مثل ذبول واضمحلال بعض المدارس الديرية نتيجة للأحوال المحلية المضطربة أو من جراء الهجمات الى قام بها المغيرون الفيكنج - ولكن المدارس الديرية استمرت فى أداء عملها بنجاح خلال الفترة الصعبة بشكل عام . وفى البقاع التى لم يتوغل فيها الفيكنج ، أى فى الجزء الشرقى من المملكة الألمانية ، ازدهرت المدارس بشكل مطرد وأخذت زمام القيادة من أديرة الأقاليم الغربية .

وفى إبان القرن التاسع ، وعلى حين يتوالى جيل بعد آخر من المدارس الديرية ، يمكننا أن نلاحظ أن ثمة تقدم ونمو ثابت فى مدى وعمق العملية التعليمية التى كانت تقوم بها هذه المدارس . لقد كان الكوين يناضل فى سبيل فرض نمط من التعليم الأساسى على الكنيسة الكارولنجية ، وما أن حل منتصف القرن التاسع حتى كانت هذه المشكلة قد تلاشت ، ومع وجود الخط الأول الذى كان قد تم تحقيقه فى الميدان الثقافى ، باتت المدارس الديرية قادرة على أن تمضى قدما صوب دراسات أكثر عمقا وشمولا . وكان الهدف الذى تسعى إليه هذه المدارس سعيا واعيا هو استعاده تراث أدب الآباء فى القرن الرابع ، والواضح أنه بمغيب شمس القرن التاسع كان هذا الهدف قد تحقق ، وقد وجدت مكاتب نسخ نشيطة وكبيرة فى اثنتى عشرة مدرسة ديرية أو أكثر ؛ فضلا عن تلك المكاتب التى وجدت فى الأديرة التى أسسها (أو على الأقل بثوا فى أوصالها النشاط من جديد) الرهبان الأنجلو سكسون أو الأيرلنديون فى القرن السابع والثامن . وهذه المكاتب حفظت نصوص الكتاب المقدس وجميع كتابات الآباء ، ونشرتها ، وقد تمت دراسة أوغسطين بصفة خاصة فى عناية . ويمكن الوقوف على مدى الجهد الثقافى

الذى كرسه علماء القرن التاسع لدراسة الكتاب المقدس من خلال المخطوطات المصورة الرائعة التى أنتجوها . ويبدو تأثير فن تزيين الأيقونات Iconography البيزنطى واضحا فى الرسوم التوضيحية الكارولنجية التى ألحقت بهذه المخطوطات ، بيد أن نمطها الفنى يتميز بقدر أكبر من النزعة الطبيعية الكلاسيكية ، وقدر أقل من النزعة الرمزية غير التجسيدية التى تتميز بها النماذج البيزنطية .

وقد اتصلت التيارات الثقافية الصغيرة ، ذات الاتجاه الانسانى ، والتى كانت تطفو على سطح النشاط الثقافى فى المدارس الديرية ، بما كان فى البداية يعتبر مجرى مختلفا تماما من مجريات الثقافة فى العصر الكارولنجى . إذ أن شارلمان جمع حوله فى "مدرسة القصر"(١) مجموعة من العلماء المرموقين بينهم عدد من الايطاليين ، وكان ألكوين ينضم الى هذه المجموعة أحيانا . وقد كرس هؤلاء أنفسهم لتنظيم وترتيب كراسات من الشعر اللاتينى فضلا عن قيامهم ببعض ألعاب البلاط بالمشاركة مع الامبراطور . وفى عهدى لويس التقى وشارل الأصلع كانت هناك مجموعات بلاط مشابهة . وثمة ملاحظة تدل على النزعة السلفية الواعية والتقليدية التى تسرى فى أعمال هذه المجموعات ، وأطلق على هذه الحركة اسم حركة الإحياء الكارولنجى Carolingian Renaissance كما بولغ فى أهميتها كثيرا . فقد كان علماء البلاط عبارة عن مجموعة صغيرة من الرجال المتعلمين (على الرغم من اقتباسهم للنصوص الكلاسيكية، كان بهم هوى إلى الاعتماد على المجموعات والمختارات الأدبية Anthologies) الذين أضفوا مسحة ثقافية رومانية على البلاط الكارولنجى ، وفى المقابل نالوا مكافآت سخية . ومن الصعب أن نخرج من أعمالهم بما هو أكثر من ذلك ، كما أننا لايمكن أن نربطهم بعلماء القرن الثانى عشر أو علماء القرن الخامس عشر . لأنهم كما يقول كل من فيتختناو H. Fitchtenau، وبولجار R.R. Bolgar كانوا على قدر كبير من الجهل بحاجات البشرية ، ولم يسخروا تعليمهم فى حل مشكلات المجتمع ، وإنما استخدموه فقط ليزينوا البلاط الملكى ويضيفوا إليه واجهة من العظمة القديمة . ولم يكن بين علماء البلاط الكارولنجى سوى مفكر واحد يتمتع بقدر من الأصالة هو حنا سكوت John the scot ، وهو ايرلندى كان يعمل فى بلاط شارل الأصلع . إذ أن حنا سكوت هذا ترجم الفلسفة الأفلاطونية الجديدة ، التى تنسب إلى الراهب السورى الذى كتب فى القرن الخامس تحت اسم ديونيسيوس Dionysius ، كما

---

(١) عن هذه المجموعة ودور شارلمان أنظر :

Philippe Wolff. the awakening of Europe, The pelican history of European thought I.pp. 36 - 53.

أضاف من لدنه بعض التأملات الأفلاطونية الجديدة ، بيد أن حنا سكوت لم يكن رائد حركة فلسفية ، لأن أحدا لم يتابع ما بدأه من عمل ، كما أن نصيبه من الأهمية فى تاريخ الفكر الأوربى محدود . أما تأثير ألكوين على التطور الثقافى فى العصور الوسطى فكان نتيجة لجهوده التى بذلها فى ميدان التعليم وبتأثير فكرته عن الامبراطور المسيحية ، على حين تبدو أشعاره الرتيبة المملة التى نظمها كعضو فى مدرسة القصر ذات أهمية ضئيلة ، وربما لاتكون لها أهمية على الاطلاق .

ومع أن أكثر العلماء الكارولنجيين حظا من التعليم لم يحاولوا علاج مشكلات المجتمع ، وإنما كرسوا أنفسهم للتدريبات التعليمية العقيمة ، فإننا يمكن أن نشهد فى الفترة الكارولنجية بشائر تسخير ملكة الفهم والعقلانية فى علاج المشكلات الاجتماعية . إذ أن شارلمان ومستشاريه الكنسيين لم يكونوا راضين بالاعتماد على تراث الجرمان السياسى ، وإنما انطلقوا انطلاقة واعية صوب تحسين النواحى التنظيمية والفنية فى نظام الحكم . وبعد ثلاثة قرون من الفوضى والارتجال أفرز العالم الكارولنجى نماذج تدل على التخطيط والإبداع بشكل يناقض ماكان سائدا فى قرون الفوضى . وتقوم المخطوطات التى ترجع للعصر الكارولنجى دليلا على هذا ، ذلك أنه بينما تكاد تستحيل قراءة الخط الميروفنجى فإن أى فرد يعرف اللاتينية يمكنه قراءة الوثائق الكارولنجية بعد ساعتين فقط من التدريب والتوجيه ، ولأن المخطوط الكارولنجى معقول للغاية وواضح فقد أقبل عليها ناشرو الكتب الأوائل فى القرن الخامس عشر ، وترتب على هذا أن صارت المخطوطات الكارولنجية محل استخدام واسع النطاق الآن ، بل إن المخطوط الكارولنجى قطع شوطا أبعد من المخطوط الرومانى الذى لم يكن يستخدم سوى الحروف الكبيرة ، إذ اخترع الناسخون الكارولنجيون الحروف الصغيرة .

ويمكن الكشف عن ملكة العقلانية والاستنتاج ذاتها فى طيات النظم النقدية والنظم القانونية الكارولنجية . فبعد ثلاثة قرون من الفوضى النقدية أسست الحكومة الكارولنجية عملة جديدة يمكن الاعتماد عليه وتقوم على أبسط المبادىء . فقد أمر الكارولنجيون دور سك العملة باتخاذ رطل من الفضة وتقسيمه الى ٢٤٠ قطعة ، تمثل كل منها قطعة من العملة الكارولنجية وأطلقوا على هذا النوع من العملة اسم الدينار denarius ، وهو اسم إحدى وحدات النظام النقدى الذى كان قسطنطين قد وضعه . وأثبتت العملة الكارولنجية صلاحيتها بشكل جعل الانجليز يقلدون هذا النظام الذى مايزالون يحتفظون به كأساس لنظامهم النقدى . وثمة عنصر عقلانى آخر يدخل فى طيات التأثير الكارولنجى على تطور القانون الجرمانى. فقد ابتكرت المحاكم الكارولنجية نظام التحرى والتحقيق كوسيلة للخلاص من قصور الوسائل

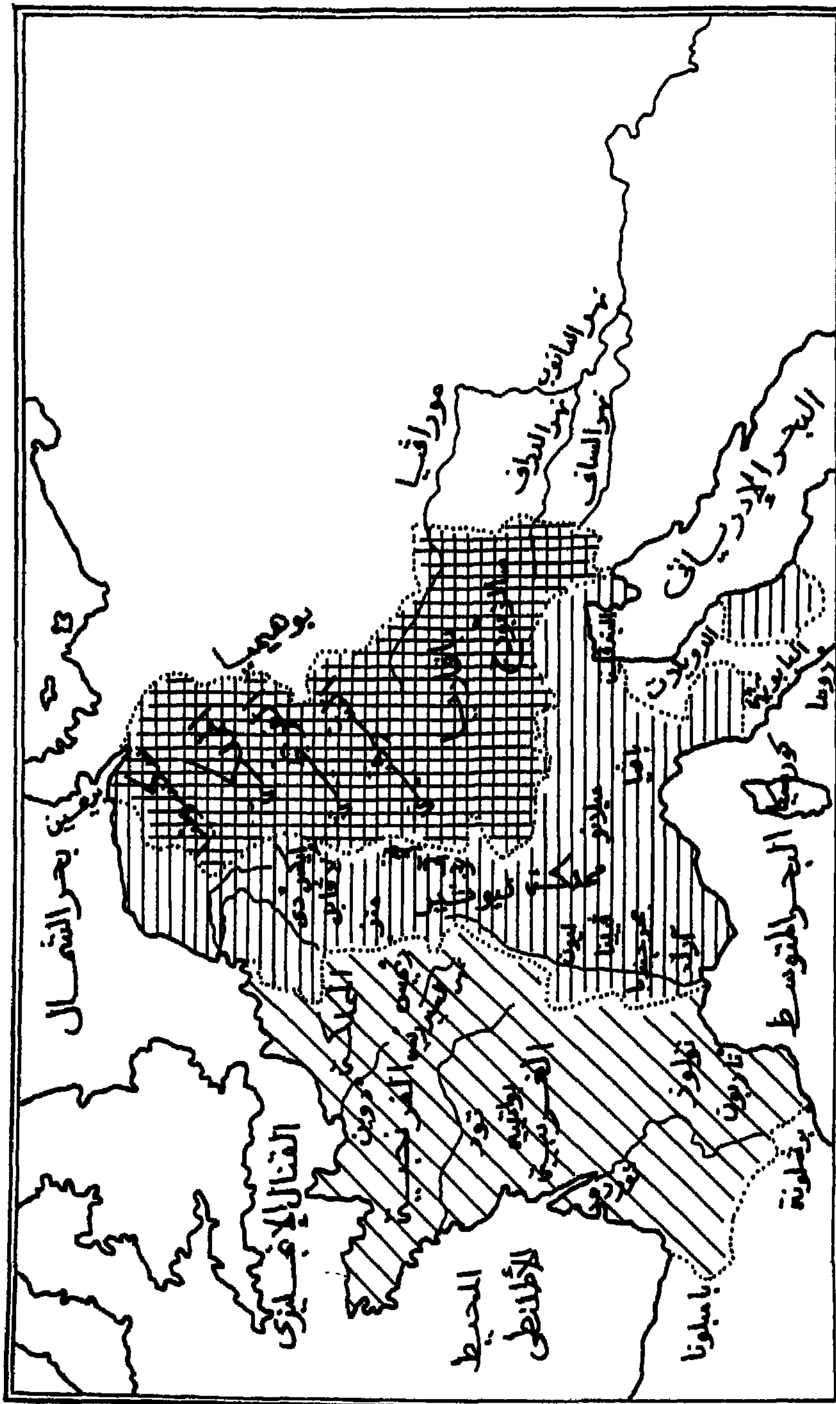
الجرمانية فى التحرى ، والنظام الكارولنجى للتحرى والتحقيق يقوم من خلاله مجموعة من الرجال ذوى المكانة من سكان المناطق القريبة بابداء الرأى فى المنازعات التى تنشب حولة ملكية الأرض . وقد ظل نظام التحرى قائما فى القرنين العاشر والحادى عشر فى نورمانديا حيث انتقل إلى انجلترا فى الشطر الأخير من القرن الحادى عشر على يد "وليم الفاتح" ، وهناك تطور إلى شكل نظام المحلفين فى القانون الانجليزى العام .

ويكشف نظام الحكم الكارولنجى من عدة جوانب عن استخدام ملكة الفهم والاستنتاج والأسلوب العقلانى فى حل مشكلات الملكية الجرمانية ، فشارلمان على نحو خاص لم يكن قانعا بمكانته ، سواء بوصفه سيدا وقائدا عسكريا أو بوصفه ملكاً ثيوقراطيا ، وبذل جهداً فى سبيل تأسيس إدارة فعالة ، كما أنه كان يمتلك أفضل جهاز بيروقراطى منذ ثيودوريك الأوستروقوطى . وكانت الخطوة الأولى فى سبيل إصلاح نظام الحكم الكارولنجى تتضمن تأسيس مجلس قضائى إدارى ملكى يتألف من العلماء الديريين ويهتم بإصدار الوثائق المتعلقة بمختلف نواحى الحياة المدنية والمجتمع الكنسى والتى كان الملك مهتما بها . وقد اتخذت الوثائق الكارولنجية شكل المنشورات الدورية التى يعالج كل منها على حدة مختلف مشكلات الحكم . وهذه المنشورات تذكرنا بالمراسيم الامبراطورية الرومانية ، إذ كان المنشور الدورى المتعلق بالكنيسة يأمر رجال الاكليروس بإنجاز المهام والالتزامات التعليمية وأن يرتقوا إلى مستوى النظام المطلوب منهم ، على حين يخاطب منشور آخر المشرفين على الضياع الملكية موجها إياهم إلى تحمل مسئولية إدارة الضياع ، وكانت هذه ضرورة بالنظر إلى الحقيقة القائلة بأن الأراضى المملوكة للملك الكارولنجى كانت تمثل مصدر دخله الرئيسى . وثمة منشور دورى آخر يطبق الأسلوب العقلانى فى حل مشكلة تكوين الجيش ، فقد كان النظام العسكرى فى الامبراطورية الفرنجية مايزال قائما على أساس مبدأ الشعب تحت السلاح folk - in - arns؛ وحين كان الملك ، بوصفه قائدا حربيا ، يدعوهم كان المفروض أن يلتحق كل الرجال القادرين جسديا بالجيش الملكى . وقد أدرك شارلمان ووزراؤه مدى مافى هذا النظام من اهدار للجهد ومدى ما يشوبه من قصور . ومن ثم وزع الملك منشورا دوريا يسمح للقرويين بأن يتحدوا سويا فى جماعات تقدم كل منها فارسا واحدا ، ولاشك أن هذا الفارس كان أكثر جدوى من الجماعات الغوغائية التى كانت تتألف من الفلاحين المسلحين بالعصى والمساحى .

وربما كانت أهم مراسيم شارلمان قاطبة هى التى تعالج مشكلات الحكم المحلى ، فحين كان الملك ومعه المجلس القضائى الإدارى ، والبلاط والجيش ، يحل بأية منطقة لم تكن تظهر أية

مشكلة تتعلق بولاء سكانها لها ، ولكن نظرا لسوء الاتصالات والمواصلات ، ونظرا لطبيعة العلاقات الاجتماعية المجزأة ، كانت المشكلة تتمثل فى كيفية الحفاظ على النفوذ الملكى فى المناطق الواقعة خارج نطاق التأثير الممكن لشخصية الملك . كيف كان يمكن إخضاع الدوق (الموظف العسكرى المحلى) والكونت (ممثل الملك المحلى فى شئون القانون والمالية) للسيطرة فى المناطق البعيدة عن نطاق التأثير المباشر للبلاط الملكى ؟ هذا هو السؤال الذى أربك الميروفنجيين ، وكان عجزهم عن حله من أكبر أسباب انهيار السلطة الملكية فى القرنين السادس والسابع . وقد استمرت هذه المشكلة عقبة كأداء فى طريق الكارولنجيين ، والواقع أنه يمكن القول بأن هذه المشكلة كانت أكثر المشاكل ألتى واجهتها ملكية العصور الوسطى صعوبة واستمرارية . وتمثل الحل الكارولنجى فى إرسال ممثلين من البلاد ، أو مبعوثين missi، فى رحلات دورية للتفتيش فى الأقاليم على أمل مواصلة السيطرة على الموظفين الملكيين ومنع اندماجهم فى الارستقراطية الاقليمية .

كان نظام المبعوثين missi ابتكارا ذكيا ومقنعا إلى درجة كبيرة فى مجال نظام الحكم عند الكارولنجيين ، كما كان برهانا على المهارة الادارية التى كان يتمتع بها رجال الكنيسة الذين خدموا شارل الكبير (شارلمان) من أمثال ألكوين واينهارد . ولكن فى آخريات سنوات شارلمان كان على الحكومة المركزية أن تواجه مشكلة الحد من نمو طبقة ارستقراطية جديدة فى الأقاليم ، إذ كان من الممكن إرسال النبلاء خارج البلاط الملكى للعمل فى وظائف دوق أو كونت ، وكان اختيارهم يتم بعناية من بين الرجال المخلصين ، بيد أنهم كانوا بمجرد وصولهم إلى إقليم بعيد مثل اكويتانيا أو غيرها ، يتجهون إلى ترسيخ جذورهم فى المجتمع المحلى . كما يحولون ألقابهم والضياع الملكية المرتبطة بالألقاب إلى أملاك وراثية ، وبعد موت شارلمان زاد معدل التفسخ والتحلل السياسى بهذه الطريقة . ولم يكن بوسع المبعوث الملكى missi أو أى مبعوث آخر ، أن يجابه العوامل الجديدة التى فرضت نفسها وسببت تدهور السلطة الكارولنجية فى القرن التاسع . لقد كان الابن الشرعى الباقى من أبناء شارلمان هو خليفته لويس التقى (٨١٤-٨٤٠) ، الذى كان رجلا ذكيا حسن الطوية ، ولكنه لم يكن قط قادرا على زعامة المجتمع الجرمانى ، فلم يكن يصلح كجندى على الاطلاق ، وقد أفقده هذا احترام النبلاء العلمانيين الذين كانوا يشعرون بأنهم أحرار فى أن يفعلوا ما يشاءون وأن ينطلقوا فى سبيل زيادة موروثاتهم . وازداد الموقف سوءا بفعل الصراعات المريرة التى نشبت بين أبناء لويس التقى فى سبيل الفوز باللقب الملكى ، الذى كان قد تدهور بالفعل قبل موت لويس . وكان ذلك فى جوانب عديدة منه ، تكرارا لأسوأ لحظات تاريخ الملكية الفرنجية . وأخيرا ، وفى سنة ٨٤٣ قرر أبناء لويس الثلاثة تقسيم الامبراطورية بمقتضى معاهدة فيردن Verdun. وكان هذا



الإمبراطورية الكارولنجية
(بعد معاهدة فردن ٨٤٣ ميلادية)

يعنى قيام ثلاث ممالك كارولنجية ، المملكة الغربية والمملكة الشرقية ، ومملكة ثالثة فى الوسط كانت تمتد حوالى ألف ميل فى الأراضى الواطئة ، بطول الراين ، وعبر جبال الألب لكى تضم شمال ايطاليا . وكادت المملكة الوسطى أن تنهار فى الحال ، تاركة وراءها بقايا من الامارات الهزيلة فى المنطقة الممتدة ما بين الفلاندر ولمبارديا ، أما بقايا المملكة الوسطى على طول نهر الراين فكان مقدرا لها أن تدخل فى نطاق الامبراطورى الألمانية فى القرنين العاشر والحادى عشر ، وكان غزو هذه الأجزاء هدفا من أهداف الملكية الفرنسية القوية التى قامت فى القرن الثالث عشر . ومنذ ذلك الحين ظلت هذه المنطقة سببا فى الحروب التى استمرت بين ألمانيا وفرنسا حتى القرن العشرين .

ولم ينتهِ الخط الكارولنجى فى ألمانيا حتى سنة ٩١١ ، على حين استمر الكارولنجيون فى حكم فرنسا حتى سنة ٩٨٧ ، بيد أن الملك الكارولنجى ، منذ الربع الأخير من القرن التاسع ، لم يكن أكثر من مجرد نكرة لايحسب أحد حسابه . لقد كانت السلطة فى المانيا بأيدى رؤساء القبائل الذين تدعم مركزهم بفضل الكارولنجيين الذين منحوا كلا منهم لقب دوق ، أما فى فرنسا فقد اغتصب الدوقات والكونتات سلطة الحكومة المركزية ، وظل هؤلاء قادة للمجتمع الفرنسى حتى منتصف القرن الثانى عشر .

كان الموقف فى المملكة الكارولنجية الغربية قد تدهور بفعل غارات الفيكنج الذين توغلوا حتى وادى نهر اللوار ووادى نهر السين بقصد السلب والنهب . وكان الهجوم الاسكندنافى على أوربا الغربية قد نشأ عن الصراعات الغامضة التى دارت فى الدانمرك والنرويج بين الجماعات السكانية والتى نتج عنها طرد الجماعات العسكرية المهزومة إلى خارج اسكنديناوة . هذه الجماعات المهزومة لاذ بعضها بالفرار داخل الأراضى الروسية ، على حين لجأ البعض الآخر إلى قواربهم الطويلة لكى يشنوا بواسطتها غارات النهب فى وديان الأنهار فى أوربا الغربية ، وقد عبر بعضهم مضيق جبل طارق وهاجموا بعض موانىء إيطاليا . ولكن الأماكن التى شعرت بثقل وطأة الفيكنج كانت هى شمال فرنسا والجزر البريطانية ، ولم يكن لدى الاسكندنافيين شىء يمكنهم أن يشاركوا به فى صنع حضارة أوربا الغربية ، فلم يكن مستواهم الثقافى والحضارى ليزيد عن مستوى أكثر القبائل بدائية بين الجرمان بنى جلدتهم الذين غزوا أوربا فى القرنين الخامس والسادس . وكانت الوحدة الأساسية فى المجتمع الاسكندنافى نوعا من عصبة الحرب التى ورد ذكرها فى ملحمة بيوفولف Beowulf وكان رئيس عصبة الحرب الذى يمنح الهبات والعطايا هو وحده القادر على كسب أولئك المحاربين المتوحشين ، ولم يكن الملوك

الدانمركيـون والسـويديون يتـمتـعـون سـوى بقـدر ضـئيـل من السلطة والنفـوذ . والحقـيـقـة أن الاسكندنافـيين كان بهم هوى إلى إغراق مـلوكهم فى الآبار ، ولم تنتـشر المسيحية اللاتينية بين الشـماليين (الفـيكنج) حتى القرن العـاشر ، وإنما كـانوا حتى ذلك الحين وثنيين مـغرمين بنهب الأديرة الكبرى التى اكتشفوا بسرعة مدى ثرائها الفاحش .

وكان الملوك الكارولنجيين الأواخر عاجزين تماما عن مواجهة أولئك الغزاة الجدد . فإن أحفاد شارلمان هؤلاء كانوا أتقيـاء وعقـلانيين للغـاية ، ولكنهم جمـيعـا كـانوا جبنـاء . وفى جمـيع الأحوال، لم يحاول أحدهم أن يشتبك مع الفيكنج ولو فى معركة واحدة ، وإنما كانوا يقدمـون الرشاوى للغزاة الذين لم يكونوا يقنعون بها سوى لفتـرة قصيرة . أما الاسكندنافيـون الذين هاجموا فرنسا فى القرن التاسع فكانوا قلة محدودة العدد ، ولم يكن توغلهم ليشكل حدثا فاجعا إذا ماقورن بالغزوات الجرمانية ، إلا أن هجماتهم زرعت الرعب والفوضى التى أدت بدورها إلى تشـجيع الناس على البـحث عن أقـوى سيـد فى المناطق المجاورة لكى يسـتظلوا بحمايته فى مقابل ما يقدمونه من خدمات وولاء . وقد أكدت الغزوات الاسكندنافية من جديد الأمر الذى كان واضحا منذ ثلاثينيات القرن التاسع - أعنى حقيقة أن الكارولنجيين لم يعودوا محاربين عظماء ، وأن الارستقراطية الاقليمية لم تعد بحاجة إلى أن تشغل نفسها بعد ذلك بالامتثال لما تحمله المنشورات الملكية الدورية .

أما رجال الكنيسة الفرنسيون الذين شهدوا هذه الأحداث الكئيبة فقد انزعجوا وخابت آمالهم إلى أبعد الحدود . ويتسم أدب السنوات الخمس والسبعين الأخيرة من القرن التاسع بكونه أدبا تشاؤميا يحمل مرارة واضحة . ولم يكن هذا ناجما عن تصدع النظام الاجتماعى تصدعا كاملا ، وإنما أرجح أن السبب فى ذلك هو أن العالم الذى شهد الأساقفة تباشير وجوده كان يختلف اختلافا بينا عن العالم الذى تصوره مثلهم العليا . لقد كانوا يحلمون بالوحدة السياسية التى تضم أوربا المسيحية تحت راية الامبراطورية الكارولنجية التى يقودها ملك مقدس صالح - وفقا لتعاليم أوغسطين - ينشر السلام والعدالة فى الأرض بمشورة زعماء الكنيسة . هذا الحلم تبدد ، وكانت الامبراطورية قد قسمت ، وانتقلت السلطة الحقيقية إلى أيدى أبناء الطبقة الارستقراطية ، وتضاءلت ، رويدا رويدا ، قدرة الملوك الكارولنجيين على الاحتفاظ بسيطرتهم على الحكومة والقضاء داخل ممتلكتهم ، كما عجزوا عن التصدى للغزاة المتوحشين من الأجانب الذين توغلوا فى المناطق الداخلية ونهبوا الكنائس دون أن ينالهم عقاب ما . وجاء القرن التاسع ليفيق رجال الكنيسة من أحلامهم ، فلجأوا إلى وسائل واجراءات

يائسة بفعل المرارة التى غصبت بها قلوبهم . وحاول بعضهم أن يكتسب للملكية مكانة جديدة وهيبة متجددة ، وذلك عن طريق زيادة خصالها المقدسة ، ومن خلال الجوانب الاحتفالية فى الملكية ، على حين تحول البعض الآخر ، وهم متأففون ، عن الملوك الكارولنجيين العاجزين ورموا بثقلهم إلى جانب البابوية ، وقاموا بنشر موجز شامل للقانون الكنسى ، يتضمن كثيرا من المراسيم المزورة التى نسبت إلى سان ايزيدور St. Isidore والتى تضع سلطة البابوية على الملوك وعلى كبار الأساقفة فى موضعها الذى يتفق ومحتوى هبة قسطنطين . وبطبيعة الحال لم يكن هذا الاجراء ليساعد رجال الكنيسة الفرنسية على ضوء نمو سيطرة النبلاء الرومان (فى إيطاليا) على البابوية .

وبعد سنة ٩٠٠ تلاشت النغمة اليائسة المريرة . فقد ربط رجال الكنيسة أنفسهم بالملكية الألمانية الجديدة التى قامت فى المنطقة التى كانت تتألف منها فيما مضى المملكة الكارولنجية الشرقية ، ووجدوا فى أسرة أوتو Otto خلفاء جديرين تماما بأن يخلفوا شارلمان ، وفى القرن العاشر تخلى الأساقفة ومقدمو الأديرة عن أحلامهم بقيام الامبراطورية ، وتوافقوا من النظام الاقطاعى الجديد .

٢- التنظيم الاقطاعى للمجتمع

كان المؤرخ القانونى الانجليزى الكبير ميتلاند F.W. Maitland معتادا على تسلية تلاميذه فى كمبردج بقوله بأن النظام الاقطاعى قدم إلى انجلترا فى القرن الثامن عشر ، وكان يعنى بهذا أن كلمة اقطاع Feudalism لم تكن اصطلاحا مستخدما فى العصور الوسطى . فقد ابتكرها رجال القانون الفرنسيون والانجليز فى القرنين السابع عشر والثامن عشر ، وغالبا ما كان هذا المصطلح يفسر بالنظام القديم ancien regime وبامتيازات الارستقراطية الفرنسية التى زادت من حنق البورجوازية الفرنسية . ومن ثم فإن اصطلاح اقطاع Feudalism قد استخدم فى القرن الثامن عشر بمعنى الازدراء والتحقير على الاطلاق ، واخذه كارل ماركس عن الراديكاليين الفرنسيين ، واستخدمه للدلالة على اقتصاد ما قبل الرأسمالية . وفى أواخر القرن التاسع عشر بدأ العلماء المتخصصون فى العصور الوسطى ، ولاسيما فى فرنسا وألمانيا ، يربطون بين المصطلح وبين أوربا الغربية فى العصور الوسطى ، محاولين استخلاص تاريخ هذا المصطلح . وفى ضوء الحقيقة القائلة بأن اصطلاح Feudalism لم يكن معروفا فى العصور الوسطى ، وأن الفلسفة الاجتماعية الحديثة اكسبته عدة معان ، فربما يكون من الحكمة للمؤرخين المشتغلين بالعصور الوسطى أن يتجنبوا استخدام هذا الاصطلاح ، وأن يستخدموا

بدلا منه كلمات شاعت فى العصور الوسطى مثل التبعية Vassalge والسيادة Lorship .
وعلى أية حال ، فإنه لم يكن بوسع المتخصصين فى العصور الوسطى أن يكونوا على هذا القدر من التحفظ فى هذه المسألة ، فقد كان عامة المتعلمين يطلبون منهم تعريفا مدرسيا للاقطاع ، وتقدم جمع كبير من المؤرخين الثقات بتفسيراتهم .

وقد طرحت الأبحاث العديدة التى تمت فى النصف الأول من القرن العشرين عدة تفسيرات متعارضة حول طبيعة الاقطاع ، فثمة مدرسة تعتبر الاقطاع بمثابة طائفة من المؤسسات السياسية والقانونية ، مثل نظام الحكومة اللامركزية ، "حيث تكون السلطات العامة فى أيادى خاصة" على حد تعبير ستراير J.R. Strayer الممتاز . وهو مايعنى أن الاقطاع ظهر فى النصف الثانى من القرن التاسع مع تفكك الامبراطورية الكارولنجية . وهذه المدرسة لاتعتقد بأن الاقطاع كان مرتبطا بالضرورة بأى نوع من الأنظمة الاقتصادية ، وهى تبرز أنه كانت ماتزال هناك نظم اقطاعية فى ظل النظام النقدى المتنامى فى القرن الثالث عشر ، وأنه بدلا من مكافأة الاتباع الاقطاعيين (الافصال Vassals) بمنحهم الضياع ، كان هؤلاء يتلقون اقطاعات نقدية fief - rentes أى معاشات . وهذا الرأى يفصل تماما بين الاقطاع Feudailsm وبين نظام الضيعة manorialism لأنه يوضح أن الاقطاع كان نظاما من العلاقات السياسية والقانونية القائمة بين رجال أحرار ، على حين كان نظام الضيعة نظاما زراعيا يشترك فيه الفلاحون الأتباع . وتميل براهين التفسير السياسى – القانونى للاقطاع ، أو التفسير الصارم كما يمكن تسميته ، إلى الشك فى إمكانية استخدام الاصطلاح فى مجال آخر غير مجال التاريخ الأوربى ، فالاقطاع Feudalism هو نمط محدد من نظم الحكم اللامركزية التى سادت أوربا منذ القرن التاسع حتى القرن الثالث عشر . وأبرز العلماء الذين تبنوا هذا التفسير هم هينريخ ميتيس Heinrich Mitteis فى ألمانيا وجانشوف F.L. Ganshof فى بلجيكا ، وستنتون F.M. Stenton فى انجلترا وهاسكينز C.H.Haskins ، وسترايز J.R. Strayer وبرايس ليون Bryce Lyon فى الولايات المتحدة الأمريكية .

أما التفسير البديل الشائع للاقطاع فإنه يرجع إلى حد كبير إلى أبحاث مارك بلوك Marc Block وتلاميذه فى فرنسا ، وقد طرح هذا التفسير فى الدراسة القيمة التى قام بها بلوك تحت عنوان "دراسة اقطاعية " فى سنة ١٩٤٠ . وباعتباره مؤرخا اقتصاديا واجتماعيا ، لم يكن مارك بلوك مستعدا لأن يحدد الاقطاع فى ضوء المصطلحات السياسية والقانونية الخالصة وإنما نظر إليه على اعتبار أنه نظام شامل تتركز فيه كل جوانب الحياة – لا السياسية

منها فقط ، بل والاقتصادية والكنسية والثقافية أيضا - فى مفهوم السيادة Lordship . لقد كان الاقطاع نظاما سياسيا ، ونظاما له قيمه ومثله العليا ، ففى مقدورنا أن نتحدث عن الاقتصاد الاقطاعى ، والكنيسة المتأثرة بالاقطاع ، والأدب الاقطاعى ، بالطريقة ذاتها التى نستخدم بها مصطلح "الرأسمالية " لكى نشير ، لا إلى نمط معين من الانتاج والتبادل فحسب بل أيضا إلى نظام الحكم ، والفكر ، والروح Spirit . ويقترب تفسير بلوك الواسع للاقطاع من الرؤية الماركسية ، ولكنه يختلف عنها أساسا من حيث أن مايحدد طبيعة الاقطاع ليس هو النظام الاقتصادى ، وإنما هو عدد معين من العوامل من بينها نظام الضيعة . وأولئك الذين يأخذون بهذا التحديد الواسع للاقطاع يميلون إلى اعتباره مرحلة من مراحل التطور الاجتماعى وجدت فى أزمنة مختلفة فى أماكن أخرى غير أوربا مثل اليابان ، والدولة البيزنطية ، وروسيا.

أما وقد رسمنا صورة للأبحاث المكثفة التى تمت فى النصف الماضى من هذا القرن ، واعتمدنا على كل من المدرستين فى التفسير - بيد أننا نميل أكثر إلى رأى بلوك - فإننا يمكن أن نعرف السيادة بأنها عنصر لاغنى عنه فى الاقطاع ، وأن نحاول وضع تعريف من لدنا . فالاقطاع شكل من أشكال التنظيم الاجتماعى حيث تكون غالبية السلطات السياسية والاقتصادية ، أو جزء كبير منها على الأقل ، بأيدى النبلاء الذين يتوارثونها جيلا بعد جيل ، وتقوم قوة النبلاء الاقتصادية فى أساسها على سيادتهم على الضياع الكبيرة ، وسيادتهم على فئة الفلاحين التابعين . أما القوة السياسية والعسكرية للنبلاء فإنهاترتكز على أساس سيطرتهم على الجنود من الرجال الأحرار وسيطرتهم على الضياع الكبيرة ، وسيطرتهم على المؤسسات الحكومية والقضائية اللامركزية . وهذا هو شكل التنظيم الاجتماعى الذى كان يميز فرنسا منذ القرن التاسع حتى أواخر القرن الثانى عشر ، ولم يظهر هذا التنظيم الاجتماعى فى انجلترا قبل أواخر القرن الحادى عشر ، كما أنه لم يظهر فى ألمانيا حتى سنة ١١٠٠ تقريبا ، فضلا عن أنه لم يظهر فى إيطاليا على الاطلاق . وليس معنى هذا أن المناطق غير الاقطاعية فى أوربا الغربية لم تعرف السادة Lords على الاطلاق ، ولكن هؤلاء لم يستحوذوا على السلطات السياسية والاقتصادية بشكل يكاد يكون مطلقا . كما أن التعريف لايعنى أن طبقة النبلاء الوراثية قد فقدت أهميتها فى أوربا بعد سنة ١٢٠٠ بل على العكس، ظل النبلاء يحتفظون بأهميتهم فى الحياة السياسية والاقتصادية والعسكرية ، وفى القرنين الرابع عشر والخامس عشر كان كبار الارستقراطيين يتمتعون بنفوذ سياسى هائل فى شتى أنحاء أوربا ، ولكن قوة النبلاء لم تعد ترتكز فى أساسها على سيادتهم على الأقنان serfs والضياع

الاقطاعية ، وهيمنتهم على المؤسسات الحكومية والقضائية اللامركزية . وفى العصور الوسطى قام النظام الاقطاعى فى مناطق أخرى من العالم ، وهو أمر منطقى تماما ، ولكن لكى يظل هذا الفرض على فعاليته فإنه يجب أن يستند إلى دليل تطبيقى يؤكده مؤرخو هذه الحضارات الأخرى .

فكيف نشأ النظام الاقطاعى ، كما عرفناه ، فى فرنسا فى القرن العاشر ؟ هذا سؤال تصعب الاجابة عليه للغاية ، فمن الصعب أن نتتبع أصول ونمو النظم الاقطاعية بسبب تفرق الأدلة والبراهين وندرتها فى الفترة السابقة على القرن التاسع ، وكان هذا بدوره من نتائج الأمية التى كان يعيش تحت نيرها المجتمع الأوربى من ناحية ، ونتيجة لإجراءات السادة الاقطاعيين كانت غالبا تتم فى شكل تصرفات مؤقتة ، ولم تكن تصرفات دائمة وثابتة تشهد عليها الوثائق من ناحية أخرى .

وفى النظام الاقطاعى الكلاسيكى الذى شهدته فرنسا القرنين العاشر والحادى عشر يمكن أن تميز ثلاثة عناصر هى : أولها الشخصى وهو (السيادة والتبعية Lordship and Vass-salge) والثانى هو الواقعى أى عنصر الامتلاك (الإقطاع fief) والثالث هو لامركزية الحكم والقضاء . وإبان التطور الذى مر به الاقطاع حتى القرن العاشر ارتبط العنصران الأخيران بالسيادة والتبعية ، وفضلا عن ذلك أصبح الاقطاع يشكل نظاما من المثل والقيم الاجتماعية.

وقد أضاع مؤرخو القرن التاسع عشر قدرا كبيرا من الجهد ، وكما كبيرا من الأوراق فى مناقشة ما إذا كانت النظم الاقطاعية رومانية أم جرمانية فى "الأصل" . وقد يقول معظم العلماء اليوم أن هذه مشكلة قد حملت أكثر مما تحتمل على نحو سيء وأنها مشكلة مصطنعة فى أساسها ، لأن همزة الوصل التى تربط بين النظم الاقطاعية فى القرن العاشر قد تكونت من خلال أشكال سياسية وقانونية واقتصادية معينة ، جرمانية فى بعض الأحوال ورومانية فى أحوال أخرى وذلك استجابة لحاجة اجتماعية بعد انهيار الامبراطورية الرومانية فى الغرب .

كانت السيادة Lorsdhip هى النظام الاجتماعى والسياسى الأساسى فى المجتمع الجرمانى. فقد كان الكوميتاتوس Comitatus أو gefloge أى مجلس الحرب الجرمانى الذى وصفه تاكيتوس Tacitus وكما ورد فى ملحمة البيوولف ، يقوم على أساس ولاء المقاتلين لرئيسهم فى مقابل حماية الأخير لهم وكرمه معهم ، وكان هذا هو الشكل الجنينى للنظام الاقطاعى فى العصور الوسطى . وقد ظل هذا الضرب من ضروب الولاء قائما فى القرنين

الخامس والسادس بفضل وجود نظام مشابه فى الامبراطورية الرومانية المتأخرة هو نظام التبعية Patrocinium، وفى غمار الأحوال المضطربة التى سادت الامبراطورية الرومانية المتأخرة جمع بعض الارستقراطيين حولهم الشباب القادرين على القتال وأغدقوا عليهم الهبات والحماية فى مقابل ولائهم وخدماتهم . لقد كان الأفصال فى القرنين السادس والسابع ببساطة استمراراً لعصبة الحرب gefolge الجرمانية ، والتبعية Patrocinium اللاتينية . وكان الأفصال الاقطاعيون Vassals رجالا أحرارا أخضعوا أنفسهم طواعية لأحد سادة الجند البارزين فى منطقتهم ، بيد أنه من ناحية أخرى كان مؤهلهم الوحيد هو قدراتهم القتالية . وقد اشتق اصطلاح فصل Vassal من الكلمة الكلتية التى تعنى "ولد Boy" ووفقا لما يدل عليه اشتقاق الكلمات Etymology فان افصال القرنين السادس والسابع كانوا ببساطة هم "الأولاد" أى جماعات البلطجية الذين كانوا يقاتلون رجالاً كبارا فى المناطق المجاورة ، فقد كانوا أبعد مايكونوا عن الفرسان ذوى الشهامة الذين يصورهم الأدب الرومانسى فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر . كان أولئك الأفصال مجرد بلطجية يضربون الناس ويحطمون المنشآت تنفيذا لمشيئة سيدهم فى مقابل حمايته لهم واعالتهم واقتسام الأسلاب معه . واعتمد الوضع الاجتماعى للأفصال على سيدهم الذى يقومون بخدمته ، وذلك بصرف النظر عن حقيقة أنهم كانون جميعا من الرجال الأحرار فى الحقيقة ، وعلى سبيل المثال ، فقد كان الحراس الشخصيون body guards للملوك الميروفنجيين يتمتعون بثروة كبيرة وأهمية كبيرة ، وكان يطلق عليهم antrustiones تمييزا لهم عن غيرهم .

وحتى ذلك الحين لم تكن التبعية الاقطاعية vassalage ترتبط بملكية الأرض ، فقد كان الأفصال يعيشون فى قلعة ذات جدران خشبية سميكة يقيمها سيدهم الذى يتكفل أيضا بإطعامهم وكسوتهم ، وتسليحهم . وفى المرحلة التالية من مراحل تطور النظم الاقطاعية تم الربط بين التبعية الاقطاعية وملكية الأرض ، وهو ماكان يقصد به مكافآة الأفصال على خدماتهم وتأييدهم لسيدهم . وإنها لحقيقة ذات أهمية كبرى أن هذا "الخلق للعلاقات الاقطاعية" - على حد تعبير جانشوف Ganshof - كان بطيئا للغاية ، كما أن تطور هذه العلاقات لم يتم بشكل متسق . فحتى فى القرن العاشر لم يكن غالبية الأفصال فى فرنسا يمتلكون أية أراضى وكانوا مايزالون يقيمون فى منزل سيدهم ، وحتى مطلع القرن الثانى عشر، كان هناك عدد من الأفصال الذين لايملكون أرضا فى المناطق المكتظة بالاقطاعيين فى شمال فرنسا وانجلترا ، على الرغم من أن هؤلاء الأفصال كانوا يشكلون أقلية بكل تأكيد . ويبدو أنه فى أيام الميروفنجيين لم يكن يمتلك الأراضى سوى الرجال البارزين فى المجتمع ، وكان

الحكام الميروفنجيون يمنحون الهبات benefices، التى كانت عبارة عن قطع من الأراضى تعطى على سبيل الهبة ، للدوقات والكونتات لكى يضمنوا ولاءهم من ناحية ، ولكى يعيشوا على دخلها لقاء قيامهم بأداء خدماتهم الحكومية فى المقاطعات من ناحية أخرى ، ولكن كبار الأرستقراطيين الذين كانوا يتلقون هذه الضياع كانوا يعتبرونها ضياعا وراثية ، وكانت تلك هى بداية الربط بين الضياع الوراثية وخدمة السيد الاقطاعى ، وقد شاع تقليد نظام الاعانات على نطاق أضيق فى مجال العلاقة بين بعض كبار الارستقراطيين وأهم أفصالهم .

وثمة تغير بطىء ، ولكنه أساسى ، فى الأساليب العسكرية حدث ما بين القرن الخامس والقرن الثامن ، وزاد من ضرورة الربط بين التبعية الاقطاعية ، والاقطاع fief وهو الاسم الذى صارت الضيعة الاقطاعية تعرف به بعد القرن الثامن . فقد كان الجرمان يستخدمون المشاة فى جيوشهم فى أغلب الأحوال ، ولكنهم كانوا يتبعون المبدأ العسكرى القائل بتجنيد الشعب كله لحمل السلاح Folk - in - arms وللملك أن يستدعى جماهير المزارعين الأحرار لمساعدته فى حروبه . ولكن تفوق الفرسان المسلحين - الذين اشتركوا فى القتال فعلا أثناء الغزوات الجرمانية ، ضد جيوش الامبراطورية الرومانية والهون Huns ، وبعض القبائل الجرمانية - بدا واضحا أكثر فأكثر . وما أن بزغت شمس القرن الثامن حتى كان هناك عدد متزايد من سادة الجند المستنيرين يتلمسون بناء جيوش على أساس الجندى الراكب المدرع أى الفارس chev- alier أو cniht وحين نقلت أوربا الغربية استخدام الركاب فى الخيول عن عالم البحر المتوسط، زادت كفاءة الفرسان ، إلا إن معدات تجهيز الفارس كانت باهظة التكاليف ، وكان على السيد الذى يرنو إلى تكوين جيش قوى من أفصاله أن يمنحهم الضياع أو الاقطاعات التى قد يحصلون منها على الدخل الذى يكفى لأن يجهزوا أنفسهم للمعركة .

ولم يكن منح الاقطاع fief يعنى أن يمنح الفصل الاقطاعى كافة حقوق ملكيتها ، إذ كان له أن يفيد من عائد الأرض كمكافأة له على خدماته ، ولكى يتمكن من إعداد نفسه الاعداد اللائق كفارس . ولكن ، من الناحية القانونية كانت ملكية الأرض بصفة نهائية حقا للسيد الذى يمكنه استعادتها إذا لم يلتزم الفصل بالولاء له . وعندما يموت الفصل كان الاقطاع يعود إلى السيد بشكل تلقائى ، ومن المعتقد أن أصل الحيازة الاقطاعية كان هو نظام حيازة الأرض الذى كان معروفا فى القرنين السابع والثامن باسم بريكاريوم Precarium وهو النظام الذى كان معمولا به فى أراضى الكنيسة على نحو خاص . ووفقا لنظام الحيازة المؤقتة هذا ، كان مقدم الدير أو الأسقف ، الذى يمتلك مساحة من الأرض أكبر مما يمكنه أن يديرها بنفسه ، يسمح للمدنيين بالافادة من هذه الأراضى لقاء إيجار معين ، مع العلم بأنه يمكن لصاحب الأرض أن يستردها متى شاء .

ومنذ وقت مبكر أدرك ملوك الأسرة الكارولنجية ، بفضل عبقريتهم المعهودة ، مدى ما يمكن تحقيقه من مزايا عسكرية من خلال اسباغ الاقطاعات على أفصالهم . وهكذا كان شارل مارتل Charles Martel وهو يبنى جيشه لمواجهة الغزاة المسلمين فى أربعينيات القرن الثامن ، يسعى إلى الحصول على أكبر قوة عسكرية ممكنة من الفرسان ، ونجح فى أن ينتزع الاقطاعيات لافصاله من أراضى الكنيسة ، ربما على أساس الحيازة المؤقتة . وخلال النصف الثانى من القرن الثامن كان الحاكم الكارولنجى يكافىء أفصاله الارستقراطيين بالاقطاعيات الكبرى المأخوذة من الأراضى الملكية ذاتها ، وسرعان ما أخذ السادة الكبار فى النصف الغربى من المملكة الكارولنجية فى محاكاة الملك وحولوا فرسانهم إلى فرسان مقطعين ، وكان لهذه الرابطة المتنامية بين الاقطاع والتبعية الاقطاعية تأثيرها من حيث الارتفاع بمكانة الفصل الاجتماعية ، فمن البلطجى الأجير، كان هذا الفصل نفسه ، يصبح سيدا محليا مرموقا فى كثير من الحالات ويتمتع بالسيطرة على اقطاع أو أكثر . وبطبيعة الحال ، كان هناك تباين شديد بين الدوق أو الكونت التابع للملك ، وبين عامة الأفصال من الفرسان ، الذين ظلوا على مدى عدة قرون تالية ، قوما أفظاظا خشنى الطباع .

وكانت نتيجة الربط المتزايد بين التبعية الاقطاعية والاقطاع أن نشأ جوع إلى الأرض فى أوساط الافصال فى المجتمع الاقطاعى الذى استمر على حاله الطيبة حتى القرن الثانى عشر . فقد كان الاقطاع يعتبر قبل ذلك مكافأة لقاء الخدمة والولاء فى الفترة السابقة ، أما الآن فقد أخذ الأفصال يبحثون عن سادة مستعدين لأن يقدموا لهم الاقطاعات ، وأولئك الافصال الذين كانوا يملكون الاقطاعات بالفعل أخذوا يبحثون عن امتلاك المزيد من اقطاعات ، كما سعوا إلى تأكيد الصفة الوراثية للأرض التى حازوها من سيدهم . وعلى الرغم من أنه من الناحية الفنية لم يكن الاقطاع وراثيا ، وكان يؤول إلى السيد بعد موت الفصل ، فإنه بمنتصف القرن العاشر صار الاقطاع وراثيا بالفعل ، ويدفع ضريبة وراثة تسمى relief كان ابن الفصل المتوفى يقدم ولاءه ويمنح الاقطاع لقاء ذلك . ويبدو جوع افصال القرنين التاسع والعاشر للأرض واضحا فى الملحمة الاقطاعية العظيمة المعروفة باسم Raoul de Cambrai التى - رغم أنها وصلتنا فى اشعار تعود إلى القرن الثانى عشر - تعكس بشكل غامض حادثة حقيقية وقعت فى القرن الثامن ، كما تعكس أخلاقيات الطبقة الأقطاعية فى تلك الفترة ، وفى الملحمة يغفل الامبراطور منح "راؤل" الاقطاع الذى كان بيد والده فيبادر راؤل إلى رفع السلاح ضد سيده فى محاولة لإجباره على منحه ما اعتبره ميراثه الشرعى .

وتمثلت المرحلة النهائية فى تطور النظام الاقطاعى فى إنتقال السلطة الحكومية والقضائية إلى كبار أفصال الملك الذين نقلوها بدورهم إلى أفصالهم ، وهذه المرحلة هى نتاج القرن التاسع وهى نتاج أيضا لعجز الكارولنجيين الأواخر عن الحفاظ على سيطرتهم على الدوقات والكونتات الذين اغتصبوا السلطة الملكية فى دوقياتهم وكونتياتهم وحولوها إلى اقطاعات وراثية. وتضمنت السيادة على الضياع الاقطاعية دائما السيطرة السياسية والقضائية على الفلاحين التابعين ، بيد أن هذه السلطة كانت ضئيلة الى حد بعيد ، ذلك أن الأمراء الاقطاعيين فى القرن التاسع قد استطاعوا أن ينتزعوا من الملكية الضعيفة حق جمع الضرائب وعقد المحاكمات فى القضايا الهامة "حق العدالة السامية" High Justice وسلطة شنق المجرمين فى دوقياتهم وكونتياتهم . وعلى نفس المنوال جاهد السادة الاقطاعيون الأقل قدرا فى سبيل كسب بعض السلطات العامة لأنفسهم وممارسة بعض السلطات السياسية والقضائية داخل اقطاعاتهم . وما أن حل منتصف القرن العاشر فى فرنسا حتى كانت المحاكم الاقطاعية الخاصة قد ابتلعت سلطات ونفوذ الملك الكارولنجي ومارست صلاحيات قضائية متطابقة ومتضاربة فى عملية ترقيع مجنون للسلطة اللامركزية .

لقد كان بروز نمط اقطاعى من التنظيم الاجتماعى مقدمة لعملية التهذيب والتبرير التى خضعت لها جوانب كثيرة من جوانب السيادة فضلا عن تعزيز مجموعة من القيم الاجتماعية التى قامت على أساس من مثل الولاء . وفى خلال احتفال عام معقد كان الفصل يعلن عن ولائه لسيده. وكان الفصل المرشح يركع أمام سيده ، على حين يحتضن الأخير يدى الفصل بين يديه ، وأضافت الكنيسة الواجهة المسيحية المعتادة على إحتفال الولاء Fealty وذلك بأن ألزمت الفصل بأداء اليمين المقدس بالولاء لسيده .

وفى منح الاقطاع للفصل ، كان السيد فى العادة يسلمه رمزا للاقطاع على هيئة سنبلة أو سكين أو غير ذلك ، وأصبح من المعتاد (حين أخذت نسبة التعليم تتزايد فى المجتمع) أن يتم التصديق على منحه الأرض بفعل قانونى كان يسمى ببساطة "الحجة" أو الوثيقة . وبشكل عام كانت الوثيقة فى العصور الوسطى تتألف من خمسة أجزاء وهى : التحية التى كانت توجه فى العادة إلى الرجال البارزين فى المناطق المجاورة للاقطاع . ثم الخطبة التى توضح سبب المنحة ، وغالبا ما كانت هذه الخطبة مسهبة إذا كان المانح من رجال الدين ، ثم تأتى الفقرة التى تتحدث عن الحيازة ، وهى عبارة عن قائمة توضح فى تفصيل كبير موضع الاقطاع وحدوده ، فاللعنة التى كانت توقع عقوبة الحرمان الكنسى على أى شخص يجرؤ على مخالفة شروط

الحجة أو الوثيقة ، وأخيرا قائمة الشهود التى كان يصدق عليها بأختامهم الخاصة أولئك الذين شهدوا عملية منح الاقطاع . وغالبا ما كان الكاتب فى الوثائق الملكية يكتب اسم أى شخص يكون حاضرا فى البلاط فى تلك الأثناء حتى يصل إلى نهاية قطعة الرق التى تكتب عليها الوثيقة ، وهكذا كانت الحجة فى العصور الوسطى وثيقة رائعة مؤثرة وكافية - حتى القرن الثانى عشر على الأقل - لأن تكون دليلا حاسما فى أية دعوى أو قضية مدنية تتعلق بملكية الأرض . وليس من المثير للدهشة أن نعرف أن رجال الكنيسة كثيرا مازوروا الحجج لتدعيم مزاعمهم فى ملكية الضياع ، وإنما المدهش حقا هو كيفية إهمال السادة الإقطاعيين فى حفظ هذه الوثائق ، وذلك أنهم نادرا ماكانوا يستطيعون تقديم حجة الاقطاع إذا ما اضطروا إلى ذلك ، وهو ما أدى إلى تشوب نزاعات لاتنتهى حول ملكية الضياع .

وبغروب شمس القرن العاشر كانت حقوق وواجبات كل من السيد الاقطاعى والفصل قد تحددت واستقرت تماما ، فقد كان الفصل ملزما بتقديم الخدمة العسكرية لسيده بحيث لاتتجاوز مدتها أربعين يوما فى السنة ، وإذا كان هذا الفصل رجلا هاما يحوز اقطاعا كبيرا ، كان عليه أن يقدم - علاوة على الخدمة العسكرية - فرقة من الفرسان لجيش سيده ، فضلا عن أن الفصل كان ملزما بأن يحضر إلى محكمة السيد الخاصة للمداولة فى القضايا التى تنشب بين أقرانه ، أى أفصال السيد الآخرين وأن يقدم المشورة لسيده إذا طلبها . كذلك كان الفصل خاضعا للنظام الضريبى الاقطاعى - فقد كانت هناك ضريبة الاعانة relief وهى التى تحصل من أملاك الفصل إذا مات دون أن يترك وريثاً بالغا ، فيقوم السيد بالوصاية على أملاكه مقابل هذه الضريبة ، وكان على الفصل أيضا أن يدفع ضريبة غير منتظمة هى "المساعدة الاقطاعية" Feudal aids وهى عبارة عن مبالغ كان على الفصل أن يدفعها إلى سيده حين ينصب ابنه الأكبر فارسا ، أو يزوج ابنته الكبرى أو يدفعها لافتداء هذا السيد من الأسر ، وفى المقابل كان على السيد أن يحافظ على فصله ، إلا أنه لم يكن من حقه أن "يحط من شأن" الفصل باهانته بطريقة أو بأخرى . وإذا لم يف الفصل بقسم الولاء الذى قطعه لسيده كان يتعرض لأن ينتزع منه اقطاعه بعد محاكمته فى محكمة سيده ، أما إذا تصرف السيد تجاه فصله على وجه غير لائق ، يكون للفصل حق التحلل من الرابطة الاقطاعية ، وهو الحق الذى عرف آنذاك باسم Diffidatio وعادة ما كان يبدأ بتكسير السنبلة الرمزية أو السكين الرمزى الذى يعنى انتقال الاقطاع إليه ، وعادة ما كانت الحالة الأولى والحالة الثانية أيضا تعنى الحرب ، بيد أن الحرب كانت حقيقة يومية فى المجتمع الاقطاعى على أية حال .

وبنهاية القرن العاشر كان تقسيم الاقطاع الى اقطاعات أصغر Subinfeudation قد أصبح أمرا شائعا ، وغالبا ماكانت هذه العملية تتم خلال عدة درجات فى السلم الاقطاعى بداية بالملك أو الدوق تنازليا حتى أصغر الاقطاعيين ، وأقلهم مرتبة وهو "الفافاسور Vavasour". وكان هناك سؤال يطرح نفسه آنذاك ، عما إذا كان يجب على أولئك الأتباع الصغار أن يلتزموا بالولاء للسيد الأعلى أم يجب أن يقتصر ولاؤهم على سادتهم المباشرين فحسب ، ولم تكن هناك إجابة عامة على هذا السؤال ، فقد كانت المسألة تتوقف على قوة السيد الأعلى أو ضعفه، فإذا كان قويا ونشيطا كان يجبر الأفصال الصغار Subvassals على أن يقسموا له يمين الولاء والتبعية باعتباره زعيما لهم ، أو رئيسا ، أو سيدا . وقد ثارت مشكلة مشابهة من جانب الفرسان الذين كان جوعهم للأرض يدفعهم إلى أن يصبحوا أفصالا لاثنين أو أكثر من السادة الاقطاعيين حتى يمكنهم الحصول على اقطاعات اضافية . وكان مثل هذا الموضع الشاذ يمكن حله إذا ما تمكن أحد السادة الاقطاعيين أن يؤكد حقوقه على هؤلاء الافصال كسيد أعلى، أما إذا لم يحدث هذا ثم حدث أن اضطر السيدان الاقطاعيان ، اللذى يتبع الفصل لكل منهما فى الوقت نفسه ، إلى قتال بعضهما البعض وطلب كل منهما من الفصل نفسه أن يساهم فى القتال إلى جانبه ، فإن الفصل ينضم إلى السيد الذى يرجح فوزه حتى يتخلص من ورطته .

وفى بداية الأمر كان رجال الكنيسة فى الامبراطورية الكارولنجية يوجهون إلى نظام السيادة الاقطاعية انتقادات مريرة ، لأنهم كانوا يعتقدون - وبحق - أن هذا النظام سوف يؤدى إلى انهيار الامبراطورية المسيحية ، ولكنهم لم يلبثوا أن توافقوا مع النظام الاجتماعى الجديد وإندمجوا فيه ، وصار الأساقفة ومقدمو الأديرة سادة اقطاعيين وأفصالا شأنهم فى ذلك شأن النبلاء . كما أنهم إندمجوا فى شتى وجوه حياة المجتمع الاقطاعى اللهم إلا المشاركة الشخصية فى شئون الاقطاعية ، وبذل رجال الكنيسة كل مافى وسعهم لاقرار السلم فى المجتمع الاقطاعى ، ومحاولة اضفاء الصبغة المثالية المسيحية على العلاقات الاقطاعية ، ولذا فانهم أضافوا الاحتفال الدينى الذى يقوم الفصل فيه بأداء يمين الولاء للسيد الاقطاعى ، كما صاروا خبراء فى تحديد الالتزامات المتبادلة بين السيد الاقطاعى والفصل ، وصياغة هذه الالتزامات الاقطاعية على شكل شروط كانت تفترض مسبقا وجود مستوى حضارى وأخلاقى أسمى من مستوى أولئك المقاتلين الأجلاف الذين كانوا مايزالوا يمثلون نسبة تبلغ حوالى ٩٥٪ من الطبقة الاقطاعية . وبذلت الكنيسة مافى طاقتها لمحاولة حصر نطاق الحرب فى المجتمع الاقطاعى خلال القرن الحادى عشر ، وذلك عن طريق الترويج لحركة "سلام الله" التى كانت

تفرض على النبلاء الاقطاعيين أن يكونوا جماعات لحفظ السلام ، وأن يعدوا بعدم القتال فى أيام معينة ، وكانت حركة السلام هذه فاشلة بشكل عام ، لأنها لم تكن تحرز نجاحا إلا حين يرعاها حاكم قوى يرى أنه سوف يجنى منها عدة مكاسب لنفسه .

وكقاعدة عامة ، فإن النظام الاقطاعى كان قطبا مضادا للسلطة الملكية وكان هذا النظام - كما رأينا - يعنى لامركزية الحكم ، وتمرير السلطات العامة إلى أيادى خاصة ، والواقع أن الهرم الاقطاعى الذى يتربع الملك على قمته - كما يحب مؤلفو الكتب المدرسية تصويره - يعطى إنطباعا خاطئا عن طبيعة هذا النظام الاقطاعى . فقد كان ملك فرنسا فى القرنين العاشر والحادى عشر سيدا على كبار الأمراء الاقطاعيين بيد أنه لم يكن يتمتع بأى سلطان حقيقى على أفصاله من الدوقات والكونتات ، لأنه لم يكن هو السيد الأعلى على افصالهم الصغار . وطالما كان الملك القابع فى باريس عاجزا عن أن يهزم دوق نورماندى ، أو كونت تولوز ، فانه لم تكن له أية سيطرة عليهما أو على غيرهما ، وذلك على الرغم من أنهما يتبعانه من الناحية الرسمية ، فقد كان جيش دوق نورماندى أقوى كثيرا من جيش الملك ، كما أن الفرسان النورمان لم يعترفوا إطلاقا بأن الملك هو سيدهم الأعلى . ومن الناحية العملية ، فإن ملك فرنسا - سواء كان من الكارولنجيين أو من أسرة كابيه بعد سنة ٩٨٧ - لم يكن أكثر من مجرد دوق باريس ، وقد كان الوضع مشابها فى التنظيم الإقطاعى لألمانيا فى القرن الثانى عشر .

إذن ، أين وجد النظام الاقطاعى حقيقة ؟ لقد كان ذلك فى انجلترا بعد الغزو النورمانى سنة ١٠٦٦ ، والسبب فى هذا أن الدوق النورمانى كان قد تعلم خلال القرن العاشر والنصف الأول من القرن الحادى عشر كيف يستخدم النظم الاقطاعية بطريقة خاصة تزيد من سلطة الحكومة المركزية ، ولم تكن هذه هى الطريقة التى سار عليها النظام الاقطاعى فى الامبراطورية الكارولنجية المتأخرة .

وجميع النظم الاجتماعية تقوم على أساس مجموعة من الافتراضات حول الصواب والخطأ فى العلاقات الانسانية ، وتظل هذه الافتراضات فترة طويلة تفرض نفسها حتى بعد أن تنقضى الضرورات الاجتماعية التى كانت تفرضها. وكانت القيم التى تخدم النظام الاقطاعى والسادة الاقطاعيين ثلاثا هى : أولا : كانت البطولة والبسالة العسكرية تعتبر من الحسنات الاجتماعية ، وذلك لأن الرجل القوى كان هو فقط الذى يستطيع توفير الأمن والحماية فى ذلك

العصر ، ثانيا : كان الولاء الشخصى هو عصب النظام الاجتماعى ، كما كانت العلاقات بين الأفراد هى الوسيلة الوحيدة لاقرار الالتزامات السياسية والقانونية . وثالثا : كانت روابط الولاء هذه مرتبة خلال نظام تصاعدى بحيث تمتد خلال طبقات المجتمع وتصعد إلى مناطق سماوية .

وبمقتضى الفرض الثالث والأخير (تدرج روابط الولاء فى نظام تصاعدى) كان رجال الكنيسة يوافقون على العلاقات الاقطاعية ، لأنهم كانوا متمرسين على القواعد القانونية القديمة التى تحدد تدرج الرتب فى السلك الكنسى . والواقع أنه يحتمل أن يكون رجال الكنيسة هم الذين أكدوا على هذه القيمة الاقطاعية ، وجعلوا التدرج فى السلك الاقطاعى أكثر تركيزا وجهودا فى المجتمع الاقطاعى . أما القيمة الاقطاعية الثانية ، أى الولاء ، فقد كان مفيداً للملوك والدوقات الطموحين الذين كانوا يتوفون لفرض سلطاتهم السيادية على مجتمع القرنين الحادى عشر والثانى عشر الزراعى . ومن مثل الولاء استوحت العصور الوسطى فكرة حساسة عن العلاقات الشخصية ، كانت هذه عبارة عن رؤية عاطفية للرابطة بين كائن بشرى وآخر ، وهذه الرؤية صارت قاسما مشتركا فى فكرة العصور الوسطى عن الحب كما صارت إلهاما للحركة الرومانسية فى القرن الثانى عشر .

أما القيمة الاقطاعية الأولى ، وهى التى تتعلق بالقيمة الاجتماعية للبطولة والبسالة العسكرية فقد تحولت إلى المثل الأعلى الذى تحتذيه الزعامة الارستقراطية فى المجتمع ، والاعتقاد الذى شاع فى القرن العشرين ، بكون الفارس قائدا طبيعيا فى مجتمع العصور الوسطى ، حيث كان من يمتطى فرسا يجد من يخدمه لقاء حمايته ، وقد ظل إعتراف المجتمع الاقطاعى بفضل القوة الجسدية ساريا . ومنذ القرن الثانى عشر حتى القرن العشرين ظل مبدأ تفوق الأقوى على الضعيف أساسا لسياسة الدولة الأوروبية ولاتزال رواسب الاقطاع هذه تتلكأ وتصب شرورها الملعونة ، وتذل أعناق الدعاة إلى السلام ، وتسحب البشرية بمنأى عن السلام والسعادة .

الجزء الرابع

التوازن فى العصور الوسطى الباكرة
القرن العاشر وأوائل القرن الحادى عشر

" إنه بحق السلطة المقدسة ، وتقاليد وتراث الآباء المقدسين ، يتم تكريس الملوك فى كنيسة الرب ، أمام المذبح المقدس ، ويتم مسهم بالزيت المقدس، وتسبغ عليهم البركة المقدسة ، لكى يمارسوا سلطة الحكم على المسيحيين ، شعب الرب .. وعلى كنيسة الرب القدس" .

– مؤلف مجهول من يورك

الفصل التاسع

الكنيسة والعالم

١- طبيعة التوازن فى العصور الوسطى الباكرة

بحلول سنة ٩٠٠ بات من المؤكد أن مثال الوحدة السياسية للحضارة اللاتينية المسيحية الجديدة مستحيل التحقيق ، وأن الشعوب الأوربية لابد وأن تقنع بكيانات سياسية أقل حجما. وخلال القرن العاشر بدأت هذه الدول فى التشكل والظهور . ذلك أن اللامركزية السياسية ، والفوضى الاجتماعية اللتين ميزتا الفترة الأخيرة من القرن العاشر ، استمرتا فى الوجود ، كما برز إلى الوجود مثالان ناجحان للقيادة السياسية فى شمال غرب فرنسا ، وفى ألمانيا ، فقد كانت دوقية نورماندیا الاقطاعية ، وامبراطورية أوتو Otto الألمانية قد قامتا إلى حد كبير، على أساس من أنماط متضاربة من النظم والمؤسسات ، بيد أنها كانتا تتميزان ، عموما ، بخاصية أساسية من خواص الحضارة الأوربية الجديدة : فالمثل الكنسية والعلمانية ، والزعامة والموارد قد اندمجت فى بعضها بقوة وتفاعلت لكى تخلق وتطور هاتين الدولتين . وهذا التداخل المتبادل نفسه بين الكنيسة ecclesia والعالم mundus ، يمكن رصده فى شتى أنحاء أوربا القرن العاشر ، وحتى فى الملكية الأنجلو سكسونية المخيبة للآمال بحكومتها المركزية الواهية ، بل وفى الملكية الكابية الأكثر ضعفا .

كان التوازن بين الكنيسة والعالم هو حصاد الصراع الطويل على طريق تنصير المجتمع الأوربى ، فقد كان جريجورى الكبير ، وسان بونيفاس قد أسسا هذه الحركة ، التى تقدمت إلى حد كبير فى أواخر القرن الثامن وفى القرن التاسع على أيدى الملوك الكارولنجيين وكبار رجال الكنيسة . وقد أوضح فشل الملكية الميروفنجية مدى حاجة الملكية الجرمانية إلى التزكية الدينية والأدبية ، وغيرها من المساعدات التى كان يمكن للكنيسة أن تقدمها . وقد بذل قادة الكارولنجيين جهودهم فى سبيل خلق نظام عالمى تعمل فيه الكنيسة والملكية جنبا إلى جنب ، ولكن هذه الجهود لم تؤت سوى الفشل المرير الأليم . وعلى أية حال استغل الدوقات النورمان والأباطرة الألمان ، هذا التداخل بين الكنيسة والعالم من ناحية والتمايز بينهما من ناحية أخرى، لكى يقيموا المزيد من الكيانات السياسية المحدودة ، بيد أن هذه الكيانات أظهرت مميزات فائقة من حيث القوة والاستمرار كما ضربت للحضارة الأوربية الأمثلة الأولى على نجاح القيادة السياسية .

وقد قامت قوة كل من الأباطرة والدوقات النورمان فى القرنين العاشر والحادى عشر ، إلى حد كبير على مدى السيطرة التى كان بوسعهم أن يمارسوها على الكنيسة فى أراضيهم ، لاسيما الأديرة البندكتية ، وعلى مدى المساعدة والتأييد اللذين تقدمها الكنيسة لهم فى شكل عوائد ، أو فرسان ، أو أفراد للعمل فى الجهاز الإدارى ، فضلا عن الترويج لمشاعر التبجيل العام للحاكم التقى الذى يحض على صداقة الكنيسة . وكانت الكنيسة من جانبها تكسب الحماية ضد النبلاء العلمانيين المارقين ، والهبات التى تغدق الضياع الكبرى والأبنية الدينية ذات الطابع الرومانى الفخم ، على الأديرة والأسقفيات ، فضلا عن ترقى كبار رجال الأكليروس إلى الصفوف الأولى بين طبقة النبلاء ، والفرص الكثيرة التى تسنح لزعماء الأكليروس للمثول فى بلاط الحاكم ومجلسه الشورى ومن ثم يؤثرون على سياسته . هذا النوع من العلاقة بين الزعماء الدينيين والعلمانيين تدعم من خلال العقيدة الواعية بتمايز كل من الكنيسة ecclesia والعالم mundus وهو التمييز الذى كان شائعا بالضبط فى الفترة التى تحقق فيها توازن العصور الوسطى الباكرة . ومنذ القرن التاسع كان هناك اتجاه متزايد لدى الكتاب الكنسيين إلى وصف الكنيسة . التى اعتبروها جسد المسيح الغامض ، كمؤسسة تحضن العالم، وفى هذه النظرة لم تكن ثمة مجالات منفصلة للكنيسة والعالم ، ولكن الكنيسة كانت جسدا للمسيح ، يتميز بأنه جسد عالمى واحد لايتجزأ يدخل ضمنه العالم بأسره . وفى القرن الحادى عشر باتت هذه النظرية بمثابة القاسم المشترك بين كبار المفكرين بل ومن هم دونهم من الكتاب فى الكنيسة اللاتينية . كانت "الكنيسة" "والعالم" مصطلحين يستخدمان باعتبارهما مصطلحين متمايزين مترادفين فى الوقت نفسه ، ومن ثم كانت الممالك والامبراطوريات تعتبر كيانات ، ليس خارج الكنيسة بقدر ماهى داخلة فى حدودها العالمية . وهذه النظرية القائلة بامتصاص المملكة الدنيوية داخل المملكة الروحية كانت استلهاما من العلاقة التى كانت سائدة بالفعل بين الكنيسة والملكية فى غرب أوربا فى القرن العاشر والنصف الأول من القرن الحادى عشر .

٢- الدولة الاقطاعية النورمانية

أخيرا فى سنة ٩٨٧ فقدت السلالة الكارولنجية اللقب الملكى فى غرب الراين ، فلم يكن أحفاد شارلمان يمارسون أية سيطرة فعالة على كبار الأمراء الاقطاعيين على مدى مائة سنة ، كما أن الملكية لم تكن لها أية موارد ذاتية . إلا أن استمرارية التقاليد الجرمانية والمسيحية المتعلقة بالملكية حولت التاج الفرنسى إلى ملكية خاصة يستحقها أقوى سيد إقطاعى فى المنطقة المعروفة باسم Ile - de - France وهو ماحدث بالنسبة لهوف كابيه Hugh Capet

الذى أزاح الكارولنجيين جانبا ، وتحمل عناء تأمين ارتقائه للعرش من خلال عملية الانتخاب الرسمية الجرمانية . وقد أضفت الكنيسة على حكمه المسحة الشرعية من خلال عملية المسح بالزيت المقدس ، كما صار مقدم دير سان دونى St. Denis الملكى يكرس نفسه لهوف قدر ماكان يكرسها للكارولنجيين من قبله ، وبفضل تأييد الكنيسة استطاع هوف كابيه أن يورث ابنه اللقب الملكى . والحقيقة أنه قيض للأسرة الكابية أن تتولى العرش الفرنسى فى خط مباشر من التتابع الوراثى حتى القرن الرابع عشر ، ولم يحدث شىء هام فى القرنين العاشر والحادى عشر ، فكل ماحدث أن أسرة ضعيفة ذهبت لتحل محلها أسرة ضعيفة أخرى . وقبل القرن الثانى عشر كانت شهرة آل كابيه تقوم على أمرين لاثالث لهما : التدين المتطرف ، والشراهة الجنسية ، وربما كان هذا التناقض فى صفات آل كابيه الأخلاقية راجعا إلى حقيقة أن كل مانعرفه عن الكابيين الأوائل مستمد من الوصف الوارد فى المدونات التاريخية الديرية التى يقوم حكمها على الأمور على أساس معايير محدودة للغاية . بيد أنه من الأمور ذات الدلالة أن ملوك آل كابيه فى القرنين العاشر والحادى عشر لم يلفتوا الأنظار إليهم سوى بممارساتهم الدينية أو بفضائحهم الجنسية ، وكانت هذه أعمالا شخصية خالصة بمعنى أن ملوك آل كابيه لم يتركوا أثرا على الحكم والمجتمع فى فرنسا . وقد تصرف كبار الأمراء الاقطاعيين، الذين كانوا أفصالا لآل كابيه من الناحية الإسمية ، بشكل مستقل ولم يقدموا لهم أى عون ، والحقيقة أن أولئك الملوك لم يكونوا آمنين حتى على أملاكهم فى المنطقة المعروفة بأسم Ile - de - France والتى كانت تغص بقلاع البارونات اللصوص . والحقيقة أن ملوك آل كابيه كانوا يحملون اللقب الملكى ، كما أنهم غرسوا تقاليد الملكية المقدسة بمساعدة مقدم دير سان دونى وكبير أساقفة ريمس ، وبينما صارت هذه التقاليد مفيدة بالنسبة للكابيين الأواخر ، فإنها لم تكن ذات فائدة بالنسبة لملوك فرنسا فى القرنين العاشر والحادى عشر إلا بقدر قليل للغاية. لقد كان من الممكن أن تصير الملكية الثيوقراطية قوة أدبية مؤثرة ، بشرط أن تكون مرتبطة بقوة مستمدة من المؤسسات الفعالة التى لم يكن للملكية الكابية أى نصيب منها .

ومن بين زعماء فرنسا الاقطاعية فى القرن العاشر كان كونت الفلاندرز ودوق أكويتانيا يبرزان بفضل سيطرتها الفعالة على الافصال الاقطاعيين فى إمارتيهما ، أما كونتات شامبنى Champagne وتولوز Toulouse وأنجو Anjou ، فقد كانوا هم أيضا أشخاصا بارزين فى المجتمع الاقطاعى الجديد . بيد أن دوقات نورماندیا كانوا هم البارزين بين أفصال ملك فرنسا ، وفى أواخر القرن العاشر وخلال النصف الأول من القرن الحادى عشر جعلوا من منطقة الحدود الخلفية فى نوستريا Neustria ، فى شمال غرب فرنسا ، بلادا تشتهر بأديرتها الكبيرة

ومؤسساتها العظيمة ، كما أنهم تعاملوا مع المؤسسات الاقطاعية بطريقة مبتكرة ساعدتهم على خلق أقوى دولة أوربية غرب نهر الراين .

لقد ولدت نورماندیا كدوقية إقطاعية فى سنة ٩١١ حين قام روللو Rollo ، الذى كان قائدا همجيا لواحدة من عصابات الفيكنج المقاتلة بانتزاع منطقة من الملك الكارولنجى المذعور، وهى المنطقة الملاصقة لمقاطعة روين Rouen الكنيسة ، وقد صار روللو هذا فصلا إقطاعيا للملك الفرنسى ، كما حمل لقب دوق ، بيد أنه استمر يتصرف بطريقة مستقلة تماما ، كما أنه واصل توسيع رقعة دوقيته الأصلية . لقد كان حجم الاستيطان الاسكندنافى صغيرا ، ولكن سرعان ماتزاوج رجال الشمال مع السكان الأصليين واتخذوا الفرنسية لغة لهم . وقد اعتنق روللو ورفاقه المسيحية على أيدى كبار أساقفة روين Rouen ولكن اعتناقهم لها لم يغير أسلوبهم فى الحياة ، فعلى مدى سبعين عاما كانت نورماندیا میدانا للحروب الداخلية والصراعات الدموية بين السادة الاقطاعيين النورمان ، كما أن سلطة الدوقات الأوائل كانت تقوم على أساس من قدراتهم كمحاربين ، كما أن تاريخ نورماندیا قبل سنة ٩٨٠ لايحمل أى شىء يمكن أن يكون تمهيدا للتطور الذى شهدته المؤسسات النورمانية فى الفترة اللاحقة . فكيف إذن ، استطاع النورمان ، فيما بين سنة ٩٨٠ وسنة ١٠٥٠ ، أن يبنوا أقوى إقطاعية فى غرب أوربا ؟

هناك مراحل ثلاث يمكن تحديدها فى مجرى بروز سلطة الدوقات النورمان ، ففى ثمانينيات القرن العاشر ، شارك أولئك الدوقات فى ارتقاء "هوف كابيه" عرش فرنسا ، ونتيجة لذلك لم يحاول ملوك آل كابيه التدخل فى شئون الدوقية إبان الفترة الحرجة التى شهدت بناء الدولة النورمانية . ولم يدرك الملك الكابى مغزى قيام نمط جديد من الدول الاقطاعية فى الدوقية المجاورة لأملاكه فى منطقة جزيرة فرنسا Ile - de - France[(١)] سوى فى ثلاثينيات القرن الحادى عشر ، وعندها كانت فرصة إزالة هذا الخطر قد ولت إلى غير رجعة . أما المرحلة الثانية، والأكثر حسما ، فى خلق نورماندیا ، فجاءت فى إطار العلاقات بين الدوقات النورمان والكنيسة فى أملاكهم ، إذ كان الدوقات النورمان أثناء الفترة الأخيرة من القرن العاشر وبواكير القرن الحادى عشر أكثر حذقا من أسلافهم وكانوا على وعى بمدى تخلف نورماندیا الثقافى فاستقدموا العلماء الديريين البارزين من أراضى الراين وشمال إيطاليا لكى

---

(١) يطلق الفرنسيون اسم جزيرة فرنسا Ile - de - France على المنطقة التى تقع باريس فى وسطها .

يبدأوا تطوير وتحسين ظروف الكنيسة النورمانية . وبنى الدوقات الأديرة ومنحوها الأوقاف ، كما أيدوا المدارس الديرية ودعموها ، وأتاحوا الفرصة لأولئك العلماء المقتدرين لكى يؤسسوا ألمع المراكز التعليمية فى غرب أوربا ، ولم تكن علاقتهم بالكنيسة مقيدة داخل إطار هذه الحماية بأى حال من الأحوال ، فقد لجأوا إلى تسخير موارد الكنيسة واستخدام رجالها فى تقوية سلطتهم على أملاكهم . وربما كان زعماء الحركة النورمانية قد شجعوا النورمان ووجهوهم بمشورتهم فى هذا المجال ، لأن أولئك الكنسيين كانوا قد وفدوا إلى نورماندیا ، فى معظم الأحوال ، من مناطق تقع داخل نطاق الامبراطورية الألمانية ، التى كان حكامها يستخدمون الكنيسة لتحقيق غرض مماثل ، ومن المؤكد أن كبار رجال الكنيسة فى نورماندیا لم يشغلوا أنفسهم بنوع العلاقات بين الكنيسة والدولة النورمانية قبل سنة ١٠٣٥ ، إلا أنهم تقبلوها ولم يجدوا غضاضة فى ذلك .

لقد كانت خطة الدوقات أن يفرضوا التزامات إقطاعية باهظة على كبار رجال الاكليروس وأن يسخروا الفرسان الموجودين فى أراضى الكنيسة ليكونوا نواة لجيش يمكن به التغلب على النبلاء العلمانيين . والواقع أنه بحلول منتصف القرن الحادى عشر ، كان بمقدور الدوق النورمانى أن يحصل على الخدمة العسكرية من أكثر من ثلاثمائة فارس من أفصاله الاقطاعيين . وكانت هذه القوة كافية للقضاء على قوة النبلاء وزيادة . وحصل الدوق على امتيازات عديدة من جراء بدئه لعلمية فرض النظام الإقطاعى فى نورماندیا ، وذلك من خلال فرض التبعية الاقطاعية vassalage على رجال الكنيسة ، وعندما انتهى من ذلك استدار نحو النبلاء العلمانيين . فلم يكن رجال الكنيسة يستطيعون الزواج بطريقة قانونية ، وعلى الرغم من أن كثيرين منهم كان لديهم أطفال ، فإن هؤلاء الأطفال كانوا غير شرعيين ولايمكنهم وراثة الاقطاع بحكم القانون الاقطاعى ، ومن ثمَّ فإنه لم يكن بوسع أى أسقف أو مقدم دير أن يتابع المصالح الأسرية من خلال الاقطاع الذى يحوزه . ومهما يكن من أمر ، فإن الاقطاع كان يرتبط بالمنصب الكنسى ولم يكن أملاكا شخصية للأسقف أو مقدم الدير فضلا عن أن الدوق كان متحكما فى انتخابات كبار رجال الاكليروس ، إذ كان هو الشخص المبجل لدى الكنيسة النورمانية ويجب الأخذ برأية قبل أن يشرع الرهبان أو القساوسة فى الكاتدرائية فى اختيار مقدم الدير أو الاسقف ، كذلك كانت للدوق سلطة الاعتراض Veto على كبار رجال الأكليروس المنتخبين ، ذلك أنه مالم يكن الدوق مرحبا بقبول الأسقف أو مقدم الدير المنتخب فصلا إقطاعيا له ، فإن الأخير لم يكن يستطيع أن يستحوذ على الأملاك المرتبطة بمنصبه .

وفى عشرينيات القرن الحادى عشر بدأت المرحلة الأخيرة من مراحل ظهور السلطة الدوقية بفرض التبعية والالتزامات الاقطاعية على النبلاء العلمانيين ، وقد تيسر هذا العمل بفضل حال الجوع إلى الأرض وازدياد عدد طبقة الفرسان فى نورماندیا . وفى العقد الثانى من القرن الحادى عشر كان عدد السادة الاقطاعيين النورمان غير المستقرين قد رحلوا بالفعل قاصدين جنوب إيطاليا لكى ينتزعوا لأنفسهم أملاكا فى هذه البلاد الغنية . أما الفرسان الذين لا أرض لهم ، والذين بقوا فى مواطنهم فلم يكن أمامهم سوى فرصة الحصول على إقطاعات من الدوق بشرط أن يبدوا استعدادهم لتقبل الالتزامات الاقطاعية الباهظة ، أما كبار السادة الاقطاعيين فى نورماندیا ، والذين كانوا فى الواقع من ملاك الأراضى التابعين ، فقد وجدوا أنفسهم مضطرين إلى قبول التبعية الاقطاعية بسبب قوة الدوق العسكرية . هذه المرحلة الأخيرة والناجحة من مراحل بناء الدولة النورمانية الاقطاعية توقفت فجأة حين رحل أحد الدوقات ، فى نوبة تقوى مفاجئة ، فى رحلة حج إلى بيت المقدس ومات وهو فى الطريق ، وخلف لوراثته طفلا تحوم سحب الشك حول شرعيته بسبب حقيقة أنه ولد قبل زواج والديه . وقد تميز الشطر الأول من حكم وليم الثانى ابن الزنا William II the Bastard (١٠٣٥ - ١٠٨٧) بمحاولات يائسة من جانب أعداء السلطة الدوقية - أى الملك الكابى فى فرنسا والنبلاء الايطاليين - للقضاء على ماتم خلال نصف القرن السابق . وعلى أية حال ، ظل التحالف بين العائلة الدوقية ورجال الكنيسة النورمانية على حاله ، كما أن توحيد قوة الأفصال الكنسيين وقوة وليم العسكرية الفائقة جلبت النصر النهائى للدوق على اعدائه فى نهاية أربعينيات القرن الحادى عشر ، وحينذاك انطلق وليم مواصلا سياسة أسلافه ، أى بناء أقوى سلطة إقطاعية فى أوربا ، وهو الحلم الذى تحقق عند نهاية النصف الأول من القرن الحادى عشر . ذلك أنه لم يفرض التبعية الاقطاعية Vassalage على جميع النبلاء المدنيين فحسب ، وإنما استطاع أيضا أن يطالبهم بالخدمة العسكرية التى كانت مرهقة ومحددة بشكل دقيق للغاية ، كما أنه استطاع أن يتغلب على تقائص التقسيمات الاقطاعية الدنيا بأن جعل نفسه السيد المباشر لكل فصل اقطاعى داخل حدود دوقيته . وكان حجم الخدمة الاقطاعية الذى يدين به حائزو الاقطاعات لسيدهم قد تقرر بشكل محدد فى نورماندیا ، وذلك فى متواليات عددية تبدأ بخمسة فرسان حتى يصل العدد إلى فيلق إقطاعى يتألف من مائة وعشرين فارسا ، تبعا لمساحة الأرض التى كان الأفصال الاقطاعيون يحوزونها من الدوق . وبحلول سنة ١٠٦٠ كان بوسع الدوق النورمانى أن يتولى قيادة جيش قوامه ألف فارس ، وهو جيش أكبر من أى جيش

كان باستطاعة أى حاكم غرب نهر الراين أن يجنده ، وقد حظر وليام بناء القلاع دون ترخيص منه واحتفظ لنفسه بحق سحب هذا الترخيص ، كما كان صارمًا للغاية فى إلزام أفصاله الاقطاعيين بالمثول فى بلاطه . أما الموظف المحلى Viscount الذى عينه فى الأقاليم نائبا عنه، فكان بمثابة أداة يمكنه بواسطتها سحب الصلاحيات القضائية والضريبية من السادة الاقطاعيين إلى نطاق السلطة الدوقية .

أما التزكية الأدبية لهذه السلطة العسكرية والإدارية الفعالة فجاءت من خلال التأييد الذى لقيه وليام من الكنيسة ، فقد كان مثل أسلافه ، يغدق حمايته وهباته الكثيرة على الأديرة . كما ظلت المدارس النورمانية تجتذب ألمع العقول فى أوربا ، وكان بين هؤلاء لانفرنك Lan-franc الذى كان مدرس قانون سابقاً فى بافيا Pavia فى شمال إيطاليا ، ثم صار راهبا فى نورماندیا وذاع صيته كواحد من ألمع اللاهوتيين فى منتصف القرن الحادى عشر ، ثم أصبح وحدا من أشد المعجبين بوليام . وكان وليام قد حاز إعجاب رجال الكنيسة فى شتى أرجاء أوربا لأنه أخذ حركة "سلام الرب Peace of God " مأخذ الجد ، فقد كان وليام يرى فى هذه الحركة وسيلة تكسب بها السلطة الدوقية مناصرة رجال الدين ، كما رأى فيها وسيلة لفرض المزيد من القيود على الحروب الجزافية التقليدية التى سادت المجتمع الاقطاعى ، وهو أمر لم يكن يتوافق مع مفهومه عن الدولة الاقطاعية . وجعل وليم من نفسه رئيسا لحركة "سلام الرب" فى نورماندیا ، كما أجبر أفصاله على القسم بالالتزام بها ، وفى سنة ١٠٦٠ كان يتعين على من يفكر فى العصيان ضد الدوق من السادة الاقطاعيين النورمان أن يتحسب لمجابهة الهزيمة الساحقة ، وفقدان أملاكه ، فضلا عن إدانه الكنيسة له .

وباكتمال بناء السلطة الدوقية بات وليم حرا فى البحث عن ميادين جديدة للغزو والانتصار، إذ كان وراءه جيش كبير ، ومجموعة من النبلاء العدوانيين تحدوهم الرغبة فى البحث عن متنفس يرضى تعطشهم للقتال وجوعهم للأرض على حد سواء . ومن ثم شرع وليام، عند منتصف القرن الحادى عشر ، فى تحويل اهتمامه إلى مايجرى من أحداث عبر القنال الانجليزى ، وبدأ يخطط فى كيفية الفوز بالعرش الانجليزى . فقد كان ، الموقف فى انجلترا يمثل تنقاضا دراميا مع الموقف السائد فى نورماندیا ، إذ أن سلطة الملكية الأنجلو سكسونية المتأخرة كانت آخذه فى التلاشى أمام السيادة الاقطاعية Lordship الآخذة فى الصعود ، فقد استولى كبار السادة الاقطاعيين على الاقطاعات الضخمة كما تحكموا فى المؤسسات القانونية والإدارية والمالية الملكية فى أقاليمهم ، وكانت نورماندیا بلدا صغيرا

فقيرا قليل السكان بالمقارنة مع انجلترا ، بيد أن الدوقات النورمان نجحوا فى التحكم فى جميع موارد بلادهم على حين كانت السلطة العامة فى انجلترا تنتقل إلى الأيادى الخاصة بسرعة كبيرة . كما أن سلطة الملك كانت على حافة التلاشى ، كذلك كان الدوق النورمانى يبدو مجرد دعى حديث النعمة إذا ماقورن بالملك الأنجلو سكسونى ، سليل بيت وسكس -Wes sex الذى تولى حكم انجلترا أو أجزاء منها على مدى خمسة قرون ، ولم يستطع الدوق النورمانى أن يعيد شيئا من مذهب الملكية الثيوقراطية الذى ساد انجلترا منذ منتصف القرن العاشر ، إلا أنه مع ذلك كان يمتلك مايفتقر إليه الأنجلو سكسون ، أعنى المؤسسات الفعالة ، والشخصية القوية ، والكفاية العسكرية ، وهذا المزيج من الصفات الايجابية كان علامة على منعطف جديد فى طريق تطور الملكية فى العصور الوسطى .

٣- الامبراطورية الأوتوية

فى شرق الراين لم تكن المؤسسات الأقطاعية تتضمن قواعد التنظيم الاجتماعى ، كما كان الحال فى فرنسا . ذلك أن البنيان السياسى والاجتماعى للملكية الكارولنجية الشرقية كان ما يزال رهن التقاليد الجرمانية الأصلية ، فقد اعترفت كل قبيلة من القبائل المختلفة ، أو "الأفخاذ Stems" كما كان يطلق عليها - وهى الفرنجة السكسون ، السوابيون ، الآفار ، اللوثرنجيون ، الثورنجيون - بزعامة محارب كبير من القادة الذين استطاعوا الحصول على لقب دوق الادارى ، وحولوه إلى لقب دال على التفوق الاجتماعى إبان الفترة الكارولنجية . وكان يلى دوقات القبائل فى السلم الاجتماعى مجموعة صغيرة من النبلاء الكبار ثم تتلوهم جماهير الفلاحين الأحرار . أما فى الجنوب والغرب فكانت علاقات الضيعة الاقطاعية -Manori alism ، ومبدأ السيادة الاقطاعية Fuedal Lordship تشق طريقها إلى الوجود ، ولكنهما اتخذتا شكلا جنينيا محدودا للغاية بحيث لم يكن لظهورهما أى تأثير على السلطة السياسية، وكان قادة المجتمع الجرمانى هم دوقات القبائل ، وكبار النبلاء والأساقفة ومقدمى الأديرة الألمانية ، كما كان لرجال الكنيسة تأثيرهم بفضل سيطرتهم على مجال التعليم بأسره ، وعلى قدر كبير من ثروة البلاد المرتبطة بالأرض الألمانية ، وذلك لأن الأديرة الكبيرة ، التى كان بونيفاس وأتباعه قد شيدوها فى وديان الانهار فى المنطقة التى تعرف الآن باسم المانيا الغربية، كانت بمثابة الطلائع التى مهدت للتوسع الكارولنجى بعد أن قام الرهبان بتنصير الناس ، وتأسيس مراكز التعليم والحضارة ، كما أوجدوا الكنيسة الألمانية . وبعد أن كان ذلك قد تم بالفعل بدأ الملوك الفرنجة يمارسون الحكم بصورة فعالة فى مناطق شرق الراين .

ألمانيا سنة ١٠٠٠ ميلادية

المملكة الألمانية

الإمبراطورية الرومانية المقدسة

بحر الشمال
البرميون
بوميرانيا
جنيسين
دوقية بولندا
بريمن
دوقية سكونيا
دوقية
مستعمرات الشرق
الإمبراطورية الرومانية
كونتية النلاندرز
مملكة اللورين الأدنى
دوقية فرانكونيا
براغ
دوقية بوهيميا
أولنز
مورافيا
دوقية اللورين الأعلى
الدانوب
فينا
دوقية سوابيا
دوقية بافاريا
بودا
مملكة هنغاريا
بيانكون
مملكة برجنديا السفلى
دوقية كارنثيا
فيرونا
البندقية
مملكة إيطاليا
مملكة كرواتيا
ليون

ومع غروب شمس القرن التاسع كان الملوك الكارولنجيون قد تحولوا إلى نكرات ، ولم يكن باستطاعتهم أن يقودوا القبائل فى صراعها لصد الغزاة على طول حدودهم . ففى الغرب كان الخطر متجسدا فى الاسكندنافيين ، أما فى الشرق فكان توغل المجريين - وهم غزاة آخرون قدموا إلى أوربا من مناطق وسط آسيا - والسلاف بشكل خطرا داهما على وجود الدوقيات الألمانية . وفى سنة ٩١١ مات آخر الملوك الكارولنجيين ، فاختار دوقات القبائل الذين مارسوا المبدأ الانتخابى الجرمانى ، كونراد الأول Conrad I دوق فرانكونيا Franconia ملكا . ولايمكن القول بأن هذا الحدث كان علامة تحول هام فى تاريخ الملكية الألمانية ، فلم يكن كونراد قادرا على ممارسة أى سلطة على الدوقات القبليين الذين بقوا على استقلالهم ، وحين مات كونراد فى سنة ٩١٨ انتخب الدوقات هنرى الأول الصياد Henry I the Fowler دوق سكسونيا الذى كان أكبر مناوئى كونراد ، ملكا . وقيض لأسرة هنرى ، التى عرفت فيما بعد بأسم أسرة أوتو Ottonians ، أن تحكم فى ألمانيا على مدى أكثر من قرن من الزمان ، ومن ثم فان بداية حكمه تعتبر دائما هى البداية الحقيقية للملكية الألمانية . ولكن الحقيقة أنه لم يكن أكثر توفيقا من سلفه ، وعندما تولى أبنه أوتو الأول Otto I العرش سنة ٩٣٦ لم تجد الملكية الألمانية المؤسسات أو الايديولوجية التى تمكنها من السيطرة على كبار الدوقات . والواقع أن دوق بارفاريا كان يحاول أن يربط دوقيته بلمبارديا ، وهو الأمر الذى كان سيجعله أقوى منه لو ربط نفسه بالدوقات السكسون ، والذى كان كفيلا بالقضاء على أى قدر من الوحدة تتمتع به المملكة الألمانية .

لقد تم بناء الملكية الألمانية على يد أوتو الأول الكبير (٩٣٦ - ٩٧٣) ، وقد صاغ السياسة التى بيت النية على إتباعها فى الطريقة الرمزية الواعية التى تم بها تتويجه. فقد أصر على أن يتم مسحه بالزيت المقدس وتتويجه على به كبير أساقفة مينز Mainz وهو الذى كان كبير أساقفة الكنيسة الألمانية وهو الذى كان كبير أساقفة فى آخن Aachen عاصمة شارلمان القديمة . وبذلك كان يعنى أنه يربط نفسه بالكنيسة الألمانية القوية . وكان يقصد أن يفيد من أيديولوجية الملكية الثيوقراطية . لقد كان أبوه يخشى الأساقفة ومقدمى الأديرة الأقوياء ، كما رفض أن يتم تتويجه على يد أى من رجال الكنيسة ، أما أوتو فقد عقد العزم على أن يضع الكنيسة تحت سيطرته ، وأن يستخدم مواردها ورجالها فى سبيل إرساء الأسس التنظيمية للسلطة الملكية فى ألمانيا . ولم تكن هناك طريقة أخرى كان يمكن للملكية الألمانية بواسطتها أن تحصل على الثروة والدعم العسكرى والادارى اللذين تحتاج إليهما لكى تتمكن من التغلب على قوة الدوقات القبليين الوطيدة . وكان رجال الاكليروس الألمان على استعداد

للتعاون مع الملك الذى كان يقدم لهم الحماية ضد النبلاء ، ويغدق الهبات السخية على المؤسسات الكنيسة ، فضلا عن اتاحة الفرصة لرجال الكنيسة للخدمة فى مجلسه الاستشارى وتولى وظائف الوزراء الملكيين .

ومن الممكن أن نحدد ثلاثة أسس تنظيمية قامت عليها سيطرة أسرة أوتو على الكنيسة . وأهم هذه الأسس هو النظام الذى اصطلح منتقدوه فى أواخر القرن الحادى عشر على تسميته بالتقليد العلمانى Lay investiture والذى كان يشار اليه حتى ذلك الحين باسم "التقليد الملكى للكنائس" . فقد كرس الملك حق تقليد الأساقفة ومقدمى الأديرة برموز مناصبهم ، ووجد التأييد النظرى لهذا الزعم فى خاصيته كملك مسح بالزيت المقدس (أى باركته الكنيسة) . وبدون التقليد الملكى لم يكن الأسقف أو مقدم الدير المنتخب يستطيع تولى مهام منصبه ، فقد كان الهدف هو اتاحة الفرصة للملك للتحكم فى عملية انتخاب كبار رجال الكنيسة ، وفى سبيل المزيد من الضمانات لسيطرة الملك على التعيينات الكنيسة ، كانت فروض الطاعة التى يقدمها الكنسيون مرتبطة بالتقليد العلمانى لدرجة أن الأسقف أو مقدم الدير المنتخب لم يكن يستطيع أن يحوز الأملاك المرتبطة بمنصبه الا بعد أن يصير فصلا اقطاعيا للملك . وفى ظل هذه الظروف تحولت الانتخابات الكنسية إلى مجرد شكل رسمى داخل الامبراطورية الأوتوية ، فقد كان الملك يملأ المناصب الكنسية بأقاربه ، وبالكتاب الموالين العاملين فى مجلسه الاستشارى ، والذين كان يعينهم أيضا على رأس الأديرة الالمانية الكبرى .

وقد تدعمت سيطرة أوتو على الكنيسة بفضل استمرارية الافكار القانونية الجرمانية المتعلقة بالملكية والتى كانت بمثابة الأساس الذى قام عليه نظام الكنائس الامتلاكية Eigenkirchen، ولم يكن هذا النظام قاصرا على ألمانيا بأى حال من الاحوال ، وإنما وجد فى شتى أنحاء أوربا فى النظام المعروف باسم Advowson [٢] ، ولكن نظام الكنائس الامتلاكية لم ينل أهمية كبرى سوى فى الامبراطورية الألمانية إبان القرنين العاشر والحادى عشر ، وذلك لأنه صار أحد الأسس التى تستند اليها السلطة الملكية . فقد كان القانون الألمانى يشترط أن يكون أى بناء يقام فوق أرض أحد الملاك ، من حق هذا المالك بقوة القانون ، بما فى ذلك البنايات الكنسية . وهكذا كان بمقدور ملاك الأراضى التى قامت عليها الكنائس والأديرة أن

---

(٢) يعنى هذا النظام حق صاحب الأرض فى التقدم إلى منصب كاهن الابرشية والتمتع بالدخل المرتبط بهذا المنصب من أوقاف الكنيسة . (المترجم)

يمارسوا دور السادة الاقطاعيين ويعينوا الموظفين الكنسيين من لدنهم ، ولم يكن هذا أمرا مهما اذا ما كانت الكنيسة كنيسة صغيرة ، الا أن أهميته كانت تبدو واضحة إذا كان الأمر يتعلق بدير كبير يمتلك ضياعا واسعة . وقد استحوذ ملوك أسرة أوتو على حقوق امتلاكية على أسقفيات وأديرة ألمانيا بفضل هباتهم للكنيسة من جهة ، وبفضل وسائل أخرى ، أكثر عنفا ، من جهة أخرى ، مما ترتب عليه أن صار من حقهم تعيين الأعضاء الهامين من كبار رجال الاكليروس كما تمكنوا بذلك من السيطرة على دخل الكنيسة ومواردها .

أما الأساس التنظيمى الثالث الذى قامت عليه سيطرة أسرة أوتو على الكنيسة الألمانية فكان هو نظام الوصاية Advocacy، فقد كان الوصى Advocate رجلا علمانيا يتولى إدارة الضياع المملوكة للكاتدرائية أو الدير ، مما يتيح له فرصة الاستحواذ على جزء كبير من الدخل، وجانب كبير من حقوق السيادة الاقطاعية على الناس فى الضياع الكنسية ، وكانت أسرة أوتو حريصة كل الحرص على تجميع غالبية حقوق الوصاية فى يديها .

وبمنتصف القرن العاشر كانت ثروة الملكية الالمانية وقوتها العسكرية تنمو بمعدل متزايد نتيجة لهذه الوسائل التى استخدمت لاحكام السيطرة على الكنيسة . ومن المعلوم أن نصف الجيش الألمانى الذى استخدمه أوتو فى ايطاليا سنة ٩٨١ كان مجندا من الأراضى الكنسية . كذلك استخدم أوتو كبار رجال الاكليروس فى جهازه الإدارى على نطاق واسع ، ولم يكن استخدامهم قاصرا على المجلس الاستشارى الملكى وحده ، وفى أحيان كثيرة تمتع مقدمو الأديرة بسلطة الكونتات ، كما أنيطت بهم مهام كبيرة فى الإدارة المحلية لصالح الملك ، ولم يجد أوتو صعوبة فى إخضاع الدوقيات القبلية ، بما فيها اللورين . وبحلول سنة ٩٥٥ صار أوتو هو المتدخل فى كل شئون الشمال الايطالى ، التى اتسمت بالفوضى ، بفضل زواجه من اديلاد Adelaide التى كانت "ملكة" ايطالية ، وقد إدعى لنفسه الحق فى التاج اللمباردى .

لقد كانت تلك السنة منعطفا هاما فى مسار حكم أوتو ، فقد ألحق هزيمة نكراء بالمجريين فى معركة ليشفيلد Lechfeld وصار بطل الغرب الأوربى ، كما بدا فى عيون النبلاء الالمان أنه قد جعل من زعمه بأنه خليفة شارلمان حقيقة واقعة . وفى الميدان الذى شهد انتصاره على المجريين رفعه كبار السادة الاقطاعيين على دورعهم على الطريقة الجرمانية وأعلنوه إمبراطورا، وبعد ذلك بعدة سنوات ، أى فى سنة ٩٦٢ ، ذهب أوتو الى روما وهناك توجه البابا امبراطورا.

انخرط المؤرخون الألمان المحدثون فى نقاش كبير حول ماهية الدوافع الكامنة وراء التتويج الامبراطورى لأوتو . ومن الواضح أن هناك عوامل عديدة كانت وراء ذلك . منها رغبته فى أن يخضع المملكة الوسطى القديمة لسلطانه ، ولاسيما مناطق اللورين وشمال ايطاليا ، كما أنه كان بحاجة إلى اللقب الإمبراطورى حتى بعد السند القانونى لمزاعمه فى هذا الخصوص . لقد ركز أوتو اهتمامه على الشمال الايطالى بشكل خاص ، وكانت أحوال تلك المنطقة نهبا للفوضى ، كما أنه كلن يريد أن يفرض على دوقات الجنوب الألمان أن يقوموا بمحاولات جديدة لغزو لمبارديا . وثمة دافع آخر تمثل فى حاجته إلى احتذاء خطى شالمان قدر المستطاع حتى يقوى من الأساس القانونى لسيطرته على الكنيسة الألمانية . أما السبب الثالث وراء إرتداء أوتو التاج الامبراطورى فقد تمثل فى الخوف من تجديد اللقب الامبراطورى واحيائه خارج المانيا على يد الملك الفرنسى أو أحد الدوقات الفرنسيين . وثمة موضوع آخر ، حبذه المؤرخون الألمان بشدة فى ثلاثينيات القرن العشرين ، وهو رغبة أوتو فى الحصول على اللقب الاميراطورى حتى يتسنى له أن يكون الزعيم المعنوى للتوغل الالمانى فيما وراء نهر الألب Elbe . هذه الدوافع جميعها أو معظمها ، ترتبط بالتتويج الامبراطورى لأوتو ، ولكن مهما كانت طبيعة الأسباب الخاصة التى أدت إلى إحياء أوتو اللقب الامبراطورى ، فقد كان ذلك هو التداعى الطبيعى لمركزه كأقوى حكام أوربا وأبرزهم . فقد كانت تحت إمرته أكبر قوة عسكرية شهدتها أوربا منذ شارلمان ، كما كان ملكا ثيوقراطيا يفرض سيطرته على الكنيسة داخل مملكته ، فضلا عن أنه كان ، فى نظر المجتمع الجرمانى ، المحارب البطل . هذه السجايا والميزات جعلت أوتو يبدو ، أمام نفسه وأمام معاصريه على السواء خليفة جديرا بخلافة شارلمان ، واذا كان شارلمان إمبراطورا ، فينبغى أن يصير أوتو إمبراطورا هو الآخر ، لقد كان لقبه الإمبراطورى تكريسا لحكمه على المانيا وشمال ايطاليا .

لم يكن ثمة شيء رومانى فى مفهوم أوتو عن اللقب الامبراطورى ، وقد صب مؤرخو الملكية الألمانية Kleindeutsch فى القرن التاسع عشر لومهم على الملك السكسونى لأنه أوقع الملكية الألمانية فى شباك سحر ايطاليا الخطير الموهن ، بيد أن أتو لم يكن يقضى فى ايطاليا سوى أوقات قليلة ، بل إنه لم يبذل أى جهد فعلا للمشاركة فى انقاذ البابوية من النشاط الهدام الذى كان النبلاء الرومان يقومون به ضدها . لقد كان أوتو الكبير جنديا صعب المراس وادرايا حازما كما كان ذكيا بالقدر الذى جعله يفيد من الأيديولوجية ، الا أنه لم يكن من ذلك الطراز من الرجال الذين تلهمهم الأفكار . وعلى أية حال فانه سقط فريسة النزعة الوصولية حين اراد أن يحصل على اعتراف المجتمع بوريثه ، وكان الاعتراف الوحيد الذى يبدو مناسبا لابن الامبراطور الألمانى هو الزواج من أميرة بيزنطية . وفى بداية الأمر رفض البيزنطيون أوتو

باعتباره بربريا حديث النعمة ، الا أنه عندما تغيرت الأسرة الحاكمة سمح الامبراطور البيزنطى لإبن أوتو بالزواج من واحدة تنتمى له بصلة القربى من بعيد (٣) . وكان زواج أوتو الثانى فاتحة نمط من السلفية السياسية التى تميزت بها الإمبراطورية الكارولنجية بعد شارلمان . وتحت تأثير زوجته البيزنطية حول انتباهه إلى بناء سلطة فعالة فى جنوب الألب ، وقد أتاح أوتو الثانى للسلاف فرصة تدمير المستوطنات الألمانية فى شرق نهر الألب ، على حين قام جيشه فى حمله فى جنوب ايطاليا ، حيث لقى حتفه وهو يحارب ضد المسلمين فى سنة ٩٨٣(٤).

وخلال حكم أوتو الثالث (٩٨٣ - ١٠٠٢) أبن أوتو الثانى ، توطدت العلاقة بين الامبراطورية الألمانية وروما ، وأهملت سياسة أوتو الأول إهمالا تاما . وبفضل قوة المؤسسات التى أوجدها أوتو الكبير لم يحدث إنهيار الملكية الألمانية فى عهد حفيده ، ذلك أن أوتو الثالث ارتقى العرش وهو طفل ، وحتى سنة ٩٩٥ كانت أمه البيزنطية ثيوفانو هى التى تحكم الامبراطورية ، ثم أعقبتها جدته أديلاد Adelaide ، وخلال السنوات السبع التى قضاها أوتو الثالث فى الحكم لم يذهب إلى ألمانيا الا نادرا ، ولكنه كرس نفسه لتحقيق وانجاز خطة طموحة لبناء امبراطورية تكون روما مركزا لها . وكانت هذه الخطة نتيجة للنفوذ والتأثير الذى أحدثه فى نفس الأمبراطور الشاب مدرسه الفرنسى جربير الأورياكى Cerbert d'Aurillac ، الذى كان قد درس فى أسبانيا الاسلامية وصار واحدا من أعظم علماء عصره ، وكان جربير وغيره من رجال الكنيسة ممن احتلوا مكانة وطيدة فى بلاط أوتو الثالث يتحدثون عن "تجديد الامبراطورية الرومانية". وقد استطاع جربير أن يكسب أوتو الثالث الذى كان شابا سريع

---

(٣) عندما اعتلى عرش الامبراطور البيزنطية الامبراطور حنا الأول (٩٦٩ - ٩٧٦) أراد تصفية موقف سوء التفاهم القائم بين الامبراطورية الألمانية عن طريق المصاهرة . وبالفعل تمت الموافقة على زواج أوتو الصغير ولى العهد الألمانى من الأميرة ثيوفانو Theophano ابنة رومانوس الثانى امبراطور بيزنطة الاسبق على أن يكون الصداق الذى تقدمه العروس لزوجها الممتلكات البيزنطية فى ايطاليا ، وتم هذا الزواج فعلاً سنة ٩٧٢ ، أنظر : سعيد عاشور ، أوربا العصور الوسطى ، ٣ج١ ص ٢٩٤ ص ٢٩٥ . (المترجم)

(٤) فى سنة ٩٨٢ ، وإبان الصراع بين المسلمين وجيوش الأمبراطور ، نصب المسلمون كمينا للقوات الامبراطورية بالقرب من خليج كولون Colonne ومزقوها شر ممزق ، وهرب الامبراطور نفسه بصعوبه ، وفى الوقت نفسه جاءت الأخبار بارتداد السلاف إلى الوثنية وقتلهم لبعض رجال الكنيسة . فعقد الامبراطور أوتو الثانى مجمعاً فى فيرونا سنة ٩٨٣ وقرر المجتمعون التضامن تحت زعامة الامبراطور لشن حرب ضد المسلمين، وفى غمرة الاستعداد لهذه الحرب مات الامبراطور فى نهاية هذه السنة ، ودفن بكنيسة القديس بطرس فى روما . (المترجم)

التأثر إلى جانبه ، وأقنعه بخططه لبناء إمبراطورية رومانية جديدة تكون روما فيها مركز العالم الغربى مرة أخرى ، وبناء على ذلك اتخذ أوتو الثالث روما مركزا لاقامته ، كما أقام جربير على العرش البابوى تحت اسم سيلسفستر الثانى Sylvester II . وكان المقصود أن تكون هذه اللحظة أهم لحظة فى تاريخ الامبراطورية الرومانية منذ عصر قسطنطين ، فقد كانت المسكوكات ، والمخطوطات المصورة والأشعار التى خلفها لنا بلاط أوتو الثالث كلها تدعو إلى ايديولوجية امبراطورية مركبة متشابكة تفوق السلفية السياسية التى عرفتها الفترة الكارولنجية المتأخرة . فقد كانت مدينة روما ترمز إلى وحدة العالم السياسية ووحدة الكنيسة فى رأى واضعى النظرية الامبراطورية فى بلاط أوتو الثالث . وثمة وثيقة ترجع إلى عهد أوتو الثالث امبراطور الرومان ، كلماتها : "نحن أوتو ، عبد الحواريين ، وأوغسطس إمبراطور الرومان ، بمشيئة السيد المخلص ، نعلن روما عاصمة العالم ، ونعتز بأن الكنيسة اللاتينية هى الكنيسة الأم لجميع الكنائس" . وقد صورت هذه الأفكار فى الرسوم التى تم تنفيذها بمهارة فائقة فى عصر أوتو الثالث ، وهناك صورة يبدو فيها أوتو جالسا على عرشه وقد أحاط به من الجانبين القديس بطرس والقديس بولس ، وفى صورة أخرى تبدو بلدان أوربا وهى تقدم له الهدايا دليلا على ولائها وخضوعها .

ولم تقتصر خطة جربير على الجانب الايديولوجى ، والفن واحتفالات البلاط فحسب . فقد كانت روما ، باعتبارها رأس العالم ، تستدعى انتهاج سياسات بعينها يمكن اذا نفذت ، أن تكون ذات أثر شامل على تطور أوربا . وكانت أولى هذه السياسات تتضمن خلق امبراطورية فيدرالية كبرى تضم شرق وسط أوربا حتى تتحاشى تجدد الصراع بين الألمان والسلاف . والواقع أن أوتو قام برحلة إلى بولندا لكى يمنح دوق بولندا المسيحى لقبا تشريفيا ، ولكى يضمه الى الامبراطورية الرومانية المجددة ، كذلك تم ترتيب فيدرالى مماثل مع المجر . أما السياسة الثانية التى دفع جربير أوتو الثالث إلى تبنيها ، فكانت فى مجال العلاقات بين البابوية والامبراطورية . فلم تكن البابوية قد لعبت أى دور فى الحياة الأوربية على مدى مايقرب من قرن من الزمان بسبب خضوعها المخزى للنبلاء الرومان ، ولأن البابا سلفستر الثانى كان على وعى بالصراع الذى قد ينشأ بين الامبراطور الألمانى والبابوية فى حالة إحيائها. ومن هذه النظرة لم يكن ينبغى للبابوية أن تدعى لنفسها مزاعم دنيوية ، ولكنها ينبغى أن تصير مؤسسة روحية خالصة ، ولم يكن جربير يعتقد أن هبة قسطنطين هبة حقيقية ، وأقنع الامبراطور بأنها "أكاذيب انتحلها بعض البابوات ونسبوها إلى اسم قسطنطين الكبير".

وفى سنة ١٠٠٢ مات أوتو الثالث ، ولحق به سلفستر الثانى بعد سنة واحدة ، ومعها تلاشى مشروعهما الطموح . ففى السنة الأخيرة من حكم أوتو كان السكسون النبلاء قد أعلنوا عصيانهم بالفعل ، لأن ايديولوجية أوتو الامبراطورية تجاهلت المانيا ، كما كانت تسير فى اتجاه مضاد لمصالحهم . وقد تخلى خليفة أوتو ، وابن عمه ، هنرى الثانى (١٠٠٢ - ١٠٢٤) تماما عن خطط أوتو ، وكرس نفسه لمواصلة تدعيم السلطة الملكية فى ألمانيا . ومن المؤكد أن هذه الوسيلة كانت أكثر واقعية فى معالجة المشكلات التى واجهت الملكية الألمانية من الوسائل التى أتخذها كل من أوتو الثانى وأوتو الثالث . وثمة شك فى أن المؤسسات التى أقامها أوتو الكبير كانت قادرة على اقامة حكم آخر على غرار حكم ابنه وحفيده . وعلى أية حال ، فإنه مما يلفت النظر أن جربير تنبأ باثنين من أكثر الصراعات مرارة وهما : صراع الألمان ضد السلاف ، والنزاع بين الامبراطورية والبابوية . وهناك جوانب كثيرة من خطة تجديد "الامبراطورية الرومانية" تبدو غير ذات نفع وخالية من أى مضمون حقيقى ، الا أن جربير وتلميذه أوتو الثالث أبديا تفهما واعيا لهاتين المشكلتين اللتين كانتا من المشاكل الأساسية رغم أنهما كانتا ماتزالان فى طور التكوين .

لقد كانت الامبراطورية الأوتوية تفسر أحيانا على أنها مجرد استمرار للملكية الكارولنجية، وقد أبرز الدارسون أن ملوك أسرة أوتو كانوا يعتمدون فى سلطانهم على الرابطة التى تربطهم بالكنيسة ، وأنهم استفادوا من مذهب الملكية الثيوقراطية ، كما أنهم زعزعوا الايديولوجية الامبراطورية ، وهذه كلها أفكار ومؤسسات يمكن أن نجدها فى عصر شارلمان وخلفائه . حقا أن أسس الحكومة الأوتوية كانت قد أرسيت بالفعل فى زمن الملكية الكارولنجية ، بيد أن ملوك أسرة أوتو استخدموا هذه السوابق لكى يقيموا على أساسها ملكية ناجحة طويلة العمر ، على حين لم تنتج الجهود الكارولنجية سوى الفشل المرير . ولم يكن ملوك أسرة أوتو مضطرين إلى التعامل مع مثل هذه المنطقة الشاسعة ، كما أنهم لم يصادفوا أية متاعب من جراء التأثيرات اللامركزية التى نجمت عن مبدأ السيادة الاقطاعية . وفضلا عن هذه الميزات الأولية ، فان نجاح الامبراطورية الأوتوية يجب أن يعزى إلى التحكم الصارم فى موارد الكنيسة ، وهو ماكان أوتو الكبير قد بدأه ليصير هو الأساس الذى قامت عليه السلطة الملكية القوية حتى فى غياب الملك ذى الشخصية القوية كما حدث فى ألمانيا إبان عهدى أوتو الثانى وأوتو الثالث ، لقد استطاع الحكام الساليون فى أواسط القرن الحادى عشر أن يبنوا فوق الجازات بنى جلدتهم الأوتويين ، بحيث فاقوا ما حققه الكارولنجيون من قبل ، وأضفوا مزيدا من القوة على الأسس التنظيمية للامبراطورية الألمانية .

والفترة الأوتوية ، التى تعتبر فاتحة التاريخ الألمانى ، تبدو صورة مصغرة لكل تقلبات الأحوال التى شهدتها الحضارة فيما بعد ، ففى الامبراطورية الأوتوية نرى هذا الامتزاج بين الكفاءة العدوانية التى لاترحم من ناحية ، والتعبير عن الأفكار الصبيانية الخيالية من ناحية أخرى ، أو على حد تعبير أحد الكتاب الألمان الوحدة بين الـ Macht والـ Geist وهو الأمر الذى غالبا ما تتميز به الفترة المتأخرة من تاريخ المنطقة الواقعة بين نهرى الراين والألب .

٤- المثال الكونى

كان التداخل بين الكنيسة Cclccsia والعالم Mundus ، والذى اتسمت به الأسس التنظيمية لكل من الامبراطورية الالمانية والدوقية الرومانية قائما إلى حد بعيد على موارد الأديرة البندكية وما تقوم به نشاط . والواقع أن العلاقات بين الكنيسة والملكية فى القرنين العاشر والحادى عشر ، والنظرية المعاصرة فى التمييز بين الكنيسة والعالم ، قد قامت بفضل التعاون الوثيق بنين البندكتيين وزعماء المجتمع العلمانى ، فقد كان النظام الديرى هو حجر الأساس الذى قام عليه التوازن الدولى فى العصور الوسطى الباكرة .

هذا التوازن ، حين صارت أسسه ثابتة وطيدة فى النصف الأول من القرن الحادى عشر ، كان يتميز بخاصية القيم والمثل والأنشطة النابعة من دير كلونى Cluny فى برجنديا والأديرة المنتسبة له . وصار البرنامج الكلونى هو التعبير الثقافى عن النظام العالمى السائد لأنه كان يجسد قيم زعيم الحركة الديرية الغربية فى النصف الأول من القرن الحادى عشر ، إذ كان مقدم دير كلونى هو أكبر رجل دولة فى أوربا فى منتصف القرن الحادى عشر ، وكان الرهبان الكلونيون قد ارتبطوا بحكومة الأسرة السالية الألمانية التى اعتلى أول ملوكها العرش الألمانى سنة ١٠٢٤ . وقد لعب الرهبان الكلونيون دورا بارزا فى بناء الكنيسة النورمانية ، أما دير كلونى نفسه فكان أكبر أديرة أوربا وأكثرها أوقافا ، وأعظمها مكانة وهيبة فقد حاز اعجاب رجال الكنيسة واخلاص العلمانيين ، وكانت الحياة الدينية التى يلقنها تحتل مكانة القلب فى نفوس المتدينين فى مطلع القرن الحادى عشر .

كانت الحياة التى يجسدها دير كلونى فى مجملها ، استمراراً وتكثيفا" للشكل البندكتى الذى وجد فى القرن التاسع ، فقد اكتسبت الحركة الكارولنجية شكلا رسميا من خلال النظم التى وضعت سنة ٨١٧ لتنظيم الحياة الديرية ، وهى النظم التى وضعها بندكت الأنيانى St. Benedict of Aniane الذى كان لويس التقى قد عينه رئيساً" لجميع الأديرة فى المملكة الكارولنجية . وكان هدف بندكت الثانى هو تدعيم القاعدة التى وضعها بندكت الأول ، وأن

يعترف بما طرأ على الحياة الديرية الغربية من تطورات وتغيرات إبان القرون الثلاثة السابقة ، حين أخذت جماعات الرهبان السود على عاتقها القيام بالمهام الاجتماعية الضرورية . فقد تحقق بندكت الأنيانى من أن الرهبان أهملوا العمل اليدوى ، كما أنهم بدلا من ذلك باتوا يتصرفون باعتبارهم وسطاء رسميين للمجتمع العلمانى لدى الرب من خلال صلواتهم وطقوسهم الدينية ، كذلك فإنهم قاموا بمهام تعليمية وسياسية واقتصادية . هذا النمط من أنماط الحياة الديرية هو الذى تميز به دير كلونى إبان القرنين العاشر والحادى عشر .

أما البداية الحقيقية لدير كلونى فكانت متواضعة تماما فى سنة ٩١٠ ، فقد تأسس هذا الدير فى ركن مجهول من برجنديا Burgandy على يد دوق اكويتانيا فى موضع كان يشغله أحد أكواخ الصيد ، بل إن الدوق ترك كلاب الصيد فترة دون أن يفكر فى نقلها حتى يفسح مكانا للرهبان . ومع ذلك صار كلونى هو الدير القائد فى أوربا على مدى قرن من الزمان ، كما صاغ لنفسه نظاما خاصاً به ، وكانت هناك أديرة كثيرة تخضع لمقدم دير كلونى خضوعا مباشرا ، كما أن ديركلونى نفسه أسس عدة أديرة تابعة . كذلك قام عدد كبير من الأديرة التى سبقت دير كلونى فى الوجود بالانتساب إلى دير كلونى واعترفت بزعامة رئيسه ، فقد كان لدير كلونى نفوذ قوى على دير جورز Gorze الكبير فى اللورين ، كما أن الكلونيين أصلحوا دير فليرى Fleury الملكى الفرنسى الواقع على نهر اللوار ثم فرضوا سيطرتهم عليه . كذلك كان تأثير دير كلونى قويا على عملية إحياء الديرية الانجليزية التى قادها سان دونستان St. Dunstan فى أواخر القرن العاشر ، هذا كله فضلاً " عن أن دوق نورماندیا استقدم أحد الرهبان الكلونيين ، وهو مقدم دير ديجون Dijon، لكى يبدأ عملية تطوير وتنمية الكنيسة النورمانية .

ويجب أن تعزى نجاح دير كلونى فى جانب منه إلى حقيقة أن الدير كان محصناً" ضد التدخل العلمانى والكنسى على حد سواء وأنه كان تحت الاشراف المباشر للبابا . وبما أن البابوية كانت ، فى منتصف القرن الحادى عشر ، تعانى من التدهور الشامل ، فإن رهبان دير كلونى كانوا يوجهون مصير جماعتهم بحرية تامة . وقد اختاروا لديرهم سلسلة من الرؤساء اتصفوا بالمهارة والقدرة الفائقة ، كما أنهم كانوا من أصول أرستقراطية عادة ، وتولى أولئك الرؤساء قيادة هذا الدير حتى وصلوا به إلى مكانته البارزة فى أوربا ، وهذه المقولة تصدق بشكل خاص على اثنين من مقدمى الدير توليا رئاسته معظم سنى القرن الحادى عشر وهما : أوديلو Odilo (ت ١٠٤٩) وهوف الكبير Hugh the Great (١١٠٩) . وطالب دير كلونى الأديرة الكلونية وغيرها من الأديرة المستقلة والأديرة المنتسبة إليه أن تلتزم بالقاعدة البندكتية

كما عدلها بندكت الأنيانى . وقد أحرز رهبان كلونى شهرتهم بفضل احتفالاتهم وطقوسهم التى كانوا يمارسونها فى الدير ، فقد كان الملوك والنبلاء فى شتى أنحاء أوربا ، ممن أخذوا تعاليم الكنيسة مأخذ الجد وحرصوا على ضمان الخلاص لأرواحهم وأرواح أقاربهم ، متحمسين لإغداق الأوقاف الضخمة على الدير حتى يرد ذكر أسمائهم فى الصلوات الكلونية . ولكن لم يكن هذا الفرض الصارم للنظام الديرى ، ولاربط هذا النظام بالتدين الشعبى من مكونات رصيد زعامة كلونى للعالم الأوربى فى القرن الحادى عشر . فبينما كان دير كلونى نفسه خارجا عن نطاق أية سيطرة علمانية ، لم يحرص مقدمو الدير على جعل هذا الاستقلال مطلبا أساسيا لسائر الأديرة الكلونية والأديرة المنتسبة إلى كلونى ، بل على العكس من ذلك ، كان الرهبان الكلونيون العاملون فى جميع أنحاء الغرب الأوربى يبدون اهتماما وشغفا كبيرا بالحصول على حماية الملوك والدوقات لأديرتهم ، كما كان مقدم دير كلونى ينظر بعين ملؤها الاحترام والاعجاب إلى أصدقاء الكنيسة الحاكمين فى ألمانيا ، وفرنسا ، ونورمانديا ، وانجلترا وغيرها من الدول فى غرب أوربا .كذلك كان الرهبان الكلونيون تواقين إلى تقديم خدماتهم الاستشارية ولم يكونوا يتحرجون من قبول الهدايا المعتادة مكافأة على هذه الأعمال - أى التعيين فى المناصب الأسقفية ، وقد تقبل الكلونيون انتشار مذهب الملكية الثيوقراطية فى ألمانيا ، بل إن بعضهم شجع هذا الانتشار ، كما أنهم تزعموا حركة تبجيل الحاكم باعتباره حاميا للكنيسة وصديقا لها حتى فى نورمانديا التى لم يكن بها وجود لمثل هذه التقاليد .

وقد دخلت الحركة الكلونية إلى ألمانيا عن طريق برجنديا واللورين فى مطلع القرن الحادى عشر . ومنذ البداية كان موقف الحكام الألمان مشوبا بالتعاطف إزاء نشر الحركة الكلونية فى ألمانيا ، وكان كونراد الثانى Conrad II (١٠٢٤ - ١٠٣٩) ، أول ملوك الأسرة السالية ، جنديا خشن الطباع ، واداريا فذا ، فاستغل رجال الكنيسة الألمانية شر استغلال ، بيد أنه كان يحبذ انتشار الحركة الكلونية فى ربوع مملكته . إلا أن التقدم الكبير فى مدى النفوذ الكلونى فى ألمانيا حدث أثناء عهد ابن كونراد ، هنرى الثالث (١٠٣٩ - ١٠٥٦) ، الذى كان يتصرف باعتباره راعيا وحاميا للحركة الكلونية فى مملكته ، فقد كان هنرى قد تزوج من إبنة دوق اكويتانيا الذى كانت أسرته قد أسست دير كلونى فى مطلع القرن العاشر ، إلا أن حمية هنرى لصالح الكلونيين كانت قائمة على دوافع أكثر عمقا من مجرد الرابطة التى تربط زوجته بأكبر أديرة أوربا الغربية . ذلك أننا يمكن أن نجد فى شخصية هنرى الثالث وقيمه ومثله العليا ماتراه فى المظهر الخارجى والسلوك الظاهرى لحكام فرنسا وانجلترا ونورمانديا فى منتصف القرن الحادى عشر - أى الحرص على تنصير أوربا تماما . فقد كان زعماء الغرب الأوربى ، وهم تقريبا حكام تلك الفترة ، وكثيرون من النبلاء العاديين ، يأخذون تعاليم الكنيسة مأخذ

الجد بحيث تتحكم فى حياتهم . وكان معاصرو هنرى الثالث يشعرون أنه راهب فى ثياب دنيوية ، كذلك كان ادوارد المعترف Edward the Confessor ملك انجلترا ، الذى كرس قديسا فى فترة لاحقة ، من نفس الطراز . ففى جميع أنحاء أوربا منتصف القرن الحادى عشر كان الملوك والدوقات والنبلاء يشيدون الكنائس ويغدقون الأوقاف على الأديرة . وقيض للاكليروس النظامى (الرهبان) على نحو خاص ، أن يلاقوا من المجتمع العلمانى كافة ضروب الإخلاص والاحترام ، فقد كانت الوساطة أو الشفاعة التى يقوم بها الديريون ضرورية للدخول فى رحاب الرحمة السماوية ، ومن ثم كان النبلاء حين يحسون بدنو المنية يلجأون إلى أقرب دير حيث يموتون وهم فى ثياب الرهبنة ، ولم تكن الهبات تمنح للأديرة من أجل خلاص أرواح أقارب محددين بالاسم ، وإنما كانت تعطى من أجل جميع المؤمنين الأحياء منهم والأموات ، وفى القرن الحادى عشر تم تثبيت يوم عيد أرواح الموتى [٥] فى تقويم الكنيسة .

ولم يكن انتشار روح التقوى بين العلمانيين يعنى ، بأى حال من الأحوال ، أن الملوك والدوقات كانوا على استعداد للخضوع للسلطة الكنسية . فعلى العكس ، أتاح هذا الانتشار المزيد من الأسس العقلانية لسيطرة الملوك على الكنيسة ، لأنه جعل الملوك يشعرون أنهم روحانيون مثل رجال الكنيسة بالضبط . وليست هناك حالة يمكن أن نلاحظ ذلك من خلالها مثل حالة الامبراطور الألمانى هنرى الثالث . فلم يكن مجرد حاكم وراع كبير للتنظيم الكلونى فى ألمانيا ، ولكنه هو نفسه كان به هوى إلى تبنى المواقف الديرية ، فقد كان من أعظم دواعى سروره أن يشارك فى تحويل الذخائر المقدسة (مخلفات القديسين ورفاتهم) إلى مزار جديد ، كما أنه كان ولوعا بإلقاء الخطب التى يعلن فيها العفو عن جميع أعدائه ، وفى الوقت نفسه ، كان يعتقد أنه قد تولى منصبا قدسيا عندما تم تتويجه ، وأن لديه سلطة روحية كاملة تخول له أن يخلع رموز المنصب الكنسى على الأسقف أو مقدم الدير ، كما تخول له أن ينظم شئون الكنيسة . وكان يعتقد أن المسيح يبارك سلطته الملكية كما يبارك عمل القسيس فى احتفال القداس . وباعتباره ممثلا للمسيح على الأرض ، كان هنرى الثالث يشعر أنه مضطر إلى حكم الكنيسة الألمانية ومرغم أيضا على تنظيم أمور البابوية التى كانت فى حال من الهوان وغارقة فى الفضائح على مدى أكثر من قرن من الزمان ، وفى سنة ١٠٥٤ كان هناك ما لايقل عن ثلاثة بابوات يتنافسون على عرش القديس بطرس فى روما ، وكانوا من سلالة النبلاء الرومان المشاغبين الفاسدين . ويعتبر مجمع سوترى Sutri الذى عقد سنة ١٠٥٤ ، والذى دعا إليه وتولى رئاسته هنرى الثالث ، الخطوة الأولى على طريق إصلاح البابوية فى القرن الحادى عشر،

---

(٥) يحل فى الثانى من نوفمبر كل سنة .

وفى مدى عامين عين هنرى ثلاثة من الأساقفة الألمان على عرش القديس بطرس ، وصارت بابوية آخرهم ليو التاسع Leo IX (١٠٤٩ - ١٠٥٤) هى المنعطف الهام فى طريق تطور وتقدم بابوية القرن الحادى عشر .

ولم تكن اهتمامات هنرى الثالث فى مجال التقوى والكنيسة لتحتجب وراء مواصلته للعمل الذى كانت أسرة أوتو قد بدأته ، أو وراء إضافاته إلى الأسس التنظيمية للسلطة الملكية فى ألمانيا . ولأنه كان شخصية قوية ، ومحاربا مقتدرا ، وملكا ثيوقراطيا ، واداريا عظيما ، فإنه كان بمثابة التجسيد الحى للملكية فى العصور الوسطى الباكرة ، فقد جمع كل السجايا والميزات التى تخلق الملكية الناجحة . وقد أدرك هنرى الثالث أن الملكية الألمانية ماتزال بحاجة إلى المؤسسات القوية الثابتة ، كما أدرك أنها ماتزال تعتمد على موارد الكنيسة ، وعقيدتها ، ورجالها بشكل شامل ، وقد توصل إلى نمط جديد من الجندى الملكى والإدارى الملكى فى النظام المعروف باسم المنستر ياليس Ministerialis وهو اصطلاح يدل على الفارس - القن الذى حصل على أفضل تدريب وتجهيز عرفه ذلك الزمان ، ولكنه لم يكن يتمتع بالمكانة القانونية للرجل الحر ، ولم يكن دخوله فى علاقة التبعية الاقطاعية Vassal-age تطوعا أو بإرادته ، وإنما كان اعتماده على سيده اعتمادا كاملا . ولم يكن الفرسان - الاقنان Serf-knights نظاما ألمانيا شاملا ، بل إنهم لم يلعبوا أى دور هام خارج الامبراطورية السالية ، ويبدو أن رجال الكنيسة الألمان هم أول من جندوا الأقنان فى ضياعهم ودربوهم كفرسان ، ولكن هنرى الثالث كان هو الذى جعل من نظام Ministerialis مؤسسة ملكية هامة، فقد استخدم هذا النظام لتوفير حاميات القلاع التى كان يشيدها فى شتى أنحاء الشمال الألمانى ، وكانت خطته أن يوصل سكسونيا بفرانكونيا ، مسقط رأس الأسرة السالية، ويجعل من هذه الدوقيات جزءا من أراضى التاج الدائمة . وهكذا اكتشف هنرى الثالث نمطا جديدا من الأفراد لجيشه ولأجهزة الحكم المحلى ، وفى غمرة اهتمامه بتكوين أراضى التاج الألمانى وضع أسسا سياسية مشابهة لتلك السياسة التى كان ملوك آل كابيه ينتهجونها بنجاح كبير فى آخريات القرن الثانى عشر وإبان القرن الثالث عشر . كما جعل عاصمته عند قلعة جوسلر Goslar الكبيرة فى سكسونيا ، التى كانت تقع بالقرب من مناجم الفضة التى اكتشفت فى عهد أوتو الأول ، ثم انطلق مستخدما فرسانه الكنسيين والفرسان الأقنان - Serf Knights فى عملية اخضاع النبلاء السكسون المتمردين والفلاحين الأحرار لسيطرة الأسرة السالية التامة .

وفى سنة ١٠٥٠ كان يبدو أن مصير ألمانيا السياسى لابد وأن يتأثر بسلطة الحكومة المركزية الآخذة فى النمو ، على نحو ماحدث لنورمانديا . ولم يكن العالم الذى كان فيه دير

كلونى هو القوة الروحية الرائدة يتميز فقط بأنه شهد المرحلة الأخيرة من مراحل تنصير أوربا ، ولكنه أيضا شهد فى كل من نورمانديا وألمانيا تحقيق قدر من التنظيم السياسى والاجتماعى لم تكن أوربا الغربية قد عرفته منذ انهيار الامبراطورية الرومانية الغربية .

لقد اتخذت المثل والقيم والملكية التى سادت فى القرن الحادى عشر شكلا ثابتا تمثل فى طراز المبانى التى اختار لها مؤرخو الفن المحدثون اسم الرومانسك Romanesque وفى وديان الأنهار فى ألمانيا الغربية ، وفرنسا ، وشمال أسبانيا قامت عند منتصف القرن الحادى عشر كثير من الكنائس المشيدة بالأحجار لكى تفى بحاجات الصفوة من الملوك والاقطاعيين ورجال الكنيسة ، وهذه الكنائس التى وصفت بأنها من طراز الرومانسك تكشف عن اختلافات اقليمية ومحلية شديدة فى طريقة بنائها ، إلا أنها ، مع هذا تشترك فى عدة أمور عامة . هذه الأبنية الكنسية تتجه إلى صغر الحجم إذا ما قارناها بالكنائس الفخمة التى شيدت فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر . فقد كانت الكنائس الرومانسك مجرد كنائس صغيرة للهيراركية العلمانية والدينية ، على حين كانت الكنائس القوطية اللاحقة قد صممت على أساسا استيعاب الجماهير فى الصلوات العامة . والأمر الثانى العام بين الكنائس الرومانسك ، هو أنها كانت قلاعا كنسية ، إذ أنها بنيت على أيدى نفس المهندسين والفنانين الذين شيدوا القلاع الاقطاعية فى القرن الحادى عشر ، لقد كانت الكنيسة الرومانسك هى قلعة الرب ، وكانت تعكس الرؤية التى ترى المسيح رئيسا للهيراركية الاقطاعية والملوك الثيوقراطيين . أما الأمر الثالث ، فهو أن الكنائس الرومانسك كانت معتمة من الداخل ، فقد كانت بالحوائط نوافذ قليلة تسمح للضوء بالدخول ، ولم تكن هذه نتيجة التخلف التكنولوجى فحسب ، وإنما كانت أيضا من نتائج الشخصية الخاصة لهذا النوع من بيوت العبادة باعتبارها مكانا للصفوة. وأخيرا فإن الطراز الرومانسك يتميز بوفرة الزخارف والتماثيل ، التى تتميز بسماتها الفردية وبكونها أقل عالمية من الطراز القوطى الذى شاع فى القرن الثالث عشر ، ومرة أخرى تعكس هذه الخاصية الشخصية الخاصة التى تمثل الصفوة وهى الخاصية التى يتميز بها الفن الرومانسك . بيد أنها تكشف أيضا عن ازدياد الوعى بالذات وعن الثقة التى سادت فى العالم الكلونى فى منتصف القرن الحادى عشر . وباعتبار الكنائس الرومانسك المشيدة بالأحجار الأساس الذى تقوم عليه الهندسة الانسانية ، فانها تعد علامة على التقدم المذهل الذى فاق الكنائس الكارولنجية بكثير . وفى حوض الراين وجنوب فرنسا ، وشمال أسبانيا لاتزال معظم هذه المبانى قائمة كآثار تشهد على العقلانية ، والتقوى والثروة ، والسلطة العامة النامية – وهى كلها أمور تميز بها عصر هنرى الثالث ، كما تشهد أيضا على قيادة دير كلونى للحياة الثقافية فى أوربا .

الفصل العاشر

بيزنطة والعالم الاسلامى والغرب

١- مواطن الضعف فى الحضارة البيزنطية والحضارة الاسلامية

فى ستينيات القرن العاشر أرسل الامبراطور الألمانى أوتو الأول اسقفا من لمبارديا ، هو لويدبراند الكرعونى Liudprand of Cremona فى سفارة الى القسطنطينية للبحث عن عروس من الأميرات البيزنطيات لابنه . ولم تنجح هذه السفارة ، ولكن لويدبراند ترك تقريرا عن خبراته أثناء هذه السفارة صور فيه رؤيته التوضيحية من داخل العلاقات بين الحضارة الأوربية التى كانت ماتزال فى طور حداثتها ، وحضارة البحر المتوسط العريقة الثرية . فقد كان البيزنطيون يعتبرون الألمان برابرة همج من محدثى النعمة ، كما كان لويدبراند نفسه مدركا لحقيقة انه لم يكن هناك شىء فى الغرب يمكن أن يتشابه ، ولو من بعيد ، مع ثروة القسطنطينية ورفاهيتها ، وتعين عليه أن يعوض شعوره بالنقص بأن يصم البيزنطيين بأنهم مخنثون فاسدون، يعيشون على أمجاد عصر غابر . وقد رسم صورة لبطله أوتو يبدو فيها رجلا شجاعا أمينا ، على حين صور الامبراطور البيزنطى فى صورة الجبان الملتو . ويعكس التقرير الذى كتبه لويدبراند عن سفارته المواجهة بين القديم والجديد ، أو المواجهة بين حضارة بدأت لتوها فى تطوير شكلها المميز ، وحضارة وصلت إلى أقصى حدودها . ففى منتصف القرن العاشر كانت المقارنة بين حضارة غرب أوربا من ناحية ، والحضارتين البيزنطية والاسلامية من جهة اخرى ، تكشف عن ان غرب اوربا منطقة متخلفة فقيرة ، وبعد ذلك بمائة سنة بدأت بيزنطة تدخل طريقها الطويل صوب السقوط - كذلك كان العالم العربى قد وصل الى قمة نموه الثقافى والسياسى - على حين كانت أوربا العصور الوسطى على أعتاب عصر الابداع والتقدم ، كما كانت الشعوب اللاتينية قد بدأت توغلها الاقتصادى والسياسى فى عالم البحر المتوسط . هذا التغير الأساسى فى المواقف النسبية لكل من بيزنطة والعالم الاسلامى والغرب يعتبر علامة على نهاية فترة العصور الوسطى الباكرة .

وفى منتصف القرن العاشر دخلت بيزنطة آخر عصورها الذهبية تحت حكم الأسرة المقدونية الذى اتسم بالحكمة والعدوانية معا ، ولاسيما خلال عهد باسيل الثانى Basil II (٩٦٣-١٠٢٥) فقد تبدت قوة النظام الحكومى ، والاقتصاد ، والحياة الثقافية البيزنطية فى عنفوان قوتها على نحو لم يحدث منذ عهد جستنيان فى القرن السادس . فقد أخمدت الأسرة

المقدونية النزاع الأيقونى ، الذى ظل ناشبا بصورة متقطعة منذ النصف الأول من القرن الثامن، وأخذت برأى الكنيسة الارثوذكسية فى مسألة الصور المقدسة ، كما أن ملوك هذه الأسرة تولوا حماية طبقة الفلاحين من النهب الذى كانوا يتعرضون له من قبل ملاك الأراضى الأثرياء الذين كان هدفهم تحويل السلطة السياسية الى سلطة لامركزية على النحو الذى أودى بالامبراطورية الكارولنجية . وقام باسيل الثانى بالقضاء على قوة البلغار الآسيويين الذين كانوا يضغطون على الحدود البيزنطية فى البلقان ، كما شن هجوما مضادا ضد القوى الاسلامية فى الشرق الأوسط ، واستعاد انطاكية وقبرص وكريت تحت الحكم البيزنطى من جديد ، كما أفاد الامبراطور من سيطرته على تجارة القسطنطينية التى ربما كانت أغنى مدينة فى العالم فى القرن العاشر . هذه الانجازات السياسية والاقتصادية كانت مصحوبة بازدهار ورواج ثقافى أطلق عليه مؤرخو الفن "النهضة المقدونية Macedonian Renaissance ، وقد تميزت المخطوطات المصورة الفخمة بدرجة عالية من الطبيعة الكلاسيكية فى تصورها للشخوص الانسانية .

ولكن العصر المقدونى كان آخر انجازات بيزنطة قبل أن يبدأ الغروب الطويل للحضارة البيزنطية . فقد أدى ظهور مبدأ السيادة الاقطاعية ، بعد الربع الأول من القرن الحادى عشر ، إلى اضعاف سلطة الدولة البيزنطية من الداخل . وفى منتصف القرن الحادى عشر جاءت موجة من الغزاة الآسيويين يطرقون عالم البحر المتوسط ، أولئكم هم الاتراك السلاجقة الذين أجبروا البيزنطيين مرة أخرى على الدخول فى صراع من أجل البقاء ، ومع بداية سبعينيات القرن الحادى عشر كانت الاماكن التى فتحها باسيل الثانى قد عادت من جديد الى المسلمين ، وتعين على الامبراطور اليائس أن يطلب المساعدة من البابوية حتى لاتسقط القسطنطينية .

إن تاريخ بيزنطة عبارة عن دراسة للفشل والاخفاق ، إذ أن الامبراطورية ، التى اتخذت من القسطنطينية مركزا لها ، بدأت حياتها بجميع المميزات المتحصلة من موروثها فى ميادين السياسة ، والاقتصاد والفكر فى الامبراطورية الرومانية فى القرن الرابع ، وباستثناء مجال الفن ، الذى امتاز فيه البيزنطيون ، لم تضف بيزنطة شيئا ذا بال الى هذا الاساس . ذلك أن الامبراطورية الرومانية الشرقية فى العصور الوسطى لم تقدم أية مساهمة هامة فى مجال الفلسفة أو اللاهوت أو العلوم أو الآداب ، وبقيت مؤسساتها السياسية ثابتة فى مقوماتها الأساسية ولم تتغير عن تلك المؤسسات التى كانت موجودة زمن ثيودوسيوس الكبيرفى نهاية القرن الرابع . بينما استمر البيزنطيون يستمتعون بحياة حضرية وتجارية نشيطة ، فإنهم لم يحرزوا أى تقدم أساسى فى تكنولوجيا الصناعة والتجارة يخرج بها عن حدود التطورات التى

تمت فى مدن العالم القديم . وكثيرا ما أنحى المؤرخون المحدثون المتخصصون فى تاريخ الامبراطورية الرومانية الشرقية فى الوسطى باللائمة ووجهوا النقد المرير الى الاتجاه الذى ساد بين مؤرخى القرن التاسع عشر لتصوير بيزنطة كما لو كانت حضارة ذابلة ضامرة . ومع هذا فانه يصعب أن نجد ، خارج نطاق الفن ، أية مساهمة من جانب الشعوب الناطقة باليونانية سواء من خلال الافكار الابداعية أو من خلال المؤسسات والنظم . وربما كانت طبيعة بيزنطة العصور الوسطى غير التقدمية راجعة الى الميراث الشاسع الذى خلفه العالم الرومانى ، والذى ورثه البيزنطيون كما هو . ومن الواضح أن العالم البيزنطى كان فعلا قد وجد الحل لمعظم مشاكله فى مجال الحكم والاقتصاد والفكر الراقى . ومن ثم فإن المهمة التى كرس البيزنطيون أنفسهم لها كانت مجرد مهمة واحدة هى الحفاظ على الكيان المريح المرضى الذى ورثوه . وبطبيعة الحال ، ينبغى أن تعزى جوانب القصور فى الحضارة البيزنطية الى الضغوط الهائلة التى تعرضت لها الامبراطورية بلا انقطاع تقريبا ، منذ القرن السادس فصاعداً، فقد كان على البيزنطيين ان يسخروا كل الموارد التى فى متناولهم لكى يصدوا العرب وغيرهم من الأعداء ، وبهذا أهدروا طاقاتهم على نحو جعل ثقافتهم تتخذ طابع الجمود رويدا رويدا .

ولم يكن توغل الاتراك السلاجقة فى عالم البحر المتوسط نعمة على الحضارة الاسلامية فى القرن الحادى عشر ، فقد كان مستوى الثقافة التركية أقل كثيرا من مستوى الشعوب المتحضرة الناطقة باللغة العربية فى شرق البحر المتوسط . وقد نتج عن محاولة الاتراك الاستحواذ على السلطة السياسية فى الشرق الاوسط أن انقسم العالم الاسلامى على مدى أكثر من قرن من الزمان ، وعند الطرف الغربى من البحر المتوسط حدث توغل مماثل فى القرن الحادى عشر حين تمكن رجال قبائل البربر البدوية القاطنة فى صحراء شمال أفريقيا من عبور مضيق جبل طارق وفرضوا سيطرتهم على اسبانيا الاسلامية . وهكذا كان العالم الاسلامى عند طرفى البحر المتوسط فى منتصف القرن الحادى عشر يعانى من انتقال السلطة السياسية الى التطهريين المتعصبين الذين لم يكن يعنيهم شىء من الانجازات الرائعة التى أحرزها الفكر العربى ، والذين استجابوا للقيود السنية على الفلسفة والعلوم . وبعد القرن العاشر بات ضعف التراث السياسى العربى اكثر وضوحا ، اذ كانت المؤسسات السياسية الاسلامية القائمة آنذاك هى بالضبط مؤسسات الطغيان والاستبداد الشرقى . ويتميز تاريخ الاسلام السياسى فى أواخر العصور الوسطى بعدم مسئولية الحاكم عن رفاهية الرعية ، كما يتميز بتعدد ثورات القصر التى هى من لوازم هذا النمط من النظام الاسلامى . وقد نتج عن عدم الاستقرار السياسى الذى تفشى فى العالم الاسلامى فى النصف الأول من القرن الحادى عشر أن أهمل نظام الرى فى حوض البحر المتوسط ، وهو النظام الذى عرف طريقه إلى الوجود فى بعض

الأحوال منذ ثلاثة آلاف سنة وقامت عليه رفاهية ورخاء البلاد العربية . ومع ذلك فان العالم الاسلامى لم يكن قد دخل بعد مرحلة التدهور العميق فى سنة ١٠٥٠ ، فقد كان المستقبل مايزال يخبىء له بعض أعظم انجازاته العسكرية والفكرية ، كذلك كان التاجر المسلم مايزال هو المسيطر فى عالم البحر المتوسط فى القرن الحادى عشر، بيد أن أعظم أيام الاسلام كانت قد ولت ، كما أن قوة الحضارة الاسلامية كانت قد بدأت تنزل عن مستواها الابداعى . هذه النقائص التى شابت الحضارة الاسلامية هى السبب وراء عدم قدرة العرب على منع الشعوب الأوربية من التوغل فى عالم البحر المتوسط فى القرنين العاشر والحادى عشر .

٢- صعود أوربا

كان الغرب الأوربى فى القرن العاشر ما يزال منطقة فقيرة متخلفة ريفية الطابع ، وقليلة السكان بالنسبة إلى العالمين البيزنطى والاسلامى . ولكن بينما كان البيزنطيون والعرب قد وصلوا إلى أبعد مدى فى تطورهم الاقتصادى كانت أوربا الغربية تبدأ لتوها ثورة ديموجرافية وتكنولوجية قدر لها أن تحمل العالم اللاتينى ، خلال قرنين من الزمان ، إلى مستوى تجارى وصناعى يفوق فى مداه الانجازات الاقتصادية التى تمت فى أى مكان ، وخلال أية فترة فى العصور الوسطى الباكرة ، بل وربما فى العالم القديم أيضا . فأوربا الغربية فيما بين سنة ٩٠٠ وسنة ١٠٥٠ تتوافق مع المرحلة الثانية من نظرية روستور W.W. Rostow عن مراحل النمو الاقتصادى ، وهو تفسير للتاريخ الاقتصادى نشر سنة ١٩٦٠ ، ووفقا لرأى روستو تكون المرحلة الزراعية التقليدية هى أولى مراحل النمو الاقتصادى ، وهو ماينطبق على شكل الاقتصاد الأوربى فيما بين سنة ٥٥٠ وسنة ٩٠٠ وبعد ذلك يحقق المجتمع الشروط اللازمة "للإنطلاق" إذ تكون "الوسائل الزراعية المتطورة قد حررت المزيد من السكان من ربقة الممارسات الزراعية" و"استخدمت الوسائل التقنية من أجل إيجاد مصدر للتصدير ، كما تم رصد الأموال العامة لخدمات النقل ، والتعليم ومصادر الطاقة" . هذا الوصف يلخص تاريخ أوربا الاقتصادى بين سنتى ٩٠٠ ، ١٠٥٠ وقد كان للتطور فى مجال السكان والتكنولوجيا ، والتجارة والصناعة خلال هذه السنوات المائة والخمسين فضل وجود فترة الانطلاق التى شهدت نموا سريعا فى عدد من القطاعات الأساسية فى المجال الاقتصادى . هذه المرحلة الثالثة التى خلالها "يتم النمو بشكل تلقائى ، وتظهر الاستثمارات الكافية لتحقق الزيادة فى معدل الانتاج بالنسبة الى المستهلكين - هذه المرحلة تنطبق على الاقتصاد الأوربى منذ منتصف القرن الحادى عشر حتى أواخر القرن الثالث عشر .

والمرحلة الثانية من مراحل النمو الاقتصادى ، أى المرحلة التى مهدت ظروف ما قبل الانطلاق صارت ممكنة بفضل التوازن الدولى فى اوربا اوائل العصور الوسطى ، فالنظام السياسى والاجتماعى الجديد ، والتحسن الذى طرأ فى مجال السلم والتنظيم الحكومى الجيد ، وتنصير اوربا ، وانتشار التعليم والذكاء الاجتماعى – كل ذلك خلق مناخا شجع على التفاؤل، والقيام بالمشروعات ، والاتصالات المتطورة ، والابتكارات التكنولوجية . وكانت الحياة الأوربية ماتزال تعانى قدرا كبيرا من العنف بيد أنه كان هناك قدر كاف من السلم والنظام فى مناطق عديدة اتاح للناس أن يسخروا طاقاتهم فى سبيل شىء أفضل من الحرب التى كان الكل يشنها ضد الكل – هذا الشىء هو تحسين احوالهم المادية . وفى القرن العاشر أخذ الشعب الاوربى بوسائل التطور التكنولوجى التى كانت متاحة فى عالم البحر المتوسط منذ قرون سلفت. فقد أتاح استجلاب لجام الفرس والركاب للناس فى اوربا فرصة زيادة استفادتهم من طاقة الخيل ، وقال بعض المؤرخين ان الركاب قد أتاح الفرصة لظهور الفارس الذى يستطيع الوقوف فى الركاب وقذف الحربة ضد خصمه ، ولكن هذا الشكل المتقدم من الفروسية العسكرية لم يظهر فعلا حتى القرن الثانى عشر ، وحتى ذلك الحين كما توضح الرسوم المعاصرة ، كان فرسان العصور الوسطى يقذفون حرابهم الخشبية بسنونها المعدنية بطريقة محاربى الكومانش Comanche فى القرن التاسع عشر . أما الابتكارات فى مجال التحكم فى قوة الخيل ، فقد تركزت أساسا فى نطاق تحسين وسائل النقل فى اوربا القرن العاشر ، كما أن الأوربيين بدأوا يفيدون من قوة المياه على الأرض ، ومن قوة الريح فوق البحر بدرجة أكبر من ذى قبل ، وكان اختراع الطواحين المائية من أسباب تسهيل زراعة الغلال مما ساهم فى توفير المزيد من الطعام ، كذلك استخدمت قوى المياه لتشغيل مصانع نشر الأخشاب بحيث أمكن توفير قدر اكبر من الأخشاب الجيدة اللازمة للبناء ، كما أن تطور الشراع أتاح للسفن العاملة فى تجارة شواطىء المحيط الاطلنطى وبحر البلطيق أن تبحر ضد الريح ، وهو الأمر الذى لم يكن ممكنا باستخدام الشراع المربع القديم . واستخدم الايطاليون ، فى إبحارهم وتجارتهم البعيدة المدى فى البحر المتوسط سفنا بيزنطية الطراز كانت تطويرا لسفن العالم القديم ذات المجاديف .

هذه التغيرات الاجتماعية والتكنولوجية تساعدنا الى حد كبير فى تفسير تزايد عدد سكان أوربا تزايدا مطردا منذ منتصف القرن العاشر ، إذ لم يكن هناك ثمة تغير فى أحوال أوربا فى مجال الطب الذى كان مايزال على بدائيته ، كما لم يطرأ أى تحسن أو زيادة فى متوسط العمر، بيد أن توفر الطعام قد أدى بالضرورة الى تناقص وفيات الأطفال ، ولاح الأمل أمام

جميع طبقات المجتمع فى إمكانية التحكم فى البيئة الطبيعية ، كما كان الأمل يزداد فى حياة أفضل ، وقد أدت الثقة فى المستقبل ، وانتشار تعاليم المسيحية بين جميع الطبقات الى ازدياد احترام قيمة الحياة الانسانية ، كما خلقت مناخا أفضل لوجود الاسرات الكبيرة العدد .

ولاشيء يكشف عن تأثيرات التغير الاجتماعى والتكنولوجى فى غرب أوربا بطريقة أفضل مما يتضح من خلال الأبناء الكثيرين للسيد الاقطاعى ، والفارس ، والفلاح ، وغيرهم من الناس الذين كانوا يبحثون عن حياة أفضل لأنفسهم ، وقد تمكن أحفاد العائلات الارستقراطية أن يحصلوا لأنفسهم على أملاك شاسعة فى اقاليمهم التى كانت السلطة المركزية فيها فى أضعف حالاتها . وبينما انتقل آخرون الى مناطق الحدود أو حتى الى ماوراء البحار سعيا وراء محاولة انتزاع اقطاعات لأنفسهم ، وكان صغار الفرسان يتنافسون مع بعضهم البعض لكى يصيروا أفصالا لسيد اقطاعى ذائع الصيت ، فاذا ما فشلوا فى ذلك راحوا يتبعون النبلاء الطموحين فى مغامراتهم المتجددة بقصد السلب والنهب ، كذلك كانت الفرصة متاحة أمام الفلاحين الفقراء فى القرن العاشر على نحو أفضل من ذى قبل ، وأفضل من الفترة اللاحقة على مدى قرون أربعة على الأقل . لقد كان القرن العاشر هو أعظم فترات استعمار أوربا من الداخل ، أى تحويل بعض المساحات الشاسعة التى تشغلها الغابات وتغطيها المستنقعات إلى أراضى زراعية . فقد تعلم الفلاحون كيف يستفيدون اكثر من الدورة الزراعية ، بأن يتركوا حقلا او إثنين من الحقول المفتوحة فى زمام القرية فى كل سنة لكى تستعيد خصوبتها ، ومن ثم تزيد غلتها ، وفى المانيا كان ابناء الفلاحين الأقوى جسديا ينالون فرصة من نوع خاص لتحسين احوالهم ، وذلك بأن ينخرط بعضهم فى سلك الفرسان - الأقنان Ministerialis وفيه كانوا يترقون حتى يصل الواحد منهم الى رتبة قائد قلعة ملكية .

وفى مناطق عديد من اوربا القرن العاشر ، لجأ بعض فقراء الفرسان والفلاحين الاذكياء الى وسيلة لم يسبق لها مثيل لتحسين احوالهم الاقتصادية ، فقد اقاموا بالمدن وصاروا تجارا وحرفيين . وتبدو عملية ظهور الحياة الحضرية فى اوربا القرن العاشر غامضة بسبب المعالجة التقسيمية التى قام بها هنرى بيرين فى مقالة الرائع "Medieval cities" فقد اصر بيرين فى هذه المقالة ، وفى مؤلفاته الأخرى القيمة ، على أن مدن القرن العاشر نبتت اصلا فى ظل التجارة الدولية . فقد ذكر ان التجار المشتغلين بالتجارة العالمية قد تجمعوا طلبا للحماية فى ظل قلعة ما Burg يملكها أمير علمانى أو أمير كنسى ، وقام أولئك البورجوازيون بتحويل مدنهم إلى مراكز للتجارة العالمية ، وعندما تزايد عدد البورجوازيين بنوا سورا حولهم، ومع نمو

الضواحى بات من الضرورى ، بعد خمسين أو مائة سنة اخرى ، بناء سور جديد . وهكذا استطاع بيرين ، قياسا على الاسوار الباقية فى مدن وطنه بلجيكا ، أن يوضح ان نمو المدن قد تم على شكل دوائر متحدة المركز ظلت تقوم بدورها كمؤشرات دالة على النمو المستمر للمدن التجارية . هذا النموذج المرتب للنمو الحضرى فى العصور الوسطى وجد بالفعل فى اقليم الفلاندرز واراضى الراين ، بيد أنه كانت هناك مدن فى مناطق أخرى من أوربا كانت بداياتها وطبيعتها مختلفة الى حد ما ، فقد كانت معظم المدن الايطالية موجودة منذ العصور الرومانية ولكنها تعرضت للاهمال ونقص السكان على مدى قرون عديدة . وفى القرن العاشر بدأ الناس يتحركون من المناطق الريفية المجاورة الى داخل المدن لكى يعملوا فى التجارة والصناعة ، ومرة أخرى تحولت هذه المدن الى مراكز للحياة الحضارية كانت هناك بعض المدن التى ظهرت فى بداية الأمر من القلاع Burghs ، ثم آل امرها الى أن صارت مجرد مراكز للتجارة المحلية ، وبحلول سنة ١٠٥٠ ظهرت فى شتى بقاع اوربا مدن كانت مجرد قرى كبيرة تسكنها مجموعة من الفلاحين الأثرياء الطموحين فحولوها الى أسواق لخدمة جيرانهم المباشرين . وهناك العديد من المدن الصغيرة فى انجلترا مايزال الشارع الرئيسى فى كل منها يحمل اسم سوق الغلال .

وثمة رجل من رجال الكنيسة الانجليزية فى القرن العاشر حدد لنا ثلاث طبقات فى المجتمع هى : من يحاربون ، ومن يصلون ، ومن يعملون ، ولم يذكر شيئا عن البورجوازيين الذين لم يكن لهم مكان فى البنية التقليدية للمجتمع ، بل إن القانون الجرمانى لم يجعل للبورجوازى دية Wergeld فهل كان البورجوازى رجلاً حراً أم كان غير حر ؟ فى ذلك الحين لم تكن هناك إجابة واضحة على هذا السؤال فى مناطق شمال اوربا ، ولم تستطع المدن أن تحصل على حق إدارة شئونها الداخلية قبل مضى ثلاثة قرون ، وعندها صار الرجل البورجوازى يتمتع بنفس مكانة الرجل الحر فى دوائر المحاكم الملكية والدوقيات ، وعادة ما كان يتم شراء هذه الحقوق بأثمان باهظة يمنح الملك أو السيد الاقطاعى أو الأسقف مقابلها وثيقة للمدينة تتضمن كافة حقوقها وحرياتها .

لقد كان السواد الأعظم فى المجتمع ، آنذاك ، ينظرون بعيون ملؤها الشك والريبة الى مجموعة من الرجال الذين كانت أصولهم متواضعة وغامضة للغاية ، ويكسبون عيشهم بسبل ارتبطت ، بالضرورة بطريدى المجتمع والأجانب من أمثال اليهود والعرب . وبينما كان ملاك الأراضى يستمتعون بعوائد التبادل التجارى والانتاج الصناعى ، التى كان البورجوازيون يعطونها لهم ، لم يكن الملوك والدوقات والأساقفة والسادة الاقطاعيون يرون فى أكثر

البورجوازيين ثراء ندا لهم ، كما أنهم كانوا يرفضون منح شعب المدينة حريته . كان بورجوازيو القرنين العاشر والحادى عشر يتعرضون للضغوط والابتزاز والضرائب الباهظة ، كما كانوا يلقون الكثير من صنوف الامتهان والاحتقار ، وقد أدى هذا إلى اعتماد البورجوازيين على مواردهم الخاصة ، وهو ما أدى إلى التضامن والنظام اللذين كانا من أبرز سمات مدن العصور الوسطى ، ففى القرن العاشر ، بدأ سكان المدن ، الذين كانوا يسكنون المنازل الصغيرة المعتمة على جانبى الشوارع القذرة المليئة بالنتوءات والكسور ، والذين يحيط بهم عالم معاد لايحفل بهم على الاطلاق - بدأوا ينظمون كافة جوانب الحياة الحضرية بكفاءة أخاذة .

وفى أخريات القرن العاشر كانت قد وجدت بالفعل نقابات للتجار والحرفيين فى ايطاليا بل وفى حوض الراين ، وهى النقابات التى نظمت التجارة والصناعة على أسس واعية . وكانت نقابات التجارة تجمعات تضامنية تضم المشتغلين بالتجارة العالمية ، أما النقابات الحرفية فكان يسيطر عليها معلمو الحرف الذين كانوا يضعون أسس تحديد مستوى المنتجات الصناعية ، ويحددون الأسعار ، ويتحكمون تماما فى الصناع والصبيان العاملين فى حوانيتهم . وفى النصف الأول من القرن الحادى عشر اتبعت المدن الإيطالية نظام الكوميون - اى الرابطة التى تقوم على اداء اليمين من قبل اناس تجمعوا سويا لغرض ما - الذى كان معروفا فى المناطق الريفية ، وصار هذا النظام بمثابة الأساس القانونى الذى بمقتضاه تحولت المدن الايطالية إلى جماعات تتمتع بالاستقلال الذاتى ، وبحلول سنة ١٠٥٠ كانت ثمة ملامح عامة من ملامح الحياة فى العصور الوسطى قد تبدت واضحة فى أوليجاركية صغيرة من كبار التجار الذين فرضوا سيطرتهم على نقابات التجار فى كل مدينة ، كما تحكموا فى حكومة المدينة ، وفى مدينة ميلانو ، التى كانت مركزا آخر .

وقد شهدت المرحلة الثانية من مراحل النمو الاقتصادى ، التى كانت اوربا تعانى مخاضها فيما بين سنة ٩٠٠ وسنة ١٠٥٠ ، توجيه بعض المصادر الطبيعية الى التصدير . وكانت المدن الفلمنكية هى التى اكتشفت اول انتاج رئيسى فى التجارة العالمية فى اوربا العصور الوسطى؛ فقد قام الفلاحون فى أواخر القرن العاشر بتجفيف مستنقعات الفلاندرز ، وحين اكتشفوا أن الاراضى التى استصلحوها لاتصلح للزراعة استخدموها كمراعى للماشية ، وكانوا يحصلون على قدر من الصوف يكفى لصناعة أقمشة التصدير ، وعلى أساس هذه التجارة ازدهرت مدينتا جنت Ghent ويبرس Ypres الفلمنكيتان فى القرن الحادى عشر . ويبرزغ شمس سنة ١٠٥٠ ، وجدت أولى طرق التجارة الداخلية ، وكانت هذه الطرق تمتد من الفلاندرز مرورا

بوسط أوربا حتى شمال ايطاليا ، وكان التجار المرتادون لهذه الطريق يرحبون بتبادل بضائع الشرق الفاخر مقابل الأقمشة الفلمنكية ، وكانت أرض اللقاء بين التجار الفلمنكيين والتجار الايطاليين هى بلاد شامبانى Champagne التى كان حاكمها فى القرن الثانى عشر يقيم معرضا سنويا فيها .

أما مدن شمال إيطاليا فقد كونت ثروتها أساسا من دورها فى الوساطة بين التجارة البيزنطية والتجارة الاسلامية . فقد حصل البنادقة ، الذين كانوا من رعايا الامبراطورية البيزنطية فى القرن العاشر ، على امتيازات تجارية خاصة فى القسطنطينية مكنت لهم من أن يصيروا وسطاء تجاريين بين أوربا وبيزنطة . ولم يقنع البنادقة بهذه التجارة ذات الارباح الطائلة، فأقاموا علاقات مع كافة المراكز التجارية الاسلامية فى البحر المتوسط ، وفى العقود الاخيرة من القرن العاشر ، بدأت كل من جنوة وبيزا ، على ساحل ايطاليا الغربى ، تبحث لنفسها عن نصيب من ثروة العالم الاسلامى ، وهو ماتمكنتا من الحصول عليه عن طريق التجارة والقرصنة على السواء . لقد كان للتجار الجنوية والبيازنة فضل جعل وادى الرون جزءا من عالم البحر المتوسط مرة اخرى ، كما كانوا هم أول من بدأوا فى استخدام ممرات جبال الالب كطريق للتجارة مع شمال اوربا .

وفى أعقاب إحياء مشاركة أوربا فى حياة البحر المتوسط الاقتصادية جاء التوغل السياسى والعسكرى خلال العقدين الأولين من القرن الحادى عشر ، ذلك أن الفرسان الفرنسيين الذين تميزوا بطموحهم الشديد وجوعهم للأرض احتذوا خطى التجار الايطاليين فى محاولة للحصول على نصيب من الثروة الاسلامية الاسطورية . وظهر القراصنة النورمان فى صقلية إبان العقد الثانى من القرن الحادى عشر ، وبدأوا صراعا طويل المدى فى سبيل الحصول على ممتلكات خاصة بهم فى جنوب ايطاليا التى كانت تفوق فى غناها احلام الجشع الاقطاعى ، وكذلك انضم مغامرون آخرون من النورمان والفرنسيين الى الصراع الذى كان دائرا فى شمال اسبانيا ضد المسلمين ، هذا التقدم من جانب نبلاء الغرب الأوربى هو الذى قيض له أن يبلغ أوجه فى الحملة الصليبية الأولى سنة ١٠٩٥ .

لم يكن البورجوازيون ، والنبلاء ، والفلاحون هم وحدهم الباحثين عن فرص جديدة فى أواخر القرن الحادى عشر ، فقد بدأ رجال الكنيسة يظهرون قدرا اكبر من الحركة ، فقد ذهب أحد الفرنسيين وعدد من الألمان الى ايطاليا حيث تولوا المنصب الاسقفى هناك ، كما أن أحد النورمان الفرنسيين تولى منصب كبير أساقفة كانتربورى فى انجلترا فترة من الوقت فى

خمسينيات القرن الحادى عشر ، كذلك كان زعماء الحركة الكلونية يتحركون فى جميع أرجاء أوربا يؤسسون الاديرة ، ويقدمون مشورتهم الى الحكام ، أما الامر الذى لم يسبق له مثيل فى كنيسة العصور الوسطى الباكرة فكان ظهور نمط جديد من العالم المتجول الذى كان يجوب الآفاق البعيدة سعيا وراء المناخ الثقافى المناسب ، أو من أجل التتلمذ على واحد من الاساتذة المشهورين ، كما كانت المدارس الديرية الكبرى فى نورمانديا تجتذب باستمرار أشهر العلماء الايطاليين ، وكان آخرون غيرهم يشقون طريقهم صوب المدن الكاتدرائية فى شمال فرنسا وفى اللورين لكى يدرسوا اللاهوت والقانون الكنسى ، بل إن بعض ذوى الهمم العالية كانت شجاعتهم تدفعهم الى السفر الى الأراضى الاسلامية لكى يدرسوا الرياضيات والعلوم فى قرطبة . هؤلاء العلماء المغمورون ، خاويو الوفاض ، هم الذين كانوا يمهدون للصحوة الأدبية الهائلة فى مجال الحياة الثقافية .

وفى سنة ١٠٥٠ ، كانت هناك مجموعات من الناس ، فى كل بلد من بلدان أوربا تتجمع حول نمط ما من المشروعات الجديدة ، فلم تعد أوربا تلهث وراء بيزنطة والعالم الاسلامى بل إنها تجاوزت أعظم إنجازات هاتين الحضارتين ، اللتين كانت الشعوب الناطقة باللاتينية أنذاك تنافسهما فى سبيل الهيمنة على عالم البحر المتوسط ، فى بعض الميادين ، ففى جميع مجالات النشاط الإنسانى كانت ثمة أهداف جديدة يسعى الناس اليها ، وأساليب جديدة يجربها الناس فى أوربا الغربية ١٠٥٠ . لقد تشكلت الحضارة من اتحاد الثقافات اللاتينية والمسيحية والجرمانية ، وبدأت تدخل مرحلة من الابداع والانجازات التى لم يسبق لها مثيل، أما السؤال الذى يبقى فى إنتظار الإجابة ، فهو عما إذا كان النظام الإجتماعى فى ظل التوازن الإجتماعى الذى شهدته العصور الوسطى الباكرة ، والذى كان بمثابة الخلفية التى ارتكز عليها النجاح السياسى والاقتصادى والثقافى ، قادرا على أن يظل سائدا فى العالم المتغير الذى كان فجره وشيك البزوغ .

رقم الإيداع ٩٧/٧٨١٤

الترقيم الدولى I.S.B.N 977 - 54 87 - 68 - 4

دار روتابرينت للطباعة ت: ٣٥٥٢٣٦٢ - ٣٥٥٠٦٩٤

٥٣ شارع نوبار - باب اللوق

التاريخ الوسيط

قصة حضارة البداية والنهاية





للدراسات و البحوث الانسانية و الاجتماعية
FOR HUMAN AND SOCIAL STUDIES